

الْأَخْرَافَاتِ الْعَقَدِيَّةِ

وَالْعِلْمِ

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين  
وأثارهما في حياة الأمة

تأليف

عَلِيُّ بْنُ خَيْسِرٍ الرَّفْعَدِيِّ

تَقْدِيمُ الشَّيْخِ

محمد قطب

## الجزء الثاني



الْأَخْرَافُ الْعَقْدَةُ  
وَالْعَلَمِيَّةُ

جميع حقوق الطبع في العالم  
محفوظة للنَّاشِر

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار طيبة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة - العزيزية - بجوار الجامعة

ت : ٥٥٨٩٠٢٧ فاكس : ٥٥٦٢٩٨٦

# الباب الثاني

الانحرافات العلمية في القرنين  
الثالث عشر والرابع عشر الهجريين



## الفصل الأول

### المستوى التعليمي و مناهج التعليم

انحدر المستوى التعليمي في الفترة التي ندرسها انحداراً خطيراً ، وساءت الحالة العلمية كثيراً ، وكان ذلك بفعل عدة عوامل أسهمت في الواقع السيئ الذي وصل إليه المستوى التعليمي في تلك الفترة ، ولم يكن ذلك الانحدار التعليمي مقصوراً على هذه الفترة التي ندرسها ، وإنما كان امتداداً لانحدار بدأ منذ أزمنة متطاولة شأنه كشأن بقية الانحرافات الأخرى فقد «بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع . . . وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين . . .»<sup>(١)</sup> .

وقد زاد انحطاط العلم في القرن العاشر والحادي عشر ، ودخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد ، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً لا إبداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية تنتقل خلفاً عن سلف ، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و«صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير ، كما قال أحد العارفين بذاك القرن . . .»<sup>(٢)</sup> .

ومع ازدياد حدة الانحرافات التي أصابت الأمة من تصوف وإرجاء وترد في الشرك والبدع والخرافات وغير ذلك ، «وتحت تأثير ذلك كله فقد غفت

(١) خطط الشام ٤٩/٣ .

(٢) المصدر السابق ٥٧/٣ .

الأمة الإسلامية غفوة طويلة امتدت فترة قرنين من الزمن على الأقل إن لم يكن أكثر ، تقابل من تاريخ أوروبا قرنيها الثامن عشر والتاسع عشر قرني الصعود الأوربي نحو السيطرة والتمكن ، والتقدم العلمي والحضاري والمادي . . . »<sup>(١)</sup> .

فبالنسبة لمناهج التعليم «حدث تقلص ضخم ، أبعد بالتدريج - كل العلوم «الدنيوية» من معاهد العلم في ذات الوقت الذي اقتصرت فيه العلوم الشرعية على فكر القرن الخامس على أكثر تقدير ، مع الفارق الكبير بين الأوصالة التي كان عليها فكر القرن الخامس والتقليد الذي تلا ذلك من القرون ، وظل «يتحجر» قرناً بعد قرن!»<sup>(٢)</sup> .

فالانحراف الذي طرأ على مناهج التعليم عند المسلمين كان من جهتين ، من جهة التقلص الذي حدث وذلك بإخراج العلوم الدنيوية من طب وهندسة وفلك وفيزياء وكيمياء إلى خارج المستوى التعليمي لأسباب سوف نتطرق لها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ما أصاب العلوم الدينية من جمود وانغلاق لأسباب أخرى ستتطرق لها أيضاً .

«لقد كان من مفاخر الحركة العلمية الإسلامية . . . أنها تفتحت «للعلم» كله ، وأبدعت في العلم كله ، وكان العالم يكون عالماً في العلوم الشرعية ، وعالماً في ذات الوقت في الطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء بغير تعارض ولا تناقض بين هذا وذاك ، وكانت المعاهد العلمية في الأندلس وغيرها - تلك التي تعلمت فيها أوروبا حين بدأت تخرج من قرونها المظلمة -

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ .



تعلم طلابها كل فروع العلم وألوانه بغير تفريق ، وكانت العلوم «الدينية» من المعالم البارزة في تلك المعاهد إلى جانب العلوم الشرعية ، ومن هناك تعلمت أوروبا المنهج التجريبي في البحث العلمي ، وترجمت ما كتبه المسلمون في الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والبصريات لتتلمذ عليه في بدء نهضتها الحديثة .

ولكن المسلمين «الغافلين» طردوا تلك العلوم تدريجياً من معاهدهم ليققتصروا على العلوم الشرعية ، مع ما في دراستهم للعلوم الشرعية ذاتها من «تخلف» عن الصورة التي ينبغي أن تكون الدراسة عليها . . . »<sup>(١)</sup> .

«وقد ضعف التفكير العلمي وتوقف المسلمون عن السير في كشف سنن الكون، وأعرضوا عن ذلك إعراضاً يكاد يكون تاماً ، فأهملت علوم الكون أو الطبيعة ، بل انتشرت الخرافات والأساطير ، وضعف التفكير في الأسباب ومعرفتها ، حتى إن الأمية انتشرت انتشاراً كبيراً بين المسلمين بعد أن كان الإسلام دافعاً إلى إزالتها ، وإلى نشر العلم والتعليم ، واكتشاف آيات الله في الكون ، وازدهار العلوم الكونية . ومال الناس ميلاً عظيماً إلى ذكر الخوارق والكرامات تعظيماً لمن يعتقدون بهم»<sup>(٢)</sup> .

ونتحدث الآن عن العلوم الدنيوية . ففي أوائل الفترة التي ندرسها كانت أوروبا تواصل صعودها السريع على أكتاف ما تتعلمه من علوم دنيوية (كونية) محاولة السيطرة على العالم الإسلامي الذي كان يتردى في دركات من الجهل والخرافة ، وقد أحس المسلمون بالخطر الأوربي القادم المسلح بالعلوم

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٢) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٥٤ .

الكونية الحديثة ، فوقف الكثير من المسلمين في وجه هذه العلوم الزاحفة ، ومنعوا من تعلمها بحجة أنها خرجت من بلاد الكفار التي لا يخرج منها إلا الكفر والضلال ، وقد ساعد على ذلك الجهل المتفشي في ديار الإسلام ، الذي جعل المسلمين ينفرون من هذه العلوم ، ويستبشعون أخذها عن غيرهم ، ويرون حرمة أخذها أو تعليمها .

وهذا هو الموقف السلبي الذي وقفته كثير من بلاد المسلمين وهو «رفض العالم الإسلامي هذه الحضارة القادمة من بلاد الكفار ، وما جاءت به بتاتاً ، ووقوفها منها موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئاً ، ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوروبيين فيها التفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئاً من الآلات ، والصنائع والأجهزة ، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة»<sup>(١)</sup> .

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى ذلك الموقف السلبي ما حدث في الهند مثلاً التي كانت واقعة تحت الاحتلال الإنجليزي ، حيث قامت «ضجة بين الأوساط الدينية في الهند ، لأن العلوم الوافدة من الغرب كانت لها ثقافتها وأفكارها التي تمثل الحياة المادية البحتة ، وإذا تعلمها طالب ناشئ أول مرة أصابته الحيرة ، ورسخت الأفكار الباطلة الملونة بزينة هذه الحياة الدنيا في ذهنه ، فالأفكار الغربية المادية وجدت عقلية ناشئة ساذجة خالية ، فتمكنت فيها وتغلبت عليها ، ولما شاهد العلماء أن هذه العلوم تفسد أخلاق

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٢ . انظر : مبحث الولاء والبراء في الباب الأول من هذا الكتاب ص ١٣٩ وما بعدها .

الشباب المسلمين ، وتسوقهم إلى الخمر والقمار ، والفساد في العقائد ، قاطعوا هذا التعليم وكافحوا هذه الثقافة . . . واعتزل المسلمون بصفة عامة - التعليم الجديد الأوربي ، فتأخروا في الحياة ، وتخلفوا اقتصادياً واجتماعياً ، أما الشعوب الأخرى في الهند فإنها تقدمت في العلوم الحديثة ، ونالت نصيباً من عزة وكرامة وبذخ وشرف في حياتها الاقتصادية والسياسية»<sup>(١)</sup> .

وهكذا زهد المسلمون في كل ما يأتيهم من الخارج ، ولم يفرقوا في ذلك بين خير وشر ، ونافع وضار ، «وإذا كان أكثر المعاهد المصرية قد تأثرت بالآراء الغربية الحديثة فإن الكثرة الغالبة من علماء الأزهر ورجاله كانوا يفاخرون بأنهم بمعزل عن هذه التيارات الحديثة ، ويزعمون أن إصلاح الأزهر إفساد له وقضاء عليه»<sup>(٢)</sup> ، حتى إن الأمر بلغ بالمجاورين إلى أن رموا الشرطة بالحجارة وأكروههم على الانسحاب من الأزهر حينما أرادوا أن يدخلوه في ٧ يونيه سنة ١٨٩٦م للتحقق من تنفيذ بعض الاحتياطات الصحية التي اقتضاها انتشار الطاعون»<sup>(٣)</sup> .

وقد أدى هذا الانغلاق أمام العلوم الحديثة إلى استنكار الأزهرين القول

---

(١) العلامة «السيد عبد الحي الحسني» مؤرخ الهند ص ٢٨ . د . «قدرة الله الحسني» الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م . دار الشروق . جدة .

(٢) لم يكونوا يرون ذلك إصلاحاً وكانوا يرون أن الأزهر ليس بحاجة إلى مثل تلك الإصلاحات . والجدير بالذكر أن كثيراً من الحركات التي حاولت إصلاح الأزهر كانت مشوبة بالتيار التغريبي ومتأثرة بالهزيمة الروحية في ذلك الزمن أمام الغرب . وسيأتي مزيد من الحديث عن تلك القضية .

(٣) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٤٧ وزارة الأوقاف وشئون الأزهر . دار ومطابع الشعب ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

بأن الشمس تغرب على قوم لتطلع على آخرين<sup>(١)</sup> .

ولا نكاد نبالغ إذا قلنا أن الصوفية كانت من أعظم العوامل التي أدت إلى الاستهانة بالعلوم الدنيوية ثم إخراجها نهائياً ، « فالصوفية التي فرقت بين الدنيا والآخرة ، واتجهت إلى إهمال الدنيا بحجة تزكية الأرواح من أجل الآخرة ، وأهملت بالتالي عمارة الأرض ، على أساس أن الاشتغال بها يثقل الروح ويذهب عنها شفافيتها وطلاقتها ، ومن ثم أهملت كل العلوم المتصلة بتلك العمارة ، واعتبرتها نافلة تستطيع الأمة أن تستغني عن أدائها بلا ضير »<sup>(٢)</sup> .

ومما يذكر أن الشعراني وهو عملاق عصره في التصوف تتلمذ على سبعين شيخاً لا يعرف أحدهم النحو . . . بل كان بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون<sup>(٣)</sup> ، فلئن كانوا قد استهانوا بالعلوم الدينية واللغوية ، فمن باب أولى أن يستهينوا بالعلوم الدنيوية .

وهكذا خلت مناهج التعليم من هذه العلوم الدنيوية ، وأخرجت من معاهد العلم ، وأصبحت المعاهد التعليمية في طول بلاد الإسلام وعرضها نائية عن هذه العلوم .

فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الأول كان مجافياً للعلوم الحديثة من طب وهندسة ورياضة وفلك ونحوه ، حيث إن « مناهج الدراسة بالأزهر كان

---

(١) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ص ٢٣٨ الدكتور « ماجد عرسان الكيلاني » . دار ابن كثير . « دمشق » . « بيروت » . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٧٥ بل لم يتوقف الأمر عند اعتبارها نافلة ، بل لقد تعدى ذلك إلى تحريمها ومهاجمتها كما سنعرف ذلك .

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٤٧ .

خلوًا من علوم الدنيا ، تلك العلوم التي تفيد صاحبها في زراعة أو صناعة أو تجارة أو في غيرها من وسائل الحياة ، وكانت العناية فيه منصرفة إلى تحقیقات لفظية ليس لعامة الشعب فيها غناء»<sup>(١)</sup> .

ويذكر الجبرتي ان الوالي التركي «أحمد باشا» الذي ولى مصر سنة ١١٦١ هـ قال لشيخ الأزهر «عبد الله الشبراوي» كلاماً معناه : إني سمعت عن مصر أنها منبع الفضائل والعلوم ولكن وجدتها كما يقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» لأن «أحمد باشا» قد تحدث مع بعض شيوخ الأزهر في العلوم الرياضية فلم يعرفوا شيئاً فقال له الشيخ «الشبراوي» إن غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض كعلم الحساب . ولأن هذه العلوم تحتاج إلى أدوات وآلات ودقة الرسم وأهل الأزهر فقراء»<sup>(٢)</sup> .

فقد دل كلام الشيخ «الشبراوي» على مجمل النظرة التي كان ينظرها شيوخ الأزهر وتلامذته إلى هذه العلوم وأنهم كانوا لا يتعلمون منها إلا مايساعدهم في حساب الفرائض لا غير ولا شك أن تلك النظرة الخاطئة كانت تدل على قصور في الوعي بشأن أهمية تلك العلوم .

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الشيخ «الشبراوي» عن الفقر الذي يعاني منه أهل الأزهر مما يجعلهم يعزفون لضيق ذات يدهم عن هذه العلوم التي تحتاج إلى المال لشراء الأدوات والآلات اللازمة لتعلمها والإفادة منها .

---

(١) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ١٧ .

(٢) عجائب الآثار ١/ ١٩٢ وانظر : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ١٠-١٢ عبد المتعال الصعيدي مطبعة الاعتماد . «القاهرة» .

يقول «عبد المتعال الصعيدي»<sup>(١)</sup> معلقاً على هذه القصة : «وإن هذا الباشا ليذكر له بالفخار أنه كان أول من شعر بنقص التعليم بالأزهر ولا سيما أنه قد شعر بهذا في عصر خيم الجهل فيه على العقول ، ونام المسلمون فيه نومة أهل الكهف ، حتى صاروا لا يشعرون بنقصهم في العلوم ، ولا يدركون تأخرهم في التعليم ، ولا يقدرّون عاقبة هذا الإهمال من ضياع بلادهم ، ووقوعها لقمة سائغة في يد أم أوروبا التي كانت قد قطعت شوطاً عظيماً في نهضتها العلمية ، وتوشك أن تنقض على البلاد الإسلامية للاستيلاء عليها ، بعد أن وصلت بنهضتها العلمية إلى ما وصلت إليه من القوة ، ووصلت الأمم الإسلامية بتأخرها في العلم إلى ما وصلت إليه من الضعف .

وكذلك يحمد للشيخ «عبد الله الشبراوي» أنه اعترف بذلك النقص ، ولم يجادل في أمر العلوم الرياضية التي أخذ الباشا عليهم إهمالهم لها ، فهو في هذا خير من أولئك الذين جادلوا في أمرها بعده بنحو قرنين ، وثاروا عليها عند دخولها في الأزهر ، وعارضوها باسم الدين ، والدين براء مما يعارضون ...

وكانت فرصة صالحة لإصلاح الأزهر ، اتفق فيها الرئيس المدني والرئيس الديني على نقص التعليم فيه ، فلو تعاونوا على إصلاحه لكان نجاحهما فيه مكفولاً ، ولأدركا الإصلاح قبل أن يفوت أوانه ، فينهض المسلمون قبل أن يأخذهم أعداؤهم في غفلتهم ، ويبتلعوهم لقمة سائغة بسبب جهلهم»<sup>(٢)</sup> .

---

(١) الأعلام ١٤٨/٤ .

(٢) تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ١٣ .

ومن العوامل التي أدت إلى الإعراض عن دراسة العلوم الدنيوية أيضاً ما كان «يرجع إلى قانون العرض والطلب فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيراً ، وقد كانت الوظائف المعروفة إذ ذاك وظائف دينية كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضي ونائبه والمفتي والمحاسب والمدرس . . .»<sup>(١)</sup> .

وقد «أصاب الجمود التعليم في الجامع الأزهر وسائر المعاهد العلمية فأهمل تدريس العلوم الحديثة بالجامع الأزهر وأصبح الاهتمام منصباً على العلوم الدينية واللغوية . . .»<sup>(٢)</sup> .

وليت الأمر وقف عند الإعراض عن تلك العلوم وإهمالها أو الاستهانة بها ، بل لقد وصل الأمر إلى مهاجمتها ومحاربتها وتحريمها بعد أن استبعدت من الأزهر تماماً .

فحين أراد بعض المتصدرين للإصلاح في الأزهر إدخال العلوم الطبيعية والرياضية في الأزهر شعروا بما سيواجهونه في سبيل ذلك من سخط وإعراض «واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية في مسألة العلوم التي يجوز تدريسها بالجامع ، ولا تعتبر العناية بها في أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الإسلامية ، وكلفوا عالماً تونسياً فاضلاً هو الأستاذ «محمد بيرم» أشهر علماء الزيتونة في عصره أن يتوجه بهذا الاستفتاء إلى الشيخ «محمد الأنباي» شيخ الجامع الأزهر يومذاك (١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م) فكتب إليه بعد التمهيد «ما قولكم رضي الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين

---

(١) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٤٥ .

(٢) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ١٣ .

للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ، لا سيما ما ينبنى عليه منها من زيادة القوة في الأمة بما تجاري به الأمم المعاصرة لها في كل ما يشمله الأمر بالاستعداد؟<sup>(١)</sup> .

وقد كان الشيخ «الأنبابي» يعلم مصدر الاستفتاء ، فلم يهمله كما أشار عليه بعض أعوانه . فكتب في جوابه :

«يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية ، لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية ، بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوباً كفاً كما يجب علم الطب لذلك كما أفاده «الغزالي» في مواضع من كتابه الإحياء . وما زاد على الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة في القدر الواجب فتعلمه فضيلة»<sup>(٢)</sup> .

وبعد أسبوعين من صدور هذه الفتوى من قبل شيخ الأزهر «الشافعي»

---

(١) يقول «الغزالي» رحمه الله : وأما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما . وهي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد . وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالزراعة والحياسة والسياسة بل الحياطة والخياطة . إحياء علوم الدين ٢٧/١ .

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله : فأخذ علم الطب من كتبهم (يعني كتب الفلاسفة) مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه بل هذا أحسن . لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بالخيانة ، بل هي مجرد انتفاع بآثارهم ، كالملاسل والمسكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك . مجموع الفتاوى ١١٤/٤ .

(٢) الأزهر : تاريخه وتطوره ص ٢٤٩ . وانظر : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٣٩-٤٣ .



صدرت الموافقة عليها من مفتي الديار المصرية ، وهو حنفي المذهب ، فقال :  
«إن ما أفاده حضرة الأستاذ شيخ الإسلام موافق لمذهبنا»<sup>(١)</sup> .

وهذا الموقف من أغرب المواقف وألمها على النفس ، فبعد أن كانت معاهد المسلمين وجامعاتهم تزخر بهذه العلوم التي كانت تلقى بين جنباتها كما ذكرنا ذلك سابقاً ، أبعدت هذه العلوم رويداً رويداً حتى جاء على الأمة الإسلامية يوم يستفتى فيه عن جواز تدريس هذه العلوم التي لم تكن غريبة على المعاهد الإسلامية في يوم من الأيام .

بل إن نفس الجامع الأزهر كانت تدرس فيه هذه العلوم حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري تقريباً ، فالشيخ «أحمد الدمنهوري» (المتوفى سنة ١١٩٢هـ)<sup>(٢)</sup> شيخ الأزهر ذكر عن نفسه أنه قد درس كثيراً من المؤلفات في علوم الحساب والجبر والمقابلة والطب والفلك والهندسة والجغرافيا والأحياء والجيولوجيا<sup>(٣)</sup> .

والشيخ «حسن الجبرتي» الذي عكف الوالي التركي «أحمد باشا» على مجالسته والاستفادة منه ، بعد أن دله الشيخ «الشبراوي» عليه كان عالماً متبحراً في تلك العلوم<sup>(٤)</sup> .

---

(١) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٥٠ .

(٢) الأعلام ١/ ١٦٤ وقد ذكر «الزركلي» أن «الدمنهوري» له رسالتان في تلك العلوم . الأولى هي «عين الحياة في استنباط المياه» والثانية هي : «القول الصريح في علم التشريح» . غير أن «الدمنهوري» بعد أن ساق المؤلفات في تلك العلوم التي تلقاها على مشايخه ، أعقبها بذكر المؤلفات التي قرأها بنفسه دون أن يكون قد أخذها على شيخ ، وذكر منها الرسالتين السابقتين . فيحتمل أن «الزركلي» قد أخطأ في نسبة الرسالتين إليه . انظر : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٣٠ .

(٣) انظر أسماء هذه المؤلفات في : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٢٩ - ٣٠ .

(٤) عجائب الآثار ١/ ١٩٢ .

ولكن يبدو - والله أعلم - أنها لم تكن على المستوى العام ، وإنما يقوم بدراستها بعض النابغين من ذوي الهمم العالية . وعلى أي حال فإن ما كان يدرس من تلك العلوم لم يكن إلا ما درس في القرون السابقة ، لم يداخله تطوير ولا ابتكار . ومع ذلك فلم يعمل بالفتوى المذكورة إلا بعد مضي تسع سنوات أخرى : ولهذا أيضاً دلالة<sup>(١)</sup> .

وقد كان كثير من علماء الأزهر يرون « أن العلوم العصرية حتى الحساب والتاريخ مضلة للأمة صادة عن سبيل الحق مسجلة عليهم الحرمان من السعادة ، وأن السعادتين الدنيوية والأخروية اللتين حث عليهما الإسلام لا تنالان إلا بدراسة هذه الكتب المطولة في النحو والفقه . . »<sup>(٢)</sup> .

وذكر الشيخ رشيد رضا أن بعض شيوخ الأزهر كالشيخ راضي البحرأوي والشيخ ثابت بن منصور كانوا يرون أنه لا حاجة في الحرب والجهاد إلى معرفة البلاد ولا غيرها من الفنون العسكرية لأن النصر بيد الله يؤتاه من يشاء<sup>(٣)</sup> .

وكل هذه المواقف الأليمة تلقي لنا مزيداً من الضوء على عصور الانحطاط التي عاشها المسلمون .

وهنا لا بد لنا من كلمة موجزة حول إصلاح الأزهر الذي شغل حيزاً لا بأس به من التفكير الإسلامي في العصر الحديث فلا بد قبل كل شيء أن نكون حذرين عند حديثنا عن إصلاح الأزهر ، بل وعما سمي بالإصلاح والحركات الإصلاحية بصورة عامة ، لأن هذا المجال أضحي معتركاً ضيقاً ،

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢٠٩ .

(٢) المنار ١/ ٨٢٢ .

(٣) المنار ٣/ ٥٥٢ .

اختلطت فيه الأمور ، فلم يعد يميز فيه بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب ، ويعرف المصيب من المخطيء ، ولا يشك عاقل في أن الأزهر كان بحاجة إلى إصلاح شامل ، ولكن المتأمل لحركة الإصلاح في الأزهر يرى بوضوح أن غالب من نادى بالإصلاح كان متأثراً بالحضارة الغربية ومشدوهاً بها . وعلى رأس هؤلاء «رفاعة الطهطاوي» و«جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده» وغيرهم .

لقد كان كثير مما انتقده هؤلاء على الأزهر حقاً ، ولكن انتقادهم كان صدى لهزيمتهم النفسية أمام الحضارة الغربية والفلسفة الأوروبية ولم يكن إسلامياً صافياً ، فكان حرياً ألا يقبل هذا الإصلاح لأول مرة . واصطدم دعاته بشيوخ الأزهر . وحدث صراع عنيف بين أنصار الإصلاح وكانوا قلة ، وبين جمهور الأزهرين شيوخاً وطلاباً<sup>(١)</sup> .

لقد كان ضغط الحضارة الغربية عنيفاً جداً ، وكثير ممن نادوا بإصلاح الأزهر وطالبوا بتغيير أوضاعه كانوا مدفوعين بفعل ذلك الضغط وسائرين في اتجاهه المندفع الذي ينطوي على احتقار كل موروث وقديم .

فالشيخ «محمد عبده» الذي كان أكبر داعية إلى إصلاح الأزهر ، يخاطب من أنكر عليه حدته في دعوته وقال له إنه قد تعلم في الأزهر ووصل في العلم إلى منزلة عالية بقوله : إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر!! ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريده له من النظافة!!<sup>(٢)</sup> .

---

(١) انظر مراحل هذا الصراع في : تاريخ الإصلاح في الأزهر .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ وقد أورث «محمد عبده» تلاميذه تلك الروح الناقمة التي تلتهب =

فالإصلاح الذي كان يدعو إليه «محمد عبده» كان إصلاحاً نابعاً من كره  
وغيظ شديدين للأزهر وأهله ، وليس له ما يبرره في نظرنا حتى ولو قسا  
عليه الأزهريون ، واشتطوا في الهجوم عليه .

وقد طغى الصراع على الفريقين ، حتى نسي أنصار الإصلاح ما يدعون  
إليه في خضم صراعهم ، وأصبح همهم مهاجمة من يسمونهم بالجامدين ،  
وإصاق كل نقيصة بهم ، ونعي جمودهم وتخلفهم ورجعيتهم .  
وكان « محمد عبده » يطلق على الأزهر بعض الألقاب الجارحة ،  
كالاصطبل والمارستان والمخروب<sup>(١)</sup> .

ومن أغرب الأمور أن جمهور الأزهريين الذين كانوا ناقلين على الشيخ  
«محمد عبده» الذي سفه أحلامهم وانتقصهم أيما انتقاص ، وعارضوا دعوته  
إلى الإصلاح معارضة شديدة ، انقلب خلفهم بعد ذلك إلى متعصبين  
شديدي التعصب للشيخ نفسه ، لا يقبلون بنقده أبداً . فهاجموه في البداية  
دون أن يقبلوا شيئاً من دعوته الإصلاحية ، وتولوه في النهاية ولاية لا تقبل  
طعنًا أو نقداً . فكانوا مخطئين في الحالين معاً . ولم يهياً للأزهر إلى زمننا هذا  
مصلح صادق يقوم إصلاحه على منهج أهل السنة والجماعة .

ولم يكن الأمر مقتصرًا على الأزهر فحسب ، بل لقد كانت المعاهد  
الإسلامية الأخرى كذلك . فالزيتونة في تونس ، والقرويين في فاس لم يعد  
لهذه العلوم وجود فيها ، بعد أن كانت تدرس أزمنة بين جنباتها . «وأنمحي

= حقدًا وكرهًا للأزهر واقرأ ما كتبه تلميذه الشيخ «محمد رشيد رضا» عن الأزهر مما يشيع  
في نفس القارئ التقزز والنفور في تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٤٨١ مطبعة المنار . مصر .  
الطبعة الثانية ١٣٤٤ هـ .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٤٩٥ .

أثرها في القرن التاسع عشر نظراً إلى فقدان المدرسين الأكفاء ، إذ عنوان المطامح آنذاك إنما كان علم الفقه»<sup>(١)</sup> .

وحتى عندما أصدر «أحمد باي» الأول مرسوماً عام ١٨٤٢م يقضي بتنظيم التعليم في جامع الزيتونة وفق خطة معينة ، كانت تلك الخطة ناقصة من حيث العلوم العصرية التي أدخلت على نطاق ضيق لا يتناسب مع ما تقتضيه مستلزمات العصر ، إذ على الرغم من أنه أدخل على برنامج الجامع تعليم شيء من الحساب والجغرافية والهندسة وغيرها من العلوم ، إلا أن ذلك بقي ضمن إطار محدود ويكاد يكون غير إجباري<sup>(٢)</sup> .

ويذكر الشيخ «رشيد رضا» أن الشيخ «حسين الجسر الأزهري» (المتوفى سنة ١٣٢٧هـ)<sup>(٣)</sup> قد أسس مدرسة تسمى «المدرسة الوطنية الإسلامية» وأدخل فيها بعض العلوم العصرية ، ولكن الحكومة العثمانية لم تقبل أن تعدّها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية ، فكان ذلك سبباً في إلغائها<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك دلالة على التدهور العلمي ، والنظرة المشوهة إلى تلك العلوم في هذه الفترة .

ويقول الشيخ «محمد أديب الحصني» متحدثاً عن العلوم التي كانت رائجة في بلاد الشام ثم تلاشت : «ومن العلوم التي راجت في تلك العصور الرياضيات كالحساب والجغرافيا والهندسة والفلك وما يتفرع عنه ، وقد

---

(١) التعليم الإسلامي وعلاقته بتطور المجتمع ص ٢٨١ ، د. «علي الشنوفي» . من ضمن «الدين والمجتمع» ، وهو مرجع سبق ذكره .

(٢) تونس العربية ص ٢٠٢ «إحسان حقي» .

(٣) الأعلام ٢/ ٢٥٨ .

(٤) السيد «رشيد رضا» أو إخاء أربعين سنة ص ٣٦ .

اضمحلت هذه العلوم كلها وفي تاريخ موتها تفاوت»<sup>(١)</sup> .

وهكذا أبعدت هذه العلوم من حيز التعليم وعورضت معارضة شديدة ، بل لقد أصبحت في عقول الناس وأذهانهم مرتبطة تماماً بالكفر والضلال ، فما ظنك بأناس سدوا على أنفسهم أبواباً من العلم والقوة ، رأوا أن في فتحها وتعلمها شراً عظيماً وبلاء خطيراً - إلا وقوع الانحطاط والتخلف في حياتهم .

وحتى العلماء المجتهدون الذين بلغوا منزلة عظيمة في العلم والدين والبصيرة كان لهذا الصد العنيف تجاه هذه العلوم من قبل جمهور العلماء أثر في عدم قدرتهم على مواجهة الناس بضرورة دراستهم لهذه العلوم . فهذا الإمام «الشوكانى» يرسم منهاجاً لطلبة العلم بكافة مستوياتهم ، ويحدد المواد والعلوم لكل مستوى من حيث علوم الدين واللغة على اختلافها ثم يقول : «ثم لا بأس على من رسخ قدمه في العلوم الشرعية أن يأخذ بطرف من فنون هي من أعظم ما يصقل الأفكار ويصفى القرائح ويزيد القلب سروراً والنفس انشراحاً كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب ، وبالجمل فالعلم بكل فن خير من الجهل به بكثير ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات ، فإنها كما قدمنا لك شعبة من التقليد ، وأنت بعد العلم بأي علم من العلوم حاكم عليه بما قد يكون لديك من العلم ، غير محكوم عليك ، واختر لنفسك ما يحلو ، وليس يخشى على من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء ، وإنما يخشى على من كان غير ثابت القدم في علوم الكتاب والسنة ، فإنه ربما

---

(١) منتخبات تواريخ «دمشق» ص ٣٠١ .

يتزلزل وتحول ثقته فإذا قدمت العلم بما قدمنا لك من العلوم الشرعية فاشتغل  
بما شئت ، واستكثر من الفنون ما أردت وتبحر في الدقائق ما استطعت ،  
وجاوب من خالفك وعذلك وشنع عليك بقول القائل :

أتانا أن سهلاً ذم جهلاً علوماً ليس يعرفهن سهل  
علوماً لو دراهما ما تلاها ولكن الرضى بالجهل سهل  
وإني لأعجب من رجل يدعى الإنصاف والمحبة للعلم ويجري على  
لسانه الطعن في علم من العلوم لا يدري به ولا يعرفه ولا يعرف موضوعه  
ولا غايته ولا فائدته ولا يتصوره بوجه من الوجوه . . . ولقد وجدنا لكثير  
من العلوم التي ليست من علم الشرع نفعاً عظيماً وفائدة جلية في دفع  
المبطلين والمتعصبين<sup>(١)</sup> .

ويفهم من هذا النص الذي أوردناه للإمام «الشوكاني» التردي العميق  
الذي منيت به هذه العلوم في تلك الفترة ، ونرى ذلك في كلام «الشوكاني»  
الذي اتخذ من اللين والهدوء والتدرج أسلوباً ، حتى لا ينقض عليه  
الجامدون ، ويتألب عليه الجاهلون ، فدخل عليهم من باب الاستحياء  
والحذر .

ولقد كان لهذا الموقف السلبي الذي وقفه غالب علماء المسلمين وفقهائهم  
من هذه العلوم التجريبية آثار وخيمة بعيدة المدى حيث أضحى موقفهم  
ضعيفاً وحرماً أمام حركات التغريب وموجات التحرر والعلمانية التي غزت  
العالم الإسلامي في العصر الحديث وكان موقفهم من دعاة التغريب أن  
«أعلنوها عليهم حرباً شعواء عملت في أقاويلهم ومحاولاتهم معاول الفضح

(١) أدب الطلب ص ١٢٤ .

والتجريح . . ولكنهم مع ذلك عجزوا عن أن يحسنوا عرض هذه الحقائق بالأسلوب الذي يفهمه الجيل الجديد ، فظلوا خارج ميدان المعركة ، لا يعرف الناس عنهم إلا أنهم ثائرون بكل العلوم التجريبية التي اكتشفها العقل الحديث : فكأن مهمتهم الكبرى هي أن يحبسوا المسلمين في نطاق أسفارهم الموروثة ، دون أن يسمحوا لهم بإلقاء نظرة إلى خارجها .

ولقد كان لجمود هذا الفريق من الشيوخ أثر كبير في نفرة الشباب الجديد من الإسلام إذ اعتبروهم صورة من الدين الذي يدعون إليه فهو إذن دين بائس ضيق الصدر بحرية الفكر والبحث . يستنكر كل تقدم عقلي أحرزه الإنسان في ظل الحضارة الحديثة ، ولو كان ذلك التقدم قائماً على المعادلات الرياضية التي لا تقبل الجدل!«<sup>(١)</sup> .

ومما لا شك فيه أن ذلك الموقف السلبي قد هيا تربة خصبة لبذور العلمانية والتغريب حيث بدا الانقسام واضحاً بين جيلين كل منهما على طرف نقيض حيث «جاءت النتائج الخطرة التي تولدت من هذا الفصل الجديد بين الجيلين ، إذ انصرف أحدهما عن الحياة بما فيها ليردد أقوال السابقين ، ويحذر من حوله من أباطيل اللاحقين . . . على حين انقطع الآخر عن سبيله بل عن الدين كله ، ليتولى شئون الدنيا كلها ، فيديرها على أساس لا يمت إلى الإسلام بأي سبب»<sup>(٢)</sup> .

«وجاءت نتيجة سيئة . . . هي أن أبناء الجيل الجديد ظنوا أن جمود الفقهاء ناشئ عن جمود الدين ، وحسبوا أن الدين عاجز عن مسايرة

---

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٠ .



الظروف المتطورة والأحوال المتجددة ، ففقدوا ثقتهم في الدين ، وقل احترامهم للمتدينين»<sup>(١)</sup> .

على أن بعض الباحثين يحمل الاستعمار الأوربي بعض المسؤولية في عزوف المسلمين عن هذه العلوم وحرمانهم منها في تلك الفترة حيث يقول : «أن الضعف العلمي الذي بدأ في عهود الأتراك وصل غايته في عهد الاستعمار الأوربي للدول الإسلامية ، فقد كان هذا العهد عهد الابتكار والفكر ، ولكن الغرب شل عقول المسلمين وحرّمهم التفكير ، ولا يمكن أن ترجى نهضة علمية في جو من الإرهاب والقيود والعبودية ، وفي جو من الفقر والمرض والجهل ، تلك الآفات التي بذرها الغرب في الدول الإسلامية التي أخضعها إليه . . . »<sup>(٢)</sup> .

ولكن هذا لا يعفي المسلمين مهما كان الأمر من تحمل المسؤولية كاملة فيما وقع من إهمال العلوم الكونية حيث تهاونوا فيها مما ترتب على ذلك آثار عظيمة من التخلف والضعف وكان سبباً جوهرياً في رواج دعوات التغريب والعلمانية في الأمة الإسلامية . وإن ما وقع في الأمة من إعراض عن دراسة هذه العلوم في القرون المتأخرة ليس له أي تبرير على الإطلاق ، وهو موقف دل على جهل عظيم بالدين والتاريخ .

فإن الدين هو «الذي دفع المسلمين إلى طلب العلم ، والتعمق فيه ، والبحث الجاد في مجالاته المختلفة . . وإن روح البحث العلمي سواء النظري أو التجريبي ، لم تكن طبيعة في هذه الأمة قبل إسلامها ، إنما

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٦ .

اكتسبتها الأمة من الإسلام حينما آمنت به ومارسته في عالم الواقع .

فقد بدأ الوحي - أول ما بدأ - بالتوجيه إلى القراءة . ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي  
خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)  
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

وتوالت الآيات تطلب من المسلمين التفكير والتدبر في ملكوت  
السموات والأرض ، وتخبرهم أن الله سخر للإنسان ما في السموات وما  
في الأرض جميعاً منه ، وأن عليه أن يبذل جهده في التعلم لتحقيق ذلك  
التسخير في عالم الواقع ، وأن القوة مطلب من مطالب هذه الأمة من أجل  
المحافظة على عقيدتها وكيانها ، ومن أجل منع الفتنة عن المسلمين ، والقوة  
لا تتأتى بغير العلم .

وقد أثمرت هذه التوجيهات الربانية ظهور المنهج التجريبي في البحث  
العلمي على يد المسلمين حين كانوا مسلمين حقاً ، وبالمنهج التجريبي تقدمت  
العلوم تقدماً هائلاً ، ووضعت اللبنة التي يقوم عليها صرح التقدم العلمي  
في الوقت الحاضر»<sup>(١)</sup> .

وإن التاريخ لهو خير شاهد لاهتمام المسلمين في القرون المتقدمة بهذه  
العلوم . وإن حواضر الإسلام الكبرى كـ«بغداد» و«دمشق» و«فاس»  
و«القيروان» و«القاهرة» و«قرطبة» و«غرناطة» ، وغيرها لشاهدة بأن هذه  
العلوم كانت رائجة جنباً إلى جنب مع العلوم الدينية ، وأن الحضارة  
الإسلامية في الشرق الإسلامي وفي الأندلس لم تكن سوى صدى عظيمًا

---

(١) العلمانيون والإسلام ص ٥٠ الشيخ «محمد قطب» . دار الوطن للنشر . «الرياض» الطبعة  
الأولى ١٤١٤هـ .

للاحتفاء بهذه العلوم . ولكن الانحرافات العقيدية والعلمية التي قدمنا الحديث عنها جعلت المسلمين مع توالي القرون يهملونها شيئاً فشيئاً ، حتى وصل بهم الأمر إلى تحريمها ، فبرزت الآثار وخيمة جداً .

أما العلوم الدينية التي اقتصر عليها المسلمون في تلك الفترة فقد أصابها الرتابة ، وأصبحت إلى حد كبير لا تتلائم مع تغير الزمن ، وتجدد الأحوال وتطورها ، لأنها وقفت عند صورة معينة لا تتخطاها .

وقد تأثرت هي الأخرى بروح «التقليص» العامة التي غشت العالم الإسلامي من أكثر من وجه ، فمن ناحية قل الإقبال على العلم عند الناس فتفشيت الأمية والجهل في الأمة ، بنفس المقدار الذي كانت أوربا تزيل به أميتها وتفتح المدارس لنشر العلم ! . ومن ناحية أخرى « جمدت العلوم الشرعية على صورتها التي كانت تدرس بها قبل خمسة قرون على الأقل بما كان قد دخل فيها من غزو فكري إغريقي ، ومن «علم كلام» لا يغني ولا ينفع ، فوق تحويله دراسة العقيدة إلى معاضلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة من محتواها الحي وتحيلها إلى «قضايا» فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية ! وفوق ذلك كله فقد تحول الطلاب إلى حفظة لا مفكرين . يتعالم الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والشروح والحواشي ، ولكنه لا يفكر لنفسه ولا يفكر بنفسه ، ففقد «العلماء» أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلة مقلدين<sup>(١)</sup> .

يقول الدكتور «جمال الدين الشيال» (المتوفى سنة ١٣٨٧ هـ)<sup>(٢)</sup> متحدثاً

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٥ .

(٢) الأعلام ١٣٥ / ٢ .

عن عيوب التعليم في تلك الفترة : «ومنها . . جمود الدراسات وتأخرها ، بحيث أصبح المدرسون يرددون ما قاله السابقون ، ويدرسون المتون والكتب القديمة دون أن يؤلفوا أو يكتبوا جديداً ، فانعدم الابتكار ، وأثر هذا بالتالي في الطلاب ، فأصبحوا يعيدون ما يسمعون ويعنون بالمسائل الشكلية التافهة ، ويعتمدون على الاستذكار والحفظ عن ظهر قلب دون الفهم أو الوعي السليم .

ونستطيع أن نتبين من تراجم شيوخ هذا العصر وعلمائه أن بعضهم كان غزير الإنتاج ، فكم من عالم أنتج العشرات من الكتب والرسائل ، ولكننا لا نستطيع أن نجد من بينها بحثاً له قيمة أو كتاباً يضيف إلى العلم جديداً ، أو رسالة فيها شيء من الابتكار أو أصالة الفكر ، وإنما كان أقصى ما يفعله الواحد منهم أن يكتب شرحاً لمثل أو يضيف حاشية على شرح . . »<sup>(١)</sup> .

ومن أهم أوجه النقد التي صوبت إلى مناهج التعليم في ذلك الوقت أنها لا تؤدي إلى تحقيق الغرض من التربية ، كما يقول الشيخ «عبد الحميد بن باديس» الذي يراها فقط «تكون ثقافة لفظية ، يهتم أصحابها بالمناقشات اللفظية العميقة طوال سني الدراسة»<sup>(٢)</sup> .

وكان لانعدام النظام وشيوع الفوضى في جل المعاهد الإسلامية دور كبير في تردي الحالة العلمية ، وحسبنا هذا المثال : فعندما كتب شيخ الجامع الدسوقي يطلب من مشيخة الأزهر وضع قاعدة يكون أساسها امتحان من يريد الانتقال من درجة إلى درجة أرقى لأن كثيراً من الطلاب كانوا يحضرون

(١) الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي ص ١١ المطبعة الكمالية .

١٩٥٨ م .

(٢) «ابن باديس» . حياته وآثاره ١/ ١٠٨ .

الكتب المطولة دون أن يكونوا قد مروا بالكتب المختصرة الممهدة لها ، لرغبة الكثيرين منهم في الحصول على بعض الكساوى التي كانت تمنح للطلاب القدامى . فأجاب صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر عن هذا في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣١٨ هـ منكرًا على شيخ الجامع الدسوقي طلبه ، وأن هذا مخالف لما كان عليه الأزهريون في العصور الخالية ، وأن طالب العلم ربما يفتح عليه في حال حضوره الكتب الكبيرة بغير ما يفتح عليه في غيرها <sup>(١)</sup> .

ولاندري كيف يمكن للطلاب المبتدئين الاستفادة من كتب مطولة في علوم لم يتلقوا مبادئها الأولية ، وأي فتح يمكن أن يملأ ذلك الفراغ . ولاشك أن للصوفية إسهام في نشوء تلك النظرة الخاطئة .

وقد أصيبت العلوم الدينية في هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتوالية ، ومن هذه العوامل :

١ - الاهتمام باختصرات :

ونعني بها ما قام به العلماء من اختصار للمؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم ، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم بسبب الاعتماد على الحفظ والتركيز عليه .

«فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم ، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة ، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها» <sup>(٢)</sup> . يقول الشيخ «محمد بن الحسن

(١) المنار ٣/ ٥٥٠ .

(٢) المجتمع الإسلامي المعاصر . ص ٥٦ .

الحجوي» تحت عنوان «غوائل الاختصار وتاريخ ابتدائه» :

«لما ألفت المتقدمون دواوين كباراً كـ «المدونة» و«الموازية» و«الواضحة» وأمثالها ، عسر على المتأخرين حفظها لبرودة وقعت في الهمم ، فقام أهل القرن الرابع باختصارها ، فأول من وقفت عليه اختصر «المدونة» «فضل بن سلمة الجهنني الأندلسي» (المتوفى سنة ٣١٩ هـ) . . . كما اختصرها «ابن أبي زيد» في «القيروان» ، ثم جاء «البراذعي» وألف «التهذيب» اختصر مختصر «ابن أبي زيد» ، وأتقن ترتيبه ، واشتهر كثيراً حتى صار من اصطلاحهم إطلاق لفظ «المدونة» عليه ، ثم جاء «أبو عمر ابن الحاجب» واختصر تهذيب البراذعي في أواسط السابع ، ثم جاء «خليل» في أواسط الثامن واختصره . وهناك بلغ الاختصار غايته ، لأن مختصر «خليل» مختصر مختصر المختصر بتكرر الإضافة ثلاث مرات ، وإن أخل بالفصاحة وكاد جل عبارته أن يكون لغزاً . . .»<sup>(١)</sup> .

ثم يذكر أن اللغة تحتوي على مترادفات متفاوتة المعنى وفيها المشترك والتراكيب ذات الوجهين فأصبحت الجملة الواحدة تحتل احتمالات ، فلما اختصروا أحالوا أشياء عما قصد بها ، وتغيرت مسائل عن موضعها ، ثم يذكر انتقاد الشراح على هذه المختصرات ووقوعهم في الغلط نفسه «باختصار بعضهم لبعض ومن هذا ألفت الحواشي على هذه الشروح لإصلاح الأغلاط فحصل الطول وضاع الفقه الحقيقي ، كما ضاع جل وقت الدرس والمطالعة في حل المقفل وبيان المعجل»<sup>(٢)</sup> .

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٣٩٨/٢ و خليل صاحب المختصر هو «ابن إسحاق الجندي» ، من فقهاء المالكية بمصر توفي سنة ٧٧٦ هـ الأعلام ٣١٥/٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٩٨/٢ .

ويتابع «الحجوي» حديثه قائلاً: ومنها (أي من غوائل الاختصار) أنهم لما أغرقوا في الاختصار، صار لفظ المتن مغلقاً لا يفهم إلا بواسطة الشراح ، أو الشروح والحواشي ففات المقصود الذي لأجله وقع الاختصار وهو جمع الأسفار في سفر واحد ، وتقريب المسافة وتخفيف المشاق وتكثير العلم وتقليل الزمن ، بل انعكس الأمر ، إذ كثرت المشاق في فتح الأغلاق ، وضاع الزمن من غير ثمن ، فإذا «ابن عرفة» ألف مختصره مسابقاً «ابن الحاجب» و«خليلاً» في مضممار الاختصار ، ففاتهما في الإغراق في الاستغلاق .

ولما كان يدرس هو فيه تعريف الإجارة وهو قوله : بيع منفعة ما أمكن نقله غير سفينة ولا حيوان لا يعقل بعوض غير ناشيء عنها بعضه يتبع بعض بتبعيضا . وأورد عليه بعض تلاميذه أن زيادة لفظ «بعض» تنافي الاختصار ، فما وجهه؟ فتوقف يومين وهو يتضرع إلى الله في فهمها ، وأجاب في اليوم الثاني بأنه لو أسقطها لخرج النكاح المجمعول صداقه منفعة ما يمكن نقله ، وناقشه تلميذه «الوانوغي» وغيره بما يطول جلبيه .

ثم يقول بعد ذلك : فتأمل وانظر أفكار الشيخ والتلاميذ التي اشتغلت هذا الزمن الكثير في حل مشكلة عويصة وهي إقحام لفظ واحد لا أهمية له تفرعاً ولا تأصيلاً يومين بل وبعده اشتغل غيره أياماً ولا زلنا نشتغل كذلك ، فذلك دليل على أن الوقت ليس له عندهم ثمن<sup>(١)</sup> .

ثم يبين ما وقع من التطويل العظيم فيقول : «وأما من حيث المواد وتقليل الأسفار ، فقد وقع لهم غلط فيما أملوه وصرنا من جمع القلة إلى

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٠٠ .

الكثرة وذلك أن «المدونة» مثلاً فيها نحو ثلاثة أسفار ضخام وهي مفهومة بنفسها لا تحتاج لشرح في غالب مواضعها ، لكن «خليل» لا يمكننا أن نفهمه ونثق بما فهمنا منه إلا بستة أسفار «للخرشي» ، وثمانية «للزرقاني» ، وثمانية «للرهوي» ، الجميع اثنان وعشرون سفرًا مع طول الزمن المتضاعف في الدروس والمطالعة في تفهم العبارات المغلقة فلم يحصل المقصود من الاختصار ، بل انعكس الأمر ، وأصبحنا في التطويل ، فأصبح علم الفقه يستغرق عمر الطالب والمدرس ، لا يبقى معه فراغ لعلم غيره لمن يريد إتقانه وتوقي الغلط فيه ، والطامة الكبرى هي عدم الوثوق بما فهمناه ، لأن الاختصار تذهب عنه متانة الصراحة وتأتي مرونة الإجمال والإبهام والإيهام حتى صار يضرب المثل لكل عبارة إجمالية تحتمل احتمالات ، فيقال : عبارة فقهية أو عدلية .

وقد ختم المختصر بعض أشياخنا تدريساً في نحو أربعين سنة ومع هذا فإنما يحرر الفروع ويسردها مسلمة ، وأما الاطلاع على أصولها من كتاب وسنة وإجماع وقياس ، وعلة الحكم التي لأجلها شرع ، وفهم أسرار الفقه ، وما هناك من أفكار السلف وكيفية استنباطهم ومداركهم ، فكل ذلك فاتنا بفوات كتب الأقدمين . . .»<sup>(١)</sup> .

ثم يقول متعجباً : «ومن الغريب في أحوال القرون الأخيرة أن النحو الذي لا تدعو ضرورة لإقامة أدلة على قواعده ، افتعلوا له أدلة فضخموه وصعبوه ، والفقه الذي يتأكد معرفة أدلته تركوها وضخموه بكثرة الاختصار ، وكثرة المسائل النادرة وإن إفاء العمر في المسائل النادرة التي

---

(١) المصدر السابق ٤٠١/٢ .



تمضي الأعمار ولا تقع واحدة منها قليل الجدوى ، وهي غالب ما زاده المختصر على «المدونة» على أن في «المدونة» من المسائل بل الأبواب النادرة الوقوع كثير . وغير خفي أن الاشتغال في دراستها لمن ليس بحافظ ولا يبقى على باله منها إلا القليل ضياع للعمر ، فطلاب الفقه محتاجون إلى كتاب بين الصراحة ووضح لا يحتاج إلى شرح ، جامع للمسائل الكثيرة الوقوع من كل باب دون النادرة أو المستحيلة ، فهذا تكون الدراسة والتعلم ، وهذا الذي يفيد المبتدئين بل والمتوسطين ، وأن كثيراً من الناس تراهم يحفظون المختصر عن ظاهر قلب وليسوا فقهاء ، بل إذا احتاجوا في العبادة لمسألة راجعوا الشراح أو الفقهاء لعدم فهم ألفاظه إلا بشرح في كثير من أبوابه . . .»<sup>(١)</sup> .

ثم يبين المؤلف أن الفتور الذي أصاب الأمم الإسلامية عموماً حتى في العلوم اللغوية والدينية ، كان سببه الوحيد «هو الاختصار والتواليف التي لم تبق صالحة للتعليم ، ولا مناسبة لروح العصر .

والواقع في الفقه هو الواقع في النحو والصرف والبيان والأصول ، حتى إن صاحب «جمع الجوامع» لتمكن فكرة الاختصار منه ادعى في آخره استحالة اختصاره<sup>(٢)</sup> . وكل العلوم وقع فيها ذلك . . .»<sup>(٣)</sup> .

ويقول الشيخ «عبد الحميد بن باديس» ناقدًا للطريقة التقليدية في تدريس الفقه : «واقصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر ، جافة بلا

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٠٢ .

(٢) حيث أصبح الاختصار والاستغراق فيه هو الغاية عندهم وفيه يتسابقون وكأن أفقهم هو من لم يترك لغيره مجالاً لاختصار ما قام باختصاره . ومن هنا يمكننا أن نطلق على تلك الانكباب الغريبة على الاختصار بـ «موضة الاختصار» إن صح التعبير .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٠٤ .

حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا يمكننا القول بأن الاختصار كان عاملاً من عوامل الجمود والضعف الذي أصاب العلوم الإسلامية ومناهج التعليم حيث استحال إلى غاية يتسابق إليها العلماء وطلبة العلم كما عرفنا ذلك.

ويذكر الإمام «الشوكاني» اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول : «قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه ، ورغبوا عما عداه ، وزهدوا فيه زهداً شديداً»<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - الشروح والخواشي والتقارير :

بعد أن ألفت المختصرات والمتون وبولغ في اختصارها وتعقيدها احتيج إلى الشروح والخواشي والتقارير التي لم تسلم هي ذاتها من التعقيد والغموض فضاع العلم بذلك وسط هذا الخضم الهائل من المؤلفات .  
وكان «أكثر ما كتب في هذا العصر إنما هو من قبيل الشروح والخواشي

(١) ابن باديس ، حياته وآثاره ١٠٨/١ .

(٢) أدب الطلب ص ٥٩ .

والتعليق وشروح الشروح ونحوها ، ويصح أن يسمى هذا العصر «عصر الشروح والخواشي»<sup>(١)</sup> .

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين ، وغصت بالخواشي والتقارير والتلخيصات والمتون التي ضن فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها في صناعة الاختزال ، وكل ذلك ينبىء عن الانحطاط الفكري والعلمي الذي حل بالعالم الإسلامي وتغلغل في أحشائه<sup>(٢)</sup> .

وكانت الهمم والعزائم عند الشيوخ والتلاميذ تتجه إلى حل ألفاظ الكتب من شروح وخواش وتقارير وقد كانت «الألفاظ أشبه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هي العلم كله . والعجيب ، ولكن ذلك ليس عجباً على من دخل الأزهر أو عالج كتبه ، أنك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله (في بعض الأحيان) فإذا ذهبت تقرأ الشرح عجزت عن فهم أكثره أو كله ، فإذا ذهبت إلى الحاشية والتقارير قابلت ألبازاً ومعميات»<sup>(٣)</sup> .

ويضرب أحد الباحثين على ذلك مثلاً ب : متن المنهاج «للنووي» ويشرحه تحفة المحتاج وحاشية «الشرنواني» على الشرح عند قوله بسم الله الرحمن الرحيم ويذكر كلام الشارح رحمه الله في لفظ (باسم) ثم يذكر أن «الشرنواني» علق على كلمة من كلمات «ابن حجر» وأن هذا التعليق قد بلغ ثلاث صفحات من الحجم الكبير»<sup>(٤)</sup> .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٢٧٣/٣ «جرجي زيدان» . مطبعة الهلال ط ١٩٣١ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦٨ . أبو الحسن الندوي . دار الأنصار - القاهرة . الطبعة الثانية عشر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

(٣) المجتمع الإسلامي ص ٢٦١ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٦١ .

فكان الحفظ للمتون من غير فهم والعكوف على الحواشي والشروح والتقريرات والتعليقات يزيد في اضطراب عقول الطلاب هذا إذا وصلوا إليها<sup>(١)</sup>.

«ويصف أحد علماء الأزهر هذه الحال بقوله : ولما فترت همة المتأخرين من العلماء عن التأليف عمدوا إلى مصنفات السلف الصالح - رضوان الله عليهم - وشرحوها ، ثم عمدوا إلى الشروح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدوا إلى الحواشي فشرحوها وسموا ذلك تقريراً ، فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف وشرح ، وشرح الشرح ، وشرح شرح الشرح ، وكانت النتيجة أن تطرق الإبهام إلى المعاني الأصلية واضطربت المباحث واختلت التراكيب وتعقدت العبارات واختفى مراد المصنف»<sup>(٢)</sup>.

ويقول الإمام «الشوكاني» - رحمه الله - الذي درس ودرّس الكثير من هذه الشروح والحواشي في مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها : «مع أن فيها جميعها ما لا تدعو إليه حاجة بل غالبها كذلك ولا سيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل»<sup>(٣)</sup>.

ثم يبين - رحمه الله - الآثار السيئة المترتبة على العكوف على هذه الشروح والحواشي وأن سبب ذلك أنه «جاء في المتأخرين من اشتغل بعلوم أخرى خارجة عن العلوم الشرعية ، ثم استعملها في العلوم الشرعية ، فجاء من بعده ، فظن أنه من علوم الشريعة ، فبعدت عليه المسافة ، وطالت عليه الطرق ، فرجما بات دون المنزل ، ولم يبلغ إلى مقصده ، فإن وصل فبذهن

(١) «جمال الدين القاسمي» وعصره ص ١٦

(٢) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ١٤ .

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ص ٨٦

كليل وفهم عليل ؛ لأنه قد استفرغ قوته في مقدماته ، وهذا مشاهد معلوم ، فإن غالب طلبة علوم الاجتهاد تنقضي أعمارهم في تحقيق الآلات وتدقيقها ، ومنهم من لا يفتح كتاباً من كتب السنة ولا سفرًا من أسفار التفسير ، فحال هذا كحال من حصل الكاغد والخبر ، وبرى أقلامه ، ولاك إداوته ، ولم يكتب حرفاً ، فلم يفعل المقصود . . . »<sup>(١)</sup> .

وقد كان علماء تلك الفترة وطلابها لا يرفعون رأساً بغير تلك الحواشي والشروح ولهذا كانوا ينتقدون من يخرج عن حيزها كما انتقد بعض علماء مصر الشيخ «طاهر الجزائري»<sup>(٢)</sup> في طريقة تأليفه . كما ذكر الشيخ «محمد سعيد الباني»<sup>(٣)</sup> ، وقالوا : «ما هذه المؤلفات الصغيرة أين المجلدات وأين الشروح والحواشي» فرد «الباني» عليهم : «بأن هذه الحواشي التي ينوّهون بقدرها ما زادت العلم إلا نقصاً وتقهقراً إلى ما وراء لحيلولتها بين ذهن المتعلم القاصر الفهم وبين قواعد العلم السمحة وأنت ترى أكثر أسفار المتأخرين ومجامعهم الضخمة خالية من دواعي التأليف وإضاعة الوقت بالمؤلفات الفارغة .

لذا ترى بعض المؤلفين مثلاً يتناولون كتاباً قد شرّحه من سلفهم شروحاً عديدة على أساليب مختلفة فيعيدون شرّحه بنفس ألفاظ الشراح السالفين بدون إدخال إصلاح أو تجديد واختراع في الأسلوب فيزيدونها بلة على ذهن

(١) المصدر السابق ص ٨٨ .

(٢) هو الشيخ طاهر الجزائري الأصل الدمشقي موطناً ، عالم باللغة والأدب والمخطوطات ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وله مؤلفات كثيرة ، توفي سنة ١٣٣٨ هـ .  
الأعلام ٢٢٢/٣ .

(٣) أديب وعالم دمشقي ، من المناهضين للترك ، تولى الإفتاء في بعض أقضية «دمشق» . له كتاب «تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر» توفي سنة ١٣٥١ هـ . الأعلام ١٤٣/٦ .

الطالب وإنني أنتحل المعذرة لهؤلاء لأن روح زمانهم اقتضت ذلك ولكل زمان روح جديدة وأما اليوم فلا عذر ولا اعتذار»<sup>(١)</sup> .

وبهذا اتسع الأمر و«كثر التدوين وتفرع فوضعت الكتب واختصرت وشرحت ووضعت الحواشي واشتغل الناس بها ، وكان ذلك على حساب الاشتغال بالكتاب والسنة ، وقد أضر ذلك كثيراً وقد عقد «ابن خلدون» فصلاً في مقدمته عنون له بقوله : «فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل» وقال في هذا الفصل : اعلم أنه مما أضر الناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته : كثرة التأليف ، واختلاف الاصطلاحات في التعاليم ، وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ، ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل . . . .»<sup>(٢)</sup> .

وبهذا كانت هذه المؤلفات على كثرتها من شروح وحواش وغير ذلك من الأغلال التي كبلت العقول وأدت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدة ، ولا يعني هذا أنه لم يوجد في هذه المؤلفات بعض الحواشي والشروح المفيدة ، ولكنها كانت بجانب غيرها لا تكاد تذكر .

ولو ألقينا نظرة إلى مناهج التعليم الدينية في تلك الفترة لوجدنا أنها وللأسف الشديد كانت بعيدة ، كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة ذلك المنهج الذي يتمثل به الإسلام في واقع الحياة . وكانت المعاهد الإسلامية

(١) منتخبات تواريخ «دمشق» ص ٧٣٩ .

(٢) تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٥٠ «د. عمر الأشقر» . مكتبة الفلاح . الكويت . ١٤٠٢ هـ .

كلها تقريباً غريبة عن ذلك المنهج الإسلامي الأصيل .  
فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الأول والجامعة العتيقة كان مركزاً  
لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه .

فالعقيدة والتوحيد تدرسان من كتب المتكلمين مثل : أم البراهين  
للسنوسي ، وجوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني ، والعقائد النسفية للنسفي ،  
والمقاصد لسعد الدين التفتازاني ، والمواقف لعبد الرحمن العضد . وغير  
ذلك من كتب علم الكلام التي لا تزيد الإنسان إلا حيرة وضياعاً ، «وفوق  
ذلك تحويلها دراسة العقيدة إلى معاضلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة  
من محتواها الحي إلى قضايا فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية»<sup>(١)</sup> .  
كما سبق وذكرنا .

يقول أحد الدارسين في الأزهر عن علم الكلام :

«ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم  
الكلام ، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات ، ولكنني لم أعرف منه شيئاً عن الله  
ذا بال ، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضاً واضطراباً  
حتى تمنيت إيمان العوام ...»<sup>(٢)</sup> .

وقد هيمن علم الكلام على بلاد الإسلام شرقاً وغرباً إلا ما رحم الله ،  
وعكف عليه العلماء والطلاب بالدراسة والاهتمام<sup>(٣)</sup> .

وحتى العلماء الذين لم يكونوا يؤمنون بجذواه ونفعه لم يكن لهم بد

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٦ .

(٢) المجتمع الإسلامي ص ٢٥٨ .

(٣) انظر : فصل علم الكلام والفلسفة في الباب الأول من هذا الكتاب ص ٢٤٣ وما بعدها .

من دراسته وتدرسه نظراً لوقوع العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه تحت هيمنة ذلك العلم ورضوخه له أزمنة طويلة .

فالإمام «الشوكاني» في بلاد اليمن يتحدث عما ينبغي لطلبة العلم الطالبين لنيل رتبة الاجتهاد وهم ما عناهم بالطبقة الأولى أن يدرسوه ويتعلموه فيقول : «ثم ينبغي له (لطالب العلم من تلك الطبقة) بعد إتقان فن أصول الفقه وإن لم يكن قد فرغ من سماع مطولاته أن يشتغل بفن الكلام المسمى بأصول الدين<sup>(١)</sup> ، ويأخذ من مؤلفات الأشعرية بنصيب ، ومن مؤلفات المعتزلة بنصيب ومن مؤلفات الماتريدية بنصيب ، ومن مؤلفات المتوسطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيب فإنه إذا فعل كل هذه عرف الاعتقادات كما ينبغي وأنصف كل فرقة بالترجيح ، أو التجريح على بصيرة ، وقابل كل قول بالقبول أو الرد على حقيقة . ومن أحسن مؤلفات المعتزلة المجتبى ومن أحسن مؤلفات متأخري الأشعرية المواقف العضدية وشرحها للشريف والمقاصد السعدية وشرحها له . . . »<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الامام «الشوكاني» يوصي طالب العلم ومريد الاجتهاد بدراسة هذه الكتب للمتكلمين الحائدين عن طريق أهل السنة والجماعة فإنه كان يدرس للطلبة بعضاً منها حيث يقول عن نفسه : «وكنت أدرس الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درساً . . . منها ما هو في الأصول كالعضد وحواشيه والغاية وحاشيتها . . . »<sup>(٣)</sup> .

---

(١) وهل ضاع الدين أو كاد إلا حين صار ذلك الكلام الضار أصولاً للدين يعكف العلماء على تدريسه ، والطلاب على دراسته .

(٢) أدب الطلب ص ١١٥ .

(٣) البدر الطالع ١/ ٤٦٤ .



وإننا لنستغرب مثل ذلك على الإمام «الشوكاني» ، ولا يمكننا أن نرى إلا أن البيئة الكلامية التي نشأ عليها في اليمن<sup>(١)</sup> كانت هي المؤثرة على منهجه الذي سار عليه ورغب من طلبة العلم أن يسيروا عليه أيضاً ، ومع إيمانه بمخالفتها للحق إلا أنه قد حيل بينه وبين أن يفلت من أغلالها .

ويحسن بنا أن ننقل شيئاً من كلامه رحمه الله في رحلته مع علم الكلام وكتب المتكلمين فبعد أن بين لطالب العلم ما ينبغي له أن يطالعه ويعكف عليه من مؤلفات علم الكلام قال : «وأني أقول بعد هذا أنه لا ينبغي لعالم ان يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنة ، وإبراز الصفات كما جاءت...»<sup>(٢)</sup> .

ثم يصف رحلته الحائرة مع علم الكلام ، حيث يقول : «واعلم أني عند الاشتغال بعلم الكلام وممارسة تلك المذاهب والنحل لم أزد بها إلا حيرة ، ولا استفدت منها إلا العلم بأن تلك المقالات خزعات فقلت مشيراً إلى ما استفدته من هذا العلم :

وغاية ما حصلته من مباحثي      ومن نظري من بعد طول التدبر  
هو الوقف ما بين الطريقين حائراً      فما علم من لم يلق غير التحير  
على أنني قد خضت منه غماره      وما قنعت نفسي بدون التبحر  
وعند هذا رميت بتلك القواعد من حائق ، وطرحتها خلف الحائط  
ورجعت إلى الطريقة المربوطة بأدلة الكتاب والسنة المعمودة بالأعمدة التي

(١) لأن الزيدية تبع للمعتزلة في علم الكلام . انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ١/ ٥٠ .

(٢) أدب الطلب ص ١١٣ .

هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله ، وهم الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الأمة المقتدين بهم ، السالكين مسالكهم ، فطاحت الحيرة ، وانجابت ظلمة العماية ، وانقشعت وانكشفت ستور الغواية ، والله الحمد ، على أني والله الشكر لم أشتغل بهذا الفن إلا بعد رسوخ القدم في أدلة الكتاب والسنة ، فكنت إذا عرضت مسألة من مسائله مبنية على غير أساس<sup>(١)</sup> رجعت إلى ما يدفعها من علم الشرع ، ويدمغ زائفها من أنوار الكتاب والسنة ، ولكني كنت أقدر في نفسي أنه لو لم يكن لدى إلا تلك القواعد والمقالات فلا أجد حينئذ إلا حيرة ، ولا أمشي إلا في ظلمة ، ثم إذا ضربت بها وجه قائلها ودخلت إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه كنت حينئذ في راحة من تلك الحيرة ، وفي دعة من تلك الخزعبلات والحمد لله رب العالمين عدد ما حمده الحامدون بكل لسان في كل زمان<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان هذا هو حال علم الكلام ومقالات المتكلمين وما تسببه من حيرة وضلال فكيف يجعلها «الشوكانى» من المناهج التي ينبغي على طالب العلم أن يتعلمها ، وأين كتب السلف الصالح في ذلك المجال . أين كتب «ابن تيمية» و«ابن القيم» وغيرهما ممن أصلوا عقيدة أهل السنة والجماعة في مؤلفات كثيرة ، و«الشوكانى» من الذين يعلمون ذلك .

هذه العلوم التي تسبب الحيرة والظلمة كان لها كامل الهيمنة على ديار الإسلام ومعاهد العلم وبدلاً من أن يلقى بتلك العلوم جملة ، وتعزل جانباً عن العقيدة الإسلامية الخالصة ، وتدرس دراسة تاريخية بحثة ، لبيان زوايا

---

(١) وما أكثر مسائل علم الكلام التي لم تبني على أي أساس إلا الخرص والتخمين .

(٢) المصدر السابق ص ١١٥ .

الانحراف فيها ، وأسباب هذا الانحراف لتجنب كل ذلك<sup>(١)</sup> . وهذا على أحسن حال - بدلاً من هذا فقد أضحت هي العلوم المقدمة وأصول الدين التي يجب أن يتعلمها الطلاب ، ويعلمها الشيوخ والعلماء لتلاميذهم . وفوق ذلك فهي المصادر التي يجب أن تؤخذ العقيدة منها .

«لقد جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها من الركام الذي كان ينوء بأفكارها وحياتها ، ويثقلها ، ومن التيه الذي كانت أفكارها وحياتها شاردة فيه ، لينشئ لها تصوراً خاصاً متميزاً متفرداً ، وحياء أخرى تسير وفق منهج الله القويم . فإذا البشرية كلها اليوم ترتكس إلى التيه وإلى الركام الكريه ! .

ولقد جاء الإسلام لينشئ أمة ، يسلمها قيادة البشرية ، لتتأى بها عن التيه وعن الركام فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة ، وتترك منهج القيادة ، وتلهث وراء الأمم الضاربة في التيه ، وفي الركام الكريه . . .»<sup>(٢)</sup> .

ولكن المسلمين فرطوا في منهج الله القويم وارتكسوا في ركام علم الكلام وفي تيه الفلسفة المظلم ونسوا أنهم أمة القيادة في العالم ومن أجل ذلك أنزل الله لهم ذلك المنهج القويم كي يرتفعوا بأنفسهم عن تلك الركامات الهائلة التي تتخبط فيها بقية الأمم .

وقد أصاب المناهج الإسلامية في تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجة من الجفاف حيث «أن العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح ، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١ .

الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها . . .»<sup>(١)</sup> .

ويضرب بعض الباحثين على ذلك بعض الأمثلة ، منها : الزكاة وهي أهم أبواب الفقه صلة بالناحية الاجتماعية يتكلمون عن المادة والجسم دون أي عناية توجه للروح ، أنهم يبدؤون كلامهم بقولهم : تجب الزكاة في خمسة أشياء : المواشي والأثمان والزروع والثمار وعروض التجارة ثم يتحدثون عن شروط وجوبها والمقادير الواجبة فيها ، والعجيب أنهم حتى المحدثون منهم يكثرون الكلام عن الإبل والبقر والغنم ، تلك التي كانت أهم مصادر الثروة والغنى في الجزيرة العربية ، وينسون أنها الآن لا تكاد توجد في أكثر العالم الإسلامي ولم يهتم أحد منهم تقريباً بمصادر الثروة التي جددت في العصور الحديثة ، فليس فيهم واحد فيما أعرف تكلم عن زكاة الدخل الوارد من العمارات والخوانيت المؤجرة مع ما تفيضه على أصحابها من ثروة .

وقد قلنا إن أغلب الفقهاء أهملوا روح الإسلام ، ونريد أن نقرر هنا شيئاً يبلغ الغاية في الغرابة والدهشة ، هو أن من الفقهاء من حارب روح الإسلام ، فرسم لقرائه الحيل والسبل التي يتخلصون بها من الزكاة ، كأن يرسم للمالك أن يهب ماله لابنه أو لزوجته قبيل أن يحول الحول ثم يستوهمه إياه وبذلك يبدأ حول جديد ، ولا تجب زكاة عن الحول الماضي لأنه لم يكمل وهكذا يكرر ذلك قبيل انتهاء كل حول فلا تجب عليه زكاة قط .

ف نجد أن الفقهاء قد تكلموا عن كل هذا بجفاف تام على حين أنهم أهملوا الكلام عن نظرية الإسلام الاقتصادية وفوائد الزكاة ووجوب التعاون بين

---

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢١٠ .

المسلمين وتنبه الناس إلى خطورة عبادة المال وأنها كانت ولا تزال سبب التدهور الخلقي الذي أصاب العالم إلى غير ذلك من الأهداف والغايات الرائعة النبيلة للزكاة في الإسلام<sup>(١)</sup> .

ثم يمثل المؤلف بمثل آخر هو الصوم فيقول : نجد أن الفقهاء اتبعوا نفس الطريق فليس فيهم من تكلم عن الصوم على أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح في صراعها مع الجسم ، وأنه عن طريق الصوم يتحرر الإنسان من العادات التي خضع لها كتناول الطعام في وقت معين ، تلك العادات التي يمكن أن يقال إن الشخص أصبح عبداً لها لا يستطيع أن يتخلف عنها . . . ماذا كتب الفقهاء عن الصوم؟ إن الجمهرة العظمى لهؤلاء الفقهاء تصور الصوم جوعاً وحرماناً ، تضع له الشروط ، وتسرف في بحث ما يفطر به الصائم ، وتعالج ما شابه ذلك من المسائل المادية ، دون أن تعطى أي اهتمام للجانب الروحي في هذه الفريضة السامية .

ويضرب المؤلف أمثلة جافة تحفل الكتب الفقهية منها بالمئات بل والآلاف . . . ومن ذلك : لو بل خيطاً بريقه ، ثم أدخله في فمه ، وهو رطب واختلط بلل الخيط بريقه وابتلعه أفطر . . هذا وأمثاله ما اهتم به الفقهاء ، أما هجر القول وفحشه ، أما الحكمة الحقيقية للصوم ، والانتفاع به ، أما جشع الصائمين عند الفطر ، أما بخل الصائم وشحه . . . فهذا ما لم يعن به الفقهاء ، أو ما عنوا به عناية ضئيلة<sup>(٢)</sup> .

وفي باب الصلاة وما تستلزمه من طهارة يجد الباحث أشتاتاً من

---

(١) المصدر السابق ص ٢١١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٣ .

الاحتمالات قدرها الفقهاء ، وتكلموا فيها ، ولكنهم كالعهد بهم لم يذكروا كلمة واحدة تبين أن الصلاة انقلاب من ضجيج الحياة ليفرغ المسلم إلى الله بضع لحظات من اليوم .

وكثير من الفقهاء كانوا على صلة بالخلفاء وهم يعرفون آداب الدخول على الخليفة والمثول بين يديه والحديث في حضرته ، وهكذا عرف العلماء والفقهاء هذا الأدب واتبعوه وأوصوا به ليكون سلوك من يجلس في حضرة الخليفة . فماذا دونوا لمن يكون في حضرة الإله؟ .

الحقيقة المؤلمة أنهم لم يدونوا شيئاً من هذا القبيل ، وكان كل اهتمامهم أو جله متجهاً اتجاهاً مادياً جافاً ، جعل من الصلاة عملية أوتوماتيكية ، كأنما تقوم بها ماكينة لا قلب لها ولا إحساس ، وجعل من الوضوء والتميم وسيلة لدخول الصلاة ، أما ما في الصلاة من تفرغ إلى الله لحظات ، وما فيها من آداب اجتماعية رائعة ، وما في الوضوء واللبس من إعداد الشخص للمثول في حضرة العلي العظيم ، فلم ينل من عناية الفقهاء اهتماماً ذا بال ، وحتى كلمة «الخشوع» التي قفزت إلى اصطلاحات الفقهاء خرجوا بها عن معناها ، وفسروها على مقتضى اتجاههم بالتأني في السجود أو الركوع ، دون أن يوردوا أهم معاني هذه الكلمة من الخضوع والتفكير في الله والإجلال لذاته<sup>(١)</sup> .

وفي الحديث عن السواك مثلاً أورد الفقهاء مسألة وهي : لو استاك بأصبع غيره!! وهي خشنة أجزأه قطعاً قاله في شرح المذهب ، وفي أصبعه خلاف ، الراجع في الروضة لا يجزي ، والراجع في شرح المذهب

(١) المصدر السابق ص ٢١٥ .

الإجزاء ، وبه قطع القاضي «حسين» و«المحاملي» و«البغوي» والشيخ «أبو حامد» واختاره «الرويانى» فى البحر . .

مسئلة أخرى هى : الشك فيما خرج من الفرج هل هو منى أو مذى وأن هذا الخلاف وصل فى بعض الكتب إلى ثلاث عشرة مقالة ! .

وكذلك عند حديثهم عن تعدد الزوجات مثلاً وعن الطلاق ، فهم لا يكادون يذكرون شيئاً عن بعض الحكم والفوائد التى انطوت عليها مثل تلك الأحكام ولم يجهدوا أنفسهم فى إيضاح روح التشريع فيها .

وهكذا فى أغلب أبواب الفقه التى أصابها الجفاف وركز فيها على الجوانب المادية دون المعنوية . «وليس الفقهاء فحسب هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه ، وليس علم الفقه وحده هو الذى بلى بهذه الدراسات الجافة ، بل إنها العلوم كلها التى عاجلها من نسميهم العلماء ، إنها المنطق ، والحديث والتفسير ، والتاريخ الإسلامى ، وعلم الكلام ، والنحو والصرف والبلاغة . . . وانعدمت الروح فى دراستها . . .»<sup>(١)</sup> .

«ماذا فعل به (يعنى القرآن الكريم) هؤلاء العلماء عندما كتبوا عنه ما أسموه تفسيراً؟ الجواب أنهم كتبوا كل شيء لا يلزم ، وأهملوا كل ما يجب أن يكتب ، أهملوا إبراز جمال القرآن فى أسلوبه ومعانيه ، وما يدعو له من خلق وبر وعمل صالح ، وأحالوا الروح المتدفقة والمعنى الخلاب والأسلوب المعجز إلى قواعد نحوية ودراسات بلاغية وفقهية .

إن الرجل العربى ليقراً القرآن فيحس بلذة ما تعدلها لذة ، فإذا ذهب

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

يقرأ تفسير القرآن استعجم عليه القرآن واستغلق»<sup>(١)</sup> .

وبعد هذا فإنه مما لا شك فيه أن هذا الجفاف الذي أصاب مناهج التعليم من حيث الاهتمام بالجسم والمادة دون الروح والمعنى كان من الأسباب التي ساعدت على تفلت المسلمين من أحكام الدين والعبادات على مر القرون ، فكم نرى من الفقهاء بل ربما من المفتين الذين لم يراعوا الله حرمة ، ولم يراعوا ما تعلموه من تلك الدراسات الجافة . فكيف بسواهم من التلاميذ فضلاً عن العامة .

وقد ذكرنا أن ذلك الجفاف كان سبباً كبيراً في تحول الجماهير عن هؤلاء العلماء والفقهاء إلى شيوخ الصوفية . . . ونحن بعد ذلك نورد بياناً مختصراً عن المناهج التعليمية في الأزهر عام ١٣١٠ هـ لنرى إلى أي مدى استطاعت تلك المناهج أن تؤدي دورها<sup>(٢)</sup> وبالطبع لم يكن هذا هو حال جميع العلماء ، بل هو حال الغالبية منهم ، وإلا فإن هناك من العلماء - وإن كانوا قلة - من راعوا روح الشريعة وحكمها ، وتميزت مصنفاتهم بالروعة والتجديد والحيوية .

#### كتب علم التوحيد :

- ١ - (أم البراهين) (الصغرى للشيخ «محمد يوسف السنوسي» بشرح الشيخ «السنوسي» والشيخ «الهددي» والشيخ «الباجوري» .
- ٢ - (أم البراهين) الكبرى «لأبي عبد الله محمد السنوسي» .
- ٣ - جوهرة التوحيد للشيخ «إبراهيم اللقاني» بشرح «عبد السلام اللقاني» .

(١) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

(٢) من رسالة قدمتها مشيخة الأزهر إلى الخديوي عام ١٣١٠ هـ .



- ٤ - العقائد النسفية بشرح «سعد الدين التفتازاني» .
- ٥ - الخريدة للشيخ «أحمد الدردير» .
- ٦ - المقاصد لـ «سعد الدين التفتازاني» .
- ٧ - المواقف للشيخ «عبد الرحمن العضد» بشرح الجرجاني .
- ٨ - طوابع الأنوار «للبيضاي» بشرح «الأصفهاني» .
- ٩ - متن بليحة بشرح الشيخ «السقا» .
- ١٠ - متن السباعي بشرح «الباجوري» .

#### كتب التصوف :

- ١ - الإبريز لسيدي «عبد العزيز» .
- ٢ - الأنوار القدسية لسيدي «عبد الوهاب الشعراني» .
- ٣ - بستان العارفين للشيخ «نصر السمرقندي» .
- ٤ - تاج العروس «لابن عطاء الله السكندري» .
- ٥ - التجليات الإلهية للشيخ «محيي الدين بن عربي»
- ٦ - تحفة الإخوان للشيخ «الدردير» .
- ٧ - تفليس إبليس «لعز الدين بن عبد السلام» .
- ٨ - تنبيه الغافلين للشيخ «نصر السمرقندي» .
- ٩ - التنوير في إسقاط التدبير «لابن عطاء الله السكندري» .
- ١٠ - الإحياء «للغزالي» .
- ١١ - قوت القلوب «لأبي طالب المكي» .

١٢ - المنز الكبرى للشيخ «الشعرانى» .

كتب علم التفسير :

١ - الكشاف لـ «الزمخشري» .

٢ - تفسير الجلالين بحاشية الشيخ الجمل .

٣ - تفسير الخطيب الشربيني .

٤ - تفسير البضاوى .

٥ - تفسير أبى السعود .

٦ - تفسير الفخر الرازى .

٧ - تفسير الخازن .

٨ - تفسير النسفى .

٩ - الإتيقان للسيوطى .

كتب المنطق :

١ - السلم للأخضرى بشرح المؤلف نفسه والقويسنى والملوى

والباجورى .

٢ - إيساغوجى للأبهري بشرح الشيخ زكريا الأنصارى .

٣ - التهذيب للسعد التفتازانى بشرح الخيصى .

٤ - الشمسية للكاتبى بشرح قطب الدين الرازى .

٥ - المختصر للسنوسى .

٦ - المطالع للأرموى بشرح الرازى .

كتب التاريخ :

منها طبقات الشعراني لسيدي عبد الوهاب ، لواقع الأنوار للشعراني .

كتب الحكمة :

١ - الإرشادات لابن سينا .

٢ - الهداية لأثير الدين الأبهري .

٣ - حكمة العين للكاتب .

٤ - مقولات السجاعي .

٥ - مقولات البليدي .

٦ - مقولات المرصفي .

٧ - غالية النشر لعبد الجواد القباني .

أما كتب الفقه فلم تخرج عن المذاهب الأربعة وكذلك كتب أصول الفقه وهي جميعها عبارة عن مختصرات وشروح وحواش<sup>(١)</sup> .

فبالنسبة لعلم التوحيد والعقيدة نجد أن المناهج كلها كلامية اعتمدت علم الكلام وبعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة في التوحيد والعقيدة وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك الانحراف .

وبالنسبة لعلم التفسير فأغلبها من قبيل التفسير بالرأي المذموم وهي تفاسير مليئة بانحرافات المتكلمين وشبههم من معتزلة وأشعرية ، ونجد أنه لا مكان للتفسير بالمأثور في هذا المنهج ، فلا وجود لـ «جامع البيان والتأويل»

---

(١) الأزهر ، تاريخه وتطوره ص ٢٨٣ - ص ٢٩٣ . وانظر تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٥٠ - ص ٥٥ .

«للطبري» ولـ «تفسير القرآن العظيم» «لابن كثير» ولـ «تفسير البغوي» وغيرها من التفاسير المعتمدة المتبعة لآثار السلف ومروياتهم .

يقول العلامة العراقي «محمود شكري الألوسي» عن كتب التفسير في العصر الأخير : «إن من طالع كتب التفسير المتداولة بين الأيدي اليوم وجدها أعظم مانع من الوقوف على مراد الله تعالى بكتابه الكريم ، فإن منها ما هو مشحون بقواعد النحو ووجوهه ، فتراه يذكر في كل آية من الوجوه ما يفوت الحصر ، ومنها ما هو مشحون بالمسائل الكلامية ، والقواعد الحكمية ، حتى يصرف الآيات إلى ما أصله من الأصول ، ويؤول النصوص القطعية إلى ما يوافق معتقده . إذا نظرت تفسير الرازي والبيضاوي وأبي السعود تعلم حقيقة هذا الكلام .

ومنها ما اشتمل على قصص بني إسرائيل وأكاذيبهم وأقوالهم التي تحيلها العقول ، وتنفر عنها الطباع ، ومنها تفاسير لا يدل عليها نقل ولا عقل ولا لغة من اللغات ، كالتفسير الشهير بأنه من باب الإشارة ، ومنها مما لا يحيط به العد والإحصاء .

ثم نقل كلاماً طويلاً للشيخ محمد بدر الدين الحلبي في كتابه (التعليم والإرشاد) انتقد فيه كثيراً من كتب التفسير المتداولة في تلك الفترة والتي يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله عز وجل . وذكر أنها غير صالحة للتعليم .

فتفسير الخازن مثلاً ، وهو أكثر كتب التفسير تداولاً ، وأعظمها انتشاراً بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية ، خير ما يقال فيه إنه مجموعة من الأكاذيب ، ولو جرد ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، والإسرائيليات

والقصص الكاذبة لكانت فوق نصف الكتاب ، وبعد ذلك فأشياء إن لم تضر لم تنفع ، «وهو على اشتماله على هذين الوصفين اللذين هما من أقبح أوصاف المؤلفات ، فهو العمدة لعامة المسلمين ، وأكثر طلبة العلوم الشرعية ، وأكثر انتشاراً بينهم ، ولقد أرى أن نسخه التي نشرت في مصر لا تقل عن مائة ألف نسخة ، فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين ، ودخل عليهم في دينهم ما ليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى ثم تحدث عن تفسيري الزمخشري والبيضاوي اللذين يعدان غاية في الغموض والإغلاق .

«ولشدة عراقتها في ذلك أكثر المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما ، لبيان عبارتهما وتوضيح مقاصدهما ، حتى لو جمعت الحواشي والشروح التي عليهما لأربت على ألف مجلد ، وما ذكره صاحب (كشف الظنون) مما كتب عليهما قليل من كثير ، ولولا أنهما بحيث يخفيان إلا على ما ألف حل الرموز والطلاسم واستخراج المخبآت لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما ، والمبالغة في توضيح غوامضهما ، وفوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرّة ، لا ترتبط فيه بوجه من الوجوه ، كالمسائل الكلامية التي حشيا بها كتابيهما ، وهي ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته ، وإنما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله .

ويلحق تفسير «أبي السعود» بهذين التفسيرين ، فإنه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جداً . وقد تحدث عن غالب كتب التفسير ثم اعتذر عما كتبه بأنه لم يرد انتقاص أحد بذلك ، بل إن غرضه بيان أن هذه

التفاسير المتداولة قاطعة عن العلوم الإسلامية ، وأن ضرورة المحافظة على الدين تقتضي باختيار الكتب النافعة»<sup>(١)</sup> .

أما دراسة التصوف في الأزهر فهي مؤشر خطير على مدى عدول الأزهر عن الخط الذي كان يجب أن يسير عليه ، وانجرافه في تيارات الواقع المتردي من صوفية وعلم كلام وتعصب مذهبي وكذلك تدريس المنطق الذي لا يسمن ولا يغني من جوع والذي ما زادت به العلوم إلا تعقيداً وتأخراً ، وبعد ذلك تدريس تراجم المتصوفة كالطبقات الكبرى «للشعراني» التي احتوت على مئات من الأباطيل والخرافات ، وطفحت بالشرك الصريح .

ومن الانحرافات التي تطرقت إلى مناهج التعليم وكان لها أثر عظيم فيما وقع للأمة من تدهور وانحطاط عدم اهتمام العلماء من فقهاء ومفسرين ومتكلمين بعلم الحديث وقد نعى الإمام «الشوكاني» على هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى حديث الرسول ﷺ ، «ولا يفرقون بين أصح الصحيح وأكذب الكذب كما يعرف ذلك من يعرف نصيباً من العلم وحظاً من العرفان ، ومن أراد الوقوف على حقيقة هذا فلينظر مؤلفات جماعة هم في الفقه بأعلى رتبة ، مع التبحر في فنون كثيرة ك«الجويني» و«الغزالي» وأمثالهما فإنهم إذا أرادوا أن يتكلموا في الحديث جاءوا بما يضحك منه سامعه ويعجب ؛ لأنهم يوردون الموضوعات فضلاً عن الضعاف ، ولا يعرفون ذلك ، ولا يفطنون به ، ولا يفرقون بينه وبين غيره ، وسبب ذلك عدم اشتغالهم بالحديث كما ينبغي فكانوا عند التكلم فيه عبرة من العبر ، وهكذا حال مثل هذين الرجلين وأشباههم من أهل طبقتهم مع تبحرهم في فنون عديدة فما بالك بمن

---

(١) غاية الأمانى ١/ ٧٨-٨٣ .

يتصدى للكلام في فن الحديث ويشغل بإدخاله في مؤلفاته وهو دون أولئك  
بمراحل لا تحصر .

وهكذا تجد كثيراً من أئمة التفسير الذين لم يكن لهم كثير اشتغال بعلم  
السنة كـ«الزمخشري» و«الفخر الرازي» وغالب من جاء بعدهم فإنهم  
يوردون في تفاسيرهم الموضوعات التي لا يشك من له أدنى اشتغال بعلم  
الحديث في كونه موضوعاً مكذوباً على رسول الله ﷺ ، وذلك المفسر قد  
أدخله في تفسيره واستدل به على ما يقصده من تفسير كتاب الله سبحانه .

وهكذا أئمة أصول الفقه فإن أكثر من يشتغل الناس في هذا الزمان  
بمؤلفاتهم لا يعرفون فن الحديث ولا يميزون شيئاً منه بل يذكرون في  
مؤلفاتهم الموضوعات وينون عليها القناطر<sup>(١)</sup> .

ثم يبين رحمه الله ما جناه بعض الفقهاء على الشريعة بإدخال ما ليس  
منها فيها ، ويطالب أهل عصره من المشتغلين بالفقه الإنكار على مثل هؤلاء  
المتهاونين في علم الحديث وبيان ما في كتبهم من خطأ وباطل و « أن يأخذوا  
على أيدي الناس ويحولوا بينهم وبين هذا الكتاب الذي لا يفرق مؤلفه بين  
الحق والباطل . ولا يميز بين ما هو من الشريعة وما ليس منها فما أوجب هذا  
عليهم ، فإن هذا المشئوم قد جنى على الشريعة وأهلها جناية شديدة وفعل  
منكراً عظيماً ، وهو يعتقد لجهله أنه قد نشر في الناس مسائل الدين ، ويظن  
من اتبعه في الأخذ عنه أن هذا الذي جاء به هذا المصنف هو الشريعة .  
فانتشر بين الجاهلين أمر عظيم وفتنة شديدة ، وهذا هو السبب الأعظم في  
اختلاط المعروف بالمنكر في كتب الفقه وغلبة علم الرأي على علم

---

(١) أدب الطلب ص ٥٤ .

الرواية . . . وبهذه العلة تجدد المصنفين في علم الفقه يعولون في كثير من المسائل على محض الرأي ويدونونه في مصنفاتهم وهم لا يشعرون أن في ذلك سنة صحيحة يعرفها أقل طالب لعلم الحديث .

وقد كثر هذا جداً من المشتغلين بالفقه على تفاقم شره وتعاضم ضرره ، وجنوا على أنفسهم وعلى الشريعة وعلى المسلمين . وإذا شككت في شيء من هذا فخذ أي كتاب شئت من الكتب المصنفة في الفقه وطالعه تجد الكثير الواسع . . .»<sup>(١)</sup> .

ثم أخذ - رحمه الله - ينكر على مثل هذا المتفিকে وأمثاله حيث قد حفظ الواحد منهم مختصراً من مختصرات مذهبه ولم يحط بمذهبه ولا بمذاهب غيره فضلاً عن المؤلفات في سائر العلوم ثم يذكر المؤلف أن هذا وأمثاله من علامات القيامة ومن دلائل رفع العلم كما في الحديث الصحيح حين يتخذ الناس رؤوساً جهالاً فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون<sup>(٢)</sup> .

على أننا نرى أن علم الحديث قد تعرض إلى ثلاثة انحرافات هي : -

١ - أنه فقد دوره في التربية الإسلامية الصحيحة ، فلم يعد ذا تأثير إيجابي ملموس في حياة الناس .

٢ - أنه لم يكن يقرأ لأخذ الأحكام منه ، بل يقرأ في الغالب على سبيل البركة كما ذكر «الأثري»<sup>(٣)</sup> .

وقد رأينا كيف كان يقرأ «البخاري» لحصول البركات ودفع الأزمات .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) أعلام العراق ص ٩٠ .



وكثيراً ما وقفت الأوقاف على من يقرأ كتب الحديث عند ضريح من الأضرحة ، أو في زاوية من الزوايا<sup>(١)</sup> .

ومما يؤكد شيوع هذين الانحرافين الذين أصابا علم الحديث الشريف هو جمع الكثيرين من الشيوخ بينه وبين التصوف . ونضرب على ذلك مثالين :

الأول : هو الشيخ الحبيب «حسين الحبشي» (المتوفى سنة ١٣٣٠هـ) جاء في ترجمته ما خلاصته «تلقن الذكر ، ولبس الخرقة من السيد «أبي بكر ابن عبد الله العطاس» ، بمكة ، فنجب ، وتفنن في فنون كثيرة وعلوم شهيرة ، لكن كان اشتهاره بعلم الحديث والتصوف والحقائق والاعتناء بالغرائب والدقائق»<sup>(٢)</sup> .

والثاني : ما ذكره «السللاوي» صاحب «الاستقصا» عن شيخه القاضي «أبي بكر ابن محمد عواد» (المتوفى سنة ١٢٩٦هـ) بقوله : «ختمنا عليه عدة كتب كبار . . . جعلها الله في ميزان حسناته ، منها «صحيح البخاري» نحو عشر مرات و«صحيح مسلم» ثلاث مرات . . . و«إحياء الغزالي» رضي الله عنه ، و«عوارف المعارف للسهروردي»<sup>(٣)</sup> .

٣- عدم الاعتناء بالتخريج والتحقيق ، وتمييز المقبول من الحديث من المردود ، وانتشار الأحاديث الموضوعة . وقد ذكر «الجبرتي» أن الشيخ «محمد مرتضى الزبيدي» حين استقر في مصر كان حريصاً على جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون ، كعلم الأسانيد وتخارج الأحاديث واتصال طرائق

---

(١) كالوقف الذي وقف لمن يقرأ الحديث في مسجد الصخرة بالقدس في رجب وشعبان ورمضان انظر نهر الذهب في تاريخ حلب ٦١ / ٢ .

(٢) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١ / ١٣٨ .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤ / ٢٥٦ .

المحدثين المتأخرين بالمتقدمين ، وأنه ألف في ذلك كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز جمعة<sup>(١)</sup> . وفي ذلك دلالة على عدم اهتمام العلماء في تلك الفترة بالحديث وعلومه .

ويقول الشيخ «عبد العزيز الملتاني» من علماء الهند في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري مصوراً ما وصلت إليه حالة علم الحديث في عصره : «والى الله المشتكى من المعاصرين ومن علمائهم المتعصبين القاصرين ، اتخذوا علم الحديث ظهرياً ، ونبذوا التخريج نسبياً منسياً ، فأوعظهم ألهمهم بالأكاذيب ، وأعلمهم أكذبهم في الترغيب والترهيب ، وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام ، بل هذه الشنيعة متقدمة من سالف الأيام ، فإن الأبالسة أفسدوا بالوضع والتزوير ، فانخدع لهم مدونو المواعظ والتفسير ، ويهلك بتدوينها تالف بعد تالف والله الناصر الموفق للمحدثين وموكلهم عن نفي الكذب في الدين<sup>(٢)</sup> .

### ٣ - الإجازات :

من عوامل تدهور الحياة العلمية في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات ف«نجد في هذا العصر تساهلاً كبيراً في منح الإجازات العلمية . ففي العصور الأولى كان طالب الإجازة يلزم أستاذه مدة طويلة ، يحفظ فيها كل ما سمعه من الأستاذ الذي لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان ، أما العصر الذي ندرسه (العصر العثماني) فكانت تعطى جزافاً ، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى

(١) عجائب الآثار ١٠٦/٢ .

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢٧٧/٧ .

ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في «القاهرة» يبعث إلى طالب في «مكة» بالإجازة دون أن يراه أو يختبره. فيبدو أنهم اعتبروها رتبة فخرية.

وشذ من هؤلاء العلماء «محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعي» (المتوفى سنة ١١٩٩هـ) فقد ذكر «الجبرتي» أنه كان صعباً في الإجازة، لا يجيز أحداً إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذي يطلب الإجازة فيه بتمامه ولا يرى الإجازة المطلقة، ولا المراسلة، حتى إن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك. وهذه الطريقة في مثل هذا الزمان عسرة جداً»<sup>(١)</sup>.

ولما رحل «الزبيدي» إلى مصر تقاطر إليه علماء الأزهر وطلبوا منه الإجازة فقال لهم لابد من قراءة أوائل الكتب<sup>(٢)</sup>. وقد كان موقفه مفاجأة لأهل الأزهر الذين ما اعتادوا ذلك.

وفي اعتقادي أن المتصوفة كان لهم دور كبير في الاستهانة بالإجازات والإفراط في منحها فقد سبق أن عرفنا نظرهم إلى العلوم واستهانتهم بها فلا عجب بعد ذلك أن يستهين شيوخ المتصوفة بالإجازات ويفرطوا في منحها.

فقد ذكر الشيخ «عبد الرزاق البيطار» أن الشيخ «خالد النقشبندي» من كبار زعماء المتصوفة في القرن الثالث عشر أمر تلميذه الشيخ «هداية الله الأربيلي» بقراءة الورقة الأولى من كل كتاب معد للتدريس، فقرأ ذلك على

(١) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٤٢.

(٢) عجائب الآثار ١٠٦/٢.

حضرة المذكور ، ثم أجازته بجميع العلوم النقلية والعقلية ، وتدرّس كتبها الدقيقة<sup>(١)</sup> .

«وقد كانت الإجازة المكتوبة في البداية محددة ومقننة ، فلا يعطاها أي طالب ، ولكن بتوالي الزمن وضعف التعليم والتعلم ، وتدهور الحياة العقلية بصفة عامة ، أصبح منح الإجازات سهلاً وشائعاً ، وكثيراً ما كان يمنح الطالب الإجازة سواء كان يستحقها أو لا يستحقها ، أي من جلس للدرس وتعلم ، ومن كان عابر سبيل ، بل أصبحت الإجازة تعطى عن طريق المراسلة دون أن يرى الطالب المدرس ويأخذ عنه»<sup>(٢)</sup> .

ويذكر الشيخ «محمد رشيد رضا» أن الشيخ «محمد عبده» كتب إلى عالم من الهند طلب منه أن يجيزه بما رواه وما تلقاه ، وفيه بيان رأيه في الإجازة بالكتب وتناقل الأسانيد :

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ «أحمد أبي الخير» حفظه الله :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . وبعد

فقد سرّني أن أعرف لي أخاً جديداً في بلاد الهند ، يقدر العلم قدره ، ويحب بثه بين الناس ونشره ، يسألني الأخ أن أجيزه بجميع ما تلقيت وما رويت ، ويطلب مني أن أرسل إليه سندي في رواياتي ، وإنني أقول لحضرتكم : إنني أستحي أن أجيز شخصاً لم أره بشيء لم يكن لي فيه أثر

(١) حلية البشر ٣/ ١٥٧٩ .

(٢) تاريخ الجزائر الثقافي ١/ ٢٨٠ .

بالنسبة إليه ، كيف أجيزك بشيء تقول أنك ترويه عني ، ولم تروه في الحقيقة عني ، ثم ما قيمة سند لا أعرف بنفسه رجاله ، ولا أحوالهم ، ولا مكانهم من الثقة والضبط ، وإنما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف نقلدهم فيها ، ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون . أحب أن أكشف لك رأيي في هذه الشؤون :

هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق ، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا ، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على ما فرطوا في جنب الله ، وإنما شأني الذي كلفت به هو أن أعلم وأقول وأبين وأكتب ما استطعت ، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبت ، فله أن يرويه عني ، وأن يؤديه على ما فهمه بعد دقة البحث والتحري ، والأخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية ، فإذا وصل إليك شيء مما أقول أو أكتب وفهمته كما أحب أن يفهم ، فإليك الأخذ به ، وروايته عني بعد التحقق من صحة النسبة ، وأكون لك من الشاكرين ، أسأل الله أن يوفقنا إلى خدمة دينه الحق ، إنه ولي العاملين . والسلام عليكم ورحمة الله .

١٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ

مفتي الديار المصرية «محمد عبده»

وعلق الشيخ «رشيد رضا» قائلاً : إن الأستاذ الإمام - رحمه الله تعالى - افترض هذا الطلب ليبين للمشتغلين بالعلوم الشرعية هذه الحقيقة : عنايتهم بالوسائل الصورية وتركهم لمقاصد الشريعة الموصلة لغايتها ، أعني فهم الكتاب والسنة والعمل بهما الموصل لسعادة الدارين والنجاة من شقائهما . كانت الآثار والكتب تتلقى بالرواية عن الثقات للاطمئنان على صحة نسبة ما

فيها إلى أصحابها، وذلك من وسائل حفظها، ولم يبق في الإجازة شيء من هذه الفائدة، وإنما صارت من قبيل حفظ سلسلة النسب لمن يحرص على صحة انتسابه إلى أصل عظيم، وإن لم يكن له أدنى حظ من عظمتها في علم ولا هدى ولا ملك ولا غنى<sup>(١)</sup>.

ويذكر «السنوسي» أنه زار في «دمشق» الشيخ «سليم العطار» محدث «دمشق» (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ)<sup>(٢)</sup>، وكان يومئذ نقهًا من مرض. ويقول: «ودخلت عليه صبيحة يوم الأحد الرابع من ربيع الأول سنة ١٣٠٠هـ وكان مجلسه محتبكا بحضور العائدين من العلماء والوجهاء... وجرت مسائل من علم الكلام والحديث... وبوقوع المشاركة معه فيما عرض من الحديث خشيت أن أسمع منه حديثا قبل أن أروي عليه المسلسل بالأولية<sup>(٣)</sup>، فبادرت له في ذلك المجمع العظيم، وطلبت منه روايته عنه للحصول على شرف سنده!!... ثم طلبت منه الإجازة برواية «الصحيح» الستة<sup>(٤)</sup> بأسانيده فيها، فأجاز لي بها، ثم طلبت منه تعميم الإجازة بما تضمنه ثبت جده الشيخ «أحمد العطار»، فأجاز لي به إجازة تامة. وبإثر ذلك استجازه أغلب الشيوخ الحاضرين فأجازهم بذلك، وعد ذلك من حسن الاجتماع<sup>(٥)</sup>.

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٥٩١/٢.

(٢) قال عنه الزركلي في الأعلام: له إجازات كثيرة لعلماء عصره، وله منهم إجازات. الأعلام ١٤٧/٦.

(٣) هو حديث «الراحمون يرحمهم الله. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وجرت العادة أن يكون أول ما يسمعه الطالب من شيخه. ورواه «الترمذي» برقم ١٩٢٤ كتاب البر والصلة وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٤) قوله: الصحيح الستة هي من باب التجوز، إذ لا يصح عند التحقيق إطلاق ذلك إلا على الصحيحين.

(٥) الرحلة الحجازية ٢٦٦/٣.

وفي ذلك أوضح دليل على اهتمامهم بالمظهر دون المضمون ، والقشر دون اللب .

وقد كان الشيخ «صالح بن إبراهيم الريس» (المتوفى سنة ١٢٤٠هـ) يقرئ «صحيح البخاري» بالحرم يقول أحد تلامذته : (وما تفضل الله به علينا في عام تسع وثلاثين ومائتين وألف أننا سمعنا منه جملة من صحيح الإمام البخاري وكان ذلك تجاه الكعبة مجالس عديدة متوالية من غير انقطاع ، وبعد ختمه لذلك الصحيح مع جملة من العلماء أهل الفضل والاتباع ، أشار شيخنا وأستاذنا الشيخ «عمر بن عبد الكريم بن عبد رب الرسول» على شيخنا المترجم بأن يجيز جميع من حضر ذلك المجلس إجازة عامة فأجابه لذلك وأجاز جملة الحاضرين<sup>(١)</sup> .

ولما سافر الشيخ «علي علاء الدين» (المتوفى سنة ١٣٤٠هـ) موفداً من والده إلى الإمام الشهير النواب «حسن صديق خان» ملك بهوبال سنة ١٢٩٩ هـ في مصلحة طبع كتبه وكتب أبيه «أبي الثناء» فبقي في ضيافته نحو سبعة عشر يوماً . . . فقرأ عليه وعلى شيخه المحدث الكبير الشيخ «حسن ابن محسن اليمني الأنصاري» ما تيسر له . وأجازه كل منهما إجازة عامة<sup>(٢)</sup> .

وهذا الشيخ «محمد بن عبد الحفيظ» لازم «أبا الفيض الكتاني» وانتفع به وأجازه إجازة عامة ، كتب له بالإجازة أئمة علماء الحرمين والشام والعراق والهند والأستانة وغيرهم . . .<sup>(٣)</sup> .

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما فائدة كل هذا؟

(١) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/ ١٧٥ .

(٢) أعلام العراق ص ٧٣ .

(٣) شجرة النور الزكية ص ٤٣٤ .

لا شك أنها مجرد شكليات ورسوم برزت في الناحية العلمية حين خبت جذوتها ، وانطفأ نورها . وقد كان رأي الشيخ «محمد عبده» فيها صائباً ، حيث عدها من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي ، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمي ، وضعف العلوم الشرعية ، حين أضحي الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم ، هو حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - وراثة المنصب العلمي :

من العجيب في تلك الفترة التي ندرسها ما وقع من أمر غريب في الحالة العلمية ، ألا وهو وراثة المناصب التعليمية والشرعية كالتدريس والفتوى والإمامة وحتى القضاء ، فقد غدت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولونها ، تماماً كما تورث الدور والضياع والأموال ، فكثيراً ما كان يحدث أن يموت شيخ يدرس عليه ، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسیه إلى ولده أو أخيه أو أحد أقاربه وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجي البضاعة في العلم ولكن لا بد من التصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الذي رحل عنه .

ويذكر «الجبرتي» أن «عبد الفتاح بن الجوهري» قد تصدر لمنصب التدريس والإقراء بدلاً عن أخيه الأكبر «أحمد» ، مع أنه لم يكن من أهل

---

(١) كما هو الحال بالنسبة لكثير من طلاب الشهادات اليوم ، والله المستعان .



العلم بل هو من التجار ولكن فعل ذلك «حفظاً للناموس وبقاءً لصورة العلم الموروث»<sup>(١)</sup>.

ولا أدري أي ناموس هذا الذي يقضي بتوارث مناصب التدريس والتعليم وحكرها في أسر معينة تتوارثها خلفاً عن سلف. والذي نجزم به أن هذا الناموس كان بعيداً عن روح الإسلام وغريباً عن تعاليمه.

ويذكر «الجبرتي» أيضاً أن والد الشيخ «أحمد بن سالم النفراوي المالكي» (المتوفى سنة ١٢٠٧هـ) لما توفي والده تعصب له الشيخ «عبد الله الشبراوي» وحاز له وظائف والده وتعلقاته وأجلسه للإقراء في مكان درس أبيه وأمر جماعة أبيه بالحضور عليه. وكان الشيخ «علي الصعيدي» من أكبر طلبة أبيه فتطلع للجلوس في محله، وكان أهلاً لذلك، فعارضه الشيخ «الشبراوي» وأقصاه وصدر ولده لذلك، مع قلة بضاعته ولثغة في لسانه...»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان يقصى العلماء الجديرون بتولي مثل تلك المناصب الهامة، ليتولاها من ليس أهلاً لها بدعوى أنها كانت في حوزة آبائهم وتحت ولايتهم، وهم أحق بوراثتها من غيرهم حتى ولو كانوا غير جديرين بها، وكان غيرهم أحق بها. حفظاً للناموس وصورة للعلم الموروث كما قال «الجبرتي»، وفي تعصب الشيخ «عبد الله الشبراوي» شيخ الأزهر في وقته أكبر دليل على تمكن تلك العادة السيئة ذات الآثار الوخيمة من أهل العلم والمتنسين إليه.

وعندما توفي الشيخ «أحمد البراوي الشافعي الأزهري» تصدر بعده

(١) عجائب الآثار ٢/٤٣٣.

(٢) المصدر نفسه ٢/١٥٨.

ولده الشيخ «إسماعيل» (المتوفى سنة ١٢١٤هـ) وكان كما يقول «الجبرتي» :  
«قليل البضاعة إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلطة والتداخل»<sup>(١)</sup> .

وهذا الشيخ «محمد الميني» مفتى «دمشق» : «تصدر لقراءة العلوم الدينية والفنون والعلوم العربية في مدرسة الملك العادل لصيقة داره المشروطة لسكناه مع تدريس العلوم بها ورث ذلك عن آبائه وأجداده ، وقد ورث عنهم أيضاً وظيفة تدريس «البخاري» الشريف تحت قبة النسر . . . وحصّة من الخطابة والإمامة مع تربدارية مقام النبي الحضور . . .»<sup>(٢)</sup> .

وهذا الشيخ «عبد الله بن العلامة سعيد الحلبي الدمشقي الحنفي» : «لما توفي والده تصدر مكانه للتدريس والإفادة . . . وقد تقلد صاحب الترجمة بعد وفاة أبيه درس البخاري تحت قبة النسر في كل جمعة بالجامع الأموي . . . بالنيابة عن القاصر «محمد أفندي الميني» مفتى «دمشق» (السابق ذكره) . . .»<sup>(٣)</sup> .

ولما مات الشيخ «عمر بن عبد الغني الغزي» مفتى الشافعية تولى بعده إفتاء الشافعية ولده «محمد أفندي»<sup>(٤)</sup> .

ولما عين الشيخ «قاسم بن صالح» الشهير بالخلّاق الدمشقي الشافعي إماماً للشافعية بجامع السنانية وذلك سنة ١٢٧٩ هـ ترك إمامة ذاك المسجد لأحد أنجاله<sup>(٥)</sup> .

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢٧٩ .

(٢) منتخبات تواريخ دمشق ٧٨٨ . ومعنى تربدارية المقام إدارة تربة المقام الذي يحوي ضريحاً .

(٣) المصدر السابق ٦٦٧ .

(٤) المصدر السابق ٦٧٢ .

(٥) المصدر السابق ٦٧٤ .

وربما وقعت الخصومات والمنازعات بين أولئك المتعطين لوراثة تلك المناصب كما حدث مع ولد الشيخ «سليم العطار» الذي تولى مكان جده تدريس البخاري في جامع السلطان سليمان . . . «وبعد وفاته قام ولده العالم الفاضل الشيخ «صادق» وطلب درس السليمانية في مكانه حيث هو جدير به إلا إنه عارضه عم أبيه العلامة الشيخ «بكري» صاحب هذه الوظيفة لوفاة والده الشيخ «حامد» عنه وهو مراقب ، فوجهت إليه بالوكالة عن مدرس هذا الدرس اليوم ولده الشيخ «أحمد» الذي كان تاجراً إذ ذاك وكان ذلك سبباً لهجرة الشيخ «صادق» إلى بلاد «فاس»<sup>(١)</sup> .

ويذكر صاحب كتاب «نشر النور والزهر» أن الشيخ «عبد الرحمن عجمي» (المتوفى سنة ١٣٠١ هـ) : «سافر إلى الأستانة بمساعدة الشيخ «عبد الرحمن سراج» ، وكبار الخطباء ، وكتبوا معروضاً ليعرضه على السلطان «عبد العزيز خان» ، عندما أراد بعض الناس - الذي لم يكن من أبناء الخطباء والأئمة ولا من سلكهم - الدخول معهم ومشاركتهم في وظائفهم ، وذلك بمساعدة بعض الحكام . . . فنجح له مطلوبه . . . وأنه خلف ابنين أحدهما . . . الفاضل الشيخ «حسن» وانتقلت إليه وظيفة الخطابة والإمامة»<sup>(٢)</sup> .

يقول المؤرخ التركي أحمد جودت باشا (المتوفى سنة ١٣١٢ هـ)<sup>(٣)</sup> متحدثاً عن تلك الظاهرة السيئة في الدولة العثمانية : « وصار أبناء الصدور

---

(١) المصدر السابق ٧٢٤ .

(٢) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/ ٢٠٥ .

(٣) من الوزراء في البلاط العثماني وصاحب «تاريخ جودت» بالتركية ، يقع في اثني عشر مجلداً . الأعلام ١/ ١٠٨ .

والقضاة ينالون وظيفة التدريس وهم أحداث وأطفال ، و يترقون لذلك في الوظائف حتى إن الواحد منهم لتأتيه نوبته في المولوية <sup>(١)</sup> وما طر شاربه ولا اخضر عذاره . وكان ينال التدريس أيضاً كل ذي وجاهة واعتبار حتى صارت المراتب والمناصب العلمية تؤخذ بالإرث ، فسهل على الوزراء ورجال الدولة تقليدها لأبنائهم وغيرهم ، فازدحم عليها الغوغاء وصار الجهال يروج بعضهم في بعض ، والتبس الأمر وفسد أي فساد <sup>(٢)</sup> .

ويقول «محمد كرد علي» في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني : «وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن ، وكان المفتي «أبو السعود» من مشايخ الإسلام في الأستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء ، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم ، بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء الأميين ، وكم من أمي غدا في «دمشق» و«حلب» و«القدس» و«بيروت» قاضي القضاة ، أما في الأقاليم فرجما كان الأميون أكثر من غيرهم...» <sup>(٣)</sup> .

ويقول «عبد الوهاب عزام» : « كانت خطابة الجوامع الكبيرة منصباً مشرفاً في تاريخ المسلمين ، وكثير من علمائنا يلقبون بالخطيب ، وكانت هذه المناصب متوارثة ، يخلف فيها الأبناء الآباء ، وتحرص الأسر على

(١) المولوية : ثاني رتبة في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر .

(٢) نقلاً عن المنار ١/ ٧٤٨ .

(٣) خطط الشام ٣/ ٧٠ .

شرفها ، كما كانت في تاريخنا بيوت تعرف بالقضاء وأخرى بالفقه وهكذا...»<sup>(١)</sup> .

ويقول الدكتور « الشيال » معدداً عيوب نظم التعليم في تلك الفترة :  
«منها أن وظائف التدريس كانت أحياناً تؤخذ بالوراثة لا بالجدارة ، فيعين الابن مدرساً مكان أبيه ، ولو لم يكن كفوئاً لتولي هذه الوظيفة»<sup>(٢)</sup> .

تلك العادة السيئة كان لها آثار وخيمة في انحدار مستوى التعليم ، وضعف الحياة العلمية عند المسلمين ، وذلك بتوارث تلك المناصب الدينية ، وحكروها في أسر معينة ، فيتربع عليها الجهال ويقصى عنها العلماء الأكفاء ، وكذلك بشغلها عقول العلماء وتفكيرهم أولاً وآخرأ في كيفية حيازة تلك المناصب والاستئثار بها والتنافس من أجلها ، كل ذلك ساعد على ركود الأحوال العلمية وتغلغل الضعف فيها .



---

(١) رحلات «عبد الوهاب عزام» ص ٤٠٣ .

(٢) الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث ص ١١ .



## الفصل الثاني

### التعصب المذهبي

من الانحرافات التي اشتدت وطأتها في القرون المتأخرة خصوصاً القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ما عرف بالتعصب المذهبي ، ذلك الداء العضال الذي استشرى مع الأيام خطره ، وأعيا دواؤه ، وقد ساعد هذا الداء الخطير على إضعاف المستوى التعليمي ، وانحدار العلوم وجمودها وتكبير العقول والأفهام والحجر عليها . بالإضافة إلى ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم ، وزرع العداة والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم ، بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات ، كل طائفة تناصر مذهبها وتعادى غيرها من أجله ، وكم تكون المصيبة حين يجتمع في البلدة الواحدة مذهبان ، فتصبح مسرحاً للعداء المتفاقم بين الطائفتين ، وتحرص كل طائفة أن تفرض هيمنتها على المدينة التي تقطنها ، وتبسط نفوذها على ما جاورها من قرى وأماكن ، فليس بمستغرب بعد هذا أن ينقرض مذهب عاش زمناً طويلاً في بلد ما ، بسبب النزاعات الدائمة وهجرة الفقهاء بسببها .

وزاد من حدة هذا البلاء مشاركة الحكام وذوي المناصب في تلك النزاعات المحتدمة ، ووقوفهم بسلطاتهم إلى جانب أنصار مذهبهم يدافعون عنهم ويفرضون سيطرتهم على مخالفينهم وينزلون ما شاءوا من العقوبات عليهم .

«وشب بذلك عداة طويل بين المذاهب المختلفة ، وأسفر العداة عن

معارك طاحنة ، وأسفرت المعارك عن خراب ودمار ، وقد شمل هذا الدمار كثيراً من البلدان ، وحسبك أن تقرأ في «معجم البلدان» لـ«ياقوت» لترى أنه في عدة مواضع يقول : وقد خربت هذه البلدة بسبب الخلاف بين الشافعية والحنفية»<sup>(١)</sup> .

يقول الشيخ «محمد قطب» عن التعصب المذهبي الذي عم الدارسين : «كل يتعصب لمذهبه الذي نشأ عليه ويجعل قصارى جهده من أجل دينه أن يثبت تفوق مذهبه وشيوخه على المذاهب الأخرى وشيوخها ، وأن يدخل في معارك من أجل المذهب تتجاوز في كثير من الأحيان حد الجدل باللسان ، إلى التدافع بالأيدي والأبدان ، وفشت الفرقة والتنازع بين أصحاب المذاهب المختلفة حتى إن أحدهم قد يرفض أن يصلي خلف إمام من غير مذهبه بل قد يقاتل أخاه في الصلاة ؛ لأنه رآه إلى جواره يرفع يديه أو يضعهما على صدره بما يخالف مذهبه ، ويحس أن مقاتلته لأخيه في الإسلام على هذا النحو هي «الخدمة» التي يؤديها للإسلام»<sup>(٢)</sup> .

وإن الألم ليعصر قلب المؤمن ويتملكه الأسى حين يدخل إلى الحرم أو إلى مسجد رسول الله ﷺ أو المسجد الأقصى وغيرها من المساجد والجوامع الكبار كجامع الأزهر والجامع الأموي بدمشق في ذلك الزمن فيرى المسلمين طوائف وجماعات ، كل طائفة تصلي خلف إمام مذهبها ، ولا ترى أن صلاتها تصح خلف غيره . فأى فرقة أعظم من هذه .

ويذكر الشيخ «أحمد السباعي» قصة وقعت أحداثها في القرن الحادي

---

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢٤٤ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٧٦ .



عشر في المسجد الحرام فيقول : «وفي هذا العهد كانت خطبة عيد الفطر للإمام «زين العابدين الطبري» وهو من الأئمة الشافعية وكان المتبع أن يعد الخطيب «سماطاً» (وهو ما يبسط ليضع عليه الطعام) في بيته لاستقبال رواده بعد صلاة العيد مباشرة فلما تأهب لهذا في آخر يوم من رمضان وافى نبأ مستعجل من دار الخلافة بنقل الخطبة إلى أئمة الحنفية ، وهو المذهب الشائع في سائر بلاد الترك وقد اتصل النبأ بوالد «زين العابدين» فحاول المراجعة قبل أن يبلغ الخبر ابنه فلم ينجح وعندما عاد إلى داره مساء ذلك اليوم كان ابنه قد أعد لكل شيء عدته ، فلما أخبره شقيق شقيقة فاضت فيها روحه .

وهكذا اعتلى خطيب الحنفية المنبر بينما كان جثمان خطيب الشافعية في نعشه على خطوات منه ينتظر صلاة الجنازة وهكذا يتعسف الحكام في سبيل نصرة مذاهبهم»<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الفترة التي نعنى بدراستها تفاقم هذا البلاء وعم البلاد والأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر .

فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية خصوصاً بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر<sup>(٢)</sup> . . .

---

(١) تاريخ مكة ١٩/٢ . والجدير بالذكر أن الصلاة في الحرم المكي كانت تقام للمذاهب الأربعة فكان لكل مذهب مكان معروف وجهة واحدة من جهات الكعبة الأربع يصلون فيه ولم تقطع تلك البدعة الشيعة إلا بدخول الملك «عبد العزيز» رحمه الله مكة سنة ١٣٤٣ هـ وأمره بإبطالها .

(٢) ومن ذلك حين لجأ الشوافع إلى مقام الشافعي لنقض ما أبرمه الوالي من إسناد منصب شيخ الأزهر إلى فقيه حنفي ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك . انظر عجائب الآثار ٢/٢٤٢ .

ففي إحدى المرات خلت مشيخة الأزهر من شيخ يتصدر لها قرابة الستين وذلك بسبب النزاع والشغب الذي نشب بين الحنفية والشافعية<sup>(١)</sup> .

وهكذا ينسى هؤلاء العلماء الرسالة المنوطة بعواتقهم من نشر العلم الشرعي وتبصير الناس بأمور دينهم ومحاربة الجهل ، وينصرفون إلى المنازعة والخصومة فيما بينهم بسبب التعصب المقيت الذي سيطر على عقولهم وقلوبهم .

ويذكر صاحب المنار عن أحد شيوخ الأزهر قوله : « إن علم الحديث لاحاجة إليه في هذه العصور البتة . أما من حيث الرواية فقد فرغ منه من قرون ، وأما من حيث الدراية فلا يجوز لمسلم أن يأخذ بالحديث ، بل الواجب الأخذ بكلام الفقهاء ، ومن ترك كلام فقهاء مذهبه للأخذ بحديث مخالف فهو زنديق !! »<sup>(٢)</sup>

ويذكر العلامة «محمود شكري الألوسي» عن المدعو بالسيد «أحمد بن السيد إبراهيم النقشبندي الخالدي» : أنه كان شافعي المذهب متعصباً فيه لا يرى تقليد غيره... »<sup>(٣)</sup> .

ويذكر الإمام «الشوكاني» أنه اجتمع بالشيخ «صديق بن علي المزجاجي الزبيدي الحنفي» في بعض المواقف بمحضر جماعة فيقول : وقعت بيني وبينه مراجعة في مسائل ، وأكثر الاعتراض في مسائل من فقه الحنفية وأوردت الدليل ، وهو يتمحل الجواب لما يوافق الحنفية ويتنصر لهم ، فلما خلوت به قلت له : اصدقني هل ما تبديه في المراجعة تعتقده اعتقاداً جازماً ، فإن مثلك

(١) الأزهر . تاريخه وتطوره ص ٣٢٧ .

(٢) المنار ١/ ٨٢٣ .

(٣) المسك الأذفر ص ٨٢ .

في علمك بالسنة لا يظن به أنه يؤثر مذهبه الذي هو محض الرأي في بعض المسائل على ما يعلمه صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ ، فقال : لا أعتقد صحة ما يخالف الدليل وإن قال به من قال ، ولا أدين الله بما يقوله أبو حنيفة وأصحابه إذا خالف الحديث الصحيح ولكن المرء يدافع عن مذهبه<sup>(١)</sup> .

والسؤال هو لماذا يدافع عن مذهبه إذا خالف الدليل . أليس ذلك هو التعصب بعينه ؟ .

ويقول الشيخ «محمد المجذوب» : «ولقد والله سمعت واحداً من هؤلاء (المتعصبين) ومن ذوي المناصب الدينية العالية ، يقول لي بصراحة مدهشة : «إنني لأخذ بكلام شيخي ، ولو تعارض مع نص نبوي ثابت ، لأنني أشك بعلمي ، وأثق بمأخذ شيخي» تماماً كما فعل الذين من قبلهم إذ كانوا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ . . . وهذا الكلام قد تجد له تأويلاً يرضيك ، ولكنني لا أفهم منه سوى الجهل المطبق بمذاهب الأئمة أنفسهم ، الذين يقررون جميعاً أن الحديث هو مذهبهم إذا صح . ثم الجهل المطبق بكتاب الله الذي يتعبد عباده بمتابعة الرسول ﷺ دون غيره من الخلق ، فلا دين إلا ما جاء به فقط ، وكل كلام أو عمل من غيره فوسيلة إلى معرفة ما قال الله وقال رسوله . . . »<sup>(٢)</sup> .

ويقول العلامة «محمود شكري الألوسي» : وقد سمعت من بعض قضاة الأتراك أنه قال : إذا رأيت نصاً في منية المصلي (من كتب الأحناف) ،

(١) البدر الطالع ١/ ٢٩٣ .

(٢) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٣٢ .

ورأيت حديثاً في صحيح الإمام البخاري يخالف ذلك النص ، أخذ بما في  
المنية ، وأترك الحديث الصحيح ، ولا أعمل به . فانظر إلى هذه الغباوة  
والجهل العظيم<sup>(١)</sup> .

ويقول «محمد يوسف البنوري» عن شيخه «أنور»<sup>(٢)</sup> : «وقد قضى نحو  
ثلاثين عاماً وهو شطر عمره الشريف في خدمة مذهب إمامنا ومقتدانا الإمام  
القطب الذي تدور حوله رحى الفقه من فقهاء الأمصار الإمام الكوفي «أبي  
حنيفة» . . . ، وكان يقول عن نفسه : قد أسست بنيان الحنفية بحيث لا يفنى  
مذهبهم مائة سنة إن شاء الله . . .»<sup>(٣)</sup>

وهذا الشيخ «جمال الدين العظيم آبادي» يذكر أنه رأى النبي ﷺ يتوضأ  
فسأله ﷺ من يوافئك في الوضوء من المجتهدين ، فقال «أبو حنيفة»!!<sup>(٤)</sup> .

ولما قام الشيخ «أحمد عرفان» بدعوته في الهند ، ومال بعضهم إلى  
رفع اليدين في الصلاة شنع عليهم المتعصبون ، ومن هؤلاء «كرامة  
علي الجونيوري» (المتوفى سنة ١٢٩٠هـ) الذي قال عنهم : «إنهم تمذهبوا  
بمذهب جديد ، وافترى عليهم غير ذلك ، ورغبهم عن الكتاب والسنة  
وقال : إن القرآن والحديث عسيران جداً ، وفهم ذلك لا يتيسر إلا  
للمجتهدين»<sup>(٥)</sup> !! .

---

(١) غاية الأمانى في الرد على النبهاني ٧٠ / ١ .

(٢) هو الشيخ «محمد أنور شاه الكشميري» (المتوفى سنة ١٣٥٣هـ) .

(٣) نفحة العنبر في حياة إمام العصر «أنور» ص ٩٢ «محمد يوسف البنوري» . إدارة المجلس  
العلمي . «كراتشي» .

(٤) نزهة الخواطر وبهجة السامع والنواظر ٧ / ١٢٢ .

(٥) المصدر السابق ٧ / ٢٣٧ .

ووصل الأمر حتى قال بعض المتأخرين من الأحناف : إن الحنفي إذا صار شافعيًا يعزر<sup>(١)</sup>

«والأحناف في بلغاريا وقزان يعدون ذكر الجهر بالتأمين بدعة ، وينهرون عنه صاحبه ، وينكرون عليه أشد الإنكار»<sup>(٢)</sup> .

وكان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، فلا يلي الإفتاء والقضاء إلا من كان حنفيًا . لذا كان الانتقال إلى مذهب أبي حنيفة ظاهرة واضحة . فهذا الشيخ «أحمد بن محمد الخاني الحنفي» يقول عنه «البيطار» : «وكان شافعي المذهب ، إلا أنه لما تولى القضاء في بعض الأماكن للضرورة الداعية لذلك ألزمته ظروف الأحوال للانتقال لمذهب سيدنا الإمام أبي حنيفة النعمان . . .»<sup>(٣)</sup> .

ويقول عن الشيخ «حسين بن سليم الدجاني الشافعي» «انتقل إلى المذهب الحنفي بقصد الإفتاء مع أنه إلى موته يتعبد على مذهب الشافعي»<sup>(٤)</sup> .

وكان المتحررون من أغلال هذه المذاهب عرضة لاضطهاد المتعصبين الذين يستعدون عليهم السلطة في كثير من الأحيان . فهذا الشيخ «إبراهيم بن أبي إبراهيم البنكالي» رفض التقليد ، وكان يعمل بنصوص من الكتاب والسنة ، فشنع عليه المتعصبون والجامدون ، ونسبوا إليه أقوالاً غير مرضية كعادتهم دائماً<sup>(٥)</sup> .

---

(١) المصدر السابق ٢٨٧/٧ .

(٢) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ٤٠٤/٢ .

(٣) حلية البشر ١٨٥/١ .

(٤) المصدر السابق ٥٣٨/١ .

(٥) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/٧ .

ولما خالف الشيخ المحدث «عبد الله الغزنوي» (المتوفى سنة ١٢٩٨هـ) العلماء في عصره في بعض المسائل الفرعية ، استدعاه أمير «كابل» ، وأشار عليه بأن يوافق العلماء في المسائل التي خالفهم فيها ، ولكنه أبى ، وكان الأمير لا يقدر أن يخالف العلماء فأمر أن تنتف لحيته ، ويسود وجهه ، ويركب على الحمار ، ويشهر في البلد ، ثم يجلى إلى بلاد الهند<sup>(١)</sup> .

بل لقد كان التعصب وضيق الأفق يسودان تلك الفترة المظلمة في كل المجالات العلمية ، وليس المجال الفقهي فقط ، ومن هذه المجالات التي هيمن عليها التعصب ، مجال اللغة وعلومها .

فقد ذكر «السنوسي» أنه التقى بالشيخ «محمد محمود الشنقيطي» (المتوفى سنة ١٣٢٢هـ)<sup>(٢)</sup> في المدينة بعد أن خرج من مكة إليها بسبب معاداة علماء الحرم له ، والسبب كما يقول : «أنه غلط «سيويو» فمن بعد إلى «ابن مالك» و «ابن هشام» في مسألة قولهم بمنع صرف «ثعل» للعلمية والعدل ، مع أن العدل إنما يلتجأ إليه في علل منع الصرف إذا ورد الاسم ممنوعاً من الصرف ، ولم تعرف له علة ، وهذا ثعل لم يرد عن العرب إلا مصروفاً . . . وبذلك نشأت لي جميع العداوات التي أنا فيها ، وصرت في الحرمين مثلاً ، وربما سموني ثعل الشنقيطي ، حتى إن بعض علماء «مكة» نظم نظماً في العلوم وقال فيه :

وصنته جهدي من التخليط فلم يكن كثعل الشنقيطي<sup>(٣)</sup>  
«لقد مني الفقه الإسلامي بظاهرتين : إحداهما التعصب المذهبي ،

(١) المصدر السابق ٣٠٣/٧ .

(٢) الأعلام ٨٩/٧ وصفه الزركلي بعلامة عصره في اللغة والأدب .

(٣) الرحلة الحجازية ١٧٠/٣ .

وثانيهما التقليد البعيد عن معرفة الدليل الشرعي الأصلي ، وهو غالباً تقليد لفقيه متأخر من فقهاء المذاهب أو المؤلفين فيه .

وبالبعد عن نصوص القرآن والسنة ضعفت الملكة الفقهية ، وضيق على الناس أفق الشرع الواسع ، وظهرت العصبية بين المذاهب حتى كان يصلي في كل مسجد أئمة بعدد المذاهب المتبعة في ذلك البلد ، وتقام عدة جماعات في آن واحد أو على التعاقب ومن البديهي حينئذ أن تختفي ملكة الاجتهاد حتى في صورها الجزئية والمحدودة ، وألا يظهر مجتهدون كبار وأن تقف وتركد الحيوية في هذا المجال كما ركدت الحياة في المجالات الأخرى»<sup>(١)</sup> .

ويتحدث الإمام «الشوكانى» رحمه الله عن التعصب المذهبي في زمانه فيقول : «ولقد شاهدنا من هذه الطبقة ما لو سردنا بعضه لاستعظمه سامعه واستفظعه...»<sup>(٢)</sup> .

ثم يبين - رحمه الله - حال أولئك المتعصبين الذين يكادون أن يكونوا خالين من العلوم إلا ما تحزبوا عليه وتعصبوا له من فقه بلا دليل فيقول :

«فإنهم إذا استفرغوا وسعهم في علم الرأي وأنفقوا في الاشتغال به شطراً من أعمارهم وسكنت نفوسهم إلى التقليد سكوناً تاماً ، وقبلته قبولاً كلياً ، لم تبق فيهم بقية لفهم شئ من العلوم ، وقد شاهدنا من هذا الجنس من لا يأتي عليه الحصر ، قد تقتضيه في بعض الأحوال رغبة تجذبه إلى النظر في علم النحو ، فلا يفهمه قط فضلاً عن سائر علوم الاجتهاد التي يفتتحها الطلبة بهذا العلم ... فإنه قد ارتكز في ذهن غالب هؤلاء أن الصحة

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٥٦ .

(٢) أدب الطلب ص ٤٧ .

والسلامة لهم هي في نفس العلة التي قد تمكنت من أذهانهم فسرت إلى قلوبهم وعقولهم وأشربوا من حبها زيادة على ما يجده الصحيح عن العلة من محبة ما هو فيه من الصحة والعافية ، وسبب ذلك أنهم اعتقدوا إمامهم الذي قلده ليس في علماء الأمة من يساويه أو يدانيه ، ثم قبلت عقولهم هذا الاعتقاد الباطل وزاد بزيادة الأيام والليالي حتى بلغ إلى حد يتسبب عنه أن جميع أقواله صحيحة جارية على وفق الشريعة ليس فيها خطأ ولا ضعف ، وأنه أعلم الناس بالأدلة الواردة في الكتاب والسنة على وجه لا يفوت عليه منها شيء ولا تخفى منها خافية ، فإذا أسمعوا دليلاً في كتاب الله أو سنة رسوله قالوا لو كان هذا راجحاً على ما ذهب إليه إمامنا لذهب إليه ولم يتركه ، لكنه تركه لما هو أرجح منه عنده ، فلا يرفعون بذلك رأساً ولا يرون بمخالفته بأساً .

وهذا صنيع قد اشتهر عنهم وكاد أن يعمهم قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر على اختلاف المذاهب وتباين النحل ، فإذا قال لهم القائل اعملوا بهذه الآية القرآنية أو بهذا الحديث الصحيح قالوا لست أعلم من إمامنا حتى نتبعك ، ولو كان هذا كما تقول لم يخالفه من قلده . فهو لم يخالفه إلا إلى ما هو أرجح منه وقد ينضم إلى هذا من بعض أهل الجهل والسفه والوقاحة ووصف ذلك الدليل الذي جاء به المخاطب لهم بالبطلان والكذب إن كان من السنة ولو تمكنوا من تكذيب ما في الكتاب العزيز إذا خالف ما قد قلدها فيه لفعلوا<sup>(١)</sup> .

ثم يبين - رحمه الله - السبب في وقوع التعصب وشيوعه واستفحاله في عصره فيقول :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨ .



«واعلم أن سبب الخروج عن دائرة الإنصاف والوقوع في موبقات التعصب كثيرة جداً فمنها وهو أكثرها وقوعاً وأشدّها بلاءً أن ينشأ طالب العلم في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معين واقتدوا بعالم مخصوص وهذا الداء قد طبق في بلاد الإسلام وعم أهلها ولم يخرج عنه الأفراد ، قد يوجد الواحد منهم في المدينة الكبيرة ، وقد لا يوجد ، لأن هؤلاء الذين ألفوا هذه المذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة ، وأن ما خرج عنها خارج عن الدين مباین لسبيل المؤمنين ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم ، وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة .

وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك والسبب أنهم نشأوا فوجدوا آباءهم وسائر قراباتهم على ذلك ، ورثه الخلف عن السلف والآخر عن الأول وانضم إلى ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق بسبب التغيير الذي ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم ، وإذا وجد فيهم من يعرف فهو لا يستطيع أن ينطق بذلك مع أخص خواصه وأقرب قرابته فضلاً عن غيره لما يخافه على نفسه أو على ماله أو على جاهه حسب اختلاف المقاصد وتباين العزائم الدينية . . .

فإذا سمع عالماً من العلماء يفتي بخلافه أو يعمل على ما لا يوافقه اعتقد أنه من أهل الضلال ومن الدعاة إلى البدعة، وهذا إذا عجز عن إنزال الضرر به بيده أو لسانه فإن تمكن من ذلك فعله معتقداً أنه من أعظم ما يتقرب به إلى الله، ويدخره في صحائف حسناته ويتاجر الله به ، وهذا معلوم لكل أحد، وقد شاهدنا منه ما لا يأتي عليه حصر ولا تحيط به عبارة ، بل قد بلغ

هذا المتعصب في معاداة من يخالفه إلى حد تجاوز به عداوته لليهود والنصارى...»<sup>(١)</sup>.

ويتحدث الإمام «الشوكاني» رحمه الله عما جناه هذا التعصب المقيت على الشريعة الإسلامية فيقول : «ولقد عظمت المحنة على الشرع وأهله بهذا الجنس من المقلدة حتى بطل كثير من الشريعة الصحيحة التي لا خلاف بين المسلمين في ثبوتها لاشتهارها بين أهل العلم ، ووجودها إما في محكم الكتاب العزيز أو في ما صح من دواوين السنة المطهرة التي هي مشتهرة بين الناس اشتهاً على وجه لا يخفى على من ينسب إلى العلم ، وإن كان قليل الحظ فيه .

وسبب ذلك أن هؤلاء كما عرفت قد جعلوا غاية مطلبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به ، وتكالبهم عليه ، ورغبوا عما عداه وزهدوا فيه زهداً شديداً ، فإذا سمعوا آية من كتاب الله أو حديثاً من سنة رسول الله ﷺ مصرحاً بحكم من الأحكام الشرعية تصريحاً يفهمه العامة من أهل طبقتهم كان ذلك هيناً عندهم كأنه لم يكن كلام الله أو كلام رسوله ، ويطرحونه لمجرد مخالفته لحرف من حروف ذلك الكتاب ، بل مفهوم من مفاهيمه ، وهذا لا ينكره من صنيعهم إلا من لا يعرفهم .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣ .

وقد عرفت منهم من لو جمع له الجامع مصنفًا مستقلاً من أدلة الكتاب والسنة يشتمل على أدلة قرآنية وحديثية ما يجاوز المئين أو الألوف كلها مصرح بخلاف حرف من حروف ذلك المختصر الذي قد عرفه من الفقه لم يلتفت إلى شئ من ذلك ، ولو انضم إلى الكتاب والسنة المنقولة في ذلك المصنف إجماع الأمة سابقها ولاحقها وكبيرها وصغيرها من كل من ينتسب إلى العلم على خلاف ما في ذلك المختصر لم يرفع رأسه إلى شئ من ذلك ، ولا أستبعد أنه لو جاءه نبي مرسل أو ملك مقرب يخبره أن الحق الذي شرعه الله لعباده خلاف حرف من حروف ذلك المختصر لم يسمع منهما ولا صدقهما بل لو انشقت السماء وصرخ منها ملك من الملائكة بصوت يسمعه جميع أهل الدنيا بأن الحق على خلاف ذلك الحرف الذي في المختصر لم يصدقهما ولا رجع إلى قوله . . .

وبالجملة فمن كان بهذه المنزلة فهو ممن طبع الله على قلبه وسلبه نور التوفيق فعمي عن طريق الرشاد وضل عن سبيل الحق ، ومثل هذا لا يستحق توجيه الخطاب إليه ولا يستأهل الاشتغال به فإنه وإن كان في مسلاخ إنسان وعلى شكل بني آدم فهو بالدواب أشبه وإليها أقرب وإياليته لو كان دابة ليسلم من معرفته عباد الله وشريعته ، ولكن هذا المخذول مع كونه حماري الفهم بهيمي الطبع قد شغل نفسه بالخط على علماء الدين المبرزين المشتغلين بالكتاب والسنة وعلمهما وما يوصل إليهما وعاداهم أشد العداوة وكافحهم بالمكروه مكافحة ونسبهم إلى مخالفة الشرع ومباينة الحق بسبب عدم موافقتهم له على العمل بما تلقنه من شيخه الجاهل<sup>(١)</sup> .

---

(١) أدب الطلب ص ٦٠ .

ثم ينعي - رحمه الله - حال الأمة بسبب هؤلاء المتعصبين واستيلائهم على كل المجالات الدينية والعلمية لأنهم «قد طبقوا جميع أقطار الأرض الإسلامية وصارت المدارس والفتاوى والقضاء وجميع الأعمال الدينية بأيديهم فإن كل مملكة من الممالك الإسلامية يعتزى أهلها إلى مذهب من المذاهب ونحلة من النحل وكل بلد من البلاد وقطر من الأقطار كشرت أو قلت لا بد أن يكون أهلها مقلدين لميت من الأموات يأخذون عنه ما يجدونه في مؤلفاته ومؤلفات أتباعه المقلدين له حتى صارت مسائل مذهبهم نصب أعينهم لا يتحولون عنها ولا يخالفونها ، ويعتقد من تفاقم تعصبه من المقلدة أن الخروج عن ذلك خروج من الدين بأسره ، وإن كانت بقية المذاهب على خلافه في تلك المسألة كما نجد في كل مذهب من المذاهب الأربعة وغيرها»<sup>(١)</sup> .

ثم يقول رحمه الله : ومع هذا فهذه المذاهب قد طبقت الأقطار وصارت عند المنتمين إلى الإسلام قدوة يقتدون بها ، لا يخرج عنها ويجتهد رأيه ويعمل بما قام عليه الدليل إلا الفرد بعد الفرد والواحد بعد الواحد ، وهم على غاية الكتم لما عندهم والتستر بما لديهم ، خوفاً من المتمذهبين ، لأنهم قد جعلوا المذهب الذي هم عليه حجة شرعية على كل فرد من أفراد العباد ، لا يخرج عنه خارج ولا يخالفه مخالف ، إلا مزقوا عرضة وأهانوه وأخافوه ، والدولة في كل أرض معهم وفي أيديهم . والملوك معهم لأنهم من جنسهم في القصور والبعد عن الحقائق ، وإذا وجد النادر من الملوك ، والشاذ من السلاطين له من الإدراك والفهم للحقائق ما يعرف به الحق

---

(١) المصدر السابق ص ٨١ .

والمحققين فهو تحت حكم المقلدة وطوع أمرهم لأنهم جنده ورعيته . . . »<sup>(١)</sup> .  
ويعتبر الإمام «الشوكاني» رحمه الله أن هذه المذاهب التي جلبت  
التعصب والشقاق من الدواهي العظيمة التي رزى بها الإسلام حيث يقول :  
«واعلم أن المفاصد الماحقة لبركة العلم والمفرقة لكلمة المسلمين كثيرة جداً ،  
والإحاطة بها تتعسر ، وقد ذكرنا هنا ما حضر عند التحرير . وأعظم ما  
أصيب به دين الإسلام من الدواهي الكبار ، والمفاصد التي لا يوقف لها في  
الضرر على مقدار ، أمران أحدهما : هذه المذاهب التي ذهبت ببهجة  
الإسلام وغيرت رونقه وجهت وجهه . . . »<sup>(٢)</sup> .

ويقول الشيخ «محمد بن الحسن الحجوي» بعد أن ذكر عبارة صاحب  
«جمع الجوامع» في وجوب التزام مذهب معين من المذاهب الأربعة وهي :  
«الأصح أنه يجب على من لم يبلغ رتبة الاجتهاد التزام مذهب معين يعتقد  
أرجح أو مساوياً ثم ينبغي السعي في اعتقاده أرجح» . وبمثل هذه الأقوال نشأ  
الجمود وتأخر الفقه<sup>(٣)</sup> .

ثم يقول : وتعلم أن قولهم خلاف العلماء رحمة لما كانت الأخلاق  
مهذبة في الصدر الأول زمن الصحابة ومن بعدهم كـ«مالك» و«ابن حنبل»  
وأضرابهما لا في هذا الزمن الذي ظهر فيه التعصب فقد صار الخلاف فيه نقمة  
وسبب الفرقة ، كما أشار «العايشي»<sup>(٤)</sup> في الرحلة قائلاً :

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٣) الفكر السامي ٢/ ٤١٤ .

(٤) هو «عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي» من أهل «فاس» ، قام برحلة دونها في كتابه  
«الرحلة العياشية» توفي سنة ١٠٩٠ هـ انظر الأعلام ٤/ ١٢٩ .

من طاف الحجاز والعراق والشام وديار المشرق ، علم ذلك فإن المالكي مثلاً إذا كان في بلد ليس فيه عالم مالكي ، ونزلت به نازلة أو نوازل في دينه يأنف أن يسأل من هو شافعي ، فيعمل عن جهل أو يسأل عامياً مثله . . . وكم من عالم في الشام وغيرها أريد توظيفه في بلد أهلها حنابلة في الفتوى مثلاً ، فيلزم أن ينتقل من مذهبه الأصلي كـ «الشافعي» ، ويصير حنبلياً كي يكون مفتياً ، مع أن هذا سهل لا بأس به ، ولكنه من أدلة ما كان لهم من التعصب الذميم .

وهناك بالمشرق أوقاف خاصة بالشافعية ، وأخرى بالحنفية مثلاً ، ومدارس لا ينال التدريس بها إلا من كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة ، ووظائف كذلك من قضاء وفتوى ، فكان هذا العمل مما أوجب بقاء العلماء يقلدون ولو بلغوا درجة الاجتهاد . . . والله در «الشعراني» إذ يقول : إن أعدى عدو للإمام «المهدي» عند خروجه هم الفقهاء ، لأنهم مقلدون ، يعتقدون الحق في أئمتهم قد انحصر ، متعصبون ، وهو مجتهد ، ووزراؤه مجتهدون ، وهو فرع ظريف ناشئ عن فكر لطيف ، وإغاظه لقول بعض الحنفية أن الإمام المهدي يتمذهب بمذهبهم . فانظر إلى هذه الهذيان التي شغلت أفكار الأمة<sup>(١)</sup> .

«إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة ، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً ، وأرثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم ، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام ، وقد كان أهمها في

---

(١) الفكر السامي ٢/ ٤٨٨ .

هذا العصر الاستعمار ، أي استيلاء غير المسلمين على بلاد الإسلام ، وجعلها تحت حكمهم والإلحاد والتشكيك في الإسلام . وقد كان ذلك مقترناً مع الاستعمار ومساعداً له . . . ، وقد دخل الإلحاد والشك عن طريق الأوروبيين الغربيين أولاً سواء أكانوا مدنيين باسم العلمانية والعلم وتحت ستارهما أم كانوا مبشرين بالمسيحية ، فاكثفوا بتشكيك المسلمين بدينهم مساعدة للمستعمرين من بني قومهم لإضعاف مقاومة المسلمين وتمزيقاً لوحدة صفوفهم ، ثم استمر انتشاره واشتد عن طريق الشيوعية ومذهبها المادي ، والعدو الثالث المشترك والمهم مع العدوين السابقين هو اليهودية العالمية والصهيونية .

«إن ما أحدثته العصبية من جفاء وعداوة وانقسام بين المسلمين المتقسمين إلى مذاهب قد شغلهم عن هذه الأخطار الثلاثة ، وشغلت بعضهم ببعض عن صد غزوات أعدائهم الحربية والفكرية ، فكانت العصبية عوناً لأعدائهم عليهم . . . » .

«إن الانشغال بهذه الخلافات بين المسلمين وبمعاودة المخالفين من أهل القبلية صرف جمهور المسلمين عن قضايا العالم الإسلامي الكبرى ، سواء منها السياسية كقضايا فلسطين وكشمير والصومال وأرتيريا وتنزانيا أو العقائدية كالغزو العقائدي والفكري»<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان التعصب المذهبي انحرافاً عظيماً اتسعت به دائرة الانحرافات وزاد في عمقها من حيث حجره على العقول ، وتكيله للأفهام ، وتسببه في جمود العلوم ، وكذلك ما بثه بين المسلمين من عداة ونزاع وانقسام ، مما كان

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٩٠ .

له أعظم الأثر في التدهور الذي وصل إليه المسلمون ، والانحطاط الذي  
وقعوا فيه .





## الفصل الثالث

### رفض إعادة فتح باب الاجتهاد

لا ينقطع بالإنسان العجب حين يطالع تلك القضية الخطيرة التي أطلق عليها «إغلاق باب الاجتهاد»، وإن كان المرء ليعجب من جميع الانحرافات التي وقعت فيها الأمة <sup>(١)</sup>، إلا أن ذلك الانحراف ليزداد منه العجب، وذلك حين يعد الحجر على العقول ومصادرة الأفكار والأفهام ديناً يتقرب به إلى الله عز وجل، ويقول بذلك جماهير من العلماء المعتبرين والمبرزين فيما دعوا إلى إغلاقه وسده.

فلقد «أثر عن بعض الفقهاء القول بأن الاجتهاد أصبح بعيد المنال، لا يستطيع الوصول إليه أحد من العلماء، مهما وصلت درجته العلمية، وليس أمام الناس علماء وجهال، خاصة وعامة إلا التقليد والاتباع.

إن هذا والله العجب العجيب، من هذا الذي حجر على العقول أن تنظر في دين الله وشريعته، مستنبطة للأحكام «مستخرجة لها من أدلتها التي نصبها الشارع للتوصل لمعرفة الحكم الشرعي، أكان الاجتهاد وقفاً على طبقة معينة أو جيل من الفقهاء قد مضى، أو على فئة مخصوصة انتهى الاجتهاد بانتهائها؟ فعلى أي أساس جاز هذا القول وعلى أي قاعدة علمية صدر الحكم على باب الاجتهاد بإغلاقه؟ ولمصلحة من قيل هذا القول الفظيع الخطير.

---

(١) ولا يقل عنها عجباً الفكر الإرجائي الذي هيمن على حياة الأمة، وأصبح معتقد السواد الأعظم منها.

أيراد أن يتهم الإسلام وشريعته التي خاطبت العقول بأن من مبادئ الإسلام الجمود والتوقف والحجر على النظر»<sup>(١)</sup> .

يقول الشيخ «محمد قطب» موضحاً جوانب تلك القضية الخطيرة «لقد ظلت الأمور في العالم الإسلامي وفي العالم أجمع في الحقيقة - عشرة قرون كاملة تقريباً لا تكاد تتغير إلا في نطاق محدود .

وكان الفقهاء المسلمون الكبار قد اجتهدوا في كل ما واجههم من الأمور فأنشأوا فقهاً متكاملًا عميقًا شاملاً يغطي احتياجات المسلمين في العبادات والمعاملات .

ثم جاء تلاميذهم وشراحهم فزادوا في قضايا الفروع حلولاً لمشكلات تصوروا حدوثها في أي ظرف من الظروف القادمة فكانوا يفترضون الفرض ويقولون : أرأيت لو حدث كذا ! ويستنبطون لهذا الأمر المتخيل حكماً مستمداً من شريعة الله . فلما مضى الزمن وحدثت تلك الافتراضات بالفعل ، لم يحس المسلمون أنهم في حاجة إلى اجتهادات جديدة ، فقد غطى الفقهاء وتلاميذهم وشراحهم من قبل كل ما جد في حياتهم . . لذلك أعلنوا - منذ القرن الخامس - إغلاق باب الاجتهاد لعدم الحاجة إليه !

ومرت خمسة قرون أخرى أو ستة على وجه التقريب والمسلمون لا يحسون بحاجة لمراجعة هذا القرار ، لأن ما بين أيديهم من الفقه يكفيهم ويفيض عن حاجتهم ، فاكتملوا بالتلمذ عليه ، وإخراج المختصرات التي تفي بحاجة طالب العلم المبتدئ لتعينه على الدخول في عالم الفقه العويص !

---

(١) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٦ . د. عبد الحميد ميهوب . دار الكتاب الجامعي . القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م .

ولكن الأمور منذ القرن الثاني عشر الهجري على الأقل بدأت تتغير  
تغيراً سريعاً بعد اختراع الآلة وتقدم الأبحاث العلمية والمكتشفات  
والمخترعات ، مما أحدث أوضاعاً جديدة وعلاقات جديدة لم يكن الفقهاء  
القدامى وتلاميذهم وشراحهم قد تخيلوا حدوثها ، فلم يستنبطوا لها  
الأحكام الملائمة من الشريعة الإسلامية .

وهنا كان المفروض أن يعاد فتح باب الاجتهاد لمواجهة هذه التغيرات  
وبيان حكم الله فيها ليلتزم به المسلمون . إذ مهمة الفقه الدائمة التي لا تتوقف  
هي مواجهة كل ما يلم بالمسلم في حياته وبيان حكم الله فيه من حلال أو  
حرام أو مندوب أو مكروه أو مباح ، ليكون المسلم على بينة من ربه في كل  
أمر يأتيه . ولكن الدولة العثمانية رفضت إعادة فتح باب الاجتهاد<sup>(١)</sup> .

وفي الواقع فإن باب الاجتهاد ظل مفتوحاً عند جملة من العلماء ، وإن  
كان الجمهور الأعظم أعلنوا إغلاقه ، وشنعوا على من يحاول فتحه .

ويعزو بعض الباحثين إغلاق باب الاجتهاد إلى أسباب منها : تفرق  
المسلمين إلى فرق وأحزاب كل فرقة تحاول أن تجتهد في إنزال النصوص  
الشرعية تبعاً لأهوائها ، ومن هنا سد باب الاجتهاد حتى لا تأخذ أقوال هذه  
الفرق وآراؤها صفة الاجتهاد فيجوز العمل بها .

وسبب ثان وهو إحياء الأمراء والحكام ، لأنه كان لا يلي أمر المسلمين إلا  
من بلغ رتبة الاجتهاد سواء كان في القضاء أو الولاية العامة . وساعد على

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٥٩ ويذكر الشيخ «محمد قطب» أن ذلك كان من الدولة العثمانية عن  
حسن نية وبغيرة حقيقية على دين الله على أساس أنه لا يوجد في ذلك الوقت من تتوفر فيه  
شروط الاجتهاد . ولكن نتائجه كانت خطيرة (انظر نفس الصفحة) .

انتشار هذا القول والانتصار له بعض أدعياء العلم حتى يقال إنهم في عداد العلماء لأن الناس جميعاً صاروا مقلدين لا مجتهدين فيتساوى أدعياء العلم أو أنصاف الفقهاء مع الفقهاء القادرين على الاجتهاد<sup>(١)</sup> .

وقد مر معنا ما أشار إليه الشيخ «محمد قطب» من شعور الفقهاء بالاكتماء والاستيفاء في مجال الفقه ، وأن الفقهاء الأولين لم يتركوا مسألة إلا تناولوها ، وهذا هو السبب الرئيسي لإغلاق باب الاجتهاد .

وقد كان بعض العلماء يرى في إغلاق باب الاجتهاد سداً للذرائع لأن الورع قل ، والتحفظ على الديانات كذلك ، وكثرت الشهوات وكثر من يدعي العلم ويتجاسر على الفتيا ، ولو فتح لهم ذلك لا تسع الخرق على الراقع ، وهتكوا هيبة المذاهب<sup>(٢)</sup> . ومع كل هذا فليس لهذه الأسباب ما يبررها في نظرنا .

لقد أعلن إغلاق باب الاجتهاد في القرن الخامس تقريباً<sup>(٣)</sup> .

ويقول السيوطي (المتوفى سنة ٩١١) الذي أدرك أوائل القرن العاشر الهجري : لهج كثير من الناس اليوم بأن المجتهد المطلق فقد من قديم وأنه لم يوجد من دهر إلا المجتهد المقيد<sup>(٤)</sup> .

---

(١) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٨ وكان الحكام أرادوا إبطال هذا الشرط بمن يتولى الإمامة العامة ، فأوجوا إلى الفقهاء بسد باب الاجتهاد .

(٢) الفكر السامي ٤٦٣/٢ .

(٣) واقعنا المعاصر ص ١٥٨ ، يقول الإمام «النووي» : إن الاجتهاد نوعان مستقل وقد فقد من رأس المائة الرابعة . انظر : الفكر السامي ٤٥٢/٢ .

(٤) الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ص ٣٨ . مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .

وبعد أوائل القرن العاشر الهجري لم يبق سلطان غير سلطان التقليد ، وجاء زمن لم يبق من الاجتهاد إلا اسمه وأصبح دعواه ، بل دعوى إمكان وجوده ذنباً لا يغتفر ، واقتصرت وظيفة العلماء في اختصار الكتب ، وشرحها والتعليق عليها<sup>(١)</sup> .

وفي تلك الفترة الحالكة التي نقوم بدراستها كان القول بالاجتهاد وفتح بابه كبيرة من الكبائر ، إن لم يصل عند بعض المقلدين والجامدين الى حد الكفر ، وكان من التهم التي وجهها خصوم الدعوة السلفية إلى علمائها دعوى الاجتهاد ، وكانت تهمة شديدة في ذلك الزمن مع أن أحداً منهم لم ينقل عنه القول بذلك<sup>(٢)</sup> .

ويعتبر الإمام الشوكاني - رحمه الله - مثلاً ظاهراً لما وصل إليه إيذاء المجتهدين ، وتآلب أرباب البدع والتقليد من السلاطين والأمراء والعلماء والعوام عليهم ، وإنكارهم الشديد على من نسب ذلك إلى نفسه ولو عن طريق مؤلفاته التي خالف فيها المشهور من المذاهب الأربعة .

يقول رحمه الله : «ولكنه قد جفاني جماعة من الذين لا يعرفون الحقائق لصدور اجتهادات منى مخالفة لما ألفوه وعرفوه . وهذا دأبهم خلفاً عن سلف لا يزالون يعادون من بلغ رتبة الاجتهاد وخالف ما دأبوا عليه ودرجوا من مذاهب الآباء والأجداد<sup>(٣)</sup> .

---

(١) الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر ص ٩٢ . د . «سيد محمد موسى» (توانا) الأفغانستاني مطابع المدني بمصر . نشر دار الكتب الحديثة ١٣٩١ هـ .

(٢) غاية الأمان في الرد على النبهاني ١/ ٦٠ . وسيأتي مزيد من الحديث عن هذه القضية في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

(٣) البدر الطالع ٣١٩/١ .

وينقل الشوكاني كلاماً للعصامي عند كلامه عن الشيخ ملا علي قاري ابن سلطان بن محمد الهروي الحنفي وهو قوله : «أحد جماهير الأعلام ومشاهير أولى الحفظ والأفهام» ، ثم قال : «لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لا سيما «الشافعي» وأصحابه واعترض على الإمام «مالك» في إرسال يديه ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم ، ومن ثمة نهى عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء ويعلق «الشوكاني» على ذلك قائلاً : «وأقول ذلك دليل على علو منزلته فإن المجتهد شأنه أن يبين ما يخالف الأدلة الصحيحة ويعترضه سواء كان قائله عظيماً أو حقيراً...»<sup>(١)</sup> .

وقد حاول الإمام «الشوكاني» رحمه الله أن يحارب تلك البدعة العظيمة ، وأن يقاوم أهل عصره الذين كادوا أن يطبقوا على القول بها ، وأن يبذل من وقته وحياته في سبيل رد الناس إلى الجادة ، ويبيان أن الاجتهاد مرتبة لا تقتصر على عصر دون عصر ، ولا على أشخاص دون أشخاص .

ولعل رسالته المسماة بـ (بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد)<sup>(٢)</sup> خير مثال على ما قلناه ، ومن ذلك معظم تراث «الشوكاني» في الأصول والفقه ، حيث نجد أنه من خلال تلك المؤلفات قد قاوم القول بإغلاق باب الاجتهاد أشد المقاومة ، وأنكر على القائلين به أعظم الإنكار<sup>(٣)</sup> .

(١) البدر الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع ١ / ٤٤٥ .

(٢) من ترجمة له في أول الروضة الندية لصديق حسن خان .

(٣) قال في إرشاد الفحول بعد ذكر الخلاف في ذلك : وبالجمل فتطويل البحث في مثل هذا لا يأتي بكثير فائدة فإن أمره أوضح من كل واضح وليس ما يقوله من كان من أسراء التقليد بلازم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف ورزقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال وما هذه بأول فاقرة جاء بها المقلدون ولا هي بأول مقالة باطلة قالها المقصرون ، ومن حصر فضل الله على بعض خلقه وقصر فهم الشريعة المطهرة على من تقدم عصره فقد تجرأ على الله =

ويعد كتاب «البدر الطالع» في التراجم والسير الذي ألفه «الشوكاني» ردًا عمليًا وقويًا على طوائف المقلدة والجامدين ، حيث أورد فيه من تراجم المجتهدين وأحوالهم ما يدمغ به تلك الطوائف المنحرفة ، ولا غرو في ذلك ، فقد كانت تلك الفرية العظيمة سببًا في تأليف ذلك الكتاب الحافل بتراجم عشرات من المجتهدين والعلماء .

يقول رحمه الله في مقدمة الكتاب : « فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها ، حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض ، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون . وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم ، وأنذر نصيب من عرفان ، وأحقر حصة من فهم ، لأنها قصر للتفضل الإلهي ، والفيض الرباني على بعض العباد دون البعض ، وعلى أهل عصر دون عصر ، وأبناء دهر دون دهر ، بدون برهان ولا قرآن .

على أن هذه المقالة المخدولة والحكاية المزدولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله و مترجم عن كتابه وسنة رسوله ومبين لما شرعه

---

= عز وجل ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة ، وبالله العجب من مقالات هي جهالات وضلالات . فإن هذه المقالة تستلزم رفع التعبد بالكتاب وبالسنة وأنه لم يبق إلا تقليد الرجال الذين هم متعبدون بالكتاب والسنة كتعبد من جاء بعدهم على حد سواء . فإن كان التعبد بالكتاب والسنة مختصًا بمن كانوا في العصور السابقة ولم يبق لهؤلاء إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة أحكام الله وسنة رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة والمقالة الزائفة وهل النسخ إلا هذا ، سبحانه هذا بهتان عظيم .

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٢٥٤ دار الفكر .

لعباده ، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مزية وذهاب الدين بلا شك ، وهو تعالى قد تكفل بحفظ دينه وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر بل إيجاد من يبينه للناس في كل وقت وعند كل حاجة .

حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله وله المنة قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب وحل عن عنقه عرى التقليد . . .»<sup>(١)</sup> .

ويعرف «الشوكاني» بالمجتهد فيقول : «وبالجملة فالمجتهد على التحقيق هو من يأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها على الوجه الذي قدمناه ويفرض نفسه موجوداً في زمن النبوة وعند نزول الوحي ، وإن كان في آخر الزمان ، وكأنه لم يسبقه عالم ولا تقدمه مجتهد ، فإن الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق ، وحيث يهون الخطب ، وتذهب الروعة التي نزلت بقلبه من الجمهور وتزول الهيبة التي تداخل قلوب المقصرين»<sup>(٢)</sup> .

وقد كان العلماء المجتهدون في تلك الفترة يواجهون حرباً شعواء من قبل المبتدعين من المقلدين والجامدين وعلى رأسهم أهل السلطان وذوو النفوذ .

وخير مثال على ذلك الحادثة التي وقعت في «دمشق» عام ١٣١٣ هـ ،

---

(١) البدر الطالع ٢/١ .

(٢) أدب الطلب ص ١٢٢ .



وأطلق عليها اسم «حادثة المجتهدين» ، حيث اجتمع جملة من العلماء :  
منهم الشيخ « جمال الدين القاسمي » ، والشيخ «عبد الرزاق البيطار» ،  
والشيخ «سليم سمارة» ؛ والشيخ «بدر الدين المغربي» وغيرهم .

ويسوق «القاسمي» أحداث القصة فيقول : وذلك أنه يوم الجمعة العاشر  
من شعبان سنة ١٣١٣هـ وردت علينا رسالة من دائرة الحكومة مضمونها أن  
يحضر يوم السبت إلى المحكمة هؤلاء الأفاضل وهم :

الشيخ «عبد الرزاق البيطار» ، والشيخ «سليم سمارة» ، والشيخ «بدر  
الدين المغربي» ، والشيخ «توفيق أفندي الأيوبي» ، والشيخ «أمين  
السفرجلاني» ، والشيخ «سعيد الغر» ، والشيخ «مصطفى الحلاق» ، والفقيه  
جامع الكتاب .

والسبب كما يقول الشيخ وشاية من بعض الحاسدين ، لما اجتمع هؤلاء  
الأفاضل للمدارسة والمذاكرة ، فيذكر أن «الواشي» ذهب إلى والي «الشام»  
«عثمان نوري باشا» ، ووشى له عن الجماعة المنوه بهم ما شاء ، فقال له عن  
الشيخ «بدر الدين» أنه قرر في درسه بعد الجمعة في الأموي على رؤوس  
العالمين تحريم الدخان!! ، وذم ترك العمائم وشنع على الحيل في الربا التي  
تجري في المحاكم وكون الخلافة صارت ملكاً عضوضاً ، وغير ذلك مما نقله  
ذلك النمام عن هذا التحرير الهمام .

وأما الشيخ «توفيق أفندي الأيوبي» فوشوا عليه بأنه تكلم في درسه بين  
العشائين في الأموي بنجاسة أعيان المشركين ، وغير ذلك مما لفقوه من المين .  
وأما بقية الجماعة فوشوا عليهم بأنهم عدوا أنفسهم من المجتهدين وأنهم  
يجتمعون على قراءة الحديث الشريف ، ويريدون أن يستنبطوا منه كل معنى

شريف!! ، وأنهم صاروا يتذكرون في أقوال الفقهاء ويبحثون فيها ويتطلبون الأدلة على تلك الآراء!!<sup>(١)</sup> إلى غير ذلك مما نسبوه إليهم .

ثم يذكر «القاسمي» رحمه الله بداية هذا الاجتماع أنه كان من غير قصد من بعض منهم للمذاكرة والمدارسة ، وأنهم زاد عددهم فجعلوا لهم موعداً من كل أسبوع للفوائد العلمية ثم يقول :

واتفق أن حضر يومئذ رجل ينتمي بزيه للعلماء ، بيد أنه مشاء بنميم ، عتل زعيم ، فعد عليهم أبحاثهم وأحصاها . وبعد انقضاء الجمع قلب موضوعها في المجالس وأفشاها ، فعزز هذا السفیه أخويه السابقين (يقصد اثنين كانا قد قعدا معهم قبل ذلك) وأضحى ثالثهم ، وتعاونوا في الجامع على أن ينشروا مباحثهم ، ففشا أمر اجتماعنا وانتشر ، وطار صيته في أقطار «دمشق» واشتهر ولقبوه جمعية المجتهدين ، ونسبوا مذهبهم إلى الفقير ، وقالوا : المذهب الجمالي . . .

ثم دعانا الشيخ «أمين السفرجلاني» ، ودعا العلامة مقدم علماء «الشام» الشيخ «البكري العطار» ، فحضر معنا ضحوة ذلك النهار . وقصد بدعوته أن يطلعه على هذا الاجتماع ، ويريه هل يرى فيه ما ينكره سليمو الطباع ، فلم ير في مباحثنا ما يستنكر! بيد أنه قال : قد ذاع صيتكم بالاجتهاد وانتشروا!!<sup>(٢)</sup> ، فقلنا : أين الاجتهاد ونحن على ما ترى؟ وهل نباهة المرء وحرية أفكاره تعد نكراً . . . ثم لم تشعر الأصحاب إلا والقضية صارت لدى المحاكم ، ثم بها بعض من يتشوف المظالم ، وقلبوا على الجماعة ،

(١) لقد كان السؤال عن الدليل جريمة عظمى إذ لا يسأل عن الدليل إلا كل ضال يريد أن يخرق السياج المقدس لحرمة الاجتهاد .

(٢) وتلك جريمة كبرى لا تغتفر في تلك الفترة الحالكة كما ذكرنا .

ونسبوا لهم عجائب الأمور . . . وأمر البوليس أن يخبرهم بحضورهم للمحكمة الكبرى آمنين . وعينوا عقد مجلس كبير رئيسه القاضي «مكي بك أفندي» ، وأعضاؤه المفتي وأعوانه من المنتفشين .

ويذكر «القاسمي» أن المفتي أخذ يسألهم واحداً واحداً إلا من لم يحضر بعذر شرعي ، وكان مما قاله للشيخ «القاسمي» : ما لكم ولقراءة الحديث؟ وعزز بعض مجالسيه هذا القول الخبيث ، بأنه يلزم قراءة الكتب الفقهية ، والحجر على قراءة الكتب الحديثية والتفسيرية!!!<sup>(١)</sup> ظناً منه أن العلماء يمثلون أمره . . .

ثم يذكر أنه أوقف تلك الليلة في البوليس . وكان مما قال : ثم تذاكر أهل المجلس بعضهم مع بعض ورأوا أنهم قد أدوا ما لزمهم في تعزيز الجماعة من الغرض وكان بودهم أن يقر أحدنا بصريح الاجتهاد ، أو أن يزل واحد منا فيلحقه الحمق منهم والعناد فيبلغوا مأربهم من نفيهم من «الشام» .

ثم يحاول أن يلتمس للمفتي بعض العذر فيقول : ونحن لا ننكر أن كثيراً من الأعيان أغروه علينا . . . ولقد قال له بعض المشايخ المتصدرين : إن هؤلاء إن دام جمعهم لا نأمن أن يردوا فتوى المفتي حيث إنهم يناقشون الأقدمين . كما أن بعض المشهورين قال له : لو كان المفتي «الحمزاوي» حياً ما جسر أحد على دعوى الاجتهاد<sup>(٢)</sup> .

---

(١) يا سبحان الله ! هذا مع الحديث يمينون من قراءته لئلا يستنبطوا منه الأحكام فيصبحوا مجتهدين ، ولكن ماذا يصنعون في القرآن . أيمنون الناس من تلاوته للسبب نفسه ، في الواقع أنهم لم يفكروا في ذلك لأن القرآن قد فقد مكانته عندهم وأضحى يتلى في المآتم وعلى الموتى وأمام الأضرحة ويكتب في التعاويذ . ويكفيهم من ذلك منع كتب التفسير .

(٢) جمال الدين القاسمي وعصره ص ٤٨ - ٦٩ .

هكذا كان اجتماع أهل العلم للتذاكر والتدارس في كتب الحديث والتفسير في تلك الفترة الحالكة ذريعة للجهال والمقلدين أن يتسلطوا عليهم بالإيذاء والحبس والنفي والتشهير بدعوى الاجتهاد ومحاولة منعهم من قراءة كتب الحديث النبوي ، وكتب التفسير التي تساعدهم على اقتحام سياج التقليد! . وقصرهم على كتب الفقه المذهبية من مختصرات وشروح وحواش .

ومن جملة ما رمى به المبتدع المدعو «يوسف بن إسماعيل النبهاني» (المتوفى سنة ١٣٥٠هـ)<sup>(١)</sup> أهل الدعوة السلفية دعوى الاجتهاد ، ظناً منه بفرط جهله أن تلك دأمة يدمغهم بها ، وكبيرة من الكبائر يلصقها بهم نظراً لما كان سائداً في ذلك العصر من تحريم الاجتهاد .

يقول «النبهاني»<sup>(٢)</sup> : القسم الأول من المقدمة : في الكلام على انقطاع الاجتهاد المطلق ، الذي تدعيه - بالباطل - فرقة الوهابية ومن أعجبه شأنهم ؛ من جهلة المبتدعين شذاذ المذاهب الإسلامية ، وجعلت ذلك رسالة سميتها (السهام الصائبة ، لأصحاب الدعاوي الكاذبة) ، ثم ذكر خطبة هذه الرسالة ، إلى أن قال : فأقول : إن دعوى الاجتهاد في هذا الزمان - منهم ومن غيرهم مطلقاً مهما كان عالماً - هي دعوى كاذبة ، لا يلتفت إليها ولا يعول عليها .

قال : وقد ذكرت في كتابي (حجة الله على العالمين) الرد على من يدعي الاجتهاد في هذا الزمان ونقلت عبارات العلماء في ذلك ، كالإمام «الشعراني» ، والإمام «ابن حجر الهيتمي» ، والإمام «النووي» وغيرهم ، بما

---

(١) الأعلام ٢١٨/٨ .

(٢) من كتاب له أسماء «شواهد الحق ، في الاستغاثة بسيد الخلق» لم أقف عليه .

يقنع كل ذي طبع سليم ، وفهم مستقيم ، إلى أن قال : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم إلا مختل العقل والدين ، إلا من طريق الولاية<sup>(١)</sup> ، كما قاله الشيخ الأكبر «محيي الدين بن عربي» .

ثم نقل ما نقله «المنائي» في أول شرحه الكبير على الجامع الصغير عن «ابن حجر المكي» ، أنه قال : لما ادعى «الجلال السيوطي» الاجتهاد قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحدة . . .

قال «الشهاب» : فتأمل صعوبة هذه المرتبة ، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد ، ويظهر لك أن مدعيها - فضلاً عن مدعى الاجتهاد المطلق - في حيرة من أمره ، وفساد فكره ، وأنه ممن ركب متن عمياء ، وخبط خبط عشواء .

قال : ومن تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحى من الله أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة ، بل قال «ابن الصلاح» ومن تبعه : انها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر إلى عصر «ابن حجر» وهو من أهل القرن العاشر ، فيكون لها الآن منقطعة نحو ألف سنة ، إذ نحن في العام السابع عشر من القرن الرابع عشر وهو عام تأليفي لكتاب (حجة الله على العالمين) . . . فإذا لم يتأهل الأكابر لمرتبة الاجتهاد المذهبي فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على

---

(١) قاتل الله أرباب البدع والتصوف والضلال ، أرأيت كيف يبيحون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم ، فيحرمون حرية الفكر والنظر على أهل العلم والدين ، ويبيحونه للطريقة والممخرفة من مدعي الولاية والجذب من الدجالين وغيرهم .

وجهها أن يدعى ما هو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق»<sup>(١)</sup> .

وكما اعتبرنا الإمام «الشوكاني» مثلاً ظاهراً وحيّاً لما كان يلقاه المجتهدون في تلك الفترة من أذى وعداء ، فإن «النبهاني» ليعد المثال الأظهر على موقف السواد الأعظم من الجامدين والمقلدين الذين يحرمون الاجتهاد ، ويحاربون من حام حول حماه .

وكذلك ما تفوه به «النبهاني» في هذا المقام من نسبة الاختلال في العقل والدين الى مدعي الاجتهاد حتى ولو كان أهلاً لذلك ، وتضخيمه لمرتبة الاجتهاد ومبالغته فيها حتى إنه ليكاد أن يلحقها بمرتبة النبوة كل ذلك كان لا يعدو النظرة القائمة التي كان ينظر بها أهل عصره إلى الاجتهاد والمجتهدين ويمثلها أصدق تمثيل .

ومن هؤلاء «داود بن جرجيس» (المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ) الذي تصدى لمنافحة أهل الدعوة السلفية ، وكان من أشد خصومهم ، ألف رسالة أسماها «أشد الجهاد في إبطال دعوى الاجتهاد» رد بها عليهم فيما نسب إليهم من دعوى الاجتهاد . إذ كانت دعوى الاجتهاد في ذلك الزمن أم الموبقات ورأس الكبائر<sup>(٢)</sup> .

وهذا الشيخ «شهاب الدين المرجاني» (المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ) «كان عالم عصره في بلاده ، أصله من قرية «مرجان» التابعة لولاية «قزان» ودرس في بخارى وسمرقند ، وتولى الإمامة والخطابة والتدريس في الجامع الأول

---

(١) غاية الأمانى في الرد على النبهاني ٥٨/١ .

(٢) الأعلام ٣٣٢/٢ . وقد رد عليه الشيخ «عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ» رحمه الله بكتابه المعروف (منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس) .

بقزان سنة ١٢٦٦هـ ، وتخرج على يديه كثير من العلماء وكان مجاهراً  
بالاجتهاد وانتقاد بعض المتقدمين<sup>(١)</sup> فعاداه معاصروه ، فانعزل عن منصبه ثم  
عاد إليه<sup>(٢)</sup> .

أما الشيخ «عبد الحق بن فضل العثماني البنارسي» (المتوفى سنة  
١٢٧٦هـ) فقد كان لا يتقيد بمذهب ، ولا يقلد أحداً في شيء من أمور  
دينية<sup>(٣)</sup> ، بل يعمل بنصوص الكتاب والسنة ، ويجتهد برأيه ، وبذلك جرت  
بينه وبين الأحناف مباحثات كثيرة في الاجتهاد والتقليد ، ومن مصنفاته  
«الدر الفريد في المنع عن التقليد» وشنع عليه المتعصبون ، وحبس «بمكة»  
بدعوى انتقاص الأئمة المجتهدين ، ثم أطلق وسافر إلى المدينة فوشوا به إلى  
القاضي ، ففر منها متخفياً!!<sup>(٤)</sup> .

وقد استمرت تلك اللوثة في معاداة المجتهدين والتصدي لكل من  
يحاول الاجتهاد بعد ذلك ، وكانت مناهج التعليم ضحية من ضحايا تلك  
اللوثة ، كما كان للأزهر دور كبير في المحافظة على إغلاق باب الاجتهاد ،  
وحرص علمائه على أن يبقى ذلك الباب مسدوداً ، وكأنهم قد آثروا الدعة  
والخمول من خلال عكوفهم على كتب السابقين لا يتجاوزونها أبداً .

يقول أحد الدارسين بالأزهر بعد أن تكلم على قضية الاجتهاد وإغلاق  
بابه والحكم على المجتهدين بالضلال : «وهذا مسطور في كتب الفقهاء ،  
طالعنا ذلك ونحن في المراحل الأولى من التعليم الأزهري عند الكلام على

---

(١) يعني في مخالفته لهم في بعض المسائل ، حين أثر ما رآه دليلاً على ما ذهبوا إليه .

(٢) الأعلام ١٧٨/٣ .

(٣) هكذا في الأصل . ولعلها من أمور دينه وهو الأقرب .

(٤) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢٤٠/٧ .

أن لفظ الطلاق يقع ثلاثاً - «ولابن تيمية» و«ابن القيم» ، أنه يقع واحدة ثم قيل عن «ابن تيمية» إنه ضال مضل . وصل الأمر إلى هذا ، يرمى المجتهد بالضلال والإضلال ، إنه لبلاء حل بالمسلمين وركود فقهي ساد عقول المفتين»<sup>(١)</sup> .

ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا .

«فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته . . فماذا يحدث؟ يحدث أحد أمرين : إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو ، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها . وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة ، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة ، لأن هذا الظل لم يمد - بالاجتهاد - حتى يغطيها .

وقد حدث الأمران معاً ، الواحد تلو الآخر . . الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة»<sup>(٢)</sup> .

فبعد أن ساد الجمود والتخلف الحياة الإسلامية ، ونضبت الروح المتدفقة التي كان قد أطلقها الإسلام في القرون المتقدمة - في سائر المجالات ، كان لا بد من وقفة صادقة للرجوع إلى المنهج الإسلامي الأصيل ، والعودة السريعة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة التي تمثل ذلك المنهج في واقع الحياة ، وفتح باب الاجتهاد الذي كأن قد أوصده الجامدون والمقلدون ، وأحكموا إغلاقه ، حتى تبعث تلك الروح الموءودة ، وتسطع شمس الاجتهاد والعلم لتصهر ما

(١) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٨ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٥٩ .



تراكم في حياة الأمة من جمود ، وتزليل ما أصابها من تخلف وركود ، لتواكب مسيرة الحياة في العالم المتجدد الذي أخذ يشق طريقه في دنيا العلوم والتقدم والاختراع ، ولكن أمراً كهذا لم يحدث مطلقاً ، بل على العكس من ذلك تماماً ، حيث كان الذي يقع أنه كلما تجددت الأحوال ، وترقت الأمم في مدارج التقدم والمعرفة أن يتسارع أهل العمى وفاسدو البصائر من الجامدين والمقلدين في رد كل جديد ، وفي زيادة الأقفال والأوصاد على باب الاجتهاد مع شدة الحاجة إليه .

ولكن عجلة الحياة كانت أسرع وأقوى من تخطيط هؤلاء الجاهلين ومقاومتهم التي سرعان ما اندفعت محطمة ما أفنوا أعمارهم في إغلاقه ، وما تواصلوا به خلفاً عن سلف من إيصاده ، ليخرج الأمر من أيديهم إلى الأبد ، ولم يعد خارجاً عن ميدان الاجتهاد فحسب ، بل عن الإسلام كله .

«وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة ، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً ، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل . . . وكان من هذا أن مضى الناس من غير المسلمين - يواجهون كل جديد ، ويتعاملون معه ، ويستولدون منه جديداً . . . وهكذا سار الناس - من غير المسلمين - قدماً مع الحياة ، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون»<sup>(١)</sup> .

وكان استيراد المبادئ والنظم من أوروبا أثراً عميقاً بالغ الخطورة ، نتج عن سوء الانحرافات العقدية والعلمية التي تحدثنا عنها ، وبوجه أخص ، بما

---

(١) سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه ص ١٤٤ . «عبد الكريم الخطيب» . دار الأصاله . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

وقع من قفل لباب الاجتهاد وحرص متواصل على عدم فتحه ، ومقاومة كل من يحوم حوله . وسيأتي بحث هذه القضية عند حديثنا عن الآثار الخارجية في الباب الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .



# الباب الثالث

الآثار المترتبة على الانحرافات الحقدية والعلمية  
في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

ويتكون من فصلين :

الفصل الأول : الآثار الداخلية ( تغشي الضعف في  
الأمة ) .

الفصل الثاني : الآثار الخارجية .



## الفصل الأول

### الآثار الداخلية

( تفشي الضعف في الأمة )

ويتكون من أربعة مباحث :

المبحث الأول : الضعف السياسي والحربي

المبحث الثاني : الضعف الاقتصادي

المبحث الثالث : الضعف العلمي

المبحث الرابع : الضعف الاجتماعي والأخلاقي



## نهيد

إن الدارس للانحرافات العقدية والعلمية في تلك الفترة الحالكة ليجزم بأنه لا بد أن تتمخض تلك الانحرافات السيئة عن آثار خطيرة تؤثر في حياة الأمة الإسلامية ، ويرى أن ما أصابها من ضعف وهبوط في شتى نواحي الحياة ، وما تعرضت له - وما زالت تتعرض له - من تسلط الاستعمار وتبعيته ومن غزو فكري ونشاط تنصيري إلى غير ذلك لهو نهاية طبيعية لما آلت إليه أحوال المسلمين العقدية والعلمية من ضعف وانحراف ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]

﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]

وقد رأينا في البابين الأول والثاني عظم هذه الانحرافات وانتشارها وطغيانها على حياة المسلمين فضعف العقيدة الصحيحة وغربتها ومحاربتها واتساع الفكر الإرجائي ، ومحاولة القضاء على عقيدة الولاء والبراء من قبل بعض الحكام ، وتفشي الشرك الأكبر بعبادة الأولياء وبناء الأضرحة والقباب ، وهيمنة الصوفية بطرقها وطقوسها المبتدعة على حياة الناس ، وازدياد نشاط الفرق الباطنية وغيرها في حرب المسلمين والتآمر عليهم مع أعدائهم من اليهود والنصارى والوثنيين ، وأخيراً تقصير علماء المسلمين في أداء واجبهم ، وابتعادهم عن قيادة الأمة .

وتفانم حدة التعصب المذهبي وجمود المناهج التعليمية ، ورفض إعادة باب الاجتهاد ، وكل ذلك المزيج الهائل من الانحرافات كان له تلك الآثار الخطيرة في حياة الأمة .

ويخطئ الكثير من المفكرين خطأً فادحاً حين ينظرون إلى هذه الآثار المدمرة على أنها أسباب ضعف الأمة وانحطاطها ، وأنه إذا تم القضاء على تلك الآثار نهضت الأمة وعادت قوية من جديد ، ويتجاوزون أو يغفلون عن النظر إلى الأسباب الحقيقية التي تمثلت في الانحرافات العقيدية والعلمية التي كانت موضوع البابين الأول والثاني من هذه الرسالة .

إن هؤلاء المفكرين بمثابة طبيب غير حاذق في مهنته ، يعرض عليه مريض ، فلا يوجه عنايته إلا للقضاء على علامات المرض وأعراضه الظاهرة كارتفاع درجة الحرارة ، ولا يتجاوز باهتمامه إلى الكشف عن حقيقة هذا المرض فيحاول علاجه وقد ينجح فعلاً في تخفيض درجة الحرارة ، ولكن إلى حين ؛ لأن المرض الحقيقي لا زال موجوداً .

فالحديث عن الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والأخلاقي والاجتماعي وكيفية القضاء على هذا الضعف والحديث عن الاستعمار والغزو الفكري والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد عن محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة ، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمة التي أصيبت بالخواء العقدي .

وما لم يتم القضاء على الأسباب الحقيقية فإنه لا يمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة . ومن هنا يأتي حديثنا عن تلك الآثار بوصفها آثاراً ناتجة عن الانحرافات العقيدية والعلمية .



ولا بد أن نذكر أن هذه الآثار كانت متشابكة ومتداخلة ، يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً ، فالضعف السياسي مثلاً يؤثر في الضعف الاقتصادي ، ويتأثر به ، وهكذا ، ولكننا سنركز الحديث على تلك الآثار كلٌ على حدة . وإنه ما لم يتم القضاء على الأسباب الحقيقية المتمثلة في الانحرافات العقيدية والعلمية ، فليس بالإمكان أبداً أن يقضى على تلك الآثار ، وقد رأينا جميع المحاولات التي بذلت في العالم الإسلامي في ذلك المضمار قد باءت جميعاً بالفشل ؛ لأنها لم تفكر أبداً في معالجة الأسباب الحقيقية ، ولن تفلح في أي خطوات إصلاحية في المستقبل ، ما دامت غافلة عن تلك الأسباب الرئيسة .





## الفصل الأول

### الآثار الداخلية (تفشي الضعف في الأمة)

#### المبحث الأول

##### الضعف السياسي والحربي

إن الأمة الإسلامية في اعتقادي لم تشهد ضعفًا سياسيًا كالذي شهدته في تلك الفترة. ويكفي في ذلك تسمية الدولة العثمانية الكيان السياسي الكبير للأمة الإسلامية باسم «الرجل المريض»<sup>(١)</sup> وهي تسمية توافق ما كانت عليه تلك الدولة المترامية الأطراف من ضعف وتفكك واندلاع للشورات في كثير من أجزائها.

وفي القرن الثالث عشر الهجري ، والنصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري انتشرت الفتن واندلعت الشورات في كل مكان ، وكان فقدان الأمن ، واضطراب الأوضاع السياسية طابعاً عاماً لتلك الفترة ، ولا نكاد نرى بلداً واحداً إلا وكان مسرحاً لصراعات دموية عنيفة .

وكان الصراع على الحكم شيئاً مألوفاً عند الناس ، وقد يستمر الصراع سنوات طويلة تدور رحاه الثقيلة فوق الرعايا ، كالصراع بين العثمانيين وبين

---

(١) لقب أطلقه قيصر روسيا «نقولا الأول» سنة ١٨٥٣ م ، وأصبح بعد ذلك متداولاً ومشتهراً في ذلك الزمن ، لمزيد من التفصيل ، انظر الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . ٨٣٠ / ٢

المماليك في مصر ، والصراع بين أسر الأشراف المتعاقبة للاستئثار بالسلطة في بلد الله الحرام ، وغير ذلك .

وفي حين شاخت السلطة المركزية في الأستانة ، وضعفت قبضتها على البلدان التابعة لها ، قامت بعض الولايات بمحاولة الانفصال عنها ، ومن هذه الولايات مصر واليمن .

وكانت بعض البلدان مناطق متفجرة بالصراع الدائم كالبلقان والأناضول . وكان انتشار السلب والنهب والقتل وقطع الطريق في كافة أنحاء العالم الإسلامي سمة رئيسية لتلك الفترة ، ويظهر ذلك بأدنى مطالعة لكتب التاريخ في ذلك العصر .

كل ذلك يبرز لنا مدى الضعف السياسي الذي كانت الأمة غارقة فيه . هذا بالإضافة إلى ما قامت به الفرق الباطنية من ثورات متتابعة كما رأينا ذلك عند حديثنا عن الفرق ، واستنفدت به كثيراً من جهود الدولة السياسية والحرية . كل هذا بالنسبة للأوضاع الداخلية للدولة ، أما الأوضاع الخارجية فلم تكن أحسن حالاً منها .

«ومنذ نهاية القرن الثامن عشر (الميلادي) فقدت الدولة العثمانية القدرة على المبادرة بالهجوم والتزمت سياسية الدفاع والتنازل عن بعض ممتلكاتها الأوربية كشمين لعقد الصلح ووقف الحرب ، وحال التنافس بين الدول الأوربية دون أن تلتهم دولة أوربية بمفردها الدولة العثمانية ، الأمر الذي أعان الدولة على أن تقف على قدميها أمام التهديد الأوربي حتى الحرب العالمية الأولى»<sup>(١)</sup> .

---

(١) تاريخ العرب الحديث . العراق ٩٠ / ١ .

وإذا كان التنازل عن بعض الممتلكات يعد صورة من صور الضعف الذي أصاب الدولة ، فإن الامتيازات الأجنبية صورة أخرى من تلك الصور وذلك حين «تطرق الضعف إلى الدولة العثمانية وامتد إلى أرجاء ممالكها المترامية الأطراف . وأخذت الدول الأوروبية في الحصول على الامتيازات الأجنبية والمعاهدات الطائفية التي تخول لكل دولة نصرانية حماية أتباع مذهبها في بلاد الدولة»<sup>(١)</sup> .

«وكانت الدول الأوروبية الكبرى لا تفك عن التدخل في شؤون الدولة العثمانية ، بطرق وأساليب مختلفة ، وذلك استناداً إلى «الامتيازات الأجنبية . . .» .

«إن الامتيازات المذكورة كانت قد نشأت من الفرامين التي أصدرها ، والمعاهدات التي أبرمها سلاطين آل عثمان ، في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات .

إنها كانت أخذت شكل «نظم تعهدية» لم تعد الدولة العثمانية تملك حق إلغائها أو تعديلها من تلقاء نفسها ، ولا سيما بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الضعف والانحطاط فصارت الدول المذكورة تعتبر تلك الامتيازات بمثابة «حقوق مكتسبة» لها ولرعاياها وحتى لكل من تشملهم بنعمة «حمايتها» من تبعة الدولة نفسها»<sup>(٢)</sup> .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من هذه الامتيازات قد منحت في

---

(١) بلاد الشام في القرن التاسع عشر ص ٢٨٥ دراسة وتحقيق د. سهيل ذكار . دار حسان للطباعة والنشر . الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٢ ساطع الحصري . دار العلم للملايين . الطبعة الثالثة ١٩٦٥ م .

فترة بلغت فيها قوة الدولة العثمانية أوجها كالامتيازات التي أعطاها السلطان «سليمان القانوني» لحكومة فرنسا ورعاياها ومن يحتمي بها<sup>(١)</sup> .

ويلقى الدكتور «إحسان حقي» على ذلك بقوله : «ومن الغريب جداً أن تعقد الدولة العثمانية وهي في أوج عظمتها وقوتها ، معاهدة مع دول الغرب بمثل هذا التسامح الذي بلغ حد الذل والضعف . .»<sup>(٢)</sup> .

وكانت السلطنة على غرورها بنفسها كريمة في عقد هذه المعاهدات ، ومنح هذه الامتيازات دون نظر إلى المستقبل البعيد . . . ولكن السلطنة فيما بعد وجدت نفسها أمام معاهدات وامتيازات كانت تقيدت بها إبان قوتها السابقة ثم تحولت إلى سلاسل وأغلال طوقت عنقها ويديها ، وجدت نفسها أنها ليست عاجزة عن التخلص منها فحسب بل ما إن ضعفت عزائمها ، واسترخت قواها ، حتى فرضت عليها الدول الأوروبية معاهدات وامتيازات أخرى أثقل من سابقتها ، وأشد تقييداً لحريتها<sup>(٣)</sup> .

ومن هذه الامتيازات «أن الأوروبيين الذين يؤمنون البلاد العثمانية - ويعملون فيها ، ويرتزقون منها - كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة ، تجعلهم «مفضلين» على أهل البلاد ، في ميداني القضاء والاقتصاد .

وبناء على هذه الامتيازات ، ما كان يحق لسلطات الأمن والعدل أن

---

(١) تاريخ الدولة العلية ص ٢٢٣ «محمد فريد بك المحامي» . تحقيق الدكتور إحسان حقي . دار النفائس . بيروت . الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٩٨ د . محمد حرب . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٣٠ .

(٣) فلسفة التاريخ العثماني ص ٨٨ محمد جميل بيهيم . شركة فرج الله للمطبوعات . بيروت . ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .

تفتش مسكن أحد من هؤلاء الأجانب لأي سبب كان ، ولا أن تحقق معه أو تحاكمه . . . إلا بحضور ممثل عن قنصلية الدولة التي ينتسب إليها .

كما أنه ، ما كان يحق للحكومة العثمانية - بناء على تلك الامتيازات - أن تجبي من الأجانب أي ضريبة مباشرة . فكانت المتاجر والمصانع والمصارف الأجنبية ، تعمل في البلاد العثمانية بكل حرية ، وتتصرف بأرباحها كما تشاء ، دون أن تدفع أية ضريبة عن تلك الأرباح للحكومة أو البلدية»<sup>(١)</sup> .

جاء في كتاب «التبشير والاستعمار» : «الامتيازات الأجنبية كما يدل الاسم ، كانت تقوم على منح رعايا الدول الأجنبية النازلين في الامبراطورية العثمانية أو السائحين فيها أو المارين بها مروراً «امتيازات» لم تكن تمنح للعثمانيين أنفسهم .

ومن أشهر هذه الامتيازات إعفاء هؤلاء الأجانب من الضرائب المباشرة ومن جزء كبير من رسوم الجمارك .

ثم إن السلطات العثمانية لم تكن تستطيع ولوج بيت رجل أجنبي مهما كان السبب ، حتى لو أن جريمة ارتكبت في ذلك البيت لما كان للسلطة العثمانية أن تدخل للتحقيق ، بل كان الذي يقوم بالتحقيق والمحاكمة والفصل قنصل الرجل الذي يسكن ذلك البيت .

إن البيت الذي كان يسكنه رجل انكليزي أو فرنسي أو يوناني أو أسوجي أو برازيلي ، كان يعتبر جزءاً من انكلترا أو فرنسة أو اليونان أو أسوج أو البرازيل .

وكذلك كان لكل أجنبي أن يتجول في البلاد العثمانية كما يشاء . فإذا

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٣ .

اتفق أن ناله سوء - ولو قضاء وقدرًا - فإن حكومته تطالب بديته أضعافاً مضاعفه ، وقد تشدد أحياناً حتى تنال امتيازات سياسية وتجارية جديدة لم تكن لها من قبل . وكانت القوانين العثمانية لا تطبق على الأجانب النازلين في الامبراطورية العثمانية»<sup>(١)</sup> .

وكان أحد هؤلاء الأجانب أو المحمين يتخطى القوانين ويخالف مبادئ الإنسانية فإذا تعرض له متعرض شمشخ بأنفه وقال : «أنا أجنبي» أو «أنا حماية أجنبية» روى «عبد الله المشنوق» شيئاً من هذا قال : «من ذلك حادثة شهدتها بأم عيني - دهست سيارة يقودها رجل أجنبي طفلاً في بيروت فأمر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلاً بلغته الأجنبية : القنصلية ، لا شأن لي معك . وتابع (السائق) طريقه تاركاً الطفل المسكين يعاني سكرات الموت»<sup>(٢)</sup> .

«وعندما قام الباشا التركي بإغلاق حانة للخمور لرجل يوناني عام ١٨٥٦م احتج القنصل اليوناني على ذلك ثم فتحها ؛ لأن صاحبها يتمتع بحماية دولة مسيحية . . . وكذلك كانت الخمر تشحن من انكلترا إلى الامبراطورية العثمانية لتفتك بالشعوب العثمانية»<sup>(٣)</sup> .

وعندما وقعت أحداث الستين المشهورة ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م<sup>(٤)</sup> ، كان

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٣٢ د. مصطفى الخالدي ، د. عمر فروخ . منشورات المكتبة العصرية . بيروت . ١٩٨٣ م .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٩ .

(٤) سميت بأحداث الستين لأنها وقعت سنة ١٨٦٠م . وتعود أسبابها في الحقيقة إلى ما كان يتمتع به النصارى من امتيازات في ظل الدول الأوروبية الكبرى . وبدأت بنزاع بين النصارى والدروز في جبل لبنان ، ثم شملت أجزاء أخرى ، واشترك فيها المسلمون مع الدروز ضد النصارى . ووقعت بعض مذابح من كلا الفريقين ، ولكنها زادت في جانب =



من أسبابها ما تمتع به النصارى من نفوذ في ظل تلك الامتيازات الأجنبية ،  
يصور ذلك لنا «الحسيني» أحد شهود العيان من المسلمين لتلك الأحداث  
فيقول :

«إن نصارى الشام طالبوا برفع الجزية والخراج وما زالوا بالدولة العلية  
حتى استجابت ، وصار الفرنج يتدخلون في شئون سورية ، ويقولون  
للنصارى بأنه موجب التنظيمات الخيرة [إصلاحات ١٨٣٩ م - ١٨٧٦ م]  
الإدارية والتشريعية ، المسلم والنصراني واحد ، كلهم مخالق الله وليس  
هناك ما يمنع النصارى أن يلبسوا مثل ما يلبس المسلمون ، وأدى هذا إلى  
شطط كبير بين النصارى ، ومن ثم صار إذا تشاجر نصراني مع مسلم مثلاً  
يقول له المسلم يقول النصراني وأزود ، وإذا تشاكوا إلى الحكومة تأخذ بيد  
النصراني ، حيث كل واحد من طائفة النصارى له أقارب داخل أحدهم تحت  
حماية أحد الأجانب ويعد من رعيته وكان أكثرهم تحت الحماية الفرنسية ،  
حتى إن كل من له شكوى على واحد من المسلمين يحولها إلى واحد من  
الرعايا الأجانب ، وإذا ما حدثت مشاجرة مع أحد النصارى ، كائناً من كان  
المتشاجر من المسلمين يقول النصراني : أنا من رعايا الدولة الفلانية ، مع أن  
الحال ليس كذلك بل يكون أحد أقاربه أو أحبائه هو حاميه ، واعتاد كل  
قنصل أن يرسل مندوبه «القواص» إلى السجن لإخراج من تثبت عليه جنائية  
من النصارى بحجة أنه سيسجنه في بيته ، مع أن ذلك كذب .

---

= النصارى . وبالغت الدول الغربية فيها ، وطوقت أساطيل فرنسا الساحل اللبناني .  
واستغلت الواقعة بعد أن ضخمت في الضغط على الدولة العثمانية التي قامت بعدة  
إجراءات نتيجة لذلك . منها إعدام والي الشام متهمه بإياه بالتساهل حيال تلك الفتنة ،  
وإعدام بعض العلماء والتجار ، ونفت فريقاً كبيراً منهم .

وإذا كان الحق على المسلم يطلب النصراني «شرفية» ويحبس المسلم أكثر مما أثبتت عليه جنايته ، فلو قضى القانون أن يحبس عشرة أيام يحبس عشرين . . . واستمر هذا الحال نحو من سبع سنين أو أكثر .

ثم يتحدث عن نصارى زحلة فيقول : وازداد شغب نصارى زحلة ، وظهر منهم البغي على كافة الملل من المسلمين وغيرهم ، حتى إنه لو وجد مسلم داخل إلى زحلة راكب يحولوه عن الدابة غضباً وإذا لم يتحول يرمونه عن ظهر الدابة إلى الأرض ويسبوا نبيه ، وكان من جملة بغيهم تسميتهم لكلابهم على أسماء الأنبياء والصحابة ، وكثيراً ما حدث أن أحد المسلمين مار بزحلة ، وقد علم أهلها باسمه : عمر أو علي أو غيره ، فينادونه وعندما يلتفت الرجل يقولون له : لسنا نناديك بل نصرخ إلى الكلب<sup>(١)</sup> .

ويصور لنا هذا النص مدى التأثير العميق لتلك الامتيازات الجائرة التي جعلت المسلمين يسلبون حقوقهم ويفقدون كراماتهم في أوطانهم ،

---

(١) بلاد الشام في القرن التاسع عشر . ص ٢٨٥-٢٨٦ . من مذكرات محمد أبو السعود الحسيبي الدمشقي وقد أثبتنا النص كما هو في الأصل ، بصرف النظر عن ركافة الأسلوب ، والصيغ العامة الواردة فيه .

ومما يذكر أن اليهود في بلاد الشام كانوا أداة السياسة البريطانية القائمة على تعميق وتحريك الفتن الطائفية ، وهم الذين لعبوا دوراً بارزاً في فتن ١٨٦٠م ، وزادوا من حداثها ، وهذا ما تؤكد الوثائق المعاصرة وتقارير القناصل الأجانب ، فقامت الدولة العثمانية وقتذاك بالقبض على بعض منهم ، بعد أن علمت دورهم في هذه الفتن ، وأكد هذا الدور كل فئات الشعب من المسلمين والمسيحيين من أهل الشام ، لا سيما في مدينة دمشق ، وطلب أعيان اليهود حماية بريطانيا التي سارعت إلى تلبية طلبهم . وقد استطاع التدخل البريطاني أن ينهي هذه الأزمة لصالح اليهود ، حيث خرج من قبض عليه سوى إسرائيلي واحد لتراكم الشكوى عليه وعدم تقديم الشهود لتبرئته .

ص ٥٥ موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية . حسان علي حلاق ١٩٧٨م جامعة بيروت العربية .

ويعيشون مسحوقين تحت وطأة القنصليات الأجنبية ورعاياها الذين كانوا يتمتعون بنمط من العيش لا يحلمون بمثله في بلادهم .

وهذه الامتيازات السياسية التي منحتها الدولة العثمانية أصبحت «مشاعاً» للجميع في بلادها وتعدت حد الحقوق الدولية إلى التدخل في شؤون السلطة الخارجية حتى أفضى هذا التدخل إلى تقييد حريتها .

ويكفي للتدليل على ذلك الإشارة إلى الحد من حرية تركيا<sup>(١)</sup> في ناحية وضع الرسوم الجمركية وتوجيهها في هذا توجيهاً مضرراً بمصالحها . فالمعاهدة التي عقدها مع فرنسا ١٨٣٨م حتمت عليها أن لا تتقاضى عن البضائع الداخلة لجماركها إلا خمسة في المائة بينما حددت الرسوم على صادراتها ١٢٪ .

وهذا ما حداً بكامل باشا الصدر الأعظم خلال حرب البلقان أن يقول : «إن تركيا هي الدولة الوحيدة التي ليس لها حرية التصرف بأموالها والسيطرة على دخلها ، حتى إن كل قرش من مواردها لا تحصل عليه إلا بعد صدور السماح من الدول»<sup>(٢)</sup> .

«وكانت هذه الامتيازات عقبة كؤوداً أمام الدولة حالت دون قيامها بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات

---

(١) هذه التسمية (تركياء) من المصطلحات الواردة من أوروبا وهي بمعنى الدولة العثمانية . ولم تأخذ طابعاً رسمياً إلا عام ١٩٢٣م حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا وإلغاء الخلافة على يد مصطفى كمال أتاترك . واستخدمت هذه التسمية لإبعاد الشعب التركي عن الخط الإسلامي ونبد تقاليده .

انظر تفصيل ذلك في الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١١/١ - ١٣ .

(٢) «فلسفة التاريخ العثماني» ص ٩٥ .

الإدارة والحكم؛ ولذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة موائيق مذلة للعثمانيين حتى سقوط دولتهم عقب الحرب العالمية الأولى<sup>(١)</sup>.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ولكنه تجاوز ذلك «إلى أن الدول الأوروبية تجاوزت هذه الحدود وتعدتها إلى تقرير حقوق مكتسبة في السلطنة ليس لها أساس في المعاهدات، ومن ذلك البرد الأجنبية التي ما وسع السلطان «عبد الحميد الثاني» إلا أن يعرب عن أسفه لوجودها حيث قال في مذكراته: «أما السبب الذي أدى إلى إنشاء دور البرد الأجنبية في تركيا فهو أن أسلافي على العرش العثماني سمحوا بدون اكتراث وبنية حسنة، لرسل السفراء الأوروبيين بحمل رسائل خصوصية، وقد انتقلت هذه العادة على ممر الأيام إلى نظام يريد أجنبي واسع، كما هو اليوم، وخسرت تركيا بهذه الطريقة أموالاً طائلة...»

إن بلادنا هي البلاد الوحيدة الصابرة على هذا الضيم. فللنمسا في المملكة ثلاثون شعبة بريد، ولروسيا أربع وعشرون، وفرنسا عشرون، ولإيطاليا ثمانين، وألمانيا خمس، ولانكلترا أربع، والهند اثنتان<sup>(٢)</sup>.

وللعلم فإن خسارة الأموال العظيمة ليست وحدها هي الثمرة المرة لتلك البرد الأجنبية، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنها غدت أوكاراً للجاسوسية ومقرات للتآمر على الدولة التي هي في مأمن منها. وقد بلغ عدد القناصل في «حلب» وحدها نحو ١٥٠٠ رجل «والسبب في ذلك أن الدولة سمحت لكل سفير في «استانبول» ولكل قنصل خارجها بشخص وترجمان استثنته

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٧٥٠/٢.

(٢) فلسفة التاريخ العثماني ص ٩٦.

من جميع التكاليف الأميرية فانفتح بسبب ذلك باب لمن أراد الدخول في الترجمانية»<sup>(١)</sup>.

«والخلاصة فإن هذه الامتيازات الأجنبية المختلفة جعلت تركيا مستعمرة، ولكنها ليست مستعمرة لدولة واحدة بل للدول القوية كافة، ولا أدل على ذلك من قول «رينه بينون» الفرنسي حين أعلن صراحة (لا توجد في العالم بلاد كالمملكة العثمانية يجد فيها الغرباء، ولا سيما الفرنسيون، حرية العمل وثمرات الجدد... وإن الافرنسيين لم يستعملوا رؤوس أموالهم في بلد آخر حتى ولا في مستعمراتهم مثلما استعملوها في تركيا للاستثمار، وكانت تلك الامتيازات وبالأعلى السلطنة في كل ناحية. ويكفي أنها جعلت الشعب العثماني غريباً في وطنه، بينما أصبح الغرباء فيه يعيشون تيهاً واختيالاً، لا يطالهم القانون بل هم يحمون من يشاؤون من القانون»<sup>(٢)</sup>.

وقد تمادى الضعف السياسي بالدولة العثمانية، وأخذ المستعمرون يتآمرون فيما بينهم لاقتسام تركة الرجل المريض الذي بات يحتضر بفعل الضربات المتتالية إلى جسده العليل. «هذا المرض الذي انتاب السلطان العثماني إنما هو تعبير دبلوماسي قصد به الضعف السياسي والعسكري بعد أن بلغا بالدولة حد الاضمحلال والتدهور في القرن التاسع عشر. حقيقة كان هذا الجانب من الضعف الذي أصاب الدولة يرجع إليها...

ولكن كانت الدول الأوروبية الكبرى هي المسؤولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذي ألم بالدولة، أخذت روسيا والنمسا أول الأمر بسياسة

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣١١.

(٢) فلسفة التاريخ العثماني ص ٩٦.

التوسع الإقليمي على حساب ممتلكات الدولة العثمانية في وسط أوروبا وفي حوض الدانوب وعلى حدوده وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان وتغلغت روسيا في القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز. وأصبحت هاتان الدولتان في حالة حرب لم تكد تنقطع مع الدولة العثمانية حتى استنفدت قوة الدولة وحيويتها ، ولم تعطياها قسطاً طويلاً من الراحة لالتقاط أنفاسها أو لاستعادة حيويتها .

ثم انضمت فرنسا إلى ركبهما فاحتلت الجزائر ثم وضعت تونس تحت حمايتها . ونهجت بريطانيا هذا النهج فاحتلت جزيرة قبرص ثم مصر بما فيها قناة السويس . واحتلت إيطاليا جزر الدوديكانيز وولايتي برقة وطرابلس . وهكذا اتبعت روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا سياسة عدوانية تجاه الدولة استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلاباً فيما بينها<sup>(١)</sup> حتى لقد وصل الأمر إلى إصدار مائة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> .

وفي خضم هذه الأحداث الهائلة ، ووسط هذه الظروف الصعبة ارتقى السلطان «عبد الحميد الثاني» عرش الدولة عام ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م ، وشمس الدولة تأذن بالأفول ، فحاول بما أوتي من حنكة وسياسة ووعي أن يبقى على ذلك الكيان المتداعي ، ودعا إلى فكرة الجامعة الإسلامية باعتباره خليفة المسلمين ، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير ولكن الانحرافات العقدية والعلمية كانت تتسع دائرتها والضعف يزداد بالدولة وضغوط الدول الأوروبية تشتد ، وكان ذلك جديراً بأن يجعل الجهود

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٨٣٣/٢ .

(٢) حاضرم العالم الإسلامي ٣/٣١٧ لوثروب ستودارد . ترجمة عجاج نويهض . بتعليق الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٣ م .

الكثيرة التي بذلها السلطان «عبد الحميد» ضعيفة التأثير أو عديمة الجدوى .  
فإن حجم تلك الانحرافات وثقلها كانت أكبر بكثير من الجهود التي بذلت في سبيل الإبقاء على ذلك الكيان المتداعي للدولة خصوصاً وقد كان كثير من تلك الجهود المبذولة مشوباً ببعض هذه الانحرافات ومتأثراً بها .  
«وقد أفاد «عبد الحميد» من نزعتة الصوفية بدون شك فاستقطب «الدررايش» وتقرب إلى العامة والبسطاء كما أكرم العلماء وشيوخ الطرق الصوفية ، وقرب النابغين من رجالات هذه الفرق . وكان العداء بين «عبد الحميد» والدعوة السلفية بسبب من ضراوتها في الهجوم على الطرق الصوفية»<sup>(١)</sup> .

«كما يبدو أن السلطان «عبد الحميد الثاني» وجد في النظرة الصوفية الإشراقية ما يحقق حاجة الدولة العثمانية المتداعية في التفاف الرعية حول الخليفة باعتباره «ظل الله في الأرض» تعزيزاً للجامعة الإسلامية»<sup>(٢)</sup> .

فتشجيع «عبد الحميد» ودولته للتصوف ورجال الطرق والاتكال عليهم في مقاومة رياح التغريب والاستعمار واتخاذ ذلك أشربة لإنقاذ الدولة من الغرق الوشيك ، لم يأخذ الدولة إلى بر الأمان ولم يتداركها من السقوط ، وإن كان قد تأخر السقوط زمناً ، ولم تجد حنكة السلطان «عبد الحميد» ودهاؤه في القضاء على الضعف السياسي الذي بلغ متناه ، وإنما كان قصارى جهوده العمل على تفادي مزيد من الضعف في وقت كانت الضغوط والكوارث التي تعرضت لها الدولة تؤكد باستشراء ذلك الضعف

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص ١٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ .

وتفاقمه، وحتى تتضح الصورة نسوق واقعة مزرية تمثل فيها الضعف السياسي الذي ورثه «عبد الحميد»، وذلك حين ولي السلطان «عبد الحميد» «أنيس باشا» على «حلب» سنة ١٣١٨هـ «ومضى على قدومه إلى «حلب» عدة أيام ، ولم تزره قناصل الدول ، ثم شاع عنهم أنهم يطلبون من السلطان تبديله ، وأنهم لا يعترفون بولايته على «حلب»، زاعمين أنه هو الذي أغرى الأمة في ولاية ديار بكر حينما كان والياً عليها - بالقيام على الأرمن وقتلهم ، ولما أصر القناصل على عدم الاعتراف بولايته على «حلب» ، ورد إليه أمر مرموز بأن يبقى مختبئاً في منزله لا يظهر إلى أحد!! ، حتى يأتيه أمر آخر يوضح له ما يجب عليه عمله .

فبقي هذا الوالي المسكين مختبئاً في منزله كالمحبوس مدة شهرين أو أكثر لا يظهر لأحد ، وقام بأمور الولاية بدله «علي محسن باشا» القائد العام على «حلب» . . . ثم ورد له الأمر بالظهور ومباشرة العمل»<sup>(١)</sup> . وكان ظهوره بعد أن قام السلطان باسترضاء سفراء الدول .

«ومع بداية القرن العشرين الميلادي انتشرت جمعيات سرية كثيرة ، وخاصة في سالونيك باسم الوطن ، والحرية ، تتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي ، لمعارضة الحكومة العثمانية ، وتمكنت هذه الجمعيات أخيراً من الثورة سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م وإسقاط السلطان «عبد الحميد» سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م ، وكان «قره صو» اليهودي واحداً من الذين اشتركوا في خلعه ، وقدم له قرار العزل»<sup>(٢)</sup> .

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٤٥٣/٣ .

(٢) حاضرم العالم الإسلامي ص ١١٩ د . جميل المصري . دار أم القرى . عمان . الأردن .  
الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .



ويعتبر سقوط السلطان «عبد الحميد» هو السقوط الحقيقي للدولة العثمانية .

وبعد أن تم إسقاط «عبد الحميد» على أيدي الاتحاديين من يهود الدوغة والمستغربين سارعوا بزج الدولة المتداعية في أتون الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ - ١٣٣٧هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨م) إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) ، في حين تمكن الانجليز (بمراسلات الحسين مكماهون) من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك . وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب ، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ، ووقعت الأستانة تحت سيطرة الانجليز ، وأصبح الخليفة كالأسير فيها<sup>(١)</sup> .

وتبع خلع السلطان «عبد الحميد» وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي في معاهدة «سايكس بيكو» سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م ، وصدر وعد بلفور البريطاني عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م القاضي بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود .

وفي عام ١٣٤١هـ / ١٩٢٣م أعلن عن قيام الجمهورية في تركيا وانتخب «مصطفى كمال» أول رئيس لها وفصل بذلك بين السلطة والخلافة ، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختير «عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خليفة» ، بدلاً من «محمد السادس» الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ، ولم يمارس السلطان «عبد المجيد» أي سلطات للحكم .

وفي عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م ألغيت الخلافة ، وأخرج السلطان «عبد

---

(٣) المصدر السابق ص ١٢٣ .

المجيد» من البلاد وأعلن الدستور العلماني في تركيا ، وبدأ حكم «كمال أتاتورك» رئيساً للجمهورية التركية رسمياً وسرعان ما قام بتنحية الشريعة الإسلامية نهائياً وألغى المحاكم الشرعية ، والتقويم الهجري وجعل العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة ، وحرّم الاحتفال بعيد الفطر والأضحى ، واستبدل الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية ، وألغى الحجاب وأمر بالسفور ، وألغى قوامة الرجل ، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية ومنع الحج<sup>(١)</sup> .

وهكذا فقد كان خلع السلطان «عبد الحميد» وإلغاء ما كان يسمى بالخلافة أبرز صور الضعف السياسي الذي غشي العالم الإسلامي . وقد كان أعداء الإسلام يعملون على إسقاط الدولة العثمانية لتحقيق ما يلي :

أولاً : تمزيق الدولة العثمانية التي تمثل قوة إسلامية كبرى وتجد لها في مسلمي الهند وأندونيسيا ومختلف أنحاء العالم الإسلامي صدى وتأييداً .  
ثانياً : السيطرة على الأجزاء العربية من الدولة ووضعها تحت سلطان الاحتلال البريطاني والفرنسي .

ثالثاً : إقامة إسرائيل في فلسطين قلب العالم الإسلامي .

«ومن هنا فقد كانت خطة القضاء على الدولة العثمانية هدفاً أساسياً للقوى الاستعمارية والأقليات المختلفة الموالية للنفوذ الاستعماري وهدفاً أساسياً أيضاً للحركة الصهيونية الوليدة . . .»<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣ - ١٣٠ .

(٢) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج - عالم الإسلام المعاصر . ص ٢٠ أنور الجندي . توزيع دار الأنصار - مطبعة التقدم . القاهرة ١٩٧٧م

وبعد أن قضى على الدولة العثمانية التي عاشت قروناً تلم شعث المسلمين وتوحد بينهم على كثرة الانحرافات التي وقعت فيها، ازداد الضعف بالأمّة ، وتفككت أجزاؤها ، وطمع فيها الأعداء أكثر من ذي قبل ، ونجحوا نجاحاً عظيماً في تقطيع أوصالها والتهامها ، هذا ويعتبر الاستعمار الذي بدأ قبل نهاية الدولة العثمانية وكان من أسباب ضعفها واستمر كذلك بعد سقوطها من أبرز صور الضعف السياسي ، ولكننا نرجى الحديث عنه إلى مبحث قادم إن شاء الله تعالى .

وبسبب دعاوى الوطنية والقومية التي أفرزها الغزو الفكري زاد التفرق واشتد الضعف ، حيث أضحي كل جزء يسعى إلى الاستقلال بنفسه على حساب الجزء الآخر . لقد «ظلت الصليبية الصهيونية تتآمر على الدولة العثمانية حتى قضت عليها في النهاية وأسقطتها . وفتت العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة هزيلة ضعيفة ، تتصارع فيما بينها وتتشاحن بما يحقق مصالح الأعداء دائماً ، ويحقق لهم السيطرة على مقدرات المسلمين»<sup>(١)</sup> .

وكانت النتيجة لهذا الضعف هي «وقوع الكثير من الدول الإسلامية إن لم نقل كلها في برائن أعداء الإسلام يتحكمون في مقدراتها ويرسمون سياساتها ويخططون لها ويوجهون قادتها بما ينبغي أن يأتوه أو يذروه عن طريق القوة والتهديد أحياناً وعن طريق الخداع باسم الاستشارة والإفادة من الخبرات أحياناً أخرى وعن طريق استسلام القادة وخنوعهم الدليل لأولئك الأعداء بل وإعجابهم بهم وسيرهم في ركابهم والنظر إليهم بإكبار

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ١٨٣ . الشيخ محمد قطب . دار الوطن للنشر . الرياض . الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

وإجلال . . . إن واقع كثير من المسلمين - حكاماً ومحكومين - المناقض لصفة محمد ﷺ والذين معه هو في حد ذاته مظهر من مظاهر الانهزام السياسي المريع»<sup>(١)</sup> .

«هذا وتتصف معظم الدول الإسلامية الحالية بالتبعية السياسية في مجال الحكم والاقتصاد والفكر ، وهذا ما يجعل أوضاعها غير مستقرة وعرضة لأطماع المعسكر الشرقي والغربي على حد سواء»<sup>(٢)</sup> .

وفي ظل الأوضاع السياسية السيئة في العالم الإسلامي أمكن للغرب أن ييسط نظريته السياسية عليه ، وجعل الناس يتطلعون إلى أغطة الحياة السياسية في الغرب ، بسبب تردي الجانب السياسي عند المسلمين .

أما بالنسبة للضعف الحربي فقد كان مواكباً للضعف السياسي وسبباً من أسبابه . لقد كان الضعف الحربي ولا شك نتيجة حتمية للجمود الذي أصاب العلوم الإسلامية وللانحرافات التي وقعت في حياة الأمة التي دفعت الثمن باهظاً جداً حيال تفريطها في إعداد القوة وبذل الأسباب المادية . وقد رأينا كيف أهملت العلوم المتعلقة بذلك الشأن ، بل كيف حوربت وأقصيت من حياة المسلمين .

وقد رأينا نظرة بعض علماء المسلمين في عدم جدوى معرفة البلاد والفنون العسكرية .

و بينما كانت أوروبا تتقدم في المضمار العلمي والحربي بخطوات واسعة

---

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ١٠٠ عبد الله بن حمد الشبابة . دار طبية للنشر . الرياض . طبعة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٣٩ د . جميل محمد المصري .

وسريعة كان المسلمون يغطون في سبات عميق ، ماكثين على ما هم عليه من قوة حربية ، غير متيقظين لحركة التطور من حولهم . وفي الدولة العثمانية كانت الفيالق الانكشارية محور قوة الدولة ، وبهذه الفيالق استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة وتتوغل في البلدان الأوربية<sup>(١)</sup> ولكنها مع الزمن تعاضمت نفوذها وتزايدت شرورها بعد أن أصابها الخلل ودب إليها الانحراف .

يقول «د. عبد العزيز الشناوي» عن الانكشارية «كانوا يزجون بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد ، ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش - أي البخشيش - كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مهما أوتى من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم . . .

وامتدت شرور الانكشارية في أوقات السلم إلى المدنيين الوادعين سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات ، فمارسوا نشاطاً إجرامياً في السلب والنهب ، كانوا يعمدون إلى إحراق أحد أحياء مدينة يبغون نهبها ، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب في عنان السماء انطلق الانكشارية ينهبون الأحياء الأخرى في المدينة ، فكانوا يقتحمون البيوت ، ويهتكون الأعراض ، ويهاجمون المحلات التجارية»<sup>(٢)</sup> .

وكان قد بلغ من نفوذهم أنهم شاركوا في عزل السلطان «أبي يزيد

(١) لمزيد من المعرفة لهذه الطائفة انظر : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/ ٤٧١ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٩٤ - ٤٩٩ .

الثاني» ، وأجبروا السلطان «سليم الأول» على إنهاء الحرب في فارس مع الدولة الصفوية بعد أن حقق العثمانيون انتصارات كبيرة . ووصل بهم الأمر إلى عزل السلطان «عثمان الثاني» ثم إعدامه ، وأقدموا على قتل الصدر الأعظم إبان حكم السلطان «مراد الرابع» .

ثم قاموا بعزل السلطان «إبراهيم الأول» وقتلوه خنقاً ، وكذلك قتلوا «الصدر الأعظم» وسبوا زوجاته أيام السلطان «سليمان الثاني» ، وطالبوا السلطان «أحمد الثالث» بقتل «الصدر الأعظم» فاستجاب لهم مرغماً ، ولما حاول السلطان «سليم الثالث» أن ينشئ النظام العسكري الجديد استطاع الانكشارية أن يعزلوه بعد أن أجبروه على إلغاء النظام الجديد ، ونصبوا السلطان «مصطفى الرابع» عام ١٨٠٧ م<sup>(١)</sup> .

وقد حاول سلاطين بني عثمان أن يقوموا بإدخال إصلاحات عديدة للجيش عامة ولפיالق الانكشارية خاصة ، ولكنها جميعها منيت بالفشل ، لتصلب الإنكشارية ومعارضتهم الشديدة لهذه الإصلاحات ومن هؤلاء السلطان محمود الثاني الذي تمكن من القضاء على الانكشارية فيما بعد<sup>(٢)</sup> .

«وقرر «محمود الثاني» أنه لا فائدة مما يحاول تنفيذه من إصلاح وأن عليه أن يوجه ضربة قوية للانكشارية ، لكي ينهي كل متاعبه معهم . وفي ليلة ١٣ - ١٤ يونيو ١٨٢٦ م قام الانكشارية بتمرد ، للاحتجاج على مشروع الإصلاح الجديد ، وقلبوا أواني الحساء ، وكانت تلك علامة التمرد والثورة ، التي اشتهروا بها دائماً عند غضبهم من شيء ، أو احتجاجهم على تصرف

---

(١) المصدر السابق ١/ ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٩ .

(٢) انظر : حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني .

السلطان ، أو الحكومة ، على أن «محمود الثاني» لم يفرغ من ثورتهم ، وأمر «حسين الأسود» بعبور البسفور ، بقواته الموالية للسلطان ، وعبر «حسين الأسود» بقوات كبيرة إلى القسطنطينية ، وهاجم الانكشارية ، بمنتهى القوة والعنف ، وحطم بمدفعه القوية ثكناتهم عليهم ، وهم معزولون داخلها ، وفي خلال ساعات قليلة كان قد تم القضاء على أية مقاومة لهم»<sup>(١)</sup> .

وفي اعتقادي أن الأمور الحربية كانت بحاجة ماسة إلى الإصلاح ، ولكن ليس على الطريقة الغربية وإدخال العادات والنظم الحربية كما فعل السلطان «محمود الثاني» الذي ألغى بالقوة الفيلق الانكشارية وأشاد به جمهور المؤرخين على هذا الفعل ، وسلك طريقاً تغريبياً في إصلاحاته الكثيرة التي قام بها وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لذلك عند حديثنا عن استيراد المبادئ والنظم .

لقد كان للخطوات التغريبية التي قام بها السلطان العثماني «محمود الثاني» ، ومهد لها بالقضاء على ركيزة عظيمة من ركائز الجيش العثماني وهي الانكشارية آثار عميقة مما جعل بعض الباحثين يقرر «بأن انتهاء الانكشارية كان انتهاء للمجد الحربي للدولة العثمانية»<sup>(٢)</sup> .

«ولعل الهزائم المتتالية هي التي أوجت إلى «دسترلكر» أن يقرر أن القضاء على الانكشارية كانت بداية النهاية للدولة العثمانية»<sup>(٣)</sup> .

ونتج عن الضعف الحربي نتائج خطيرة حيث أصبحت الدولة العثمانية

---

(١) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية د . محمد كمال دسوقي . دار الثقافة . القاهرة ١٩٧٦ م .

(٢) حركة الإصلاح العثماني ص ٢٤٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

تخضع خضوعاً كاملاً لأعدائها ، وتتنازل عن بعض أجزائها ثمناً لإجراء صفقة عسكرية ، كيوم تنازلت عن جزيرة قبرص لبريطانيا مقابل أخذها لمعونة عسكرية عام ١٨٧٧ م<sup>(١)</sup> .

يقول الشيخ «أبو الحسن الندوي» : «ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب بل كان هذا الانحطاط عاماً وشاملاً، حتى تخلفوا عن أوروبا في صناعة الحرب التي كان التركي في الزمن الأخير ابن بجدها وأبا عذرتها ، قد أقر بفضلهم وتبريزهم العالم ، ولكن سبقتهم أوروبا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت الجيوش العثمانية هزيمة منكرة سنة ١٧٧٤ م»<sup>(٢)</sup> .

«ومع ما حدث في تركيا من إصلاحات ومحاولات للنهوض بالدولة خصوصاً في المجال الحربي إلا أنك إذا قارنت ذلك بما قطعتة أوروبا من أشواط في ميدان الرقي والتقدم تجد الفرق هائلاً ، فلم يكن جريهما في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب في عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتعفى إغفاءة»<sup>(٣)</sup> .

وكانت هزائم العثمانيين تعود بالدرجة الأولى إلى التخلف الحربي الذي كانوا يعانون منه ، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا متقدمة في المجال العسكري تقدماً أحرزت به النصر في كل المعارك التي خاضتها ضدهم ، وفي المجال البحري خاصة كان ضعف البحرية العثمانية سبباً في إنهاء كثير من المعارك لصالح خصومهم .

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٨٨

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٢ .



ولعل الهزيمة البحرية الساحقة التي مني بها العثمانيون في ليبانتو سنة ١٥٧١م في عهد «سليمان القانوني» في أوج التفوق الإسلامي البري ، كانت بداية لتغير موازين القوى بين الشرق والغرب حيث «مرن الغريون في أساليب الحرب البحرية في حين سكنت الملاحة في الشرق وقلت سفنه وأغلقت ثغوره . . وفهم الغرب ضعف الشرق في هذه الناحية فصار يهاجمه - إذا أراد - من البحار ويحصره في المياه . . .»<sup>(١)</sup> .

هذا بالنسبة للدولة العثمانية التي كانت مهيمنة على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي ، ولم تكن بقية أجزاء العالم الإسلامي بمنأى عن ذلك الضعف ، فالمماليك الذين كانوا يحكمون مصر لم يستطع جيشهم الصمود أمام الحملة الفرنسية في معركة «إمبابة» سوى ثلاثة أرباع الساعة<sup>(٢)</sup> بسبب التفوق في التسليح والتنظيم العسكري من جانب الفرنسيين .

وكانت «المدافع المركبة في إمبابة وعددها أربعون مدفعاً ، لم تكن مركبة على عجلات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تبعاً لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، وأن المقاتلين لا يستطيعون التحرك بسهولة ومغادرة الاستحكامات التي كانوا ممتنعين بها»<sup>(٣)</sup> .

«وعندما هجم الفرنسيون على المماليك حاولوا صد هجومهم بإطلاق النار من المدافع المركبة في استحكامات إمبابة ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ، ولم يستطع رماتها أن يعيدوا الضرب بها»<sup>(٤)</sup> .

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٤٢ .

(٢) عجائب الآثار ١٨٩/٢ .

(٣) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ٢٠٩/١ .

(٤) المصدر السابق ٢١١/١ .

وكان جنود المدفعية يحشون المدافع في نصف ساعة ، فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة<sup>(١)</sup> وكتب «المسيو مور Mure» قنصل فرنسا في تقريره الذي قدمه سنة ١٧٨٣م إلى الحكومة الفرنسية يرغبها في الحملة على مصر : «إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهلين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثماني ، أما قلعة المنارة فهي في ظاهرها فخمة ، لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية لا تصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد!!»<sup>(٢)</sup> .

وذكر الرحالة الفرنسي «فلي» الذي زار مصر ونشر رحلته عام ١٧٨٧م أنه لا يوجد في المدينة سوى أربع مدافع في حالة صالحة ، وليس بين الحامية التي يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه أن يصيب الرمي ، بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين<sup>(٣)</sup> .

وفي الجزائر تمكن الأسطول الفرنسي من احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م ، وانهارت مقاومة الجزائريين بقيادة «الداي» الذي أعلن الاستسلام بعد أربعة أسابيع من بدء القتال<sup>(٤)</sup> .

وكان التفوق في القوة والسلاح هو الذي حدد نتيجة المعركة .

وفي مراكش (المغرب) استطاع جيش فرنسي لا يتجاوز عدده ستة آلاف مقاتل ، أن يهزم الجيش المراكشي البالغ عدده خمسة وستين ألف رجل تحت قيادة ابن السلطان عام ١٨٤٢م وفي وادي إيسلي ، بسبب ضعف السلاح

(١) المصدر السابق ١/ ٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٦٣ .

(٣) الشرق الإسلامي ص ٧٤ .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢١ .

وفقد النظام<sup>(١)</sup> .

وفي مصر تمكن البريطانيون من هزيمة جيش عرابي ذي القوات المسلحة تسليحاً رديئاً في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ م . وترتب على هذه الهزيمة احتلال مصر واستعمارها لمدة تزيد عن نصف قرن<sup>(٢)</sup> .

وقبل ذلك تمكن الأسطول الإنجليزي من ضرب مدينة الإسكندرية والاستيلاء عليها بسهولة لضعف التحصينات الحربية المدفعة فيها وكانت بعض المدافع منذ عهد «محمد علي» وهي قديمة الصنع<sup>(٣)</sup> .

لقد كان الضعف الحربي والتخلف العسكري الذي أفرزته الانحرافات العقدية والعلمية سبباً جوهرياً في إلحاق جل الهزائم والنكبات العسكرية بالمسلمين حين لم يأخذوا بقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

فكانوا لقمة سائغة أمام أعدائهم . يوم أن ركن الحكام إلى ملذاتهم وديناهم وأهملوا أمر الأمة ، وتفشت مظاهر الشرك والبدع والخرافات في حياة المسلمين ، وشغلت أوقاتهم بإحياء الموالد ، وهيمنت الأضرحة والقبور على حياتهم ، وتفاخروا بها ، وتعلقوا بالكرامات والخوارق عن تغيير الواقع وأهملوا العلوم الكونية والأخذ بالأسباب فانتابهم ذلك الضعف السياسي الرهيب ، وغشيهـم ذلك الانحطاط الحربي والعسكري الشديد الذي رأينا منه طرفاً في هذه العجالة الصغيرة .



(١) المصدر السابق ص ٦٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٩١ .

(٣) انظر : يوم ١١ يولية ١٨٨٢م الأمير عمر طوسون ط ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م .

## المبحث الثاني

### الضعف الاقتصادي

كان لزاماً من تفاقم الانحرافات العقدية في واقع المسلمين أن يغشى الضعف الاقتصادي حياة الناس ، وأن تتدهور الأوضاع الاقتصادية «نعم لقد كانت هناك أسباب خارجية قوية أسهمت في هذا التخلف ولكنها وحدها - لا تبرره ولا تفسره .

لقد كانت أوروبا الصليبية تسعى - منذ القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس - إلى تطويق العالم الإسلامي ، وإضعافه بكل الوسائل . وكان من بين الوسائل التي اتخذوها السعي الدائب لتحويل التجارة العالمية إلى أيديهم ، وانتزاعها من يد الممالك ، الذين كانوا يمسون بزمامها عن طريق سيطرتهم على البحر الأحمر والبحر الأبيض فتدر عليهم أموالاً طائلة ، وعلى العالم الإسلامي كله كذلك .

ومنذ اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، الذين كشفوه على هدي الخرائط الإسلامية وبمعاونة بحارة المسلمين بدأوا يتجهون إلى الشرق الأقصى ليستولوا على أرضه وخيراته ، وينقلوها على سفنهم عن طريق رأس الرجاء الصالح فيحرموا منها دولة الممالك ويحرموا منها العالم الإسلامي كله .

وحدث ذلك بالفعل ، وتأثرت اقتصاديات العالم الإسلامي تأثراً بالغاً

بما حدث ، ولكن . . هل هذا هو التفسير؟ أو هذا هو التبرير»<sup>(١)</sup> .

لا شك أن ما سبق إيراده كان له دور في تردي الأحوال الاقتصادية وانحطاطه ولكن الأسباب الحقيقية لم تكن سوى الانحرافات العقدية والعلمية السيئة التي بسطنا شيئاً منها في البابين الأول والثاني .

«فسلب التجارة من يد المسلمين ، واستيلاء أوروبا الصليبية عليها ، له أسبابه الكامنة في التخلف العقدي الذي أصاب الأمة في مجموعها ، والتقلص والضمور الذي ترتب عليه في كل اتجاه . فتضاؤل القوة الحربية الذي مكن الأعداء من أجزاء متزايدة من العالم الإسلامي هو ذاته أثر من آثار التخلف العقدي .

ولكن آثار التخلف العقدي في الميدان الاقتصادي الخاص لا تحتاج إلى تأكيد ، فلنفرض أن التجارة العالمية قد سلبت من أيدي المسلمين لسبب قاهر لا يقدرُونَ على درئه ، فهل تتوقف ثروة العالم الإسلامي على التجارة وحدها في ذلك الحين أو في أي حين؟

إن الأرض الإسلامية من المحيط إلى المحيط هي - بقدر الله - أغنى بقعة في الأرض وأكثرها خيرات ، وقد كانت - وما تزال حتى هذه اللحظة - لم تستثمر الاستثمار الكامل الذي يستغل كل مواردها وكل طاقاتها . فإذا ضاع جزء من الثروة لأسباب قاهرة ، فلماذا لم تسع الأمة - في مجموعها - إلى استغلال الثروات الأخرى القابلة للاستغلال ، من زراعة وصناعة ومعادن مذكورة في باطن الأرض»<sup>(٢)</sup> .

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٨٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨١ .

وإن الناظر إلى ما ذكرناه من انحرافات عقدية وعلمية ليدرك جيداً أن هذه الانحرافات كان ولا بد أن تتمخض عن آثار خطيرة يكون الضعف الاقتصادي أحدها .

فالصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ، وسيطرت بعقائدها الباطلة وطقوسها المبتدعة كان لها أكبر الأثر في اتساع هوة الضعف الاقتصادي .

وحسبنا أن نعرف أن الشخص القاعد عن العمل والكسب بل عن أي نشاط دينوي والمتفرغ بالكلية للذكر الصوفي في زاوية أو مسجد أو خلوة أو مغارة كان يرقى في المستوى الذي يرتفع به عن ألسنة النقد والاعتراض ، بل كان ينظر إليه بالإعجاب والإكبار والهيبة ، ويحاط بهالة وقداسة ويكون مثلاً وقدوة يتمناها الكثيرون .

وإن جموع الفقراء والطرقية الذين أسمهوا بشكل عظيم في ارتفاع معدل البطالة ، وانخفاض الإنتاج ، كانوا عند الحكام والمحكومين هم أهل الله وخاصته ، يتسابق إلى الإغداق والنفقة عليهم أرباب المال والجاه والثراء .

بل لقد كانت النظرة مشوهة جداً ، فالبطالة التي تحرص كل أمة تريد النهوض على القضاء عليها ، وتعتبر اليوم من المشاكل الاقتصادية المعقدة التي تعاني أكثر الدول في العالم منها وتسعى إلى تخفيفها وإنهائها ، كانت في تلك الفترة التي ندرسها طبيعية ومنسجمة مع الأجواء التي أوجدتها الصوفية بل ومرغوبة في كثير من الأحيان ، حين نجد أن الدولة لم تفكر أبداً في القضاء على البطالة المتمثلة غالباً في جموع الصوفية ، بل إننا نجد العكس من ذلك تماماً ، حين نرى أن هذه الجموع الغفيرة تحظى بكل عون وتشجيع

من قبل الدولة، مما جعل التصوف ينتشر والبطالة تتفشى والضعف الاقتصادي يستشري .

إن «السبب هو التقاعس ، والتواكل ، والضعف العلمي ، ووهن العزائم ، والانصراف عن عمارة الأرض ، والرضى بالفقر على أنه قدر من الله لا ينبغي السعي إلى تغييره خوفاً من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله»<sup>(١)</sup> .

وإذا أضفنا إلى ذلك فكرة الإنفاق من الغيب والوصول إلى الحضرة التي تهىء لصاحبها كل ما يسمو إليه ويتمناه من هبات وعطايا ، وكذلك انتشار التسول وذلك «بعد أن استهجنوا السعي وقبحوا العمل ، قائلين إن الشحاذين الذي يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه ، وإذا كان التسول مباحاً محبوباً فذلك لأن الدنيا دار فناء ولا قيمة لما تنطوي عليه من لذات والإنسان فيها يشبه المريض الذي حانت ساعته ، فكما أن المريض لا يفكر في هذه المسألة إلا في الحساب العسير الذي ينتظره فكذلك العاقل في دنياه لا يفكر في تعليم نفسه أو تحسين معيشته ، وترقية مستوى حياته ؛ لأن ذلك انصراف لأتفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة .

والإنسان الذي يعرف مكانته وصلته هو الذي لا يبيت على دينار أبداً ، وحسبه من دنياه التوكل على الله ، وما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته ، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته ، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال فإن

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٨١ .

الرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون . . . والإخلاص في العبادة كفيل باكتساب شتى الهبات ، والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاهلاً فقيراً ويخرج منها عالماً واسع العلم ، ثرياً طائل الثراء ، قوياً موفور القوة . . .»<sup>(١)</sup> .

فليس غريباً بعد ذلك كله أن تتدهور الأوضاع الاقتصادية ، ويقل الإنتاج والاستثمار وهو ما تنادي الصوفية بتقليله بدعوى الزهد في الحياة الدنيا والتفرغ للدار الآخرة . ولا ريب «أن حصر الإنتاج في أضيق نطاق ممكن - وهو نطاق الكفاف - يجعل الدولة كلها تعيش في حالة الكفاف ، ولا يجعل لديها «الفائض» الذي تنفقه في متطلبات «التمكين في الأرض» ، فإذا عاش مجموع الناس عيشة الكفاف ، ولم ينتجوا إلا في حدود الكفاف فكيف للدولة المسلمة أن تعد ما استطاعت من قوة لإرهاب أعداء الله ، تلك القوة التي لا يستمر التمكين في الأرض إلا بها ، إنما يحتاج الأمر إلى الإنتاج الوفير والاستهلاك القليل وهذه هي المعادلة التي يتم بها التمكين في الأرض والمحافظة عليه .

أما الإنتاج القليل على قدر الاستهلاك القليل فلا يؤدي إلا إلى فقر مجموع الأمة ، الفقر الذي يؤدي إلى الضعف ، والضعف يحرك شهوة الأعداء الذين ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض»<sup>(٢)</sup> .

وفي خلال الفترة التي نقوم بدراستها والتي غشي الضعف الاقتصادي

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١١ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٤٩ .



فيها العالم الإسلامي نرى كثيراً من المظاهر لذلك الضعف والتي كان من أخطرها مشكلة الديون، التي كانت ومازالت أغللاً ثقيلة تغل الدول الإسلامية، وتقف عائقاً عظيماً في طريق نهوضها.

فعندما ارتقى السلطان عبد العزيز عرش السلطنة سنة ١٨٦١ م. كان أسلافه على العرش قد خلفوا وراءهم ديناً مقداره ١٥ مليون جنيه استرليني، وقد بلغ العجز في نفس العام ٤٥٠ مليون غرش، أي ما يعادل ١٠٣ ملايين فرنك.

وعندما اقترض الباب العالي من بريطانيا في السنة التالية مبلغاً يبلغ ستة ملايين جنيه استرليني، اضطر مقابل ذلك إلى أن يوافق على تعيين مفوض بريطاني مهمته مراقبة الوجوه التي تنفق فيها أموال القرض. وبعد برهة وجيزة ارتضى السلطان تعيين ممثلين ماليين لسائر الدول العظمى، وبناء على اقتراح الممثلين أنشئ في استنبول ديوان للمحاسبة وبنك للدولة<sup>(١)</sup>.

وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠ - ١٨٨٠ م)، عانت الأمبراطورية العثمانية أيضاً مصاعب مالية متصلة الحلقات. وإنما بلغت هذه المصاعب أوجها سنة ١٨٧٥ م.

وعبثاً حاول الباب العالي أن يعقد قرضاً جديداً في باريس وأن يجعل من البنك العثماني جائباً وخازناً في آن واحد، في الإمبراطورية كلها. ولو قد استطاع السلطان عبد العزيز أن يوطن نفسه في ذلك الوقت على التضحية بجزء من ثروته الضخمة الخاصة أو اختصار نفقات بلاطه على الأقل إذاً لكان من الميسور تلافي ما هو أسوأ من ذلك جميعاً. ولكن مثل هذه التضحية ما

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٧٤.

كانت لتنتظر منه ، وهكذا لم يبق أمام الباب العالي إلا أن يعلن إفلاس الدولة .

وفي تشرين الأول أعلن الصدر الأعظم أن العجز في ميزانية الدولة سيضطر الباب العالي خلال السنوات الخمس التالية ، إلى أن يدفع نصف قيمة الفائدة نقداً ، والنصف الآخر سندات بفائدة ٥ في المئة ، ولم يستثن من ذلك إلا القرضان الأولان اللذان عقدا بسبب حرب القرم ، واللذان ضمنتهم بريطانيا وفرنسة ، والسندات المالية التي يملكها السلطان وتبلغ قيمتها نحواً من ١٤٤ مليون فرنك . والواقع أن الباب العالي كان قد عقد في العشرين السنة السابقة عشرة قروض ، آخرها ذاك الذي عقد بأبخس ما يمكن من أثمان الأصدار وبفائدة يبلغ معدلها ٩,٥ في المائة<sup>(١)</sup> .

وقد كان لهذه القروض والديون آثار بعيدة المدى جعلت ممتلكات الدولة نفسها عرضة لأطماع الدول الأوربية التي كانت تهاجم الدولة وولاياتها لأتفه الأسباب .

ولما عجزت الدولة العثمانية مثلاً عن سداد الدين المستحق لـ «أورلاندو وتوبيني وشركاه» الذي بلغ أكثر من نصف مليون ليرة ذهبية ، وبما أن الدائنين المذكورين كانوا من تبعة فرنسا ، أخذت الحكومة الفرنسية تهتم به اهتماماً كبيراً ، وتلح على الباب العالي لتسريع تسويته ، ولكنها عندما رأت استمرار الحكومة في التسويف ، قررت سنة ١٩٠١ م - أن تلجأ إلى القوة لتحقيق مطلبها هذا ، فقامت باحتلال جزيرة (مدلي - ميتيلن) ووضعت يدها على جماركها ، استيفاءً لما كان عليها من ديون إلى الشركة

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨٢ .

المذكورة ، عندئذ سارع الباب العالي إلى تسوية الدين المذكور ، لتخليص الجزيرة من هذا الاحتلال .

غير أن فرنسا أرادت أن تستغل هذا الحادث إلى أقصى حدود الإمكان ، وقدمت إلى الباب العالي قائمة طويلة بالمدارس والمؤسسات الافرنية التي ظلت بدون رخصة رسمية ، أو تعرضت إلى بعض المشاكل ، وطلبت تسويتها بصورة عاجلة ، وأعلمته بأنها لن تجلو عن الجزيرة قبل تسوية المسائل المذكورة برمتها .

وقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى تلبية جميع طلبات فرنسا المتعلقة بتلك المؤسسات <sup>(١)</sup> .

وقد وصل الأمر إلى أن طلبت الدول الأوربية إخضاع مالية الولايات الثلاث - التي تكون ما يسمونه «ماكدونيا» - إلى مراقبة دولية ، ولكن السلطان عبد الحميد امتنع عن ذلك أشد الامتناع .

وعندئذ لجأت هذه الدول إلى القوة فأرسلت أسطولا مشتركا لاحتلال جزيرة «مدلي» الواقعة مقابل سواحل أزمير ، وعندما رأت عدم تزحزح عبد الحميد عن موقفه ، احتلت جزيرة «ليمنى - ليمنوس» - الواقعة بالقرب من مدخل الداردنيل - أيضا ، وأظهرت بذلك أنها مصممة على توسيع نطاق الاحتلال ، إلى أن تقبل الحكومة العثمانية «مشروع المراقبة المالية» المعروض عليها . عندئذ اضطر السلطان عبد الحميد إلى الموافقة على ماطلبته منه الدول <sup>(٢)</sup> .

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩ .

وما إن أشرفت الحرب العالمية الأولى على الظهور عام ١٩١٤م حتى وصلت ديون الدولة العثمانية إلى ٣٩٠٠ مليون فرنك ، كان أغلبها من فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا<sup>(١)</sup> ، وقد «كانت كل دولة من الدول الكبرى تسعى إلى تكثير مؤسساتها الاقتصادية والثقافية في الممالك العثمانية . وكانت تركز معظم جهودها في هذا السبيل في المناطق التي تطمع في امتلاكها في يوم من الأيام .

وإن النفوذ الاقتصادي والثقافي الذي اكتسبته بعض الدول بواسطة هذه المؤسسات ، كثيراً ما كان يسبق الاحتلال السياسي والعسكري ، بل يمهده له السبيل»<sup>(٢)</sup> .

وإذا تجاوزنا تركيا واتجهنا نحو مصر التي لجأ حكامها من أسرة «محمد علي» إلى سياسة الاقتراض والتداين والتي كثيراً ما أنفقت تلك القروض في غير الصالح العام - نرى أن أزمة الديون قد بلغت منتهاها عام ١٨٧٦م عندما وصلت قيمة هذه الديون في عهد الخديوي «إسماعيل» المتوفى سنة ١٣١٢هـ إلى مئة مليون جنيه تقريباً<sup>(٣)</sup> ، مما اضطره أن يعلن إفلاسه ويتوقف عن الدفع ، بل توقف حتى عن دفع رواتب الموظفين في الدولة ، وقام بمضاعفة الضريبة السنوية على الفلاحين .

فقامت كل من بريطانيا وفرنسا بتعيين لجنة (مندوبية للتحقيق في مالية

---

(١) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ١٤٧ .

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٧ .

(٣) يقول عنه الزركلي : كان مسرفاً في الإنفاق على ملاذه وعلى مشروعاته ، ولي مصر وعليها من الدين ثلاثة ملايين جنيه ، واعتزلها وعليها نحو مئة مليون جنيه . الأعلام ٣٠٨/١ .

مصر . وفي سنة ١٨٧٨م أكرهت هذه اللجنة الخديوي وأسرتة على التنازل للدولة عن معظم ممتلكاتهم ، وعهد إلى «ولسن» البريطاني بوزارة المالية ، وإلى «دي بلينيير» الفرنسي بوزارة الأشغال العامة ، وهكذا وقعت مصر تحت الوصاية الأجنبية ، ولما عزم الخديوي على تسريح هذين الوزيرين الأجنيين ، تدخلت الدول الأوربية وأجبرته على التنازل عن العرش لابنه الأكبر «توفيق» ، بعد أن خلع من قبل السلطان<sup>(١)</sup> .

وعندما احتاج سلطان المغرب إلى الاقتراض من فرنسا عام ١٣٢١هـ للنفقات على الثورات المتلاحقة في بلاده ، وقع الاتفاق على أن يقوم بنك باريس بإقراض حكومة المغرب مبلغ ٦٢٥٠٠٠٠٠٠ فرنك مقابل رهنه لمداخيل موائنه مدة ٣٥ سنة بتبدئ من يوم ١ يوليو سنة ١٩٠٦م وتنتهي ١ يوليو سنة ١٩٤١م بعد أن يكون قد أدى جميع الدين . وقد وقع العقد مندوبون عن الطرفين<sup>(٢)</sup> .

وكانت غالب بلاد المسلمين مسرحاً لتجارة الغرب ، وسوقاً كبيراً لبضائعه ومنتجاته ، وكانت الحكومات في البلاد الإسلامية تمنح الشركات الأجنبية امتيازات اقتصادية كبيرة للتنقيب عن المعادن والبترول في أراضيها ، وكانت حرية الملاحة أمام السفن الأجنبية أمراً لم يفكر أحد في الاعتراض عليه ، أو محاولة الحد منه .

ولم يكن بمقدور أي حاكم في ذلك الوقت إلا أن يرضخ في خلافه مع دول أوربا مهما كان ذلك الخلاف جائراً من جانب تلك الدول ، نظراً لتداعي

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٨١ .

(٢) أعلام المغرب العربي ١/ ٣٣٥ .

الاقتصاد في بلده ، واعتماده على اقتصاد تلك الدول . فعندما نشب خلاف بين «داود باشا» والي العراق (المتوفى سنة ١٢٦٧هـ)<sup>(١)</sup> والوكيل السياسي البريطاني في «بغداد» المستر «ديتش» ، واضطر الأخير إلى أن يغادر البلاد نهائياً قامت بريطانيا وأوقفت التجارة مع العراق ، مما كبد خزينة «داود باشا» خسائر فادحة ، إذ كانت التجارة الهندية تمثل أهم ممول لخزانة «داود» الذي اضطر إلى أن يوقع على اتفاقية أعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وقيدت «داود» بالفرمانات والمعاهدات المعقودة بين السلطان وبريطانيا . وهذه الاتفاقية تكشف لنا على أن المصالح البريطانية كانت على جانب كبير من الأهمية ، وأن الضغط الاقتصادي البريطاني كان كفيلاً بأن يضطر الوالي إلى الخضوع للمطالب البريطانية<sup>(٢)</sup> .

وهكذا نجد في «عهد جمود المسلمين تخلف نظامهم الاقتصادي كتخلفهم في جميع المجالات فكان الفقر والمرض والأمية والجهل متفشياً ، والتواكل باسم القناعة منتشراً . . .

ولم تنل المصالح العامة شيئاً من الإنفاق ، ومن ذلك إهمال العناية بالري والزراعة<sup>(٣)</sup> ، فكثرت الفيضانات ، وأهملت الطرق وشئون الأمن ، فاستغل العيارون والصوص الفرصة وشاركوا في نهب المحلات التجارية والبيوت ، وقام الأعراب بغارات على الريف ونهبوا المحاصيل وتربصوا بقوافل الحجاج والتجارة ، فعانى المسلمون فقدان الأمن والجوع وانتشرت

---

(١) الأعلام ٣٣١/٢ .

(٢) تاريخ العرب الحديث . العراق ١/١٠٧ .

(٣) ففي تونس تمادى الإهمال في الزراعة حتى لقد انتهى ثلث الأراضي التونسية الخصبة إلى أن يصبح في أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر بلقياً . تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢٩ .

الأوبئة ، وخاصة بعد أن تغيرت طرق التجارة عن بلاد الإسلام بعد حركة الكشف الجغرافية الأوروبية»<sup>(١)</sup> .

«وفي ظل هذه الأوضاع المتخلفة تمكن الاستعمار الغربي أن ييسط سلطانه على بلاد الإسلام ففرض نظامه الاقتصادي مع فلسفته ونظرياته الاقتصادية ، حتى لم تعد أبواب الرزق لتفتح إلا لمن يختار مبادئ هذا النظام الاقتصادي ، فأكل المسلمون السحت أولاً ، ثم محا من أذهانهم ما كان من تمييز بين الحلال والحرام . . .»<sup>(٢)</sup> .

وفي خضم هذه الأحوال الاقتصادية السيئة ومع شيوع النظرة الصوفية المنحرفة إلى المال والاقتصاد كان الكثير من الكفار الموجودين في البلاد الإسلامية يحكمون السيطرة على جل الجوانب الاقتصادية ومجالاتها المختلفة ، فحين شغل المسلمون بما ذكرناه في الباب الأول من شرك وبدع وخرافات ، كان هؤلاء الكفار يعملون بكل وسيلة على إحكام قبضتهم على الاقتصاد والتجارة ، وحسبنا أن نرى أن كثيراً من هؤلاء كانوا يملكون ثروات ضخمة ويتحكمون من خلالها ليس في مصير الشعوب المسلمة فحسب ، بل في مصير الحكومات نفسها ، كما صنع اليهودي «نفتالي» في الجزائر الذي سيطر على البلاد وامتص خيراتها منذ سنة ١٧٧٠ م ، حتى إذا كانت سنة ١٨٠٥ م ثار عليه الانكشارية فقتلوه مع كثير من اليهود المرابطين<sup>(٣)</sup> .

ومع ذلك فإن يهود الجزائر يكادون أن يسيطروا على أزمة الأمور الاقتصادية في البلاد .

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٤ د . جميل المصري .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢١ .

وقد كان للتجار اليهود هناك دور في مساعدة فرنسا لاحتلال الجزائر<sup>(١)</sup>. وفي تونس كان النائب بدار المال هو كبير أثرياء اليهود «نسيم بيشي»<sup>(٢)</sup>. واليهود على قلتهم هم المسيطرون على اقتصاديات البلاد وعلى صناعتها وتجارتها إجمالاً وكان بمقدورهم زمن الحماية أن يشلوا حركة البلاد متى شاءوا وتظهر قدرتهم هذه في أيام أعيادهم حيث تنعدم الحركة في العاصمة. واليهود في تونس كما هي الحال في أكثر بلاد العالم يسيطرون على الصناعات والمهن الحرة وفي مدينة تونس ذاتها هم مالكو أحسن أحيائها<sup>(٣)</sup>. وفي مصر مثلاً كان الأقباط يكادون أن يسيطروا على المجالات الاقتصادية في البلاد. وكانت مهن المحاسبة والكتابة والصرف تنحصر في أيديهم ، وإن من يقرأ في عجائب الآثار «للجبرتي» مثلاً ليرى أن المسلمين في الشؤون الاقتصادية الخطيرة كانوا عالة على هؤلاء الأقباط الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

وحسبك ما ذكره «الجبرتي» عن المعلم «إبراهيم الجوهري» القبطي رئيس كتبة الأقباط في مصر والذي حزن عليه كثيراً أمير المماليك وحاكم البلد «إبراهيم بك» وتأسف على فقدته تأسفاً عظيماً حيث يقول : إنه «أدرك في هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم ، وأول ظهوره من أيام المعلم «رزق»<sup>(٤)</sup> كاتب «علي بك» الكبير ، ولما مات «علي بك» والمعلم «رزق»

(١) الشرق الإسلامي ص ١١٣.

(٢) إتحاف أهل الزمان ص ١٩٣.

(٣) تونس العربية ص ١٨٧.

(٤) كاتب قبطي أيضاً.



ظهر أمير المترجم ونما ذكره في أيام «محمد بك» ، فلما انقضت أيام «محمد بك» ، وترأس «إبراهيم بك» ، قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه في الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة<sup>(١)</sup> والميري وجميع الإيراد والمنصرف (الصادر) وجميع الكتب والصيارف من تحت يده وإشارته<sup>(٢)</sup> .

ومن ثم لا يستغرب بعد هذا من استغلال هؤلاء الكفار لمكائهم القوية وتوجيه الاقتصاد في خدمة دينهم ونشر باطلهم . فالمعلم «إبراهيم الجوهري» يقول عنه «الجبرتي» «وعمرت في أيامه الكنائس ودور النصارى وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارة والغلال»<sup>(٣)</sup> .

وكذلك كان الحال في تركيا والشام وكثير من بقاع المسلمين . وتؤكد الوثائق أن كثيراً من يهود الدولة العثمانية قد سيطروا على النشاط الاقتصادي بواسطة اشتغالهم بالصيرفة والربا والتجارة الخارجية التي أقاموها بين بلاد الشام ومصر ، وأنهم نتيجة لأموالهم المتكاثرة استطاعوا تعطيل كثير من الجرائد التي كانت تعارض أهدافهم العدوانية<sup>(٤)</sup> .

وهكذا كان يسيطر الكفار الموجودون بين المسلمين على الاقتصاد والتجارة ، ويخططون لخنق البلاد وإفقارها ، بينما كان المسلمون عن ذلك كله في سبات عميق يعيشون في أجواء موبوءة بالتصوف والخرافات .

وإن الدارس لهذه الفترة المظلمة في تاريخ الأمة ليرى من خلال كتب

---

(١) وتعني دفاتر الخراج وضرائب الأطيان . انظر : تاريخ الحركة القومية للرافعي ٢١ / ١ .

(٢) عجائب الآثار ١٧٢ / ٢ .

(٣) المصدر السابق ١٧٣ / ٢ .

(٤) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص ٥٥ .

التاريخ والتراجم والأخبار والرحلات مظاهر الضعف الاقتصادي الشديد وذلك في وقوع المجاعات المروعة وغلاء الأسعار غلاءً فاحشاً ، وتقلبها بين برهة وأخرى لعدم وجود التوازن الاقتصادي ، وانعدام الكثير من السلع الغذائية الضرورية، وفقدان الأقوات، وانتشار الأوبئة الفتاكة والمرض والجهل والامية وتدنى مستويات المعيشة وشيوع الفقر بشكل منقطع النظير .

ولعل الصورة الآتية التى ننقلها عن استانبول عاصمة الدولة العثمانية التى كانت تعاني من فوضى اقتصادية بشكل يكاد يكون مستمراً ، تكشف لنا ولو نوعاً ما عن مدى الضعف الاقتصادي المتغلغل في أحشاء الدولة .

يقول المؤرخ التركي أحمد جودت باشا متحدثاً عن الوضع الاقتصادي السيء لمدينة استانبول في السنوات الأولى من حكم السلطان عبد العزيز الذي ارتقى عرش السلطنة عام ١٢٧٦هـ :

«كانت الخزينة في وضع مالي سيئ جداً ، ويزداد سوءاً مع مرور الوقت ، وفي أحد الأيام وقبل أن يصل فؤاد باشا إلى استانبول<sup>(١)</sup> كان الذهب الذي قيمته مائة قرش بالنقود الورقية المسماة بـ«القائمة» قد طفر وأصبح بثلاثمائة قرش ، وفي اليوم التالي تجاوزت الثلاثمائة قرش ، ثم ما إن وصلت القيمة إلى أربعمائة قرش حتى أصبحت هذه الأوراق المالية لا تساوي شيئاً ، وأصبح البقال والخباز والقصاب لا يقبلها ، بينما لم يكن في أيدي الشعب سوى هذه الأوراق المالية ، لذلك فقد بقي الكثيرون جوعاً ، والذين كانوا يملكون النقد اشتروا به الخبز لثلاثة أو خمسة أيام ، لذا فقد نفذ الخبز ولم يجده الآخرون في السوق . وقد حاول البعض أخذ الخبز بالقوة

---

(١) كان فؤاد باشا في الشام عندما عين صدرًا أعظمًا ، وكان في طريقه إلى استانبول لاستلام منصبه .

من أيدي الذين اشتروه بكمية كبيرة، وظهرت بعض أمارات الفوضى بسبب نهب الخبز في الطرقات، الأمر الذي دعا الكثيرين لحمل السلاح والعتاد، واستولى على استامبول جو من الرهبة، واستولت الحيرة على الجميع<sup>(١)</sup>.

وإذا كان هذا هو حال العاصمة التي كانت مركزاً رئيسياً للتجارة والاقتصاد، فكيف بغيرها من الأقاليم والمدن الأخرى!

ولو نظرنا إلى أهم محاور النشاط الاقتصادي وهي: التجارة، والزراعة، والصناعة، لرأينا مدى التخلف الذريع في هذه المجالات، فالتجارة كانت مسلوقة إلى حد كبير من أيدي المسلمين محلياً ودولياً كما مر معنا، والزراعة أهملت إهمالاً شديداً وقد ساعد على ذلك الاستعمار فيما بعد بتشجيعه لزراعة محاصيل معينة، كالقطن في مصر والسودان، والتمر في العراق، والزيتون في تونس والمغرب، والمطاط في أندونيسيا وماليزيا، وزيت النخيل في نيجيريا، والعنب في الجزائر. وغير ذلك<sup>(٢)</sup>، وأساليب الزراعة لم يستحدث فيها أي شيء جديد.

أما بالنسبة للصناعة، فنجد أنه في حين انفجرت الثورة الصناعية في الغرب وحلت الآلات البخارية محل اليد العاملة، وانطلقت أوروبا في مضمار التقدم الصناعي، كان المسلمون في مجال الصناعة يعانون تخلفاً مذهلاً، لا يعرفون من الصناعة سوى بعض الصناعات اليدوية، ويعيشون حياة أسلافهم قبل بضعة قرون دون أي تغيير يذكر، غير شاعرين بالعالم الذي بدأ يتقدم من حولهم وبالتغيرات التي حدثت في الدول، وكان لها

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده ص ٤٥، أورخان محمد علي. دار الوثائق. الكويت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٥ د. جميل المصري.

تأثيرات في نتائج الصراعات فيما بينها . وما يعيشه المسلمون اليوم من تخلف في جميع المجالات ، والمجال الاقتصادي واحد منها لهو تخلف مزمن له أسبابه الكامنة في الانحرافات العقدية والعلمية .

«وبالمعايير الاقتصادية السائدة ، فإن اقتصاد العالم الإسلامي بواقعه الحالي أليم فالدخل القومي في أكثر بلاد العالم الإسلامي يضع الفرد المسلم في أقل من مستوى الآدميين والواقع المشاهد يؤكد لغة الأرقام . . وتزيد الأنظمة الاشتراكية البلاد الإسلامية ضيقاً وضنكاً ، تعيشه في الطواوير ، ويقضي فيها نصف يومه بحثاً عن حاجياته وأحياناً ضرورياته . . هذا إن وجد في جيبه الثمن أو التكاليف .

والإنتاج القومي هو الآخر سيء . والبلاد الإسلامية تتوزع بين أن تكون مزرعة . . تستجلب منها القوى العالمية موادها الأولية أو أن تكون سوقاً استهلاكياً توزع القوى العالمية فيها سلعها أو تجارتها ، وهي بالتالي محرومة من «الصناعات الثقيلة» والإنتاج الكبير . والبلاد التي آتاها الله بسطة في الرزق - وهي قليلة - تمتص أكثر رزقها القوى العالمية بإيداعها رؤوس أموالها في بنوكها ، وتعريضها لتخفيض العملة بين الحين والحين ، ثم بتصدير السلع الكمالية الاستهلاكية والترفيهية التي تمتص ما بقى لدى تلك الدول المختلفة من رأس المال .

وميزان المدفوعات مختل لدى أكثر الدول الإسلامية . ؛ لأن أكثرها تستورد أكثر مما تصدر»<sup>(١)</sup> .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٩١ . د . علي جريشة . دار المجتمع . جدة . الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

«إن استقراء الأوضاع الاقتصادية في العالم الإسلامي يجعلنا نقرر وعن يقين أن معظم الدول الإسلامية تعاني من ضعف في تنمية مواردها وقواها الاقتصادية ، وهذا الضعف في التنمية الاقتصادية نرى آثاره فيما يأتي :

١ - الديون المتراكمة .

٢ - الاعتماد على الغرب في الموارد الغذائية»<sup>(١)</sup> .

أما الديون الخارجية وتراكمها في كثير من الدول الإسلامية فقد عرض الدكتور «صبحي الطويل» بعض الأرقام المذهلة التي تزايدت بصورة هائلة في العقد ١٣٩٠ - ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٠ - ١٩٨٠ م بحيث شكلت في عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م أكثر من ٥٠٪ من إجمالي الناتج القومي . والديون في الغالب للدول الكبيرة أو المؤسسات الدولية الخاضعة لها . فيؤثر ذلك في سياسات الدول الفقيرة المدينة الداخلية والخارجية<sup>(٢)</sup> .

وأما بالنسبة للاعتماد على الغرب في الموارد الغذائية وغيرها ، فقد نتج عن ذلك وقوع المزيد من الأزمات الاقتصادية في البلاد الإسلامية ، ورضوخ الكثير من دول العالم الإسلامي وشعوبه للاحتكارات العالمية والمقايضات اليهودية والديون الربوية التي طوقت أغلالها رقاب تلك الدول والشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها<sup>(٣)</sup> .

وليس من نافلة القول أن نقول إن العالم الإسلامي في هذا العصر يعيش عالة على العالم النصراني والوثني واليهودي ، وإن الاقتصاد الإسلامي

(١) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢١ د . محمد عبد القادر هنادي . مكتبة

الطالب الجامعي . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٥٠ د . جميل المصري .

(٣) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٨٨ .

مغلول العنق واليدين ومكبل بقيود الاقتصاد العالمي الذي تسيطر عليه القوى  
الثلاث الكافرة.

ولعل من أبرز ذلك هو «التكدس المريع لأموال المسلمين في البنوك  
والمصارف الأجنبية نتيجة تخلف العالم الإسلامي في ميدان الاقتصاد وتمثيله  
دور التابع الذليل لأساطين الاقتصاد العالمي والممسكين بمقوده وزمامه،  
وعجزه عن تصريف فائض أمواله بطريقة علمية متخصصة مدروسة  
بالإضافة إلى عجزه عن تخليص نفسه مما كبل به من أغلال النظام الاقتصادي  
العالمي وقيوده»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك أيضاً انتشار المجاعات المروعة والفقر المدقع في طول بلاد  
الإسلام وعرضها حيث تصل نسبة الفقر في بعض الدول الإسلامية إلى ٨٠٪  
يعيشون دون مستوى الكفاف<sup>(٢)</sup> وحسبنا أن العالم الإسلامي كله تقريباً يقبع  
في الزاوية المهملة في زاوية الدول النامية أو ما يسمى بدول العالم الثالث.  
وهذا المصطلح وهو مصطلح الدول النامية أطلقه الاستعمار عن خبث كي  
يبقي على تخلف البلاد الإسلامية، حيث إن الخبث في هذا التعبير يوحي  
بالحركة القائمة مع أن واقع هذه الدول هو العكس تماماً، ففيه استنقاع  
اقتصادي إن لم نقل تراجعاً وتأخراً<sup>(٣)</sup>.

وقد أدى ذلك مع غيره من مظاهر الضعف الاقتصادي إلى الوقوع تحت  
غائلة ما يسمى بالمعونات الخارجية للدول النامية التي يذيعها الغرب دائماً

---

(١) المصدر السابق ص ٨٨.

(٢) كما هو الحال في إندونيسيا. انظر بعض الأرقام المأساوية في حاضر العالم الإسلامي ص  
٢٤٧ د. جميل المصري.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٩ د. جميل المصري.

ويملاً وسائل الإعلام والأسماع بها ، والحقيقة المرة أن هذه الدول لا تنمو بل تزداد فقراً على فقر ، فهو يستهدف الابتزاز والكسب غير المشروع تحت ستار المساعدات ، ولقد عبر رئيس إحدى الشركات الأمريكية في خطبة له عن سياسة الاحتكارات اليهودية الأمريكية والاستعمار الجديد بقوله : «لقد حصلنا مقابل كل دولار أنفقناه في السنوات الخمس الماضية على مختلف الأغراض خارج الولايات المتحدة على ٦٧ ، ٤ دولاراً أي أن كل دولار ربح ٦٧ ، ٣ دولاراً أي أن نسبة الربح بلغت ٣٦٧٪ وهي سرقة وابتزاز وليست عمليات اقتصادية سليمة»<sup>(١)</sup> .

وما يعيشه العالم الإسلامي اليوم من تخلف اقتصادي مذهل - حيث إن أفقر دول العالم على الإطلاق تعد جزءاً منه - ليس وليد الظروف القائمة الآن فيه فحسب ، ولكنه تخلف ضارب بجذوره في الماضي لعدة قرون ، ولا يمكن القضاء عليه بالسهولة التي يتصورها البعض ، وما دام الخلل العقدي موجوداً ، فالقضاء عليه يعد ضرباً من المستحيل .



---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٩ . لعل أطرف الأمثلة عما تفعله المعونات الخارجية هو قصة صندوق النقد الدولي في مصر للفترة ما بين ١٩٧٨ - ١٩٨١ م وكان الهدف المعلن لهذا المشروع هو إخراج مصر من أزمتها الاقتصادية ، وتقليل نسبة عجز ميزانها التجاري . وأظهرت دراسة اقتصادية قام بها الدكتور رمزي زكي الخبير الأول في معهد التخطيط القومي المصري أن الصندوق دخل مصر عام ١٩٧٨ م وهي مدينة بـ ٨٠٠٠ مليون دولار وخرج الصندوق إياه منها عام ١٩٨١ م وهي مدينة بأكثر من ١٨ ، ٠٠٠ مليون دولار أي أن كل مواطن مصري كان مديوناً بـ ٤٢٢ دولاراً للعالم . والغريب أن دخل الفرد الواحد كان لا يتعدى ٤٦٠ دولاراً في السنة . المصدر نفسه ص ٢٥٠ .

## المبحث الثالث

### الضعف العلمي

يعد الضعف العلمي من أشد المجالات خطورة لما له من دور مباشر في تردي كثير من المجالات الأخرى لا سيما الجوانب العسكرية والحربية والاقتصادية .

وقد عرفنا فيما سبق أن المناهج التعليمية قد تعرضت لانحرافين خطيرين ؛ فبالنسبة للمناهج الدينية أصابها الجمود والتقليد للسابقين ، وبالنسبة للمناهج الدنيوية رأينا أنها أهملت تماماً ، بل ربما حوربت في كثير من الأحيان ، واتهم بالتكفير من يدعو إلى تعلمها أو يحاول تعلم شيء منها ، وأغلق باب الاجتهاد ، وأخذ المسلمون يتوارثون حراسته قرناً بعد قرن ، ويعلنون النكير لمن حام حوله أو رام فتحه ، فكان هذا إيذاناً بحجر العقول وتكبيّلها ، ومدعاة إلى السبات والاسترخاء والخمول ، وكان ذلك بعد أن استفحل داء التقليد وهيمنت روح التعصب المذهبي ، وقد نتج عن ذلك تخلف علمي مذهل في شتى مجالات الحياة ، هذا في حين كانت أوروبا تواصل تقدمها العلمي والصناعي وتعمل بدأب ونشاط على تقوية نفسها من أجل فرض سيطرتها على العالم الإسلامي .

وقد كان لهذا الضعف العلمي عدة مظاهر منها : الجمود في كثير من أنشطة الحياة على ما عاش عليه المسلمون قبل عدة قرون ، وعدم التجديد وفقدان الابتكار والاختراع والاكتشاف ، ولم يكن ذلك



بالطبع غريباً حين أهملت العلوم التجريبية وحوربت وانصرف الناس عنها.

لقد ركن المسلمون إلى الماضي دون أي محاولة بذلوها لتحسين مستوى معيشتهم ، وتركوا الأخذ بالأسباب ، واعتبروا ذلك زيادة في التوكل والإيمان بالله كما عرفنا ذلك من قبل ، وأهملوا العلوم التجريبية بل حاربوها ، وشنعوا على من يدعو إليها ، وخيم الجهل والظلام على أرجاء البلاد الإسلامية .

وكانت النظرة السائدة في المجتمعات الإسلامية صوب كل جديد يطل عليها من مخترعات أوربا ، هو القصور والسذاجة الممزوجة بالخوف والتردد والحذر تجاه كل قادم مهما كان نافعاً ومفيداً .

يذكر السلاوي أن بعض الفرنسيين تكلموا مع سلطان المغرب الحسن بن محمد في شأن بابور البر<sup>(١)</sup> والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما في سائر بلاد المعمورة .

ثم يقول معلقاً على ذلك : «وزعم أن في ذلك نفعاً كبيراً للمسلمين والنصارى ، وهو والله عين الضرر!! وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم ..»<sup>(٢)</sup> . وليس لدينا على ذلك أي تعليق .

ويذكر الغزي أن التلغراف قد دخل إلى حلب سنة ١٢٧٨ هـ ، وحين مدت أسلاك البرق ، وقيل للناس إنه ينقل الأخبار من بلد إلى آخر مهما كان

---

(١) هو القطار .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٥٤ / ٤ .

بعيداً في لحظة كطرفة عين ، أنكروا ذلك ، وقالوا : لا شك أن الذي ينقل هذا الخبر شيطان مارد منبث في التيل<sup>(١)</sup> .

وحين ظن بعض الناس أن الساعة عبارة عن سحر ، قام العلامة الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله بتأليف رسالة يبين فيها أنها صناعة وليست سحراً<sup>(٢)</sup> .

«ومما ينبئ عن مقدار خمول تركيا في ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل في تركيا إلا في القرن السادس عشر المسيحي ، ولم تدخل المطابع والمحاجر الصحية في هذه الدولة إلا في القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربي .

وفي آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالوئنا يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء...»<sup>(٣)</sup> .

وذكر الجبرتي ضمن أحداث شهر شعبان لسنة ١٢١٣ هـ المنطاد الذي عمله الفرنسيون فقال : «وفي يوم الأربعاء كتبوا أوراقاً بتطير طيارة بركة الأزبكية مثل التي سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر ، وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة ، وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم!!»<sup>(٤)</sup> .

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/ ٣٩٠ .

(٢) الأعلام ٣/ ١٢٦ .

(٣) ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين ص ١٧٠ .

(٤) عجائب الآثار ٢/ ٢٤٤ .

وكل هذا يدلنا على مبلغ الجهل الذي أطبق على المسلمين في القرون المتأخرة ، حتى جعلهم يستوحشون من كل مخترع حديث ، ولا يصدقون به ، وينسبونه إلى الجن والسحر .

وحين كان يوجد بعض أفراد منهم لهم شيء من الإمام ببعض تلك العلوم كان نصيبهم هو التجاهل والإهمال على أقل الأحوال ، فهذا الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري من علماء طرابلس الغرب كان «يبحث في الخلائط والمواد وطبائع الأشياء وخصائص المعادن وطبقات ودراسة الجيولوجيا ، ويصل من هذه المحاولات والتجارب إلى أشياء مفيدة ، ولكنه لم يستطع أن يجد من يستفيد منها ، وكان هذا يغیظه ويحرقه حرقة العالم الغريب في محيطه ، ويأسف لهذا .

ويقول أحمد بن عبد الدائم عن نفسه ، ومبيناً حالة المجتمع الذي كان يعيش فيه وإعراض الناس عن تجاربه : «لي معرفة بسبعين حكمة ، وعمري الآن ما ينيف عن الخمسين ، ولم يسألني أحد من أهالي طرابلس عن واحدة منها» .

ومن تلك التجارب التي نجح فيها ابن عبد الدائم طريقة لاستخراج الماء من الأرض بغير عناء وكثير مشقة . وكان ابن عبد الدائم بصنيعة واستنباطه يستطيع إخراج الماء بلا مضخات ولا آلات ضخمة ، ولا شك أنه توصل إلى هذا بعد كد فكر وإجهاد نظر وتجارب تفشل حيناً وتصل إلى مرتبة النجاح أخيراً<sup>(١)</sup> .

---

(١) أعلام من طرابلس ص ١٩٤ علي مصطفى المصراتي . دار الفكر . طرابلس . ليبيا . الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م . وقد عاش ابن عبد الدائم في منتصف القرن الثاني عشر الهجري .

وقد عرفنا أن معاهد المسلمين الكبرى ساهمت في است شراء ذلك الضعف بإهمالها للعلوم التجريبية بعد أن أصبحت خاوية من هذه العلوم .  
وقد رأينا أن الأزهر حين أراد بعض دعاة الإصلاح إدخال بعض هذه العلوم فيه لم يستطيعوا ذلك إلا بعد استصدار فتوى من شيخه بجواز ذلك .  
وإذا كان هذا هو حال الأزهر وغيره من المعاهد العتيقة في العالم الإسلامي<sup>(١)</sup> ، فمن الطبيعي أن يكون ذلك موقف دور العلم في الأقطار الأخرى .

ففي المدينة المنورة «أقام الشيخ حسن بن حسين الأسكوبي على سطح منزله مرصداً فلكياً ، جلبه من أوروبا فثار عليه علماء المدينة ، ونظم أحدهم (عبد الجليل برادة) رجزاً فيه ، أوله :

ماقولكم في شيخنا الأسكوبي      بيت طول الليل في الراقوب  
يرقب منه الفلك الدوارا      مشابهاً في فعله النصارى  
وهاجموا بيته فأنزلوا ما على سطحه من مناظير وأصطرلابات وزوايا ،  
فاعتزل الناس ومرض حتى توفي عام ١٣٠٣هـ»<sup>(٢)</sup> .

لقد كان حرياً بعد هذا أن يخيم الجهل والتخلف ، ويختفي الابتكار والنبوغ ، وتظل الحياة جامدة لا تتحرك ولا تتغير إلا إلى الأسوأ ، على أن ما قام به «الأسكوبي وابن عبد الدائم» من محاولات وتجارب علمية يعد أمراً نادراً بالنسبة لأحوال ما عاشا فيه من حقبة زمنية .

---

(١) وعلى رأسها الزيتونة بتونس والقرويون بفاس بالمغرب .

(٢) الأعلام ١٨٩/٢ . ومن آثاره كما يقول الزركلي : «مزولة» كانت في المسجد النبوي ، وكتب في علم الهيئة والميقات وطريقة استعمال آلات المراقب الفلكية .

ونود أن نشير إلى مجال علمي واحد هو الطب لنرى شيئاً من الآثار المروعة التي كانت تقع نتيجة للتخلف العظيم في ذلك المجال؛ فقد رأينا ما آل إليه علم الطب من جهل وخرافة ودجل، فليس بغريب بعد ذلك أن تنتشر في المجتمعات الإسلامية الأمراض الخطيرة والأدواء الخبيثة، ويعجز الناس عن علاجها. وكم تذكر كتب التاريخ لتلك الحقبة الزمنية أخباراً للأوبئة الفتاكة التي كانت تحتاج البلدان الإسلامية فيسقط ضحيتها الآلاف، ويسبب بعضها عاهات مستديمة.

وهذه بعض الأمثلة الموجزة: ففي عام ١٨١٣م حل الوباء العظيم في بغداد، وأخذ يغتال أهلها ويتفاقم بينهم بدرجة بعثت الرعب في النفوس، فكان يموت منه في الأيام الأولى مائة وخمسون في اليوم، ثم اشتدت وطأة الوباء في الأيام الأخيرة من الشهر حتى مات في نصفه الثاني سبعة آلاف، وضاعف المرض قوته بعد قليل حتى ارتفع عدد الوفيات في اليوم الواحد إلى خمسة آلاف، وهنا خيم على دار السلام سكون الموت، وشملتها رهبة الرعب، وانتابها فزع شامل، ومضى الناس ولا هم لهم إلا تجهيز موتاهم للدفن، وتجهيز أنفسهم للمرض، ووقفت الأعمال، فلم يبق سقاء ولا عامل في متجر ولا في طريق، حتى لقد طلب داود (حاكم العراق) قارباً فلم يجد نوتياً يقوده، وغصت الشوارع بالأطفال الذين شردهم الوباء وأتى على أهلهم فأصبحوا لا يجدون مأوى ولا طعاماً، وبعد قليل كف الناس عن دفن الموتى، فأصبحت جثثهم ملقاة في الطريق تعيث فيها الكلاب بمرأى من البقية الباقية من السكان الذين أنهك المرض قواهم<sup>(١)</sup>.

وذكر الجبرتي الطاعون الذي وقع سنة ١٢٠٥هـ في القاهرة، والذي

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٣٧٥.

هلك به خلق لا يحصيهم إلا الله ، « ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه ، فلا تجد إلا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً في تجهيز ميت أو باكياً على نفسه . . . ومات في أثناء ذلك الأغا<sup>(١)</sup> والوالي في أثناء ذلك ، فولوا خلافهما ، فماتا بعد ثلاثة أيام ، فولوا خلافهما فماتا أيضاً ، واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة . . . »<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ١٢٨٢ هـ هلك من الحجاج وغيرهم بالهواء الأصفر نحو مئة ألف نسمة . . . ثم في هذه السنة وصل هذا المرض إلى حلب ، وبلغت وفياته اليومية ثلاثمائة نسمة . . . وكان الناس يدورون في الأزقة يستعينون بالله ، ويخرج بعض القراء إلى المآذن ، ويقرؤون سورة الدخان<sup>(٣)</sup> .

ويذكر الجندي أنه في أول ذي الحجة سنة ١٣٠٨ هـ عاد إلى المعرة داء الهيضة «الكوليرا» ، وضرب عليها الحجر الصحي عشرة أيام ، وظل هذا الداء يفتك في البلدة من أول ذي الحجة إلى أواخر صفر لجهل الناس بمداواته وبأسباب التوقي منه ، وجهل الحكومة وقلة عنايتها بذلك<sup>(٤)</sup> .

وفي سنة ١٣١٢ هـ تفشى مرض الجدري في المعرة وذهب بعيون كثير من الناس ، وعمي كثيرون بسببه لفقد الأطباء<sup>(٥)</sup> ، وفي عام ١٨٨٣ م هلك أكثر من ستين ألفاً من المصريين بسبب داء الكوليرا<sup>(٦)</sup> .

(١) الأغا هو المحتسب .

(٢) عجائب الآثار ٩٥/٢ .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣٩٢ .

(٤) تاريخ معرة النعمان ١/٢٠٨ .

(٥) المصدر السابق ١/٢١٠ .

(٦) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/١٦٠ .

ولم يكن الناس فقط هم ضحايا الأوبئة الفتاكة ، بل لقد كانت الحيوانات تتعرض هي الأخرى إلى أوبئة قاتلة تفنى بسببها أعداد هائلة منها ، ويحدث نتيجة لذلك أزمة اقتصادية في البلاد .

ومثال ذلك ما ذكره الجبرتي من داء أصاب الأبقار سنة ١٢٠١ هـ ، فتساقط المئات منها حتى جافت الأرض ، وبيع اللحم البقري بأبخس الأثمان ، ومع ذلك فلا يشتريه أحد من الناس ، وغلت أسعار السمن واللبن والأجبان غلاءً فاحشاً<sup>(١)</sup> .

فبعد أن كانت الأمة تولي اهتمامها ورعايتها لمثل هذه العلوم من أجل أن تتقوى وتصبح قادرة على أداء رسالتها ، وحين كان الانصباب على هذه العلوم أمراً معتاداً عند المسلمين والتنافس بين العلماء على البحث في شتى فروعها المختلفة من طب وهندسة وفلك ورياضيات وكيمياء وفيزياء وغير ذلك سمة بارزة من سماتهم - أصبح الإقبال عليها ضعيفاً أو نادراً ، وحسبك أن تقرأ العشرات من كتب التراجم والرجال ثم لا تجد في خضم هذه التراجم الغفيرة التي تبلغ الآلاف ترجمة لواحد منهم عني بهذه العلوم ، أو قام باكتشاف وابتكار فيها .

وهذا دليل واضح على انصراف الأمة عن هذه العلوم وتقاعسها عن واجبها في إعداد القوة التي لا تقوم بغير هذه العلوم ، وحتى إن وجد نفر يهتمون ببعضها فإنهم كانوا يقفون عند ما وصلت إليه هذه العلوم في الماضي ، وعند فكر الأقدمين وبحوثهم ، وهو ما تجاوزه أوروباً بمراحل معتمدة عليه في بادئ الأمر ، وأصبح بالنسبة لعلوم العصر الحديث

---

(١) عجائب الآثار ١٩/٢ .

ومخترعاته يعد أمراً متأخراً تجاوزه الزمن ، وفاتته عجلة العلم والحضارة والرقى .

«وكان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة من أن تدخل في منطقتهم ، وإذا كانوا متصرفين بزمam تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طفت في دور الانحطاط وكانت لا تسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس وبينوا علمهم على الاستدلال ، فلم تزل المدارس الإسلامية في القرن التاسع عشر المسيحي ، كما كانت في القرن الثالث عشر المسيحي»<sup>(١)</sup> .

يقول الأمير شكيب أرسلان : «ونحن مع الأسف نرى المسلمين اليوم أقل الأمم اعتناء بالميكانيكيات والطبيعيات والكيمياء وجميع العلوم التي يكفل لهم إتقانها الحيل الحربية وجر الأثقال واختراع الآلات التي توفر دماءهم وتصون دهماءهم ، ونرى جمهور علمائهم نافرين من هذه العلوم والفنون كأنها من عمل الشياطين ، يقضون الأعمار الطويلة في درس علوم مخصوصة لا يتعدونها ، من نحو وصرف وحديث وتفسير وما أشبه ذلك مما لا شك في ضرورته ، لأنه به قوام اللغة والعقيدة ، ولكنه ليس يغني أصلاً عن العلوم الطبيعية التي هلك اليوم من أهمها ، وعن الميكانيكيات التي لو أفرغوا لها من الوقت ربع ما أفرغوه للحديث والتفسير والفقه

---

(١) ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين ص ١٦٧ .



والنحو والصرف لكانوا من الصناعة ومن ثم من التجارة والثروة على حظ  
يضاهي حظوظ الأمم الأوروبية ، ولكننا قد أهملنا علوم هذه الدنيا وحصرنا  
جميع عنايتنا بعلوم الآخرة، غير ذاكرين أن الإسلام إنما هو شرع دنيا وآخرة،  
وإن من أهمل أحد الشقين فهو آثم ، كما لو أهمل الشق الآخر»<sup>(١)</sup> .

لقد أهمل المسلمون هذه العلوم ، واكتفوا بدراسة فلسفات عقيمة ،  
وعلوم سقيمة «يصرفون فيها أوقاتهم ، ويضيعون فيها جهودهم ، لنضوب  
معين علومهم وجمود قرائنهم وعجزهم عن الاجتهاد والتفكير وقوة  
الاكتشاف والإبداع ، ولما مني به علماؤهم من جمود وركود فلا يضيفون  
للعلم جديداً ، ولا يفتحون للعقل أبواباً ، ولا ينظرون في علوم الطبيعة  
والكون ، وإنما قصاراهم شروح وحواش يذيلون بها ما كتبه أسلافهم حتى  
طغت الشروح على المؤلفات وزادت الحواشي على المتن .

إنك في قرون عديدة مرت على المسلمين لا تكاد تعثر على أثر فكرة  
مبتكرة واختراع مبتدع واكتشاف جديد ؛ ولذلك طرأ عليهم جمود فكري  
وغشيت أجواءهم العقلية سحابة سوداء من العقم والتبلد»<sup>(٢)</sup> .

وها هو العالم الإسلامي في هذه الأيام ما يزال قابلاً في زاوية التخلف  
والجهل ، بعد تفريط وإهمال وجمود دام قروناً .

ومن أبرز وجوه الضعف العلمي تفشي الأمية بين أفراد المجتمعات  
الإسلامية : إن نسبة الأمية لترتفع في العالم الإسلامي بشكل يدعو إلى

---

(١) الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف ص ١٩٣ . الأمير شكيب أرسلان .  
تعليق : الشيخ محمد رشيد رضا .

(٢) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ١٤١ . والكلام للندوي والمودودي بشيء من  
التصرف .

الفرع ، وليس أدل على ذلك من أنه في العصر الحاضر ، وبعد جهود مكثفة لمحاربة الأمية والقضاء عليها ما تزال نسبتها مرتفعة جداً ، حتى إن نسبة المتعلمين لتصل في الانخفاض إلى ٢٪ في بعض المجتمعات كأفغانستان مثلاً<sup>(١)</sup> .

وقد ذكرت إحصائيات هيئة اليونيسكو أن العالم سيضم عام ٢٠٠٠ ما يقرب من ١٠٠٠ مليون أمي أكثرهم من العالم العربي والإسلامي .

ففي مصر مثلاً تشير التقارير إلى أنه يوجد ٢٠٠ ألف طفل مصري ينضمون إلى الأمية سنوياً نتيجة قصور الاستيعاب في المدارس<sup>(٢)</sup> . وتبلغ نسبة الأميين في مصر حوالي ٧٠٪ من عدد السكان<sup>(٣)</sup> .

ولا يخفى ما للأمية من آثار وخيمة في البلاد الإسلامية ، ومن ذلك شيوع الجهل وانتشار الخرافة والدجل والبدع .

وكذلك ضعف التنمية الاقتصادية التي تعتمد على زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي وتحسينه ، وزيادة الإنتاج كمّاً ونوعاً تتوقف على وجود قوة منتجة متعلمة ، ولقد ثبت أن العامل الأمي لا يمكنه أن يحسن إنتاجه إلا بمقدار ضئيل .

وهذه الأمية التي أصبحت ظاهرة في العالم الإسلامي ترجع إلى إهمال الفريضة التي أُلزم الله بها المسلمين وهي فريضة القراءة ، وهي أسبق من

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٦ ، هذه النسبة المذكورة أظهرها باحث هندي قام برحلة إلى أفغانستان عام ١٩١٥ م ، وعاش فيها عدة سنوات ورأى هناك التخلف المذهل والجهل المطبق .

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٥ .

(٣) تاريخ ونظام التعليم في جمهورية مصر العربية ص ٢٩٨ منير عطا الله سليمان وآخران . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢ م .

فريضة الصلاة والزكاة والصيام وسواها من الفرائض<sup>(١)</sup> .

وليس بغريب أن تنتشر الأمية ذلك الانتشار المذهل في الأوساط الإسلامية التي كانت خاضعة لعقائد الصوفية ومبادئها المنحرفة ، ومن ذلك إهمال العلوم جملة وتفصيلاً ، وبالتالي إهمال القراءة والكتابة ، وقد مر معنا أن جملة من مشايخ الصوفية كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون كما وقع لبعض شيوخ الشعراني .

«وحينما ننظر إلى واقع العالم الإسلامي نجده عالة على المجتمعات الغربية والشرقية الشيوعية في كل ما يتصل بالمخترعات والابتكارات ؛ سواء في المجالات الصناعية أو الزراعية أو الطبية أو العسكرية أو الهندسية . . . ولعل هذا الواقع المؤلم يمثل صورة بارزة من صور التحديات الحضارية التي تواجهها الأمة الإسلامية في القرن العشرين»<sup>(٢)</sup> .

ولعل الظاهرتين الخطيرتين الآتيتين اللتين ماتزالان تسيطران على العالم الإسلامي إلى أيامنا هذه توضحان لنا حجم هذا الضعف العلمي ، ومدى الانحطاط الذي تعيشه الأمة ، وهاتان الظاهرتان هما :

الأولى : أن العالم الإسلامي أصبح عالة على الغرب «متطفلاً على مائدته حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها ، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه ، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق ، والدراسة والتأليف ، وهم المنتهى والمرجع والحجة في الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الأسوة في النقض والإبرام»<sup>(٣)</sup> .

(١) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤ .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٩٣ .

وخضع العالم الإسلامي للنظام التعليمي الأوربي بطبيعة الحال « إذ كان مصاباً بالانحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان ، وكان لا يجد المدد والغوث إلا في أوربا؛ فقبل هذا النظام التعليمي على علاقته ، فهو النظام السائد اليوم في أنحاء العالم الإسلامي»<sup>(١)</sup> .

الظاهرة الثانية : ما تمثل في هجرة العقول المسلمة :

كان طبيعياً لما وقع من ضعف علمي أن يهاجر العقل الواعي المسلم من بيئته الجاهلة التي لا يوجد بها أدنى احتفال حقيقي بالعلوم إلى الغرب الذي فتح أبوابه لكل قادم ، «ويعاني العالم الإسلامي في هذا العصر من نزيف يكاد ينخره ، وهو نزيف العقول الإسلامية المهاجرة التي تضم كفاءات علمية وأكاديمية أصبح العالم الغربي يعتمد عليها في بناء حضارته»<sup>(٢)</sup> .

يقول الأستاذ الدكتور «محمد عبد العليم موسى» :

«إن عدد الأطباء المسلمين الموجودين في باريس وحدها أكثر من الأطباء الموجودين على التراب الجزائري كله ، وفي لندن الباكستانيون بالذات بالآلاف ، ويشير تقرير رسمي للحكومة الباكستانية عام ١٩٧٠م إلى دراسة قام بها اثنان من الأساتذة إلى أنه في اليوم التالي لإعلان نتائج كليات الطب في باكستان؛ فإن ٩٠٪ من الخريجين قد تقدموا بطلبات الهجرة إلى السفارة الأمريكية والبريطانية .

أما الدراسة التي أعدتها من مصر وهي دراسة محدودة بالنسبة لبلد واحد مسلم؛ من سنة ١٩٧٠ - ١٩٨٠م وعلى مدار عشر سنوات امتنع

(١) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٨ .

(٩٥٠) ممن حصلوا على الدكتوراه من العودة إلى مصر ، وحينما نترجم هذا إلى أرقام تصبح مصر كأنها هي التي تعطي معونة إلى أمريكا .

ويبلغ عدد المسلمين المهاجرين من مهندسين وخبراء وأطباء في أوروبا وأمريكا وكندا وأستراليا ١٠٠ ألف عالم من أصحاب الكفاءات العالية ، وهؤلاء العلماء والمهندسون والأطباء لو كانوا موجودين في العالم الإسلامي ، ولو أن كل واحد أنتج بحثاً على مدار العام لأصبح في عالمنا الإسلامي مائة ألف بحث ، فكم من مشكلة تحلها هذه البحوث؟ وكم من إبداع يبدعه هؤلاء الباحثون . . .

ولقد شهد الغربيون بهذه الظاهرة ، ظاهرة هجرة العقول المسلمة ، فهذا رئيس جامعة كورنيل الأمريكية يصرح أمام الكونجرس بأن المهاجرين المسلمين من الأطباء وفروا على الولايات المتحدة إنشاء ٣٠ كلية طب سنوياً<sup>(١)</sup> .

وهكذا غشي الضعف العلمي على حياة المسلمين ونتج عنه تخلف مذهل في شتى المجالات ، ولم يكن هناك ثمة تقدم في أي مجال ، فلم تظهر أية مكتشفات ومخترعات ، وبقيت الحياة رتيبة كما هي من قرون تسير ببطء دون أي تغيير يذكر ، والعالم بدأ يتقدم ويغتني ، والمسلمون يتخلفون ويفتقرون .

فأوروبا تقطع أشواطاً بعيدة في التقدم العلمي والصناعي ، وتأخذ بالأسباب المؤدية إلى القوة والسيطرة على العالم ، والمسلمون في غفلة عن ذلك . ولا شك أن المسلمين قد فرطوا في ذلك تفريطاً عظيماً بتخليهم عن

---

(١) المصدر السابق ص ١٩ .

الأخذ بالأسباب ، وبالتالي حدث التقاعس عن المهمة الكبرى الملقاة على عواتقهم وهي الوصاية والشهادة على العالم أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .  
[البقرة: ١٤٣]

ومن مقتضى الشهادة على الناس أن تكون الأمة قوية غنية ؛ إذ لو كانت ضعيفة لم يتح لها أن تقوم بالشهادة ، ولا تكون القوة إلا بالأخذ بالأسباب وإحراز التقدم في العلوم والمكتشفات والصناعات .

وفي فترات الانحطاط التي عاشها المسلمون خصوصاً تلك الفترة التي نعى بدراستها ، وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان ؛ حدث الانحراف الخطير في تخلي الأمة عن قيادة العالم لتهاونها في الأخذ بأسباب القوة والتقدم ، واعتقادها الخاطئ أن ما فعلته يتلاءم مع دينها ، وأنها بتخليها عن الأخذ بهذه الأسباب كانت تخدم هذا الدين ، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم ، وانحراف خطير ، وهو خطأ من جانبين كما سبق وبيننا ذلك :

خطأ من جانب الدين نفسه الذي يأمر باتخاذ الأسباب وإعداد القوة ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، والعدو دائماً متربص بالأمة الدوائر ، ينتظر أدنى فرصة للانقضاض عليها ، وهذا ما وقع فعلاً حين غفت الأمة الإسلامية وتخلت عن اتخاذ أسباب القوة ، وخالفت الأوامر الربانية في ذلك ، فانتهزت أوربا القوية المتقدمة المتربصة هذه الفرصة ، وفرضت سيطرتها وحكمها فيما يعرف بالاستعمار .

وكذلك من جانب الواقع التاريخي للأمة ، حيث كان المسلمون

حريصين على أن يكونوا أقوياء ، وكان ذلك الأمر واضحاً عندهم وقت تمسكهم بالدين حيث سادوا العالم وقادوا البشرية ، ثم حدث ما حدث من تخلف وانحطاط للأسباب التي ذكرنا ، وذهبت هذه المعاني من نفوسهم كأنها لم تكن في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسوله ﷺ ولم تمارس في تاريخ الأمة . وجهل المسلمون أن أوربا قد أخذت تلك العلوم عن المسلمين وأن المسلمين كانوا متقدمين فيها ثم تخلفوا .

يقول الأستاذ «أنور الجندي» في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا» : «ومن هنا وجد خير الدين التونسي<sup>(١)</sup> الإجابة عن التساؤل الحائر الذي كان يعم العالم الإسلامي إذ ذاك وهو : « هل من حق المسلمين اقتباس هذه الحضارة ، وهل يتعارض ذلك مع الإسلام »<sup>(٢)</sup> ، وهذه محاولة من خير الدين التونسي لإزالة ذلك الجهل التاريخي الذي خيم على الأمة ، وإقناع منه لعلماء الزيتونة الذين هجروا العلوم الكونية وبالغوا في رفضها - شأنهم في ذلك كشأن بقية العلماء في العالم الإسلامي - أن ينظروا في التاريخ ليروا أنهم قد حادوا عن طريق أسلافهم في الماضي بإعراضهم عن هذه العلوم .



(١) وزير تونسي شركسي الأصل ، اتصل بالسلطان عبد الحميد فولاه الصدارة العظمى التي تعادل منصب رئيس الوزراء ، لكنه ما لبث أن استقال ، نعتة الزركلي في الأعلام بأنه من رجال الإصلاح الإسلامي ، له كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» . توفي سنة ١٣٠٨ هـ . الأعلام ٣٢٧/٢ . ومما لا شك فيه أن كثيراً ممن نعتهم الزركلي برجال الإصلاح الإسلامي كانوا متأثرين بالحضارة الغربية ومنهزمين منها ، ومن هؤلاء خير الدين التونسي .

(٢) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا ص ٣٨ .

## المبحث الرابع الضعف الاجتماعي والأخلاقي

ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث أن مفهوم العبادة في الإسلام قد انحصر في الشعائر التعبدية فقط ، حيث أصبحت العبادة في حس القرون المتأخرة عبارة عن القيام بالصلاة والصيام والحج وغيرها . وأخرجت بقية الأعمال من مفهوم العبادة ، وكان هذا جديراً بتطرق الضعف إلى الجوانب الاجتماعية والأخلاقية مادام أنها قد زحزحت إلى خارج دائرة العبادة ، وأمست غريبة عنها .

وقد زاد من حدة هذا الضعف الذي تطرق إلى المجتمع والأخلاق ما تمثل في الفكر الإرجائي الذي يخرج الأعمال كلها من حوزة الإيمان ، ويضفي الطمأنينة على الفرد بأن إيمانه كامل ولو لم يعمل أدنى عمل ، لأن الإيمان هو التصديق لا غير .

هذان العاملان مع ما وقع من انحرافات أخرى وعلى رأسها الشرك الأكبر المتمثل في عبادة الأولياء والأضرحة ، وهيمنة الصوفية بطقوسها وعقائدها على حياة الناس وانشغال الناس بالبدع والانحرافات ، وازدياد التعصب المذهبي ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما جبل عليه الإنسان من ضعف وتفلت إزاء ما أمر به من تكاليف وأوامر ، مع قلة التذكير من جانب العلماء ؛ نجد أن كل ذلك على توالي القرون كان يعمل على إضعاف الجوانب الاجتماعية والأخلاقية .



وفي تلك الفترة التي نقوم بدراستها فشا الظلم والجور ، وغطت الضرائب والمكوس والمصادرات ، وكانت الشعوب المسلمة ضحية لحكوماتهم المستبدة التي لم تكن تقوم في كثير من الأوقات إلا على مثل تلك المظالم . ولسنا بحاجة إلى التدليل على ما وصلت إليه الحالة الاجتماعية في ذلك الجانب من ترد وانحطاط . ولا نكاد نقرأ كتاباً من كتب التاريخ لتلك الفترة المظلمة إلا ونجد مشحوناً بذكر الظلم والعسف والإرهاب ، وكيف أن مؤلفه كان يشكو من كثرة الضرائب والمكوس ، ويصف معاناة الناس وعتهم وضيق عيشهم وبؤسهم .

لقد كانت أيضاً هناك بعض الظواهر الاجتماعية السيئة كمنع تعليم المرأة واعتقاد أن ذلك يضر ولا ينفع<sup>(١)</sup> ، وكذلك احتقارها وامتهانها ، ومصادرة حقها في إبداء رأيها في مسائل تخصها كاختيار زوجها مثلاً واعتبار ذلك كله من كمال قوامه الرجل ، وحرمانها من الميراث .

ظاهرة أخرى كان لها نصيب كبير في اتساع شقة الخلاف بين أفراد المجتمع الواحد ؛ تلك هي ظاهرة التعصب المذهبي ، وقد رأينا عند حديثنا عنها أنها كانت من عوامل الفرقة والتشتت بين أفراد المجتمع .

ظاهرة ثالثة كانت تتكرر باستمرار وهي الاستيلاء على الأوقاف وأكل أموالها بالباطل ، «وهذه شنشنة قل أن يخلو منها بلد من بلدان الإسلام»<sup>(٢)</sup> كما يقول الأمير «شكيب أرسلان» رحمه الله .

ظاهرة رابعة : ما كان يحدث من فسق وفجور واختلاط في بعض

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدود ص ١١ زينب بنت فواز العاملي ، دار المعرفة . الطبعة الثانية .

(٢) الارتسامات اللطاف ص ٣٢ . وانظر حول ذلك : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص ٥٣ .

الاحتفالات الدينية كالموالد وغيرها ، وما كان يمارسه بعض الدجالين من أدعياء الطريق من هتك للحرمان وتعد على الأخلاق وظهور الفواحش كشرب الخمر والزنا ، والسماح لبيوت الدعارة والبغاء بممارسة تلك الجريمة . كما ذكر الغزي عن انتشارها في حلب<sup>(١)</sup> ، وما ذكره «حسين بن محمد نصيف»<sup>(٢)</sup> عن كثرة مراتع الخمر والبغاء في جدة ، بل في مكة شرفها الله ، ولم تخف هذه الحالة إلا في عهد الشريف «حسين»<sup>(٣)</sup> الذي عمل على القضاء على تلك المنكرات العظيمة بكل صرامة<sup>(٤)</sup> .

وما ذكره الشيخ «محمد رشيد رضا» عن انتشارها في مصر ، وما كان يقع من تهتك البغايا حتى إنهن يقعدن على قارعة الطريق لإغراء الناس بالزنا ، وما فعله شيخه «محمد عبده» من مكافحة لها حين كان قاضياً يعمل في المحاكم الأهلية<sup>(٥)</sup> .

ظاهرة خامسة تتمثل في انتشار الغناء في تلك الفترة ، وإقبال الناس على سماع المعازف والقيان واحتفاء الحكام وعلية القوم بالمغنين والمغنيات ، فهذه المغنية المصرية «المس» التي «حازت شهرة عظيمة لا مزيد عليها ، وقد جمعت أموالاً كثيرة حتى قيل فيها : إنها سلبت أموال القطر المصري» ، وكانت ثروتها تقدر بعشرات الألوف من الجنيهات<sup>(٦)</sup> !! وكيف ترجو

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٦٨١/٣ وما بعدها .

(٢) الأعلام ٢٥٩/٢ .

(٣) هو الحسين بن علي آخر من حكم مكة من الأشراف . توفي سنة ١٣٥٠هـ . الأعلام ٢٤٩/٢ .

(٤) ماضي الحجاز وحاضره ص ١١٤ وما بعدها حسين محمد نصيف . الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ .

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام ٤٢٢/١ .

(٦) الدر المنثور في طبقات ربات الخدود ص ٧٨ .

النهوض أمة، يكرم فيها المغنون والمغنيات وتغدق الأموال عليهم ، ليشيعوا فيها الفجور والنفاق والتحلل؟!!

هذه بعض المظاهر الاجتماعية السيئة على سبيل المثال .

ولكن الذي يهمنا في هذا الحديث أمران هما :

الأول : أن الجوانب الاجتماعية والأخلاقية قد آلت مع مرور الأعوام إلى عادات باهتة وتقاليد خاوية ، ولم تعد ذات صلة وثيقة بالعقيدة كما ذكرنا ، وذلك حين ترى الناس يتوارثون الحفاظ عليها على أنها عادات الآباء والأجداد التي لا يجوز المساس بها أو التفريط فيها ، وقد ظل ذلك الحال إلى أوائل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري حيث كان الجانب الاجتماعي والأخلاقي على شيء من التماسك الهش .

ولنضرب على ذلك مثالا واحداً هو الحجاب وما يتبعه من قضايا تخص المرأة<sup>(١)</sup> ، فلقد كان سائداً في ذلك الوقت ، وكان تقليداً مرعياً ، وعادة محترمة ، لا يمكن التهاون في ارتدائه أو التجرؤ على مهاجمته أو خلعه ، ولكنه مع الزمن فقد قيمته الحقيقية في نفوس الكثيرين ، واستحال إلى عادة موروثية ليس لها من الإيمان رصيد ؛ فإذا المرأة ترتديه لأنه عادة ورثتها عن أمها ، وليس لأن الله أمرها به ، وافترضه عليها .

---

(١) أعجبني قول الشيخ محمد بن إسماعيل في كتابه القيم «عودة الحجاب» وهو : ليس الحجاب الذي نعنيه مجرد ستر لبدن المرأة . . إن الحجاب عنوان تلك المجموعة من الأحكام الاجتماعية المتعلقة بوضع المرأة في النظام الإسلامي ، والتي شرعها الله سبحانه وتعالى لتكون «الحصن الحصين» الذي يحمي المرأة ، و«السياج الواقى» الذي يعصم المجتمع من الافتتان بها ، و«الإطار المنضبط» الذي تؤدي المرأة من خلاله وظيفته «صناعة الأجيال» و«صياغة مستقبل الأمة» ، وبالتالي المساهمة في نصر الإسلام والتمكين له . من خاتمة كتاب «عودة الحجاب» .

وفي تلك الفترة كانت تتسم هذه العادات والتقاليد الاجتماعية بالصرامة والشدة ، ولم يكن الإخلال بشيء منها يغتفر في كثير من الأحوال ، ومن ذلك الحجاب .

فحين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٢١٣ هـ ، جاء «نابليون» بفريق من البغايا ليقمن بدور مرسوم في إفساد المرأة المسلمة في مصر ، حيث يذكر «الجبرتي» بعض ما كن يقمن به من تبرج وسفور ، وخلاعة ومجون ، ومخالطة للرجال ، وما كان يعملهُ الفرنسيون خصوصاً في احتفالاتهم برأس السنة الميلادية ، من خروج إلى النيل ومجاهرتهم بالتهتك والانحلال على مرأى من الناس ، مما أغرى بعض النساء من المسلمات بإظهار الفساد والتبرج<sup>(١)</sup> .

ووصل الأمر إلى قيام بعض النساء من الأعيان بمشاركة الفرنسيين في تلك الاحتفالات المخلة بالدين والآداب ، ومن هؤلاء النساء ابنة الشيخ «البكري» شيخ السجادة البكرية ، وهو من الشخصيات الدينية والبارزة في مصر أيام الحملة الفرنسية ، فما كان من والدها إلا أن أعلن البراءة منها على الملأ ، وما إن بارح الفرنسيون القاهرة وخلفهم العثمانيون ، حتى سارع بعض قوادهم إلى القبض عليها وعلى بعض من كن معها في مشاركة الفرنسيين في احتفالاتهم ، وحكموا عليهن بالقتل ، ونفذت الأحكام<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت هذه الواقعة في أوائل القرن الثالث عشر الهجري توحى لنا بمدى شدة تمسك الناس بتلك العادات المرعية في جانب المرأة ، فإننا ننتقل

---

(١) عجائب الآثار ٢/ ٤٣٦ .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٤٨٦ .

إلى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر لنذكر واقعة أخرى على المنوال ذاته<sup>(١)</sup> .

فقد روت وصيفة «الملكة نازلي» عن شدة معاملة «الملك فؤاد»<sup>(٢)</sup> لها . قالت : وفي السبع عشرة سنة التي عاشها الملك مع الملكة لم يسمح لها بالسفر إلى أوروبا سوى مرة واحدة عندما أجمع الأطباء على ضرورة سفرها إلى إحدى مدن المياه المعدنية بفرنسا لتعالج فيها ، وذلك عام ١٩٢٧ م ، وكان الملك مسافراً لبعض دول أوروبا زيارة رسمية ، ورفض أن يصحبها معه في هذه «الزيارات» ، واشترط أن تبقى في أوروبا محجبة ، ورفض أن تكون معه على نفس الباخرة ، وأمر أن تسافر باليخت (المحروسة) ليتفادى سفرها بالبواخر العادية حتى لا تختلط بالرجال ، وأمر الملك أن يكون هناك (ديدبان) طوال الليل يمشي أمام الجناح الخاص بالملكة في اليخت .

وعندما بدأت الرحلة وخيم الظلام في الليلة الأولى رأت الملكة الديدبان ، فغضبت وهاجت وماجت وأمرت قبطان اليخت المحروسة بسحب الديدبان فوراً ، وقال لها القبطان في احترام : إنني أنفذ أوامر جلالة الملك شخصياً ، وقالت الملكة : «ولكن وجوده هنا يضايقني ، وصوت حذائه يزعجني ويقلق نومي» ، ولم يستطع القبطان أن يقول إن صوت الحذاء لا يسمع مع وجود (البساط) المفروش على الأرض ، بل قال للملكة : إذا كان صوت حذاء الديدبان يزعج جلالتك فإنني سأمره أن يخلع حذاه .

---

(١) ذكرنا تلميحاً أن الجوانب الاجتماعية والأخلاقية كانت متماسكة نوعاً ما من أوائل القرن الثالث عشر إلى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر تقريباً ، ثم ظهرت آثار الدعوة إلى تحرير المرأة .

(٢) الأعلام ١/ ١٩٦ .

وفعلاً كان الجنود الذين يتناوبون الحراسة ليلاً أمام جناح الملكة يخلعون أحذيتهم ويقفون حفاة تنفيذاً لأمر الملك من جهة ، وإرضاء للملكة من جهة أخرى .

وحدث في تلك الأيام أن نشرت مجلة (روز اليوسف) صورة للملكة «نازلي» ووجهها مكشوف فقامت قيامة الملك «فؤاد» ، وطلب من «توفيق نسيم باشا» رئيس الديوان الملكي أن يطلب من «عبد الخالق ثروت» رئيس الوزراء إغلاق مجلة روز اليوسف بتهمة (العيب في الذات الملكية) . . وحقق مدير المطبوعات مع «روز اليوسف» فقالت : إن الصورة منقولة عن جريدة فرنسية وزعت في مصر . واكتفى مدير المطبوعات بتوجيه توبيخ شديد اللهجة إلى روز اليوسف .

وكان «الملك فؤاد» يحرص أن لا تبدو الملكة سافرة أمام رجل ، حتى إنها كانت لا تستطيع أن تتنزه في حدائق القصر الملكي إلا إذا حجبت نصف وجهها ، وبعد ما يتحقق بوليس القصر من عدم وجود رجل في المنطقة التي ستتنزه فيها الملكة ، يصدر الأمر إلى جنود الحرس الملكي الذين يقفون فوق جدران القصر بأن يديروا ظهورهم إلى حديقة القصر طول مدة سير الملكة في الحديقة .

وعندما أراد ملك أفغانستان «أمان الله خان» زيارة مصر وهو في طريقه إلى أوروبا قام باصطحاب الملكة «ثرثيا» زوجته ، ورحب الملك «فؤاد» بملك أفغانستان ، ثم سمع أن الملك «أمان الله» دعا نساء أفغانستان إلى نزع الحجاب اقتداءً بالغازي (كمال أتاترك) الذي ألغى الحجاب في تركيا ، وجاءت البرقيات تقول إن الملكة «ثرثيا» سترافق الملك سافرة في رحلته ، وعندئذ ألغى الملك «فؤاد» استضافته ملك أفغانستان في قصر عابدين ،

بحجة أن التقاليد تحول دون اشتراك الملكة «ثريا» في الزيارة الرسمية ، وعرف أن الملك «فؤاد» لا يريد أن تقيم «ثريا» في قصر عابدين حتى لا تسمم أفكار الملكة «نازلي» ، ووافق الملك «أمان الله» على أن تكون إقامة «ثريا» في مصر إقامة غير رسمية ؛ فلا تشترك في الحفلات والاستقبالات التي يدعى إليها ، ولم يكتف الملك «فؤاد» بذلك ، بل أبلغ الملك «أمان الله» أنه يرجو ألا تظهر زوجته سافرة أثناء إقامتها في مصر مراعاة لتقاليدها ، وخضعت «ثريا» لرغبة الملك ، وأصدر الملك «فؤاد» أمره إلى وزارة الداخلية بعدم محاولة تصوير ملكة أفغانستان ، وفعلاً لم تظهر صورة واحدة للملكة «ثريا» في الصحف المصرية طوال مدة إقامتها ، وعندما انتهت الزيارة وصعدت ملكة أفغانستان إلى الباخرة الإيطالية التي أقلتتها إلى أوروبا ، أسرعت ونزعت الحجاب بحركة عصبية ، وقالت للصحافيين : «أظن أننا لم نعد مقيدتين بأوامر الملك «فؤاد» هنا» (١) .

وهذا ملك أفغانستان «أمان الله» الذي سبق ذكره خلعه العلماء وحرّم عرش آبائه ، وأجلى عن البلاد ؛ لأنه سمح لعقليته بأن تخرج سافرة ، ودعا النساء المسلمات إلى نبذ الحجاب .

ولكن كل ما ذكرناه من أمثلة ووقائع على مراعاة الناس لهذه العادات ، لم يخرج عن كونه واقعاً ضمن دائرة العادات والتقاليد ، تلك التي لم يعد لها رصيد من العقيدة في كثير من الأحوال .

وما قيل عن الحجاب والعادات المتعلقة بالمرأة يمكن أن يقال عن بقية

---

(١) من مقالات بعنوان : (من عشرة لعشرين) للصحافي مصطفى أمين - أخبار اليوم ٩ يناير ١٩٨٢م نقلاً عن عودة الحجاب ٧١ / ١ .

الجوانب الاجتماعية والأخلاقية الأخرى ، وأنها جميعها قد فقدت قيمتها وأصالتها يوم أن فقدت قاعدتها الإيمانية ، وتحولت إلى عادات موروثية وتقاليد خاوية .

وهنا جاءت النتيجة الخطيرة ، فلم يكن يمكن للعادات الموروثة والتقاليد الخاوية أن تصمد طويلاً في وجه حملات التغريب المنظمة وهجمات الغزو الفكري المخططة ، فإذا بتلك العادات والتقاليد تنهار سريعاً تحت معاول العلمانيين وضرباتهم المتتابة ، وإذا بالجماهير الغفيرة تسرع بهجرها والتخلي عنها وتبرم منها حتى كأنها لم تكن في حياتها يوماً من الأيام .

فبالنسبة للحجاب سقط في المعركة بعد أن اشتدت ضراوتها ، وصوبت سهام الأعداء إليه من كل جانب ، وآتت حركة تحرير المرأة كما يسمونها أكلها ، وظهرت نتائجها سريعاً في كثير من بلدان العالم الإسلامي ، تلك التي بدأت تتسابق فيما بينها للقذف بمجتمعاتها في تيارات العلمنة والتغريب والغزو الفكري ، وعندما أصدر «قاسم أمين» كتابيه المعروفين «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩ م ، و«المرأة الجديدة» عام ١٩٠١ م ، قامت الدنيا من أجلهما ، وهوجم مؤلفهما هجوماً شديداً ، واتهم بالكفر ، ومنع من دخول قصر خديوي مصر بدعوى أنه يدعو إلى الإباحية<sup>(١)</sup> .

وتعالت صيحات المستنكرين في كل مكان ، في مصر خاصة ، وفي معظم البلاد الإسلامية الأخرى ، وتوالى الردود العنيفة عبر المقالات الصحفية والكتب التي بلغ عددها وحدها مائة كتاب<sup>(٢)</sup> . ولكن هذه الحشود

---

(١) عودة الحجاب ٤٧/١ .

(٢) المصدر السابق ٥٠/١ . انظر بعض أسمائها ص ٥٠ من نفس المصدر .



الكبيرة من الردود الصحفية والكتب المعارضة قد تلاشت أمام دعوة «قاسم أمين» التي أودعها في مؤلفيه السابقين، واستطاع ما انطوى عليه هذان المؤلفان من فكر دخیل أن يشق طريقه وأن ينفذ من بین هذا الكم الهائل من الكتب التي لم تكن الأوضاع الاجتماعية في صالحها ، ليستقر معمولاً به في أرض الواقع ، واستطاعت دعوة «قاسم أمين» أن تجد لها تربة خصبة في الحياة الإسلامية التي كانت تعاني من انحرافات فصلنا القول فيها .

فلم يكن بإمكان مائة كتاب أو ألف مقال أن تتصدى لإصلاح أوضاع فاسدة ، وأخلاق هشة ، ومجتمعات ضعيفة . ومن ثم فلم يمكنها الوقوف في وجه الحملات العدائية، وفي مقدمتها دعوة «قاسم أمين» التي تولت كبر ما يسمى بحركة تحرير المرأة . وكان الحجاب مما سقط ، فبالرغم من ضراوة المعركة ، وتوالي الهجمات الشرسة على الحجاب ، فقد كان بالإمكان أن يبقى لو لم يكن قد تحول إلى عادة موروثة وتقليد خاو .

و«لبيان ذلك نقول : إن هذه الوسائل ما تزال مستخدمة حتى هذه اللحظة وبعنف أشد مما كان قبل خمسين عاماً دون شك ، وقد أحدثت هذه الوسائل في خلال ما يزيد على نصف قرن تياراً هائلاً نافراً من الإسلام منسلخاً منه ، ومع ذلك توجد فتيات محجبات ، جامعات مثقفات ، لا يتنازلن عن حجابهن ولو دخلن من أجله السجون والمعتقلات» .

«وبعبارة أخرى نسأل : هل كان الحجاب الذي سقط عقيدة أم تقاليد؟ والأخلاق التي سقطت . . هل كانت ذات رصید إيماني حقيقي أم كانت تقاليد؟ . . .

حين يكون الحجاب عقيدة فإنه لا يسقط . . مهما سلط عليه من أدوات

التحطيم، وحين تكون الأخلاق ذات رصيد إيماني حقيقي ، فليس من السهل أن تسقط - ولو سلطت عليها عوامل الإفساد - إلا بعد مقاومة شديدة وزمن مديد .

أما التقاليد الخاوية من الروح ، وأما العنجهية الفارغة . . فهي عرضة للسقوط إذا اشتد عليها الضغط ، وقد كان الضغط عنيفاً بالفعل ، بل كان شيطانياً بكل ما تحمله الكلمة من معان»<sup>(١)</sup> .

وقد لاقى الحجاب حملة شديدة استهدفت القضاء عليه ومحوه من الحياة الإسلامية إلى الأبد ، ولعل أجراً الخطوات وأشدّها جرماً ما قام به «مصطفى كمال أتاترك» في تركيا بعد أن مهد لذلك بإلغاء الخلافة العثمانية ، وعمل على سلب تركيا من الإسلام ، وقد أصدر قانوناً بنزع الحجاب ومعاقبة مخالفه وشنق معارضيّه في ذلك<sup>(٢)</sup> .

وكذلك فعل ملك أفغانستان «محمد أمان» حين أصدر قانوناً بنزع حجاب المرأة .

وفي ألبانيا حارب «أحمد زوغو» الحجاب بقانون ، ثم عادت المرأة المسلمة الألبانية إلى الحجاب أيام الحرب العالمية الثانية ، ثم عاد «أنور خوجا» مرة ثانية وشن حرباً شعواء على الحجاب في ألبانيا<sup>(٣)</sup> .

وفي الجزائر تمكن «أحمد بن بيلا» من سرقة الثورة الإسلامية ، وتحويلها إلى ثورة اشتراكية بعيدة عن الإسلام ، ودعا المرأة الجزائرية إلى خلع

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٦٤ .

(٢) عودة الحجاب ١/٢٠٥ .

(٣) المصدر السابق ١/٢١٦ .

الحجاب بحجة عجيبة حين قال : إن المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب في الماضي لأن فرنسا هي التي كانت تدعوها إلى ذلك ، أما اليوم فإني أطالب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر<sup>(١)</sup> .

ولسنا بحاجة لتتبع ما قام به أعداء الإسلام في الداخل والخارج في هدم الأسس الأخلاقية والاجتماعية عند المسلمين ، وتقويض معالمها ، ونجاحهم في ذلك نجاحاً مذهلاً ، وبسرعة مذهلة وزمن قصير ، بعد أن ارتفعت هذه الأسس قروناً كثيرة ، وذلك بعد أن ضعف ارتباطها بالدين ، ونضبت في داخلها جذور العقيدة والصلاح .

ولعل ما ذكره الشيخ «أبو الحسن الندوي» في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» عن أفغانستان ذلك البلد الإسلامي - يعطي صورة واضحة عن سرعة انهيار الجوانب الاجتماعية والأخلاقية في كثير من البلدان الإسلامية .

يقول «الندوي» : «وقد كانت هذه الحال في أفغانستان حين طمرت طفرة واسعة إلى الحضارة الغربية ، ورفعت الحجاب بينها وبين الحضارة أخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف . وقد حدثت هناك ثورة في الأوضاع في خلال ٣٢ سنة .

فالمجتمع الأفغاني الذي ثار على «أمان الله خان» الأمير العريق في الملك والشرف لأجل إصلاحات وتطويرات قام بها ، اضطرت تلك الثورة إلى التنازل عن العرش والجلء الدائم ، وأصبح هذا المجتمع الأفغاني يقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الأفغانية بخطى سريعة

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٦٠ .

واسعة، وأصبحت أفغانستان المحافظة المصون تتطور تطوراً سريعاً لا يعرف أحد مداه ونهايته»<sup>(١)</sup> .

ثم ينقل كلاماً لأحد الصحفيين الأوربيين المراسلين لإحدى الصحف الهندية الإنجليزية «بدأت نساء الأفغان يخرجن سافرات من آب (أغسطس) عام ١٩٥٩ م، أثر منشور ملكي سمح للنساء بالسفور، ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً، سألت السيدة «معصومة الكاظمي»، وكانت تخرجت من جامعة كابل بشهادة الليسانس الداخلية في الطب، وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة: ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور؟ قالت: إنني وأختي طرحنا الملاء وأردية القناع في التنور وسجرناها، وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبداً»<sup>(٢)</sup> .

ويقول المؤلف حين قام بنفسه بزيارة إلى أفغانستان عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م): «لاحظنا أن المدينة الغربية قد قطعت شوطاً بعيداً في هذه البلاد، وأن الثقافة الغربية قد آتت أكلها يانعة ناضجة، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨ - ١٩٧٣ م كانت واسعة بعيدة .

فقد كان الشعب الأفغاني إلى عهد «أمان الله خان» متمسكاً بالتقاليد الإسلامية الأفغانية عاضاً عليها بالنواجذ، حتى بلغ في ذلك حد التطرف والمغالاة، وكان نتيجة ذلك أن خروج الملك «أمان الله خان» عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه، أما الوضع الآن فمختلف جداً، إنها

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١ .

مسافة قصيرة بالحساب الرياضي ، وهي مدة خمس وأربعين سنة ، ولكن المسافة الفكرية والثقافية هي مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب في قرن ، فقد أصبح الحجاب الآن رمزاً للتخلف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف وبيوت بعض العلماء المحافظين والفلاحين البعيدين عن العاصمة ...»<sup>(١)</sup> .

وليست أفغانستان سوى مثل تكرر على منواله ما جرى في أكثر الأقطار الإسلامية من سقوط للأسس الأخلاقية والاجتماعية وتهاويها السريع بصورة مذهلة .

وهكذا تكون مصائر العادات والتقاليد الجوفاء الخالية من العقيدة ، مهما اتسمت بالصرامة ، وامتزجت بالمغالاة والتطرف .

هذا هو المرتكز الأول الذي رأيناه جديراً بالتسجيل والحديث حول الضعف الاجتماعي والأخلاقي في الفترة التي نعنى بدراستها ، ألا وهو تحول كثير من الجوانب الاجتماعية والأخلاقية إلى عادات وتقاليد لا تقوم على قاعدة متينة من العقيدة الصحيحة والإيمان القوي ، وأن هذه العادات والتقاليد ما كان لها أن تظل صامدة أمام الهجمات الشرسة من قبل أعداء الإسلام .

وقد استغل أعداء الإسلام في أثناء هجومهم على الأخلاق والتقاليد الخاطئة الموجودة في المجتمع الإسلامي ، وهاجموا معها العادات المستمدة من الدين من حجاب واستقرار في البيت وغير ذلك ، وجعلوا كل ذلك من

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

التقاليد العتيقة التي عفى عليها الزمن ولم يعد يستساغ وجودها في العصر الحاضر<sup>(١)</sup> .

أما المرتكز الثاني : فهو ما أصيبت به الأمة الإسلامية في هذه الفترة وخاصة القرن الرابع عشر الهجري من انهيار مهول في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية ، وتحلل وفوضى فيها ، ومع ذلك فإنه يعد أمراً هيناً بجانب الأمر الخطير الذي وقع لأول مرة في تاريخ الأمة ؛ وهو انتقاص القيم الإسلامية ومهاجمتها بشدة ومحاولة القضاء عليها من أبناء الأمة نفسها وذلك بفعل الغزو الفكري .

إن وقوع التحلل والترذل الخلقي أمر محتمل الوقوع ، بل متحقق في حياة الناس ، وقد وقعت بعض مظاهره في طول تاريخ الأمة ، وليس هذا غريباً ، ولكن الغريب حقاً أمران وقعا في تلك الفترة التي ندرسها :

الأمر الأول : هو حجم الفساد وتفشيهِ العظيم في أوساط المجتمعات الإسلامية فلم يطغ مثل هذا الحجم الهائل من الفساد على الحياة الإسلامية إلا في تلك الفترة ، ولم يصل إلى ما وصل إليه بذلك الشكل الخطير في أي عصر مضى . وبالتالي تسبب هذا الانتشار في ضعف إحساس الناس بمخالفة الأخلاق ، فلم تعد مخالفتها تثير في نفوسهم من الكره والاشمئزاز ما كانت تثيره من قبل ، أو بعبارة أخرى فقد طغى الفساد والتحلل على المجتمعات الإسلامية ، وأصبح هو الغالب عليها ، والمسير لحياتها ، وانحصرت القيم الخلقية والمثل الاجتماعية في أضيق نطاق ، فكأن الفساد هو الأصل ، والصلاح هو الشاذ والغريب ، كما يبدو ذلك واضحاً من خلال النظرة إلى

---

(١) انظر : واقعنا المعاصر ص ٢٨٦ .

تلك المجتمعات؛ « فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذاً يستنكر ، وتنال عقوبتها الرادعة حين تقع ، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هي الشذوذ المستنكر»<sup>(١)</sup> .

الأمر الثاني : وهو الأشد خطورة ، ولا أظنه حدث أبداً في تاريخ الأمة كما قلنا من قبل ، ألا وهو الهجوم الشديد على الروابط الأخلاقية والاجتماعية ، وانتقاصها ، واعتبارها رمزاً للتخلف والرجعية ، فلم يكتف بالتخلي عن هذه الروابط والتهاون فيها ، بل تعدى ذلك إلى مهاجمتها وإلقاء اللائمة عليها فيما أصاب المسلمين من ضعف وتخلف ، وهو جرم الدين في أثناء ذلك هجوماً عنيفاً ، ونودي بفصل الدين عن الحياة ، وأن الأخلاق لا علاقة لها بالدين !!

وسوف ندمج الحديث عن هذين الأمرين بصفتهما متلازمين ، ومؤثر كل منهما في الآخر؛ فلقد حدث الأمران معاً ، فوقع فساد عظيم في الدين والأخلاق ، صاحبه هجوم شديد ومتواصل عليهما ، وارتبط ذلك كله بعجلة التطور ، ومفهوم التخلف والرجعية .

فاعتبرت الأخلاق الإسلامية علامة على التخلف والرجعية ، واتهمت الروابط الاجتماعية أنها تقف في طريق تقدم المجتمعات ورفقيها ، «وانحرف الناس عن نهج الدين واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية ، فأقبل كثير منهم على الخمر والفجور والقمار والربا ونحو ذلك ، ثم دب ديب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الانحلال ، فتكاسل الناس عن أداء العبادات وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة ،

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٩٤ .

واستمالت الشباب وغير الشباب ، وصارت العلاقة الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما وكثير من المجلات والصحف ابتغاء وفرة الربح والدخل ، فانهرف الشباب وفسدت روابط الأسرة ، ثم عم السيل وطم وانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية»<sup>(١)</sup> .

ولعل من الأحداث البارزة التي شن فيها الهجوم على بعض المثل الإسلامية؛ مما تمثل في مظاهرة النساء المصريات<sup>(٢)</sup> في ميدان قصر النيل (ميدان الإسماعيلية)<sup>(٣)</sup> أمام ثكنات الجيش الإنجليزي سنة ١٣٣٨ هـ- ١٩١٩ م؛ بقيادة «صفية هاتم زغلول» و«هدى شعراوي»، وقيامهن في وضف النهار وأمام الملأ بخلع الحجاب وإشعال النار فيه<sup>(٤)</sup> .

فكان هذا الهجوم السافر إعلاناً باستشراء الفساد وغلبة الباطل ، ودليلاً على انزواء الصلااح وضعف الحق وهوانه بين الناس .

فكانت الأحداث تتوالى سريعاً في صورة صراع مرير بين القديم والجديد ، أو إن شئت فقل صراعاً بين الإسلام الذي انقلب في أكثره إلى رسوم وعادات جوفاء ، وبين الباطل في صورة حضارة قوية أخاذه وغالبة ، هجمت عليه من كل جانب .

وفي موضوع المرأة كانت دعوة «قاسم أمين» هي فاتحة الشرور التي أطلت على المسلمين بعد ذلك ، وعلى الرغم أن «قاسم أمين» «لم يدع قط

---

(١) «الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام» ص ٦٤ ، للدكتور عبد الستار ففتح الله السعيد . دار الأنصار - القاهرة .

(٢) كن خليطاً من المسلمات والنصرانيات واليهوديات .

(٣) هو ميدان التحرير حالياً .

(٤) انظر حول ذلك : واقعنا المعاصر ص ٢٥٨ ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٥٠/٢ .



إلى اختلاط المرأة بالرجال ومراقبتهم، ولم يدع قط إلى أن يتجاوز كشف النقاب إلى الكشف عن الأذرع والسوق والصدر والظهر، ولم يدع قط إلى اتخاذ الملابس الضيقة التي لا تخفي عورات الجسم إلا لتبرز مواضع الفتنة والإغراء منها... فإنه هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في طريق كان لا بد أن يسير الناس فيه من بعده خطوات.

لم يعد الذي دعا إليه «قاسم أمين» هو شغل الناس بعد الحرب<sup>(١)</sup>، فقد أخذت الأمور تتطور تطوراً سريعاً، حتى أصبحت دعوة «قاسم أمين» وقد استنفدت في وقت وجيز كل أغراضها، واندفع الناس إلى ما وراءها في سرعة غير منتظرة.

فقد خلعت المرأة النقاب، ثم استبدلت المعطف الأسود بالخبرة<sup>(٢)</sup>، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب في الذيول وفي الأكمام وفي الجيوب<sup>(٣)</sup>، ولم يزل يجور عليها فيضيّقها على صاحبها حتى أصبحت كبعض جلدها، ثم إنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شواطئ البحر في المصايف بما لا يكاد يستر شيئاً، ولم تعد عصمة النساء في أيدي أزواجهن، ولكنها أصبحت في أيدي صانعي الأزياء في باريس من اليهود ومشيعي الفجور، وقطعت مرحلة التعليم

---

(١) هي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ م.

(٢) الخبرة: هي إزار كانت المرأة تلتحف به إذا برزت للطريق، وقد كان يتخذ من قماش أسود ويتكون من قطعتين، تدور إحدهما حول الخصر وتسدل إلى أن تغطي الساقين، وتنزل الأخرى من فوق الرأس فتغطي الصدر والكتفين وتنتهي إلى ما تحت الخصر، وقد اختفى هذا الزي الآن أو كاد.

(٣) جيب الثوب هو طوقه الذي يحيط بالرقبة، والفتحة التي يدخل فيها اللابس رأسه حين يلبسه. من هوامش د. محمد محمد حسين رحمه الله.

الابتدائي والثانوي واقتحمت الجامعة ، مزاحمة فيما يلائمها ، وفيما لا يلائمها من ثقافات وصناعات ، وشاركت في الوظائف العامة ، ثم لم تقف مطالبها عند حد في الجري وراء ما سماه أنصارها «حقوق المرأة» أو «مساواتها بالرجل» ، وكأنا كان عبثاً أن خلق الله - سبحانه - الذكر والأنثى ، وأقام كلاهما فيما أراد ، وامتلأت المصانع والمتاجر بالعاملات والبايعات ، وحطم النساء الحواجز التي كانت تقوم بينهن وبين الرجال في المسارح وفي الترام وفي كل مكان ، فاخفت المقاعد التي جرت العادة على تخصيصها ، بعد أن أصبحن يفضلن مشاركة الرجال»<sup>(١)</sup> .

«كتب «أنيس منصور» في إحدى مقالاته في أخبار اليوم : إنه زار إحدى الجامعات الألمانية ، ورأى هناك الأولاد البنات أزواجاً مستقلين على الحشائش في فناء الجامعة . . . قال : فقلت في نفسي : متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط ! لكي تراه عيون أهل الصعيد ، وتعود عليه !

هذا وغيره فضلاً عن آلاف بل ملايين الصور العارية . . والأغاني العارية . . . والأفكار العارية . . . والنكت العارية . . . التي تملأ الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون . . . وآلاف بل ملايين الأجساد العارية في كل مكان : في الشوارع والمكاتب ووسائل المواصلات والشواطئ العارية في فصل الصيف . . .»<sup>(٢)</sup> .

«فهذه صحيفة السياسة الأسبوعية تكتب مقالاً عن فتاة تركيا ١٩٢٦ م ، تصف فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضاً عاماً ، في رحلة

(١) الانتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٢٤٩ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ٢٩٥ .

على نفقة الحكومة ، تنتقل فيها بين موانئ أوروبا الشهيرة؛ فتقول إن هذه الباخرة كانت تقل (خمساً وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة كلهن جميلات مقصوصات الشعور ، لا يكاد يميزهن الرائي من فتيات لندرة وباريس) .

ويقول مراسل الصحيفة : إن أكثر الفتيات يتكلمن الإنجليزية بإتقان يدعو إلى الدهشة ، وأن بعضهن قد تلقى العلم في الكلية الأمريكية في القسطنطينية .

ويروي بعض ما صرحت به الفتيات ، من مثل قول إحداهن في بعض الموانئ الإنجليزية : (إن المرأة التركية اليوم حرة ، فلن تسير في الطرقات في ظلام ، وإننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات ، نلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية ، ونرقص وندخن ونسافر ونتقل بغير أزواجنا) «<sup>(١)</sup> .

بل لقد حظي هذا الهجوم الآثم بمساندة الأنظمة الحاكمة له في كثير من بلاد الإسلام ، ومحاولة هذه الأنظمة العلمانية الجائرة القضاء على الجوانب الخلقية والاجتماعية وفرض نقائضها وما يخالفها بالقوة على المجتمع ، وسن القوانين التي تهدف إلى إلغائها .

وقد ذكرنا ما قام به كل من : «كمال أتاترك» في تركيا ، «والمملك أمان الله» في أفغانستان ، «وأحمد زوغو» في ألبانيا ، و«أحمد بن بيللا» في الجزائر ، في سبيل تحقيق ذلك ، ووصل الأمر في بعض تلك الدول إلى اعتقال بعض النساء المسلمات بتهمة ارتداء الحجاب!!<sup>(٢)</sup> .

---

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/ ٢٥٥ .

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٦٥ .

وتم فصل بعض المدرسات من أعمالهن بسبب إصرارهن على لبس الحجاب في إحدى تلك الدول<sup>(١)</sup> ، وأصدر في بعضها قانون يمنع تعدد الزوجات ، ويعتبر أن التعدد جنحة يعاقب مرتكبها بالسجن لمدة سنة ، وبغرامة مالية تقرب من (٢٤٠) ديناراً ، وعندما ضبط أحد الذين تزوجوا ثانية ، وسيق إلى المحاكمة ، تبرأ من عمله بأن هذه ليست زوجته الثانية ، وإنما هي خليلته ، فعفي عنه<sup>(٢)</sup> .

وقام آخر من هؤلاء العلمانيين المارقين بإصدار قوانين تساوي بين الرجل والمرأة في الميراث وتمنع تعدد الزوجات ، وعلق معارضيه من العلماء على أعواد المشانق بعد أن حكم عليهم بالإعدام<sup>(٣)</sup> . وأنزلت المظليات والمظليون إلى شوارع إحدى العواصم الإسلامية لينتزعوا بالقوة والإرهاب حجاب النساء المسلمات في هجوم سافر على فريضة شرعية .

«وافتحت الخمارات في كل مكان ، حتى تغلغت إلى الريف وإلى أحياء العمال ، وافتتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم ، وتجراً الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية ، التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد لا يبالون ديناً ولا عرفاً ولا مصلحة»<sup>(٤)</sup> .

ويسرت سبل الإفساد ، وسهلت وسائل الرذيلة وإشاعة الفاحشة عبر

---

(١) المرأة بين الجاهلية والإسلام ص ٢٨٥ محمد الناصر . خولة درويش . دار الرسالة . مكة

المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٢٦٤ .

وسائل الإعلام ، وبما تقوم الأنظمة العلمانية برعايته من كل مامن شأنه شرح العقيدة الإسلامية ، وهدم الأخلاق والفضائل ، «ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك تيسير استخدام موانع الحمل وإنتاجها على نطاق واسع أكبر بكثير جداً من حاجة البشرية الراشدة ، وتخفيض أسعارها حتى تصبح في متناول أي فتاة تريد أن تحصل عليها ، وإخراجها من دائرة المراقبة الصحية التي يمكن للأطباء أن يمارسوها ، وذلك بيعها دون حاجة إلى تذكرة الطبيب ، على الرغم مما يقوله الأطباء أنفسهم من خطورة استخدامها بغير رقابة صحية . والهدف من ذلك واضح ، فحين تأمن الفتاة نتائج اتصالاتها غير المشروعة ، فما الذي يمنعها - في الفوضى الخلقية الضاربة أطناها في الجاهلية المعاصرة - أن تغرق في هذه العلاقات إلى آخر المدى ، ويتحقق للشياطين ما يريدون من إشاعة الفاحشة على أوسع نطاق»<sup>(١)</sup> .

وما زالت المعاول الهدامة تدك صروح الأخلاق الإسلامية ، وتداهمها الدعوات المشبوهة هازئة بها ، ومتخفية إياها حتى قوضتها ، وأزالتها من النفوس ، واستبدلت بها أردية التحرر والتحلل والانفلات من الضوابط ، فنشأت مجتمعات تستمرئ الرذيلة ، وتآلف الفاحشة ، وتستروح الفساد ، في الوقت الذي نبذت فيه الفضيلة ، واستوحشت من الطهر والصلاح ، ونظرت إلى ذلك بعين الازدراء ، وظهرت فتنة الموضة والأزياء مبكراً ، كمؤشر على الخواء الروحي الذي أصاب نساء المسلمين .

تقول إحدى الكاتبات التي عاصرت غزو الموضة إلى العالم الإسلامي في بواكير القرن الرابع عشر الهجري : «ولكن لم تلبث أن تقدمت نحونا

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٩٧ .

تلك المناظرة بخيلها ورجلها ، ودخلت بلادنا ضيقاً غير محتشم ،  
واستمالت قلوب النساء والبنات إلى الأخذ بها ، فتغيرت الحالة الأولى  
بضدها ، واستحالت عوائدنا القديمة إلى عكسها ، وارتفع علم المودة (أي  
الزني الجديد) في ربوعنا حتى راجت بضاعته ، ونال من أفئدتنا بغيته . . . » .

إلى أن قالت : «أما الآن فترى المسئلة معكوسة من جميع وجوهها؛ حيث  
نجد المثریات منا اللواتي ينبغي أن يكن قدوة لجمعيةات يتسابقن إلى ميدان  
المودة ، ويبرزن بحللهن وحليهن تيهاً وإعجاباً ، ويتفاخرن كل يوم بثوب  
جديد إعلاماً ببذخهن وإسرافهن إلى غير ذلك ، مما يجدد في نفوس عامة  
النساء روح الغيرة والافتتان ، ويحملهن على إقدامهن على نحو هذا التقليد  
المضر بصالحهن المادي والأدبي ، فضلاً عن إضراره بصحتهن وراحتهن» .

وتقول أيضاً : «وكم من امرأة قد باعت ما لديها من الحلي والعقار  
وابتاعت بقيمته قبعات وأثواباً ومراوح ، إلى غير ذلك من لوازم المودة  
العائدة بخراب بلادنا والمنفعة لغيرها من البلاد التي تختلق لنا لزوم ما لا  
يلزم، فتهافت إلى ابتياعه ولا تهافت الجياع إلى القصاع . . .»<sup>(١)</sup> .

ومع دلالة الموضحة على الجهل والخواء الروحي ، فإنها لتدل على غياب  
القدوة في حياة المرأة المسلمة والمتمثلة في أمهات المؤمنين ونساء الصحابة  
الأبرار ، ومن جاء بعدهن ممن ترسمن خطاهن ، واقتدين بهن في القرون  
المتقدمة .

وما من داع أن نخوض حول عبودية المودة في هذا العصر ، وانتشارها  
بين النساء في المجتمعات الإسلامية ، فإن الواقع الأليم قد كفانا مؤنة ذلك .

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص ١٤ وما بعدها .

كما أصيبت تلك المجتمعات بالتفكك ، وسادت فيها الأخلاق النفعية ، والعلاقات الانتهازية ، وطفغت فيها أنانية الفرد ، وحب التسلط على الآخرين . « وإنه لأمر مؤلم أن تسود النفعية كثيراً من مجتمعاتنا المسلمة في العصر الحاضر ، فبعد أن كان الإخلاص والأمانة والصدق والإيثار ، من أهم خصائص أخلاق المسلمين ، إذا بالغش والكذب والأنانية والخيانة تحل محل تلك الفضائل عند كثير من الناس ، ومن هنا باتت الشكوى مريرة والانهيـار خطيراً»<sup>(١)</sup> .

وانتشرت الغيبة والنميمة والكذب وأصبحت من أخلاق الكثيرين وطباعهم ، وطفغت الرشوة وأساليب المكر والاحتيال حتى عد ارتكابها من الذكاء وبعد النظر .

وتصدعت الأسرة المسلمة بعد أن استجابت الأم والزوجة لدعاة خروج المرأة إلى العمل زاعمين أن بقاءها في البيت «انتقاص لحقوقها وقتل لشخصيتها واعتداء على كيانها»<sup>(٢)</sup> ، فأصيب الأطفال بالضيق والتشرد الأسري نتيجة لما يسمى بالخروج إلى العمل ، وفسدت تنشئتهم حين وكل بتربيتهم إلى الخدم ودور الحضانة ، ولجأت الأم إلى الوسائل الصناعية في إرضاع طفلها خيانة للأمانة وتفريطاً فيها وتعطيلاً لسنة الله ؛ لأن الله سبحانه لم يخلق ثدي الأم لتبرزه في السهرات ، وتكشف عن جماله وتنصبه شركاً في الطرقات ، ولكنه أوجده أصلاً للإرضاع ، والرضاعة مع ذلك ليست عملية عضوية آلية فحسب ، ولكنها حنان متبادل وميثاق

---

(١) أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام ص ٣٣٣ .

(٢) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٠٤ د . محمد محمد حسين . دار الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة الثانية عشرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٤م .

غليظ، وليس لنا أن نتوقع بعد شيوع الرضاعة الصناعية؛ إلا السعي لاختراع وسيلة للحمل الصناعي بعيداً عن بطن الأم - إن أمكن - توفيراً لجهدا وصيانة لجمالها<sup>(١)</sup> .

«والأسرة المسلمة دب فيها الوهن بعدما بعدت عن أحكام الإسلام فالعلاقات بين الزوجين متوترة وعلى الأحسن فاترة ، والعلاقات بين أفراد الأسرة الآخرين تفككت تقليداً للغرب الصليبي ، ومظاهر قطع الرحم والخصام تزيد عن مظاهر الوثام والسلام ، ومظاهر التظالم بين أفراد الأسرة الواحدة والتشاحن على الميراث وعلى غيره من أغراض الحياة الدنيا كثيرة وكبيرة وعميقة .

والمجتمع المسلم لم يعد جسداً واحداً ؛ تقطعت أوصاله وأجزاؤه على مستوى الأمة الإسلامية ، فلم تعد واحدة ، وتقطعت أوصاله وأجزاؤه داخل البلد الواحد إلى أحزاب وفرق وعصبية وساد الفكر الصليبي أو الصهيوني ، أو ما يريده هذا وذاك أن يسود ، وانتفى فيه التكافل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وانهار خلقاً بترك الصدق والأمانة والعفة .

وعاون على ذلك إعلام فاجر لا يرعى الله ولا الأخلاق ولا القيم ، ويحقق للصهيونية أو الصليبية كل ما تبغيه ، عقيدة وخلقاً وسلوكاً ، كما ساعد على ذلك تعليم تفلت أو يتفلت من قيم الإسلام ، ليعلي قيماً غير إسلامية ، وليقرر مناهج غير إسلامية في مجال الطبيعيات والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، وليزري عن عمد أو عن جهل بالدين ورجاله وعلمائه فيزري بالتالي بقيمه وأحكامه»<sup>(٢)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٨٨ د . علي جريشة .



والأم «أصبح دورها ضعيفاً في توجيه الأبناء بسبب الجهل ، أو غلبة المفاهيم الغربية على كثير من المتعلمين والمتعلمات من أبناء أمتنا . وكانت محاولات المرأة للخروج (كما ذكرنا) من منزلها للعمل من أهم أسباب إهمال الأطفال ، أو تسليمهم لأيدي الخادmates ، وربما كن غير مسلمات . لقد بدأت الصيحات تتعالى لتقليد المرأة الغربية ، مما نجم عنه خطر داهم في تفكك روابط الأسرة المسلمة . . .»<sup>(١)</sup> .

ولا عجب بعد ذلك إذا سمعنا عن جرائم اجتماعية في العالم الإسلامي تضاهي التي في أوربا وأمريكا من قتل واختطاف واغتصاب وتشرد ، ولا عجب أن تنتشر الأمراض الاجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة ، وليس ما نشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء إلا صورة من ذلك . . . وأن تنتشر ظاهرة تعاطي المخدرات بين الشباب خاصة ، مما ترتب على ذلك كثرة جرائم القتل والسرقة والتفريب<sup>(٢)</sup> .

وقد بلغ الفساد والانحلال بكثير من البلاد الإسلامية أنك لم تعد تستطيع أن تفرق بينها وبين البلاد الغربية وما تعجب به من مظاهر الفساد والتحلل ، حيث تغطي هذه المظاهر على جميع ميادين الحياة في الشوارع والأسواق والأعمال والمستشفيات والمتزهات والمؤسسات التعليمية من معاهد ومدارس وجامعات ، وانعدم الأمن بسبب ذلك ، وفقدت الثقة والاحترام ، وانتهكت الأعراض بل استحلت في حقيقة الأمر ، ولم يعد الصالحون يأمنون على أعراضهم وأنفسهم وسط تلك المجتمعات المتحللة من الفضيلة والأخلاق .

---

(١) المرأة بين الجاهلية والإسلام ص ٣٢٥ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٢٤ د . جميل المصري .

ومن المتناقضات الاجتماعية الصارخة التي أضحت من سمات المجتمعات الإسلامية المعاصرة التفاوت المادي الشديد بين فئات المسلمين ،  
فبينما ترى في البلد الواحد عدداً كبيراً من الأثرياء وأصحاب الأرقام الفلكية من الأموال ، تجد ألوفاً بل ملايين من الأدميين الذين أهدرت آدميتهم بسبب الحالة المدقعة التي تدنوا إليها ، حيث تصل هذه الحالة في بعض البلدان إلى دون مستوى الحيوان<sup>(١)</sup> .

يقول الدكتور «نبيل صبحي الطويل» متحدثاً عن ذلك التفاوت العجيب بين مجتمعات المسلمين : «لقد زرت وعشت أياماً وأشهرًا في كثير من الحواضر الكبرى في ديار المسلمين؛ «لاغوس» في نيجيريا و«دكا» في بنغلاديش ، ورأيت فيها جميعاً التناقض المخيف بين من يملكون الملايين ومن لا يملكون شروى نقيير ، بين البيوت الفخمة والشوارع العريضة وبين الأكواخ الخشبية والطرق الضيقة ، بين الحدائق الغناء في الأحياء السكنية الراقية وبين

---

(١) في خطاب للإمام حسن البنا رحمه الله تعالى ألقاه في المؤتمر السادس للإخوان المسلمين في القاهرة عام ١٩٤١م ، تحدث فيه رحمه الله عن فساد النظام الاجتماعي في مصر ، فكان مما ذكره : أن أربعة ملايين من المصريين لا يحصل أحدهم على ثمانين قرشاً في الشهر إلا بشق النفس ، فإذا فرضنا أن له زوجة وثلاثة أولاد وهو متوسط ما يكون عليه الحال في الريف المصري بل في الأسر المصرية عامة . . كان متوسط ما خص الفرد في العام جنيهن ، وهو أقل بكثير مما يعيش به الحمار ، فإن الحمار يتكلف على صاحبه (١٤٠) قرشاً خمسم فدان برسيم ، و ٣٠ قرشاً حملاً ونصف الحمل من التبن ، و ١٥٠ قرشاً أردب فول ، و ٢٠ قرشاً أربعة قراريط عفش ذرة ، ومجموعها ٣٤٠ قرشاً ، وهو ضعف ما يعيش به الفرد من هؤلاء الأدميين في مصر . وبذلك يكون أربعة ملايين مصري يعيشون أقل من عيشة الحيوان .

الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ ٣٧٩/٢ محمود عبد الحليم . دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع . الإسكندرية . ط ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

أكوام القمامة والأوساخ وتجمعات المياه الراكدة والحفر والحشرات والفئران على حواشي الخواضر الكبرى هذه وفي أحيائها القديمة، بين نظافة الثياب الأنيقة للفتية في الأماكن الموسرة والأجسام الممتلئة بل وربما المترهلة شحماً ودهناً من التخممة . . . وبين الأسماك والخرق البالية على الأجساد الضعيفة الهزيلة المريضة الجائعة، بين الفنادق الفخمة ذات النجوم الخمسة، وكثير منها للأجانب، وبين المقعدين المعوقين من الشحاذين الفقراء صغاراً وكباراً على أبواب هذه الأبنية الرائعة. يحدث كل هذا في ديار المسلمين<sup>(١)</sup>.

وما ذكره الدكتور «الطويل» يكاد يتكرر في كل بلد إسلامي حيث تبرز الطبقة الكريهة واضحة بلا خفاء، وأصبح التعامل والعلاقات على ضوء هذه الطبقة التي تزيد الفجوة أصلاً بين أفراد المجتمع اتساعاً، وهل كان يحدث مثل هذا التمييز الواضح لو أن المسلمين كانوا متمسكين بدينهم، وأخرج الأثرياء منهم زكاة أموالهم؟ في الواقع لم يحدث مثل ذلك على الإطلاق، وظلت الأحوال تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وتتفاقم هذه الطبقة وتستشري مع مرور الزمن.

لقد كان خروج الأخلاق من دائرة العبادة الواسعة في الإسلام سبباً في سهولة تحطيمها وإضعافها، «وحين يخرج الصدق من دائرة العبادة لم يعد الصدق في حس الناس لازماً . . . وإنما أصبح شيئاً جميلاً إن وجد، فإن لم يوجد فلا بأس!

وحين خرجت الأمانة من دائرة العبادة لم تعد لازمة في التعامل! إنما هي

---

(١) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين ص ٤٣ نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٨ د. جميل المصري.

جميلة إن وجدت في شخص بعينه ، فإن لم توجد فلا بأس!

وحين خرج الوفاء بالوعد من دائرة العبادة لم يعد لازماً! إنما هو موعظة جميلة يلقي بها الخطيب في خطبة الجمعة ، فإن لم يمارسه أحد فلا بأس!«<sup>(١)</sup>.

وهكذا خرجت العفة والحشمة والإيثار والتوقير وغيرها من الأخلاق من دائرة العبادة ، «وهكذا صار عند الناس إسلام بلا أخلاق . . إسلام لم ينزله الله تعالى ولم يأمر به ، إنما أمر بضده تماماً . . . ويجيء الفكر الإرجائي فيواكب هذا التخلف العقدي المهلك ، ويتسع تدريجياً مع كل تخلف جديد على أساس قاعدته «العظمى» أنه لا يضر مع الإيمان شيء ، وأن الإيمان هو التصديق ، أو هو الإقرار والتصديق ، وأن العمل خارج من مسمى الإيمان . . .»<sup>(٢)</sup>.

لقد رأينا في البابين الأول والثاني عظم الانحرافات العقدية والعلمية ، فالكل لم ينج من لوثات هذه الانحرافات ، وأنى لمجتمعات تضافرت على الشرك والبدع والخرافات ، وملاحقة المجاذيب ، والتعلق بالخوارق والكرامات ، والركون إلى عالم الغيب كما يفهمونه هم ، والإعراض أو الاستهانة بعالم المحسوسات ، والرضوخ والرضا بسيادة المتصوفة والممخرقة ، والخنوع للواقع المرير المؤلم المليء بكافة صور الفقر والحرمان والمرض والجهل والتخلف ، والجري وراء إقامة الموالد وتقديم القرابين والذبائح والهدايا والنذور إلى سدنة الأضرحة والمشاهد ، وتكاتفهم أحزاباً

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧١ .

لنصرة مذاهبهم وطرقهم ، وتفرقهم بسبب ذلك - أقول بعد ذلك : أنى لمثل هذه المجتمعات أن ترعى الأخلاق أو أن تظل محافظة عليها ، ساهرة على حمايتها ضد كل سهم يصوب إليها .

لقد كانت هذه المجتمعات التي وصفنا بعض حالها في غفلة تامة عما أريد بها من شر وفساد بسبب انشغالها بما ذكرنا من انحراف وباطل ، حتى إذا بدأت دعوات التغريب والعلمنة في تصويب سهامها القاتلة ضدها وجدت الحدود خالية من حراسها الذين كانوا غارقين في حماة الوجد والتصوف ؛ مما عجل بنهاية المعركة وارتفاع رايات العلمنة والتغريب فوق تلك المجتمعات ، التي لم تفق من وجدها وهياماتها وانحرافاتهما إلا على أنظمة العلمانيين ومؤسساتهم تفرع رؤوسهم وتحكمهم وتسير بهم إلى هاوية التفرنج والانسلاخ من الدين .

قضية أخيرة لا بد من الإشارة إليها بعد أن حاولنا أن نكشف الغطاء عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي الذي أصاب الأمة الإسلامية في الفترة الأخيرة ؛ ذلك هو غياب فريضة إسلامية عظيمة كان من الممكن لو أنها مورست ولو على نطاق ضيق أن تخفف بعض الشيء من حدة ذلك الضعف .

هذه الفريضة هي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تلك الفريضة التي كانت شبه غائبة عن حياة الأمة ، ولم يكن أسوأ من هذه القضية سوى تقاعس العلماء وطلبة العلم عن القيام بواجبهم الذي يتركز أساساً في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأين كان العلماء من هذه الفريضة العظيمة وقت توالي الفساد وتتابع الشرور والفتن على الأمة ؟ ماذا كان

موقف العلماء من التعالين بالمنكرات والجهربها؁ ومن تفشي الرذائل وألوان الإباحية والتحلل؁ ومن طمس الفضائل ومحاربتها ؟

لقد كان موقف العلماء الذي كان مفترضاً عليهم أن يحموا الأمة من عادات الشرور؁ ومضلات الفتن؁ ضعيفاً لا يكاد يذكر . وكيف يمكن لعلماء حشيت عقولهم وأذهانهم بمصطلحات علم الكلام العقيم؁ وأوغرت صدورهم بتعصب مذهبي مقيت وتقليد أعمى؁ وهامت أرواحهم في خيالات التصوف - أن يتصدوا لذلك الزحف العنيف والهجوم المتواصل من قبل شرازم العلمانيين على الدين والأخلاق ؟!

إن غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتشار الفساد في المجتمعات وإلى الجرأة على اقتراف المنكرات؁ وإلى صعوبة الإصلاح والتغيير<sup>(١)</sup>؁ وهو ما حدث بالفعل في العالم الإسلامي .



---

(١) مجتمعنا المعاصر؁ أسباب ضعفه ووسائل علاجه ص ١٨٥ د . عبد الله سليمان المشوخي .  
مكتبة المنار . الأردن . الزرقاء . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

## الفصل الثاني

### الآثار الخارجية

ويتكون من ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الاستعمار .

المبحث الثاني : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم.

المبحث الثالث : النشاط التصيري.





## المبحث الأول

### الاستعمار<sup>(١)</sup>

لم ينقطع الصراع بين الإسلام وخصومه يوماً من الأيام ، وما إن صدع النبي ﷺ بدعوته بين ظهрани المشركين في مكة ، حتى توالى سلسلة العداوات والمؤامرات والتربصات بهذا الدين الجديد ، وما فتئ المشركون ومن ورائهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى منذ أول وهلة بلغتهم دعوة الإسلام في الكيد والمكر والعمل الدؤوب على محاولة إطفاء نور الله ، وإزالة الفتنة المؤمنة من الأرض ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] .

ولكن المسلمين في الصدر الأول استطاعوا التغلب على تلك المؤامرات والهجمات بسبب تمسكهم بدينهم وحيطتهم وصبرهم خلال ذلك الصراع المرير ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

ولم ينقطع كيد الأعداء وتخطيطهم للقضاء على الإسلام والمسلمين في

---

(١) هذه اللفظة وما توجیه من معنی مجانية للصواب في حقيقة الأمر ؛ إذ جاء في القرآن ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ، بمعنى طلب منكم عمارة الأرض . وهكذا ادعى هؤلاء الغزاة الصليبيون حين وطئوا البلاد الإسلامية أنهم جاءوا لتعمير البلاد وتطويرها ؛ إذن فلفظة الاستعمار خاطئة بهذا المعنى ، ولكننا أثّرنا استخدامها لشهرتها في هذا الميدان . أو باعتبارها من ألفاظ الأضداد كتسمية العرب الصحراء المهلكة بالمفازة واللديغ بالسليم وغير ذلك .

يوم من الأيام ، فليس استمرار ذلك الكيد هو العلة الحقيقية في انهزام المسلمين ووقوعهم تحت أقدام الغزاة المحتلين ، ولكن العلة الأولى هي مدى اتقاء المسلمين وصبرهم خلال مبارزة ذلك الكيد ومقاومته ، فبمقدار تقوى الأمة وتمسكها بدينها وصبرها تكون مغالبة لما يدبره أعداؤها من كيد وحرب ؛ فحين فرطت الأمة في ذلك التوجيه الرباني ﴿وَأِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ، وغيره من التوجيهات والأوامر الأخرى التي تدرج ضمن هذا التوجيه الشامل العظيم ؛ أصابها ما أصابها من وقوعها فريسة سهلة ولقمة سائغة لجحافل المستعمرين وجيوشهم .

لقد رأينا في البابين الأول والثاني ما آلت إليه الأحوال العقدية والعلمية عند المسلمين من سوء وانحراف ، وكيف أن المسلمين شغلوا بهذه الانحرافات عن الالتفات للخطر الصليبي الداهم .

وفي القرون المتأخرة وخصوصاً القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ازدادت فجوة هذه الانحرافات كما رأينا ، حيث عم الشرك وضرب بأطنابه في أرجاء العالم الإسلامي وفشت البدع والخرافات ، وساد التواكل والاستسلام القتال لما يحدث في الواقع من ضعف وتخلف ، وانتشرت الطرق الصوفية التي لم تدع قطراً إلا دخلته ، ولا فجاً إلا سلكته ، وانشغل العلماء بمسائل لا فائدة منها ، وحرصوا على سد باب الاجتهاد وإذكاء جذوة التعصب المذهبي ، وانطوى المسلمون على أنفسهم ، وأوصدوا الأبواب دونهم ، فلم يكونوا واعين بحركة العالم من حولهم ، ولم يستيقظوا من سباتهم العميق إلا على أصوات أقدام العدو يغزوهم في عقر دارهم .

لقد كان القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان هما العصر الذهبي

للتقدم الأوربي ؛ حيث انطلقت أوروبا تعد القوة لتتقضى على العالم الإسلامي الذي كان يعيش في حالة يرثى لها من الضعف والشتات والتخلف .

وقد بدأت محاولات الغزو الصليبي الحديث في الحقيقة منذ بدايات القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بعد طرد الإسلام من الأندلس ، فحين سقطت آخر دويلة إسلامية في الأندلس - وهي دويلة غرناطة - عام ١٤٩٢م بعد معارك وحشية طويلة ، بارك البابا الانتصار الصليبي ، وشجع الصليبيين على متابعة المسلمين لطردهم من بقية بلاد الإسلام <sup>(١)</sup> .

ويمكن أن يقال إن بداية الاستعمار الحديث بدأ بقيام هولندا تلك الدولة الأوربية الصغيرة باحتلال جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) في بداية القرن السابع عشر عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسست في سنة ١٦٠٢م <sup>(٢)</sup> ، ثم بدأ التسلل الإنجليزي إلى الهند في نفس الفترة حينما منحت ملكة بريطانيا «اليزابيث الأولى» شركة الهند الشرقية امتيازاً عام ١٦٠٩هـ - ١٦٠٠م للتجارة الإنجليزية في الهند والأقطار المجاورة ، ثم لم يلبث ذلك التسلل حتى صار احتلالاً على كامل تراب الهند .

ثم قاد «نابليون بنابرت» الحملة الصليبية الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م ، ولكنها فشلت بعد ثلاث سنوات من مقاومة المسلمين في مصر ، وضغوط العثمانيين والإنجليز من الخارج .

«في بداية منتصف القرن التاسع عشر - وعلى التحديد في سنة ١٨٥٧م -

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٨٦ .

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٩ الدكتور محمد البهي . دار المعارف . مصر . الطبعة العاشرة ١٩٨٩م .

تم للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسياً ، وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهند الشرقية (التي تأسست في ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠م ، والتي انضمت إلى شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩م) إلى التاج البريطاني . وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي ، وهي دولة المغول في الهند . . .

كما تم في السنة نفسها - وهي سنة ١٨٥٧م - استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء ، بعد أن ابتداءوا غزوها سنة ١٨٣٠م<sup>(١)</sup> .

ثم استولت فرنسا على تونس بعد أن فرضت حمايتها عليها ، ثم أخضعت المغرب الأقصى ، بعد أن تركت الريف المغربي لأسبانيا ، واتجهت إلى الشرق لتحتل سوريا ولبنان .

أمام إنجلترا فبعد أن ثبتت أقدامها في الهند قامت باحتلال مصر وقناة السويس عام ١٨٨٢م ، وقبل ذلك احتلت قبرص ، ثم عادت فقامت باحتلال كل من العراق وفلسطين والأردن .

ولم تدع إيطاليا الفرصة تفوتها ، فأقدمت على احتلال ليبيا .

وتغلغت روسيا في القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز ، «وقد بدأ الهجوم الروسي على المناطق القديمة المتحضرة في منطقة الفولغا سنة ١٥٥٢م ، وبعد أن استولى الروس حرباً على مدينة قازان عاصمة خانات التتر التي كانت مركزاً لحضارة إسلامية عريقة زاهرة ، ودمروها وقلبوا عاليها سافلها ، وقضوا على الدولة التتيرية ، وهكذا فقد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩ .

جاء دور مسلمي روسيا الشرقية لكي يعيشوا أربعة قرون تحت سيطرة الكفار»<sup>(١)</sup>.

وهكذا سقطت معظم الأقطار الإسلامية تحت براثن الاستعمار الصليبي، ولم يبق سوى أجزاء لا تكاد تذكر مقارنة بما سقط من تلك الأقطار.

إن وقوع العالم الإسلامي تحت وطأة الاستعمار كان أمراً متوقعاً بل ومؤكداً لمن طالع أحوال المسلمين في تلك الفترة، فإن الغرب الصليبي ما طفق يتقوى حتى بادر بالانقضاض على عدوه الأبدى - العالم الإسلامي - الذي كان في غفلة عما يدبر له في الخفاء.

وإن تلك الفترة المظلمة من تاريخ أمتنا التي غشيت على الحياة الإسلامية قبل مجيء الاستعمار؛ كانت فترة مهياة للخضوع لذلك الزحف الاستعماري العنيف بسبب ما أسلفنا الحديث عنه من انحرافات سيئة.

لقد استطاعت جيوش المستعمرين وجحافلهم إلحاق هزائم مروعة بكل الجيوش الإسلامية التي اصطدمت بها، وتكبيدها خسائر فادحة في الأموال والأرواح. وعلى الرغم من بسالة المقاومة وضراوة المعركة التي خاضتها الجماهير المسلمة وقياداتها في كل قطر ووطئه المستعمرون بأقدامهم، إلا أنه قد قضى عليها في كثير من الأحيان.

لقد فوجئ العالم الإسلامي حقاً بجحافل المستعمرين تطرق أبوابه، وتحتاح دياره حين كان غارقاً في تلك الانحرافات التي فصلنا القول عنها في

---

(١) المسلمون في الاتحاد السوفيتي ص ٢٧ «شانتال كلكجي» و«الكسندر بينفسن». تعريب الدكتور إحسان حقي. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

البابين الأول والثاني ، ولم يستيقظ من سباته العميق حتى بعد أن كشر الاستعمار الصليبي عن أنيابه وبدأ في تقطيع أجزائه وبلاده بكل وحشية وبطش ، وظل لا يثأ في غفوته تلك حتى أحكم الاستعمار قبضته عليه فحاول الإفلات والتخلص ولكن أنى له ذلك . وهذه قضية لا بد من معرفتها حتى يتم لنا وضع الأمور في نصابها ، والحكم عليها من منظور صحيح .

إن الأجيال المسلمة مطالبة بمعرفة حقيقة الصراع مع الغرب وجوانبه المتعددة ، مطالبة أولاً بمعرفة أسبابه ودوافعه ، ومطالبة ثانياً بمعرفة تاريخه الطويل ، ومطالبة ثالثاً بإدراك نتائجه وآثاره ، ومطالبة رابعاً بتقييم موقف الأمة ودراسة أحوالها خلال ذلك الصراع ، ومطالبة أخيراً باتخاذ الأسباب والعمل على دفع ذلك الصراع في صالح الأمة .

وما يهمنا في هذا المقام هو القضية الرابعة التي تحدد موقف الأمة وتقييم أحوالها أثناء هذا الصراع ، والتي تبين أن الأمة في تلك الفترة التي ندرسها لم تكن مستعدة لأن تخوض حرباً مع الغرب المستعد المتربص ، وأنها كانت في أخرج أوقاتها وأضعف أحوالها بسبب ما وقعت فيه من انحرافات عقدية وعلمية . فإن هذه القضية لو كانت قد حظيت بشيء من الوعي والنظر لكان من الممكن أن تعيد الثقة إلى النفوس ، وأن تقي الأمة بعض ما أصيبت به من هزيمة نفسية نتيجة ذلك الصراع .

لقد كانت الهزيمة الروحية والنفسية أخطر ما أثمره الاستعمار في البلاد الإسلامية ، ولقد كانت هزيمة قاسية نزلت على القلوب والعقول فخلفت فيها أثراً عميقاً ما يزال عالقاً بها حتى وقتنا الحاضر ؛ إن الواقع السيئ المليء بالانحرافات العقدية والعلمية الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية هو الذي أنشأ في الحقيقة تلك الهزيمة الروحية العنيفة .

وما من شك أن الهزيمة الروحية كانت تابعة للهزيمة العسكرية والحربية وناشئة منها ، فبعد أن هزم المسلمون في المجال العسكري هزائم نكراء ، ورأوا بأعينهم التفوق الكبير في السلاح والعتاد والتنظيم بما لا قبل لهم به ، دبت فيهم بؤادر الهزيمة الروحية التي كانت تزداد مع كل هزيمة عسكرية . فمع كل هزيمة كانت تقع في الميدان كانت هناك هزيمة أشد وأنكى تقع على العقول والنفوس تتلاشى أمامها هزائم الميدان .

ولم يكن بالضرورة وقوع مثل تلك الهزيمة الروحية والنفسية نتيجة للهزيمة العسكرية والحربية ، لو لم تكن تلك الانحرافات غاشية على حياة الأمة ومؤثرة فيها .

يقول الشيخ «أبو الأعلى المودودي» رحمه الله تعالى : «في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت الممالك الإسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي ، وبينما المسلمون في هجود الكرى ، لم يستيقظوا بعد كل اليقظة<sup>(١)</sup> ، جعل هذا السيل يمتد من قطر إلى قطر ، حتى شرق العالم الإسلامي وغرب ، وما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الأمم المسلمة عبيداً للغرب الأوربي وخولاً له ، والتي لم تدخل منها في عبوديته ، لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورهبة بأسه ونجدته .

ولما بلغ هذا الانقلاب تمامه ، بدأت في المسلمين آثار اليقظة والحركة ، فلما فتحوا أعينهم على الحال التي قد صاروا إليها ، فشلت ريحهم وزال عنهم بغتة ذلك الفخار القومي الذي طالما تأصل فيهم ببقائهم في عز الغلبة ومجد السيادة من قرون متوالية . فعادوا يفكرون في أنفسهم كالسكران

---

(١) حيث كانت أحوالهم كما ذكرنا من الانحراف والتخلف .

يصحبه توالي الضربات من عدو شديد ، ويبحثون عن الأسباب التي هبطت بهم وغلبت الإفرنج عليهم ، غير أن عقولهم لم تكن ثابت بعد إلى رشدها ، إذ كان السكر لاريب قد ذهب عنهم ولكن ميزان الفكر كان بعد مختلاً فيهم ، فبجانب كان يلح بهم شعور بالذلة والهوان ويؤزهم أزاً على تبديل ما هم فيه من الحالة ، وبجانب يغلبهم من حب الراحة وإيثار الدعة والارتخاء ما يحملهم على توخي أقرب الطرق وأسهلها لتبديل تلك الحالة ، وقد خارت فيهم من جهة ثالثة قوى الفكر والعقل وصدئت ملكات الفهم والذكاء ، بطول تعطلها عن العمل ، زد على ذلك كله ما أخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة التي تعتري بالطبع كل أمة منهزمة مستعبدة .

وتفاعلت هذه الأسباب في محبي الإصلاح من المسلمين وأوقعتهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية ، فأكثرهم ماكادوا يفتنون للأسباب الحقيقية في ارتقاء أوربة وانحطاطهم .

وأما الذين فهموها منهم وأدركوها ، فأعوزهم من بعد الهمة والعزيمة والروح المجاهدة ما يتشجعون به على اختيار الطرق الوعرة للرقى والتقدم ، وكان من وراء ذلك كله الروعة والدهشة التي تشترك فيها كلتا الطائفتين على السواء ، فلما مضوا بهذه العقلية المريضة الزائفة يريدون الإصلاح لم يروا أضمن للرقى ولا أدنى للوصول إليه من أن يحاكوا في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية ، فيعودوا كالمرأة الصافية يرى فيها خيال الروضة والأزهار والرياحين ، وليس فيها من حقيقة هذه المناظر شيء<sup>(١)</sup> .

---

(١) الحجاب ص ٣٨ أبو الأعلى المودودي . دار الفكر . بيروت .



«إن الهزيمة النفسية شعور بالهوان والضعف والعجز عن مجاراة الأعداء بله التفوق عليهم . إن الهزيمة النفسية في أدق صورها وأجلى معانيها ذوبان في الشخصية ، وتحلل من التبعات ، ورخاوة في تناول شئون الحياة ، وإخلاق إلى الدعة والسكون في ذلة وخور ، وإقبال على المتاع الغليظ يعب منه المهزوم فلا يكاد يفيق . إنها ذل يعيش في سويداء القلب ، ورضا بالدونية يجعل صاحبه لا يرفع رأسه ولا يفتح عينيه .

إنها واقع مريض أسود يصم صاحبه بكل قبيح من الصفات ، التي يكفي منها أن يستبدل العبودية بالحرية ، وأن يتحول إلى ظل لهازمه الذي ملأ عليه كل فراغ وسد عليه كل منفذ ؛ فلا يستنشق إلا الهواء الذي يستنشقه هازمه الذي يسير في ركابه ويسيطر على عقله وقلبه وكيانه كله ، ولا يسلك إلا الطريق الذي يسلكه ، ولا يرى إلا ما يراه ، ولا يسمع إلا ما يسمعه . إن الهزيمة النفسية بعبارة أخرى تحول إلى «نسخة كربونية» - إن صح التعبير - عن ذلك السيد الهازم المطاع»<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن الهزيمة النفسية تمر بعدة مراحل وأطوار :

الأولى : هي الشعور بالضعف والذلة والهوان .

والثانية : هي الانبهار والإعجاب والتعلق .

والثالثة : هي التقليد والمتابعة والمحاكاة .

وهذه المراحل الثلاثة تنشأ عنها شخصية ضعيفة مهزوزة ، تتمرد على كل قديم ، وتهزأ بالتراث وتنقص بلادها وقومها . وقد وقع كل ذلك في حياة المسلمين تقريباً ؛ فقد ساد الشعور بالضعف والذلة والهوان بعد

---

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٣١ .

الاحتكاك العسكري وغلبة العدو لهم ، ثم أعقب ذلك شعور بالانبهار والإعجاب بعد أن خفت وطأة الهزيمة في نفوسهم وبارحت آثارها جوانحهم ، ثم جاء دور التقليد والمتابعة والمحاكاة ، ووقع ما أخبر به المصطفى ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، قلنا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟» (١) .

هذه عقدة «الرجل الأبيض» كما سميت ، وإنه لتصوير نبوي عجيب من المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى . فماذا يكون ياترى في جحر الضب حتى ينساق فيه المنهزمون؟! ولكن الضباب من المنهزمين لا ينظرون في الجحر وعدم فائدته فضلاً عن خطورته!! فليس ذلك هو المهم ، ولا يعنيه في شيء البتة ، إنما المهم عندهم متابعة الأسياد وتقليدهم أينما كانوا ، ومهما فعلوا ، الأمر الذي يعنى به هؤلاء الضباب من المنهزمين هو ملاحقة هازمهم ومحاولة تقليدهم في كل شكل ورسم وعدم تفويت أية حركة أو سكة لهم ، حتى ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه على إثرهم!!

ويرى أحد هؤلاء الضباب ممن كان له منصب وجاه وصيت في دنيا الهزيمة النفسية أن سبيل النهضة (واضحة بيئة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء) ، وهي : «أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها

---

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، برقم ٣٤٥٦ (الفتح ٤٩٥/٦) . ورواه مسلم بنحوه برقم ٢٦٦٩ كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٢٠٥٤/٤ .

ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب»<sup>(١)</sup> .

ولا أدري كيف يمكن لعاقِل يخاطب العقلاء أن يقول إنه يجب علينا أن نأخذ الخير والشر ، والحلو والمر ، فضلاً عن أن ينصب عميداً للأدب العربي . ولكنها الهزيمة النفسية التي تسيطر على كاتب هذه الكلمات التي تتجافى مع العقل الصريح والفطرة السليمة .

وإذا كان «الخدوي إسماعيل» حاكم مصر ، وهو يمثل قمة الهزيمة النفسية في عالم السياسة ودنيا الحكام ، كانت أمنيته وما دأب عليه طوال سني حكمه هو أن يجعل مصر قطعة من أوروبا - فإن عميد الأدب العربي بعد ذلك بحين يرى أن ما قاله الخديوي هو عين الحقيقة أصلاً وليس غير ذلك فيقول : «ولا ينبغي أن يفهم المصري أن الكلمة التي قالها إسماعيل وجعل بها مصر جزءاً من أوروبا قد كانت فناً من فنون التمدح ، أو لوناً من ألوان المفاخرة ، وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا ، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها»<sup>(٢)</sup> .

ولا يستحيي بعد ذلك أن يتفوه بمثل هذا الكذب العاري في أن مصر كانت دوماً جزءاً من أوروبا في ثقافتها وعقليتها على اختلاف فروعها . إن كان يقصد بذلك تاريخ مصر قبل الإسلام فلعل الخطب يهون ، ولا يفهم ذلك

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٢٢٩ . ويقول د. محمد حسين معلقاً : وهو شبيه بقول : «أغا أوغلي أحمد» أحد غلاة الكماليين من الترك في أحد كتبه : «إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين ، حتى الالتهابات التي في رئيهم والنجاسات التي في أمعائهم» . نقلاً عن موقف العقل والعلم والعالم لمصطفى صبري ج ١ هامش ص ٣٦٩ .  
نعوذ بالله من الكفر والزيغ والضلال .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٣٣ .

القصـد من قوله : كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا . وإن أراد بذلك تاريخ مصر الإسلامي وهو ما يتفق مع قوله : دائماً ، فإنه ليلغي بذلك فترة بلغت حوالي اثني عشر قرناً على الأقل كانت مصر خلالها لا تزال بهويتها الإسلامية ، وثقافتها الإسلامية ، وعقليتها الإسلامية ، والأزهر خير شاهد ودليل<sup>(١)</sup> .

وهل يلام عميد الأدب العربي على المجازفة بكذب كهذا بعدما نادى بأخذ شر أوربا ومرها وعيوبها؟ أليس من شرور أوربا وعيوبها عموماً وكتابها خصوصاً ممن تتلمذ عليهم العميد وأشرب قلبه بمحبتهم - عدم الموضوعية في الرأي والبحث ، واستخدام الكذب والافتراء تمشياً مع المنطق الأوربي الشهير «الغاية تبرر الوسيلة» ؟

ومصيبتنا في هؤلاء الضُّباب المنهزمين - وما أكثرهم - أنهم لم يأخذوا من أوربا إلا أسوأ ما فيها ، وأنهم لم يفتشوا ويبحثوا وينادوا إلا على شرورها وآثامها وعيوبها . ولا نستطيع في هذه العجالة أن نأتي على جوانب هذه الهزيمة النفسية المريعة التي أصابت المسلمين بعد حلول الاستعمار ولا أن نزيد في إيراد الأمثلة عليها .

ومع ذلك فيمكن اعتبار حاضر الأمة وواقعها السيئ وما دار في تاريخها الأخير من دعوات للتغريب والعلمنة داخلاً في دائرة تلك الهزيمة وصدى من أصدائها ، ونرى أن نختم الحديث حول تلك القضية الخطيرة

---

(١) لا نعني بذلك أنها إسلامية مائة بالمائة ، لأن انحرافات كثيرة كما عرفنا شابت حياة جميع الأقطار ، وليس مصر وحدها ، ولكنها إسلامية على أية حال . المهم أنها لم تكن كما أراد طه حسين من صبغها باللون الأوربي واتهامها بذلك ، بل لقد عادت ذلك ووقفت منه موثقاً يشرفها ويدحض هذه الدعاوى العارية من أي دليل .

بكلام للشيخ «أبي الأعلى المودودي» رحمه الله تحت عنوان «العبودية الفكرية» حيث يقول :

« وهذه هي الفترة البحرانية؟ التي غدت الأمم المسلمة فيها تحاكي أمم الغرب في الزي واللباس ، وتشبه بها في مظاهر الاجتماع وفي آداب المجالس وأطوار الحياة ، حتى في الحركة والمشى والتكلم والنطق ، وحاولوا تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية ، وقبلوا الإلحاد والدهرية والمادية في نشوة التجدد ، بدون حيلة أو شعور بالعواقب .

وعدوا من لوازم التنور الفكري إيمان العرب بكل ما بلغه من قبل الغرب من فكرة ناضجة أو فجأة والإفاضة فيه في مجالسه ، ورحبوا بالخمر والقمار واليانصيب وسباق الخيل<sup>(١)</sup> ، وما إلى ذلك من ثمرات الحضارة الغربية ، ثم سلموا بجميع معتقدات الغرب وأعماله في الأخلاق والآداب والاجتماع والمعاش والسياسة والقانون حتى في العقائد الإيمانية والعبادات ، سلموا بكل ذلك من غير فهم وشعور أو نقد وتجريح كأنه تنزيل من حكيم حميد ، ليس لهم قبله إلا أن يقولوا : آمنا .

وأصبح المسلمون بأنفسهم يستحيون من كل ما نظر اليه أعداء الإسلام القدماء بعين التحقير أو التعيير ، من وقائع التاريخ الإسلامي ، وأحكام الشرع الإلهي وآثار الكتاب والسنة ، وطفقوا يحاولون أن يحوها تلك السيئة عن أنفسهم . . . اعترض أهل الغرب على ما عندهم من الجهاد ، فقال هؤلاء : ما لنا وللجهاد يا سادة : إنا نعوذ بالله من هذه الهمجية<sup>(٢)</sup> .

---

(١) لعله يقصد سباق الخيل عن طريق المقامرة .

(٢) وقال جمع منهم الجهاد دفاع فقط .

واعترضوا على الرق ، فقال هؤلاء : إنما هو حرام عندنا أصلاً . وأطالوا لسان القدح في تعدد الزوجات ، فجاء هؤلاء ينسخون آيات القرآن ويحرفون الكلم عن مواضعه .

ثم قال أولئك : لا بد من مساواة الرجل والمرأة في جميع نواحي الحياة ، فوافقهم هؤلاء بقولهم : هذا هو الذي يعلمه ديننا أيضاً . وطعن القوم في قوانين الزواج والطلاق في الإسلام ، فقامت طائفة من المسلمين تعالجها بالإصلاح والتعديل . ولما عابوا الإسلام بأنه عدو للفنون الجميلة ، استدرك هؤلاء قائلين : لا بل ما زال الإسلام ، مذ كان ، يُشرف على الرقص والموسيقى والتصوير ونحت التماثيل<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن هذه الهزيمة النفسية قد جنت الأمة ثمارها المرة في كافة الميادين والمجالات ، سواء منها العلمية والثقافية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية والأخلاقية أو العسكرية والحربية ، فقلما وجد مجال من هذه المجالات في أي مكان إلا وأعاصير هذه الهزيمة تهب عليه فتجعله حصيداً خامداً .

لقد قتلت هذه الهزيمة روح الاستقلال والحرية والإباء والأنفة والشجاعة والمروءة وكل خصال الخير ، لقد أدت الإبداع والابتكار والتقدم ، حين دبّت في النفوس ، ورائت على القلوب ، وغشيت على الأذهان .

لقد رحل الاستعمار<sup>(٢)</sup> عن بلاد المسلمين ، ولكن تلك الهزيمة النفسية أبت الرحيل ، وآثرت البقاء بعد أن تمكنت منها ، فليس رحيل الاستعمار هو

---

(١) الحجاب ص ٣٩ .

(٢) رحل ظاهرياً كما سنيين ذلك إن شاء الله .

الذي يزيلها ويمحو آثارها. وإن كان هذا فرصة للعمل على إزالتها، إنما كان الجدير بإزالتها والقضاء عليها هو القضاء على الانحرافات العقدية والعلمية وهو أمر لم يحدث آنذاك، فكان بقاؤها هو المتوقع.

وفي ظل حكم الاستعمار ذاق المسلمون النكبات، وجنوا الويلات، واكتووا فيه بناره وعانوا من آثاره، فألى جانب تلك الهمجية والوحشية التي طبع عليها هؤلاء المستعمرون في معاملة المسلمين والتي لم تخل بلدة من جرائمهم ومذابحهم واعتداءاتهم، وفي كل شبر وطئت أقدام المستعمرين جرح لا زال يثخن بالدم، شاهد على إجرامهم ووحشيتهم - إلى جانب ذلك كله هناك الآثار الفادحة، والبصمات الواضحة لهذا الاستعمار، في السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها.

ولعل أفدح هذه الآثار على الإطلاق هو تنحية الشريعة الإسلامية التي دأب المستعمرون على إزاحتها وإلغاء العمل بها، وقد تم لهم ذلك، ولن أطيل حول هذه القضية الخطيرة، فسوف أتناولها بشيء من الإسهاب في المبحث القادم المعنون بـ «الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم».

«لقد أحكم أعداء الإسلام قبضتهم على المسلمين من خلال هذا النظام - أعني النظام السياسي - إثر تخطيط رهيب طويل لحلقات ذلك الإحكام التي من أهمها وفي مقدمتها عزلهم عن نظامهم السياسي الفريد<sup>(١)</sup>، وغزوهم بأنظمة الغرب والشرق السياسية وقوانين الشرق والغرب الوضعية ودساتيرهم، وإقناعهم بأن البديل خير من المستبدل، وأن الحديد خير من القديم، وأن نظامهم من ذلك القديم الذي أكل عليه الدهر وشرب فلا يصلح

---

(١) الذي يحكم الشريعة الإسلامية.

لتطبيق ولا تقوم به حياة . وهو إقناع لا قيمة له في الواقع ؛ إذ إن ركوب المسلمين لقطار نظم الغرب السياسية والاقتصادية وغيرها إنما تم بالإكراه والقوة والحديد والنار ، فيما اصطلح على تسميته بـ«الاستعمار» الذي ابتليت به أكثر أقطار المسلمين ، ففرض عليها نظمه وأفكاره ولغته ، بل وحاول فرض معتقداته أيضاً عن طريق «التنصير» الذي يسمونه اصطلاحاً «بالتبشير» <sup>(١)</sup> .

«وقد غلب الاحتلال الصليبي الأمة على نفسها ، فنحى شريعتها ، وأجملها بالحديد والنار والعسف والتسلط ، ولكنه - كما قلنا - لا يأمن أن يحدث رد الفعل ، وأن تحدث الثورة على هذا الأمر في يوم قريب أو بعيد . . . فلا بد من العمل الجاد للحيلولة دون وقوع رد الفعل المرهوب . . . وهنا تقدم عملاؤه لمعاونته في زحزحة الأمة عن عقيدتها في عالم السياسة ، كما عاونوه آخرون في مجال الفكر والأدب ، ومجال المرأة ، ومجال الأخلاق ، وكل مجال عمد فيه إلى محاربة الإسلام . . .» <sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فإنه لا يمكن أن نعفي المسلمين أبداً من مسؤوليتهم تجاه ما وقع من تنحية للشريعة بإلقاء اللائمة على الاستعمار وتحميلة المسؤولية في ذلك .

إن الأحوال العقدية والعلمية السيئة كانت هي السبب في تقبل المسلمين لما فرضه الاستعمار عليهم بالقوة من تنحية للشريعة الإسلامية ؛ فكيف يمكن لأناس ملأ الشرك حياتهم ، وشغلوا بالموالد والبدع والخرافات ، وتمكن الإرجاء من قلوبهم <sup>(٣)</sup> ، وألفوا الذل والخنوع في رحاب المتصوفة - أن يقاوموا عملاً مثل ذلك؟!!

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٩٥ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ٣٠٦ .

(٣) قد ذكرنا بعض كلام المرجئين عند حديثنا عن الإرجاء وهو كلام يهدم أركان الدين ويقوض دعائمه .



وقد ثار المسلمون في بعض البلاد كما حدث في الهند ، «فقد حدثت هزيمة المجاهدين المسلمين في الهند أمام الغزو الإنجليزي ، ولكن تنحية الشريعة الإسلامية هناك وإحلال القانون الإنجليزي محلها ، أثارت المجاهدين مرة أخرى - رغم هزيمتهم - فقاموا بثورات متعددة ما بين عام ١٨٢٦ م وعام ١٨٥٧ م ، كبدت الإنجليز خسائر كثيرة في الأرواح ، ولم تسمح لهم بالاستقرار حتى قضوا عليها بوحشية بالغة»<sup>(١)</sup> .

وعندما حاول «نابليون» تنحية الشريعة عندما قام بغزو مصر سنة ١٧٩٨ م ، لم يحالفه النجاح واندلعت الثورات تقاوم جيشه في كل مكان حتى اضطر إلى الانسحاب دون تحقيق شيء من ذلك ، ولكن الإنجليز حين جاءوا إلى مصر عام ١٨٨٢ م نحو الشريعة الإسلامية ، وحكموا بدلاً منها قانون «نابليون» دون ثورة من جانب الشعب . . ولقد يعجب الإنسان اليوم من تبدل الموقف تجاه الأمر الواحد ما بين عامي ١٧٩٨ م و ١٨٨٢ م ، ولكن عوامل عدة كانت تعمل في ساحة الأحداث وفي داخل النفوس .

فلاشك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس في عالم الواقع ، فسياسة «التغريب» التي اتبعها «محمد علي» ، وورثها من بعده أبنائوه ، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التي اتبعها «محمد علي»<sup>(٢)</sup> ، ثم سياسة «الفرنجة» التدريجية التي اتبعها أبنائوه وبخاصة الخديوي «إسماعيل» ، كان لها أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية ، وتضاؤل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن .

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٣٠٦ .

(٢) بالإضافة إلى ما ذكرناه من قبل من قيامه بإنشاء نظام تعليمي كامل على النمط الأوروبي .

ووجود المدارس التبشيرية التي نشطت في عهد أبناء «محمد علي» ،  
وكان يتعلم فيها مسلمون ومسلمات ، يتزايد عددهم على الدوام ،  
ويبرزون بالتدرج على ساحة المجتمع ، وينشرون التفرنج سواء في أزياء  
الملبس أو أزياء الفكر أو أزياء السلوك . . كان له أثره التدريجي في زحزحة  
المجتمع . . .

وربما كان العامل المباشر الذي حدد موقف الأمة الإسلامية في مصر من  
تنحية الشريعة الإسلامية هو فشل الثورة التي قام بها «عراي» في صد  
الإنجليز ، ودخول الإنجليز منتصرين واحتلالهم البلاد بعد القضاء على قوة  
الجيش المصري ، ولكن هذه - وحدها - لم تكن لتؤدي إلى سكوت الأمة عن  
هذا الأمر الخطير . . لولا الخواء الشامل الذي أصاب حياة الأمة من  
تخلفها العقدي<sup>(١)</sup> .

وفي عام ١٩٣٠م أجبرت فرنسا سلطان مراكش الشاب على أن يصدر  
ظهيراً (مرسوماً) عرف باسم «الظهير البربري»<sup>(٢)</sup> ينص على أن يكون للقبائل  
المراكشية التي هي من أصل بربري نظام قضائي خاص ، أو على الأصح نظام  
شرعي خاص ، فلا تسري عليهم قوانين الشرع الإسلامي ، بل قواعد العرف  
العشائري البربري<sup>(٣)</sup> .

«هذا وقد ظل المسلمون في تاريخهم كله يتحاضرون إلى شرع الله ، ولا

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٠٦ .

(٢) انظر ما ورد عن هذا الظهير في كلمة وكيل جمعية الشبان المسلمين الشيخ عبد الوهاب  
النجار في مجلة الفتح . العدد ٢٥١ بتاريخ ٣ محرم ١٣٥٠ هـ .

(٣) التبشير والاستعمار ص ١٥٨ . الاستعمار الفرنسي في مراكش (المغرب الأقصى) ص ٤٦ ،  
ص ٧١ محمد عبد العالي جلال . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

يحيّدون عنه اعتقاداً منهم بأن هذا هو مقتضى كونهم مسلمين ، ولم يفرض عليهم تشريع مخالف لشرع الله إلا مرتين : أولاًهما : في عهد التتار حين غلبوا على بلاد المسلمين ، ولكن المغلوبين لم يخضعوا لتشريعهم وما أرادوا به حكم المسلمين ، وسرعان ما انقشعت الغمة ، وغلب الإسلام التتار ، ومزجهم بالمسلمين ، وأدخلهم في لوائه<sup>(١)</sup> ، فزال أثر التشريع المتغلب بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم .

والمرة الأخرى في عهد الاستعمار الغربي منذ استيلائه على بلاد المسلمين ، وما تزال هذه ممتدة إلى اليوم ، وتختلف عن الأولى بانخراط المسلمين في التشريعات غير الإسلامية لأول مرة في تاريخهم واندماجهم في الغزاة والمتغلبين ، ومد يد العون إلى التشريعات الواردة تعليماً وتعليماً وتنفيذاً وابتكاراً . . . »<sup>(٢)</sup> .

وذلك أنه لم تكن الانحرافات في المرة الأولى قد اتسعت وتعمقت كما هو الحال في المرة الثانية حين غلب الاستعمار الصليبي على البلاد الإسلامية ، وقام بتنحية الشريعة الإسلامية وأحل مكانها القوانين الوضعية ؛ فلا مناص من تحمل المسلمين مسؤوليتهم كاملة فيما وقع من تنحية للشريعة الإسلامية وتحكيم القوانين الوضعية في المرة الثانية ، وقد كان لهم أسوة في أسلافهم زمن التتار المتغلبين حين لم يخضعوا لعدوهم ، ولم يستكينوا لشريعته الباطلة ، ولكنهم في المرة الثانية لم يعودوا قادرين على مقاومة ذلك

---

(١) هكذا في الأصل ، والأجود : تحت لوائه .

(٢) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية ص ٢٣٣ خادم حسين إلهي بخش . دار حراء للنشر والتوزيع . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

الفعل الخطير بسبب انحرافاتهم التي بددت طاقاتهم ، وبعثرت جهودهم ،  
وسهلت خضوعهم ، وأسلمت زمامهم إلى عدوهم يقودهم إلى حيث  
يشاء .

إن التنازل عن الشريعة الإسلامية الذي وقع في القرنين الماضيين أمر لا  
يمكن توقعه فضلاً عن حدوثه ، وهو من الفداحة والخطورة بحيث لا يمكننا  
تحميل الاستعمار وحده مسؤولية هذا الجرم الفظيع .

إنها جريمة كبرى يوم رضيت الأمة الإسلامية بالتخلي عن الشريعة  
الإسلامية ، ورضخت أو بادرت إلى تحكيم القوانين الوضعية . إنها جريمة  
شنعاء اشترك فيها الحكام والعلماء والناس ، كل حسب مسؤوليته ، وبمقدار  
رضاه ؛ فليس المقرب بها والمحتكم إليها المسلم بحكمها كالمحتجافي عنها الذي  
لم يرض بها ، وإن كان سكوت الأمة على ذلك جريمة أيضاً .

ولا يمكننا تفسير كيف وقعت الأمة في هذه الهوة السحيقة إلا حين  
نعرف أحوالها العقدية ، فحين نعلم أن الإرجاء قد نخر في عقيدة الأمة  
على مدى قرون حتى أحالها إلى خواء لا روح فيه ، وأنه في ظل الإرجاء لا  
يساور المرء القلق على إيمانه ، فمهما عمل من أعمال تخالف الإسلام ،  
ومهما فرط في تكاليفه وواجباته ؛ فلا خوف عليه أبداً ما دام مصدقاً ومؤمناً  
بقلبه!! .

وفي الوقت نفسه لا يحق له اتهام غيره بالكفر حتى ولو كفر فعلاً ،  
ونحى الشريعة الإسلامية وأحل القوانين الوضعية محلها ؛ لأن الإيمان في  
القلب ، ولا يطلع أحد عليه إلا الله ! وهذا الذي استبدل القانون الوضعي

بالشريعة الربانية يقول لا إله إلا الله ويتظاهر بحب الإسلام ، وبالتالي يكون مؤمناً بالطبع<sup>(١)</sup> !! .

فإذا بارحنا ظل الإرجاء واتجهنا إلى رحاب الصوفية ، تلك الرحاب التي يجد الهارب إليها الأمن والطمأنينة ، ويلقى فيها متنفساً مما يعانيه في هذه الحياة من غصص وكربات بالولوج في خيالاتها وأوهامها ؛ رأينا أن الأمر عندهم يسير والخطب هين ، فالخير كل الخير عندهم في اعتزال الدنيا والإعراض عنها ، والخلوة للذكر حتى الوصول إلى الحضرة ! فلا يهم إذن أي شريعة تحكم الدنيا ، إن كانت الشريعة الإسلامية هي التي تحكم فنعماً هي ، وإن كان غيرها هو الحاكم فلا ضير من ذلك ، فلتحكم هي الدنيا وتدع لها الآخرة .

ثم تزداد هذه النظرة انحرافاً حين يترك للصوفية كامل الحرية ، فلا يتعرض المستعمر لعقائدها وطقوسها ، بل ربما حظيت بالرعاية والعناية والتشجيع في رحاب تلك الحكومات التي لا تحكم بشرع الله . فلم الامتعاض من تحكيم القوانين إذن ، والأسف على فوات الشريعة الإسلامية وتنحيها ؟!

وإذا عرفنا مما سبق أن الدين عندهم قد أصبح عبارة عن عبادة الأولياء والأضرحة وعن إقامة الموالد التي يصعب إحصاؤها ، وعن الاحتفال بالمحمل وإحياء ليالي السنة بالحفلات والذكر ، وعن اتخاذ طريقة للسير

---

(٣) نقول هذا لأن الاستعمار في كل بلد عزل فيه الشريعة الإسلامية جانباً كان له من الحكام المحليين من ينفذ سياسته ، والمرجئة مع ذلك يسلكونه في عداد المؤمنين ، على أساس أن عمله هذا معصية ، والمعصية لا تضر مع الإيمان !! .

عليها ، وشيخ للتبرك به والسلوك على يديه ، وعن سيل من البدع والخرافات تملأ على المرء منهم يومه وليلته ولا تدع عنده وقتاً للتفكير في غير ذلك . وباختصار صار الدين عندهم هو التصوف ، وهذا التصوف لم يمس بشيء ولم يتعرض له أحد بسوء بل شجع كما رأينا وروعي مراعاة عظيمة ، فلا عليهم بعد ذلك أن تنحى الشريعة وتستبدل بالقانون الوضعي ، ما داموا آمنين على دينهم أو قل على تصوفهم وإرجائهم أيضاً!!

ولا يخفى ما ترتب على تنحية الشريعة الإسلامية من فساد عظيم في كل مجالات الحياة ، ومن تدهور في الأوضاع ، وهيمنة للمذاهب والحركات الهدامة كالعلمانية والقومية والاشتراكية والبعثية ، وباختصار فقد ظهر الفساد في البر والبحر واستحالت الحياة إلى عنت لا يكاد يطاق .

لقد بدأ الضعف والتخلف والفساد يغشى الحياة عند المسلمين ويهيمن عليها يوم أن فشت الانحرافات العقدية والعلمية ، ثم جاء الاستعمار نتيجة لذلك بعد أن وجد الفرصة سانحة ، والأمة غارقة في الشرك والبدع والخرافات ، وبعد أن وطد أقدامه أخذ يعمل على إضعاف الأمة وإفقارها وتخلفها وإفسادها بعد أن تم له تنحية الشريعة الإسلامية ، واستبدال القانون الوضعي بها .

وقد حاول الاستعمار بجميع الوسائل المتاحة له القضاء على الإسلام نهائياً ، وسلك في ذلك أساليب كثيرة غير مباشرة ولكنها أشد أثراً وأبعد خطراً من الصدام المباشر ، وأخذ في تشجيع دعوات التغريب والغزو الفكري ، كالدعوة إلى الارتقاء في أحضان الغرب ، وإلى احتقار الماضي الإسلامي ، وإلى فصل الدين عن الدنيا وهذه هي العلمانية ، والهجوم على

اللغة العربية والدعوة للعامة ، ولا ننسى أن نقول : إن الاستعمار كان كثيراً ما يفرض لغته الأصلية لغة رسمية على البلاد التي يستعمرها ، كما فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، والاستعمار الإنجليزي في الهند على سبيل المثال .

وفي المجالين الاجتماعي والأخلاقي رأينا كيف هوجم الدين وهوجمت الأخلاق ، وسخر منها ، واعتبرت علامة على التخلف والرجعية ، ورعى الدعوة إلى تحرير المرأة تلك التي انتشرت آثارها الخطيرة في كل جزء من المجتمع ، وقد «شجع الاستعمار قيام نظام طبقي أساسه وجود فئة من الإقطاعيين والاحتكاريين يستأثرون بالثروة ، على غرار النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى ، وباقي الناس في ذل وفقر وجهل ، بمعنى آخر : أوجد التفاوت الطبقي الكبير الذي لم يعرفه المسلمون في تاريخهم . . . فأصبحت علاقات المجتمع عدائية بدل الحب والتعاون والتكافل في المجتمع الإسلامي»<sup>(١)</sup> .

وفي المجال السياسي استطاع الاستعمار كما عرفنا تنحية الشريعة ، وإقامة حكام دمي يحكمون بلادهم بالقوانين الوضعية ، «وانتزع المستعمرون أقساماً من العالم الإسلامي وسلموها لغير المسلمين مثل فلسطين ، وأريتريا ، وصومال أنفدي ، والصومال الغربي ، وقبرص ، ولبنان ، وكثير من الأقطار الإسلامية الواسعة داخل الاتحاد السوفيتي ، وأوروبا الشرقية .

وقد «جزأ الاستعمار العالم الإسلامي ، وأقام الحدود المصطنعة ، وأبقى لكل قطر مشكلة مع جيرانه بعد رحيله ليحول بين المسلمين والتعاون

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢١٣ د . جميل المصري .

فيما بينهم ، ولن تعوزنا الأمثلة لذلك : الصومال مع جيرانه ، العراق وإيران ، سوريا وتركيا ، مصر وليبيا ، السودان وجيرانها التسعة<sup>(١)</sup> ، المغرب والجزائر ، وتونس وموريتانيا ، وتنزانيا ونيجيريا ، أندونيسيا وماليزيا ، الهند وباكستان ، ثم بنغلاديش والهند وكشمير ، اليمن الشمالي والجنوبي وعمان ، ومشكلة كل قطر مع الآخر مستعصية لا يحلها إلا الإسلام الذي أقصي عن الساحة»<sup>(٢)</sup> .

بل يغلب على الظن أنه لا توجد دولتان متجاورتان إلا والخلاف على الحدود قائم بينهما ، والغريب أن كثيراً من تلك الحدود لم تسو بعد في كثير من الأقطار ، وفي هذا مدعاة لدخول أطراف أخرى لتفجير النزاع في أية لحظة لتكسب هذه الأطراف نتيجة النزاع لصالحها . وأما الحدود التي قد سويت فإن النزاع لا يزال قائماً من أجلها لأن كلا الطرفين غير راض بهذه التسوية . والواقع المعاصر خير دليل على ذلك .

وفي المجال الاقتصادي «وجه الاستعمار موارد البلاد الإسلامية إلى مصالحه الخاصة ، فشجع رؤوس الأموال الأجنبية على غزو البلاد واستثمار خيراتها ، وأصبحت معظم الشركات أجنبية تدار لمصالح استعمارية ، فقد أقام المؤسسات الاقتصادية والبنوك لتوظيف ذهب أوروبا الذي طفحت به خزائن بنوكها في أواخر القرن التاسع عشر ، وفتح الأسواق لمصنوعاتها ومنتجاتها وخاصة الاستهلاكية والترفيهية والكمالية ، فأصبح لأفراد العالم الإسلامي ولع خاص بالاستهلاك التفاخري ، ولهم جرأة عجيبة على

---

(١) في الأصل : وجيرانها التسع وهو خطأ . ولو قال : وجاراتها التسع لصح .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .



الإلحاق الاستهلاكي والتطرف فيه ، وهذه نقطة قاتلة لاقتصاد المسلمين .

ثم عمد الاستعمار إلى إقراض الحكومات للسيطرة عليها ، وتكبيّلها بالنفوذ الغربي ، وإيقاع ذوي اليسار في الديون ، للاستيلاء على أملاكهم ، وتحويل مختلف الأراضي والتجارات والأموال إلى البنوك الأجنبية ، فأنّج أجيالاً تفكر في الحصول على منتجات الغرب ، ولا تفكر كيف تنتج هذه الأشياء ...»<sup>(١)</sup> .

كما قام أيضاً باحتكار «التجارة الخارجية للبلاد الإسلامية ومعظم التجارة الداخلية ، وعمد إلى توطين الأوربيين في البلاد الإسلامية عن طريق التجارة كما فعل في الجزائر والهند وأندونيسيا وأفريقيا وتركستان ، وأوفد إلى البلاد العربية خاصة مئات الألوف من الأوربيين ومعظمهم من اليهود فاستوطنوا فيها وتحكموا في اقتصادها ، وخاصة في أقطار المغرب العربي»<sup>(٢)</sup> .

كما حارب الاستعمار الصناعة الوطنية في العالم الإسلامي واكتفى بتوجيه المسلمين إلى الاشتغال بالزراعة ، وفي محاصيل معينة كما ذكرنا من قبل<sup>(٣)</sup> .

واحتكر ثروات العالم الإسلامي المعدنية والبتروولية ، كما شجع نظام الإقطاع الزراعي والطبقية ، وحرّم السواد الأعظم من المسلمين أن يعيش في مستوى لائق ؛ لذا شاع الفقر والبؤس والتخلف والمرض في عالم الخيرات الوفيرة والموارد الكثيرة ، فأفقر دول العالم مسلمة حالياً<sup>(٤)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٣) راجع الضعف الاقتصادي من هذا البحث ص ١٤٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

ونعود فنقول إنه مع كل هذه الآثار السيئة التي خلفها الاستعمار والتي ما زالت تجثم على حياة المسلمين ؛ فإن ذلك لا يعفي الأمة أبداً من تحمل مسؤوليتها ، والقيام بواجبها في إزالة تلك الآثار السيئة .

أمر آخر له صلة بالاستعمار لا بد من الإشارة إليه وإن كنا ستعرض له في مبحث قادم ، ذلك هو تشجيع التنصير ورعايته من قبل المستعمرين ، حيث إن «المبشرين منذ القرن التاسع عشر أحبوا أن يتقدم الجيش أولاً ، لأن ذلك يسهل مهمتهم»<sup>(١)</sup> .

وبعد أن انحسرت شمس الدولة العثمانية عن كثير من البلاد الإسلامية ، وجاء الاستعمار ليحكم تلك البلاد ، ويفتح أبوابها ومدنها لسيل هائل من المنصرين ؛ لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه في يوم من الأيام لولا مساندة الاستعمار لهم . ولم تخيب هذه الدول الاستعمارية ظن هؤلاء المنصرين ، فقامت بتمهيد السبل في طريقهم ، وظلت تكلوهم وترعاهم لتحقيق مآربهم وأهدافهم التنصيرية .

ويقول المنصر «كنيث لاتورت» في مقال له في «المجلة الدولية للإرساليات» : «ولكن يجب أن نذكر على كل حال أنه لم يحدث انتقال واسع من الإسلام إلى النصرانية في قطر ما ، إلا بعد أن تبدل ذلك القطر بحكومته الإسلامية حكومة غربية مسيحية . .»<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن تم للإنجليز احتلال مصر عام ١٨٨٢م هيئت الأجواء أمام طوائف المنصرين ، «ولقد اتهم بعض المبشرين «اللورد كرومر» ، المعتمد

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٧ .

(الأول) البريطاني في مصر ، بأنه كان يحابي المسلمين ، مع أنه كان يشجع التبشير بين المسلمين ويحمي القسس الأجانب والمبشرين»<sup>(١)</sup> .

ولعل مرد ذلك الاتهام هو قول «اللورد كرومر» واصفاً سياسته في مصر: «إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد (يعني مصر) هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن؛ بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس ، وإن كان من الواجب - منعاً من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين ، وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي ، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك»<sup>(٢)</sup> .

«وحين بدأ حكمه في مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ، فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها ، جمع المبشرين وقال لهم : هل تتصورون أنني يمكن أن أضيق عليكم؟ ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع ، وتخطفون الرجال لتنصيرهم ، فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكاً بدينهم ، ولكني اتفقت مع شاب تخرج قريباً في كلية اللاهوت بلندن ، ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم»<sup>(٣)</sup> .

إذن فكرومر كان يرمي إلى سياسة أدهى في التنصير وأهدى في التخطيط والعمل ، جرياً على الأسلوب الإنجليزي البارد في تحويل الناس

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ .

(٢) مصر الحديثة . اللورد كرومر نقلاً عن واقعنا المعاصر ص ٢١٦ .

(٣) واقعنا المعاصر ص ٢١٦ .

عن الإسلام ، وذلك الأسلوب الذي يتفق مع مثلهم المشهور (Slow but sure) بطيء ولكنه أكيد المفعول<sup>(١)</sup> .

ولعل في ذلك إجابة على من يهونون من شأن الصلة بين الاستعمار والتنصير أو ينفونها ، فنقول : إن الاستعمار والتنصير<sup>(٢)</sup> وجهان لعملة واحدة هي الصليبية ، فالمستعمر منصر ، والمنصر مستعمر ، ولكن الأقنعة تختلف ، فأحدهما يتقنع بقناع الاستعمار ، والآخر بقناع التنصير ، وكلاهما صليبي حاقد .

وفي السودان لم يبدأ التبشير الفعلي إلا بعد مجيء الجنرال «غوردون» حاكماً عليه ، وهدأت هذه الجهود أيام الثورة المهدية ، ثم عادت أكثر مما كانت عليه من قبل بعد سقوط المهدية ، وعودة الحكم الإنجليزي .

وبلغ من تدخل المبشرين في شئون السودان ومن دالته على المعتمدين البريطانيين في مصر أنهم كانوا يبدون آراءهم في تعيين الموظفين في السودان ، ولكنهم لم ينجحوا دائماً<sup>(٣)</sup> .

وعلى العموم فقد رعى الاستعمار التنصير والمنصرين في كل بلد استعمرها ، فالإنجليز والفرنسيون والإيطاليون والأسبانيون والهولنديون والروس كل منهم قد عني بالتنصير عناية فائقة ، وأفسح لهم المجال في البلاد التي كان يحتلها .

وفي اعتقادي أن الاستعمار كان البوابة الكبرى والوسيلة العظمى التي سلك من خلالها المنصرون لغزو العالم الإسلامي عقائدياً ، وأنه لولا

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٦ .

(٢) ويضاف إليهما الاستشراق .

(٣) التبشير والاستعمار ص ١٤٩ .

الاستعمار في كثير من الأحيان لما نجحت إرسالية تنصيرية في مهمتها .  
وما دمنّا قد تحدثنا عن رعاية الاستعمار للتنصير فلا بد من الإشارة  
بشكل موجز عن دور الاستعمار في رعاية الطوائف غير المسلمة من فرق  
وأديان .

لقد حرص الاستعمار في كل قطر سيطر عليه على البحث عن غير  
المسلمين من الطوائف الأخرى ، فقربهم وأعلى شأنهم ، ومنحهم فرص  
التعليم كي يتمكنوا من تولي المناصب الهامة التي يرعون من خلالها  
مصالحه بعد رحيله ، في نفس الوقت الذي كان فيه يقصي المسلمين ، ويسد  
الأبواب في وجوههم ، فحيثما حل المستعمرون يقومون بنش العقائد الميتة  
أو تنظيم الطوائف غير الإسلامية ، ويمهدون لها السبل لتولي المناصب  
المهمة ، مستثيرين حقدهم على المسلمين بالزعم بأن الفتح الإسلامي كان  
استعماراً لهم وأن المسلمين متعصبون ضدهم<sup>(١)</sup> .

وقد رأينا عند حديثنا عن الفرق كيف وصل الأمر بالمستعمرين الفرنسيين  
إلى إقامة دولة مستقلة في الشام لكل من : طائفتي الدروز والنصيرية  
المارقتين من الإسلام .

لقد حاول الاستعمار دائماً تقوية الفرق المعادية لأهل السنة كالشيعة  
الاثني عشرية ، ففي الهند قام الإنجليز بفتح مدارس خاصة لهم كان لا  
يسمح لغير أبناء طائفتهم بالدراسة فيها ، وبلغ عدد المدارس الاثني عشرية في  
باكستان حوالي ثمان عشرة مدرسة ، فالتعليم الاثني عشري برمته في الهند  
كلها مدين للاستعمار ومنة من مننه على تلك الطائفة<sup>(٢)</sup> .

(١) العلمانية ص ٥٤٠ د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي . الدار السلفية . الكويت . ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

(٢) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية ص ٢٩٨ .

أما طائفة البهرة ، فقد ظل الاستعمار هناك يرعاها ، ويحميها ويمنحها الامتيازات التي تخول لها نشر مذهبها ، ومضايقة أهل السنة والاعتداء عليهم دون خوف من الانتقام منهم<sup>(١)</sup> .

وكانت كثير من الدول الأوروبية تتعلل في استعمارها للبلاد الإسلامية والتدخل في شؤونها بحماية الأقليات غير المسلمة .

وفي أثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر قام الإنجليز بفتح المجال في التعليم والاستثمار والوظائف أمام كل من اليهود والنصارى ، «على أن الاحتلال البريطاني لمصر أتاح لليهود النازحين - بصفة خاصة - الشعور بالأمان منذ سنة (١٨٨٢م) حتى (١٩٤٨م) ، وساعدهم على الاستقرار والإبداع في كل مجال»<sup>(٢)</sup> .

أما الأقباط وغيرهم من طوائف النصارى الأخرى فقد تمتعوا بالرعاية والعناية في ظل الاحتلال الإنجليزي ، «وقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم في ذلك العهد الجديد كما يقول «اللورد كرومر» ، من أجل ذلك استشعر المسيحيون القوة وانفتح أمامهم باب الأمل في تحسين حالتهم . . . واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فأقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصاً شديداً ، وكان إقبالهم على التعليم - وعلى الأجنبي

---

(١) ومن أمثلة ذلك عندما قام الحرس الخاص بداعي البهرة الخامس والأربعين بقتل العالم «رمضان علي السني» في حي البهرة بمندسور في ٢٥ ربيع الثاني ١٢٣٩ هـ ، وحاول أهل السنة الأخذ بشأره ، فقاموا بمحاصرة مسكن الداعي فاستنجد بالإنجليز فأسعفوه بثلاث كتائب من جيشهم المسلح ، ثم شرعوا له قانوناً يخوله إقامة كتيبة مسلحة تحفظه وتحفظ أتباعه ، ولما حاول العلامة «مظهر علي» المطالبة بدم الفقيد حكم عليه بالسجن المؤبد من قبل محكمة إنجليزية . المصدر السابق ص ٣٠٢ .

(٢) اليهود والماسون في مصر ص ٦٧ د . علي شلش . الزهراء للإعلام العربي . الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

منه بنوع خاص - بالإضافة إلى ما عرف من تهافتهم على بعض الوظائف التي زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل - كان كل ذلك سبباً في أن تجاوز نسبتهم في الوظائف الحكومية نسبتهم العددية في السكان بمقدار كبير، وكان حرصهم على جمع المال سبباً في اضطراد الازدياد في ثرواتهم»<sup>(١)</sup> .

«وتحت ستار اللاتعصب واللاطائفية مكن للأقباط من بناء الكنائس والمدارس بكثرة وتولي المناصب الوزارية في الحكومة برعاية الإنجليز»<sup>(٢)</sup> .

وقد بلغ الأمر بالأقباط في عهد الاحتلال الإنجليزي أن أخذت صحفهم تتحدث وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وبدأت هذه الصحف تتحدى الرأي العام باستحسان ما أجمع المصريون على استنكاره ، وتشتكي للإنجليز لينقذوهم من وضعهم السيئ على حد زعمها ، وكان الذروة لهذه الحملة القبطية الهائجة هو عقد المؤتمر القبطي العام في أسيوط من ٥ مارس إلى ٨ مارس من عام ١٩١٠م وانحصرت مطالبه في :

١ - طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة .

٢ - أن تكون قاعدة التوظيف هي الكفاءة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العددية في السكان .

٣ - وضع نظام لمجالس المديرية يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامي وحده في المدارس الأولية .

٤ - وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصري في المجالس النيابية .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ١٢٧ .

(٢) العلمانية ص ٥٤١ .

٥ - جعل الخزينة العمومية مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية<sup>(١)</sup>.

وهذه المطالب كما نرى ترمي إلى تقوية جانب الأقباط على حساب المسلمين ، وإعلاء شأنهم ، ولم يكن هذا المؤتمر لينعقد أو يخرج بمطالبه تلك لولا وجود الإنجليز ورعايتهم له رعاية غير مباشرة على الأقل ، ولابد من الإشارة إلى أمر يختص بالوظائف فنقول : إن تقريب الأقباط في المناصب المالية المهمة قد بدأ قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر ؛ فقد ذكرنا عند حديثنا عن الولاء والبراء أن بعض المتأخرين من حكام المماليك قد عهدوا بمناصب هامة في النواحي المالية إلى بعض الأقباط ، واستمر ذلك حتى جاء محمد علي وأولاده فأطلقوا لهم المناصب الهامة ومنحوهم الثقة التامة .

ولكن الوضع قد تغير في عهد الإنجليز ، إذ طمع الأقباط في الاستيلاء على كل مركز هام في الدولة بمعونة بني ملتهم من المحتلين ، فما زالوا يعملون لأجل ذلك الهدف حتى حققوا جزءاً كبيراً منه ، وأصبحوا أكثرية في الوظائف والمناصب مع أنهم أقلية صغيرة بالنسبة للمسلمين .

وفي بلاد الشام «تعهدت فرنسا بدعم النصارى وسلمتهم الوظائف العليا ونظمت فلولهم في جمعيات ومؤسسات عسكرية ومدنية ، وعند إنشاء الجامعة السورية - مثلاً - عينت لها مديراً نصرانياً هو قسطنطين زريق»<sup>(٢)</sup>.

«وفي معظم دول أفريقيا خرج الاستعمار مخلقاً وراءه حكومات

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ١٣٥ .

(٢) العلمانية ص ٥٤٠ .



نصرانية تحكم شعوباً تصل نسبة الإسلام في بعضها إلى ٩٩٪»<sup>(١)</sup> .

لقد عمل الاستعمار طوال فترة حكمه في البلاد الإسلامية على رفع مستوى كل الطوائف المعادية للإسلام من فرق وأديان ، ودأب على إثارةهم بالتعليم والوظائف وبكل ما من شأنه أن يقوي جانبهم ، ليقضي بذلك على الكثرة الساحقة من المسلمين ، وقد نجح الاستعمار في تلك الخطوات ، بفضل استغلال هذه الطوائف الفرص الممنوحة لهم من قبل المستعمر الذي لم يغادر البلاد حتى سلم اقتصادها ووظائفها لهذه الأقليات الحاكمة التي لا ترقب في المسلمين إلا ولا ذمة ، فأصبحت مصائر المسلمين وثرواتهم مكبلة بأيدي تلك الأقليات تعبت بها كيف تريد .

ونختتم حديثنا عن الاستعمار بقضية هي الأهم في نظرنا لأنها من الخطورة بمكان ، هذه القضية هي خروج الاستعمار ظاهراً وبقاؤه باطناً ، أو خروج الاستعمار المباشر وبقاء الاستعمار غير المباشر . أو بتعبير آخر هو خروج الاستعمار الرسمي - كما عبر عن ذلك مؤلفا «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»<sup>(٢)</sup> - وبقاء الاستعمار غير رسمي .

أما أسباب خروج الاستعمار الظاهر فلن نحاول الخوض فيها ، وإن كانت المقاومة العنيفة التي لقيها الاستعمار ، والخسائر الهائلة التي تكبدها في الأرواح والأموال ، كانتا من أكبر الأسباب التي أجبرته على الخروج ، ولكن السبب الجوهري في نظرنا هو ما نود الحديث عنه هنا وهو الاستعمار غير المباشر .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤١ .

(٢) انظر مقدمة الطبعة الثالثة ص ١ .

إن الاستعمار لم يخرج في الظاهر حتى خلف بذوره في الداخل لتنتب فور خروجه ويظل يقطف ثمارها على الدوام دون أن يشعر به أحد ، ولم يغادر المستعمرات حتى بات مطمئناً على مصالحه ، وضامناً وصولها إليه دون عناء أو مشقة .

وإن الاستعمار ما بارح الديار إيماناً منه بأن الشعوب المستعمرة غدت قادرة على قيادة نفسها وأن للشعوب حق تقرير المصير كما يحلو لبعضهم أن يقول ، كلا ولكنه ما رحل عن الديار إلا بعد أن خلف وراءه طابوراً أميناً يقوم بتنفيذ مآربه ، ويسهر على حفظ مصالحه .

ولم يفت المستعمر قبل خروجه أن يقيم من الأنظمة السياسية ما يتفق مع أهدافه ومصالحه ؛ فكان عمله الأول الذي صرف فيه الجهود هو تنحية الشريعة الإسلامية ، وإقامة القوانين الوضعية لتحكم البلاد بها ممن يتولون مقاليد الأمور فيها . «فهم إذا فرضوا النظام السياسي الذي يريدون والذي يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم ، جاء عن طريقه الحاكم الذي يسعى في رضاهم ويأتمر بأمرهم ويتلقى عنهم ويحمي سلطتهم ويدافع عنهم ويفرضهم على محكوميه . .»<sup>(١)</sup> .

ويقول الكاتب الأمريكي «مورو بيرجر» : «إن الانتخابات الوطنية أقدر من الانتخابات الأجنبية في إحداث التغيير الاجتماعي المطلوب»<sup>(٢)</sup> ، لذا لم يكن للمستعمرين بد في إيجاد تلك الانتخابات الوطنية أو المحلية أثناء تواجدهم في البلاد الإسلامية لثروته عقب رحيله ، ولم ينس أن يتعاهدوا دائماً بعد أن سلمها أزمة الأمور في بلادها .

---

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٠ .

إن وجود المستعمرين وجيوشهم عياناً بياناً على الأرض الإسلامية أمر يثير مشاعر المسلمين ويهز أحاسيسهم ، ويجعلهم يحسون بالهزيمة والذل ، ويحنون رؤوسهم خوفاً وخضوعاً ، ولكنهم مع ذلك يتحينون الفرصة المواتية للتمرد على هذه الجيوش والثورة ضدها ، لذا اصطبغ تاريخ الاستعمار في البلاد الإسلامية بالتوتر والاضطراب والفوضى ، وكثرت فيه الثورات والتمردات ، فكان ذلك مما عجل برحيل الاستعمار الظاهري ليخلفه الاستعمار الباطني الذي لا يكاد يشعر به أحد ، فلا احتلال ولا جنود في الشوارع ولا حاكم أجنبي ، الكل قد رحل . وتقام الأفراح والاحتفالات لرحيل الاستعمار وبدء الاستقلال ، ويتنفس الناس الصعداء بعد كبت ومعاناة طويلة ، وما درت الجماهير المستغفلة أنها طردت استعماراً لتخضع لاستعمار آخر أشد خطورة وضرراً من الذي قاومته ورحل عنها ، ولكنه استعمار ماهر وخبيث يظهر في أثواب الجلاء والتحرر والاستقلال ، فمتى تظن له الجماهير أو تنبه لخطورته؟!

وكما قال أحد الفطناء عندما خرج الإنجليز من مصر: «خرج الإنجليز الأحمر وبقي الإنجليز السمر» ، هؤلاء السمر هم العملاء والمأجورون لأعداء الإسلام ، والعاملون لحسابهم ولتحقيق أهدافهم ؛ من مصاصي الدماء ، وسارقي ثروات الشعوب ، الذين يهتفون بتحقيق الاستقلال ومعاداة المستعمر .

«لم يكن هذا الاستقلال تاماً، وإنما للنفوذ الاقتصادي أثره الكبير ، وكذا السيطرة الفكرية وفرض النظريات والعلوم الاجتماعية على المجتمعات الإسلامية ، وذلك بما يملكه الأجنبي من نفوذ ، وإذا علمنا هذا أمكننا أن

نقدر ما تفعله الدول الكبرى من مخططات سياسية ، وإعطاء المناصب العليا ، ومن يعطي يستطيع أن ينزع ، ولهذا يعيش العالم الإسلامي حتى الآن في فوضى سياسية وتخبط فكري<sup>(١)</sup> .

ولسنا في حاجة للتدليل على بقاء هذا الاستعمار المبطن والذي يسري في البلاد الإسلامية كداء السرطان ، فالشريعة الإسلامية ما زالت داخل الرفوف بعد أن نحاه المستعمر وختم عليها بالشمع الأحمر ، وقد وقف المستعمرون الجدد لمن يحاول تطبيقها بالمرصاد رغم إلحاح الشعوب ومطالبتها بإصرار على وجوب تطبيقها ، ولكن لا حياة لمن تنادي .

والبلاد الإسلامية كانت وما تزال كيوم غادرها الاستعمار متخلفة وضعيفة وفقيرة ، ومع وفرة ثرواتها وكثرة خيراتها إلا أن المستفيد الأكبر منها هو المستعمر الأول بمعاونة خلفائه من المستعمرين المقنعين الذين يديرون دفة الأمور في هذه البلاد ، والتي تسير كل يوم من سيئ إلى أسوأ ، ولا غرابة بعد ذلك أن تظل بعض الشوارع بأسماء بعض سفاكي الدماء من المستعمرين في بلاد إسلامية زعمت أنها استقلت من الاستعمار .

والفساد فيها يتفاقم من يوم لآخر ، في ظل هذا الاستعمار الخفي الذي قام بخطوات في ذلك المجال لم يكن يحلم بها المستعمرون الأوروبيون أنفسهم ، «وليس أدل على ذلك من أن القوى التي حكمت العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار لم تكن الحركات الجهادية التي جابهت المستعمرين ، بل كانت أحزاباً وقوى مشبوهة ، تشهد أعمالها وآثارها بأنها جنت على الأمة

---

(١) العالم الإسلامي ص ١٧٣ محمود شاكر . المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

ما لم يجنه الأعداء السافرون ؛ مما يعطي الدليل الواضح على أن تنفيذ المخطط اليهودي قد وكل إليهم مع اختلاف في الأدوار وتنوع في الإخراج»<sup>(١)</sup>.

وفوق هذا وذاك قيام تلك الشبكة الاستعمارية الخفية التي حاك خيوطها الاستعمار الصليبي بمحاولات لإطفاء نور الله في الأرض ، ووأد الصحة الإسلامية ، وضرب الحركات الإسلامية بكل شدة وعنف ، وبصورة لم يكن ليقدّم عليها أحد من المستعمرين الحقيقيين ، وفاقت في ضراوتها وبطشها ضراوة الاستعمار وبطشه ، مما يجعلنا نقطع بيقين أن الاستعمار ماغادر البلاد إلا بعد أن ترك وراءه استعماراً أدهى منه وأخطر ، قد جعل شرعية وجوده ما يقوم به من خدمات لأعداء الأمة .



---

(١) العلمانية ص ٥٤٢ .

## المبحث الثاني

### الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم

يلقي كثير من الكتاب والمفكرين باللائمة الكبرى على الغزو الفكري في كل ما يعانیه المسلمون اليوم من فساد وتأخر ، ويعدونّه العقبة العظمى في طريق النهوض بالأمة الإسلامية ، و يعتقدون أن العمل على إزالته واجتثاث جذوره هو المهمة الأولى التي يجب أن يعنى بها الدعاة وكل العاملين في الحقل الإسلامي .

والذي جعلهم يذهبون هذا المذهب هو فداحة الآثار التي نجمت عن هذا الغزو الفكري ، وخطورة التغييرات التي أحدثها . ولكن مع كل ذلك يظل الغزو الفكري أثراً بارزاً نتج عن الانحرافات العقيدية والعلمية ، فلولا هذه الانحرافات التي وقعت في حياة الأمة واتسع مداها مع الأيام لما كان للغزو الفكري أي دور يذكر .

فيوم كانت العقيدة سليمة ، والإيمان قوياً فياضاً ، والتمسك بما أمر الله به من حيلة وحذر وإعداد للقوة والتمكن قائماً ؛ لم يكن يمكن بأي حال من الأحوال أن يجد الغزو الفكري منفذاً ينفذ منه ، وإن وجد منفذاً فلن يجد مكاناً يؤثر فيه ، وإن وجد مكاناً ففي أندر الأحوال يقع ذلك ، ولكن سرعان ما يقاوم ويعالج . هذا كله يحدث في حال يقظة الأمة ووعيتها ، وفي حال هيمنة العقيدة ونبضها ، ويوم كانت الأمة كذلك لم تؤثر فيها تيارات الغزو الفكري ، ولم تجد للنفوذ إليها سبيلاً .

أما بعد أن غشت الانحرافات على حياة الأمة ، وأصاب الضعف عقيدتها ، فكان أمراً متوقعاً أن تصبح هدفاً لحملة الغزو الفكري ، وأن تسقط فريسة لها من أول وهلة تصطدم بها .

وقبل أن نتطرق للحديث عن الغزو الفكري وما تبعه من استيراد للمبادئ والنظم نود أن نؤمى إيماء سريعة لنشأة الغزو الفكري التي يرجعها بعضهم إلى زمن صدر الإسلام ؛ حيث ما انفك أعداء الإسلام عن بذل كل المحاولات ليكيدوا بها المسلمين .

ويعتبر ما حدث من ترجمة للفلسفة الإغريقية في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث الهجري مثلاً بارزاً على الغزو الفكري في العصور المتقدمة ، وإن كان ذلك في الواقع حدث نتيجة لانخداع المسلمين بالفلسفة والمنطق وظنهم أنها أداة نافعة يمكن أن تخدم العلوم الإسلامية .

ويرى البعض الآخر أن بداية التفكير في الغزو الفكري تعود إلى زمن الحروب الصليبية في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وذلك عندما وقع لويس التاسع ملك فرنسا في الأسر بعد هزيمة حملته الصليبية ، وبقي سجيناً في المنصورة حتى افتداه قومه وأطلق من أسره .

وفي أثناء سجنه أخذ يتفكر فيما حل به وبقومه ، ثم عاد يقول لقومه : إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده - فقد هزمتهم أمامهم في معركة السلاح - ولكن حاربوهم في عقيدتهم ، فهي مكنم القوة فيهم ، ووعى قومه نصيحته ، فلما عادوا لغزو العالم الإسلامي مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده ، ولكنهم استصحبوا معهم

تلك الوسائل الخبيثة التي نطلق عليها اسم «الغزو الفكري»<sup>(١)</sup> .

وسواء صحت الحكاية السابقة أم لم تصح فلقد امتازت الحروب الصليبية الثانية أو ما سمي بالاستعمار باستخدامها وسيلة الغزو الفكري كوسيلة فعالة بجانب السلاح والقتال . ويمكننا أن نعتبر البداية الحقيقية للغزو الفكري المنظم والمكثف في مطلع العصر الحديث مع قدوم الحملات الصليبية ، ويمكن اعتبار الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت عام ١٢١٣هـ-١٧٩٨م على مصر النقطة الأولى التي انطلق منها الغزو الفكري في العصر الحديث صوب الأمة الإسلامية .

لقد رأينا في البابين الأول والثاني من هذا البحث أن الأمة الإسلامية كانت غارقة في موجات من الانحرافات العقدية والعلمية من انتشار لمظاهر الشرك والبدع والخرافات ، ومن هيمنة للصوفية ومعتقداتها ، ومن طغيان لمذهب الإرجاء ، ومن تشويه لمفهوم العبادة ، ومن خرق لعقيدة الولاء والبراء عند طائفة لا يستهان بها من حكام المسلمين ، حتى أضحت عقيدة السلف الصالح غريبة بل ومحاربة من قبل المبتدعة والخرافيين .

هذا كله بالإضافة إلى ما وقع من تخلي العلماء عن دورهم وتقصيرهم في واجبهم ، وفساد مناهج التعليم وجمودها ، وشيوع روح التعصب المذهبي ، والإصرار على إغلاق باب الاجتهاد ، وغير ذلك مما تناولناه بالتفصيل أثناء حديثنا عن هذه الانحرافات .

لقد كان هذا الواقع الديني المنحرف سبباً جوهرياً في كل ما جنته الأمة وقاسته من آثار داخلية وخارجية لازالت تعاني منها إلى اليوم .

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٩٦ .



ومن هذه الآثار الغزو الفكري الذي يعد أخطر أثر خارجي أحرق بالأمّة، وكان له في واقعها الأثر الفعال والدور الكبير في إفساد الحياة الإسلامية بالكلية ، ومطاردة كل ما له علاقة بالإسلام والقضاء عليه .

وإذا كانت الانحرافات العقدية والعلمية قد شملت كل جزء في حياة الأمّة تقريباً، فإن الغزو الفكري بعد ذلك قد ماثلها في سعة الانتشار ، وخلفها في كل جزء كانت فيه ، وكأنما كان هناك تناسب طردي بينهما ؛ فبمقدار ما توغلت وانتشرت هذه الانحرافات في حياة المسلمين ، فقد جاء الغزو الفكري بعد ذلك وتوغل فيها بنفس حجم الانتشار أو أشد .

لقد كان الواقع بانحرافاته تربة خصبة وملائمة لإلقاء بذور الغزو الفكري التي أخذت تنبت وتنمو بسرعة في الأرض الإسلامية بصورة لم تكن متوقعة ، إذا لم نأخذ في حسابنا الأبعاد الحقيقية لتلك الانحرافات العقدية والعلمية .

إن أهداف الغزو الفكري التي يخطط لها أعداء الإسلام ترمي إلى إخراج المسلمين من دينهم حتى يتركوا الإسلام ، « وإبقاء الشعوب الإسلامية ضعيفة هزيلة لا حول لها ولا قوة ، وخاضعة لنفوذهم ، وذلك بقطع حبل الله الذي يربط هذه الأمّة بخالقها سبحانه وتعالى ، والحيلولة بين هذه الأمّة الإسلامية وبين تاريخها المجيد الذي انبثق من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وإحلال لغة الغازي وفكره محل ذلك ، وتطبيق مبادئه على أبناء الأمّة الإسلامية ، فتشويه فكرهم وتمسخ عقولهم ، وتخرج بهم إلى حياة مغلوبة وتابعة لأعداء الأمّة الإسلامية ، فيعيشون عيشة الأتباع والأذئاب» (١) .

---

(١) مجتمعنا المعاصر ، أسباب ضعفه ووسائل علاجه ص ٣٠٩ .

وقد سلك الغزو الفكري عدة وسائل للنفوذ من خلالها ، ولكن أعظم وسيلتين اعتمد عليهما من تلك الوسائل هما مناهج التعليم ووسائل الإعلام ، فإن تلكما الوصيلتين تمثلان البوابتين العظيمتين اللتين ولج منهما الغزو الفكري .

أما القضايا التي ركز عليها الغزو الفكري أثناء هجومه فهي كثيرة ، ولكن أهمها قضية تنحية الشريعة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة (العلمانية) ، وقضية تحرير المرأة ، وقضية التطور ونبذ الدين ، وقضية القومية والوطنية ، وقضايا أخرى .

فتنحية الشريعة الإسلامية تحدثنا عنها في مبحث الاستعمار من حيث علاقته بها ، حيث كان له الدور الأكبر في تنحيها ، ولكننا في هذا المقام سوف نركز الحديث باختصار عن دور الغزو الفكري في تلك القضية الخطيرة ، قضية تنحية الشريعة الإسلامية .

فمع أن الاستعمار الصليبي كان هو الذي تولى كبر هذه الجريمة وابتدأ تنفيذها ، إلا أن ذلك لم يكن ليقع لولا حملات الغزو الفكري المكثفة التي صاحبت ومهدت لهذه الجريمة . ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا الحالة العقدية والعلمية المتردية التي تعد السبب الحقيقي في كل ما وقع ؛ إذ لولا هذه الحالة أيضاً لما تمكنت حملات الغزو الفكري من تحقيق أي نجاح لها في تلك القضية الخطيرة .

لقد كان العمل على تنحية الشريعة الإسلامية هدفاً رئيساً ومشتركاً بين أعداء الإسلام جميعاً ، اتفقوا على محاولة تحقيقه . وقد كان ذلك هو الهدف الأول للاستعمار الصليبي حين جاء إلى البلاد الإسلامية ، حين كان دأب

الاستعمار حيثما حل هو العمل بقوة الحديد والنار على تنحية الشريعة الإسلامية ، واستبدال القوانين الوضعية بها .

وقد قلنا في مبحث سابق<sup>(١)</sup> إنه على الرغم من فظاعة المستعمر واستخدامه القوة والرغبة ؛ فإن ذلك لم يكن ليعفي الأمة من تحمل مسؤوليتها أو يبيح لها التنازل عن شريعتها .

وقد رأينا كيف أخفقت الحملة الفرنسية بقيادة «نابليون» الذي عمل على تنحية الشريعة الإسلامية في مصر ، ومن ثم فشلت في تحقيق ذلك الهدف بعد أن أجبرتها المقاومة على الرحيل .

ولكن ذلك الهدف قد تحقق فيما بعد على أيدي الإنجليز الذين لم يلاقوا مقاومة كالتى لاقاها الفرنسيون ، ومرد ذلك إلى حملات الغزو الفكري المتتابعة ، «فلاشك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس في عالم الواقع ، فسياسة «التغريب» التي اتبعها «محمد علي» ، وورثها من بعده أبنائه ، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التي اتبعها «محمد علي» ، ثم سياسة «الفرنجية» التدريجية التي اتبعها أبنائه ، وبخاصة الخديوي «إسماعيل» ، كان لها أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية ، وتضاؤل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن . . .»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا كان الغزو الفكري عاملاً مهماً في قيام أعداء الإسلام بتنحية الشريعة الإسلامية ، وفي تقبل المسلمين لهذا الحدث العظيم ، «فإن الغزو الصليبي - سواء العسكري أو الفكري - قد دفع الأمة دفعة خطيرة وراء آخر

(١) هو مبحث الاستعمار .

(٢) واقعنا المعاصر ص ٣٠٥ وقد تقدم معنى هذا النص ص ٢٣٠ .

الحواجز التي كانت قد وقفت عندها على الرغم من كل تقاعسها وكل انحرافها ، فأخرجها من شريعة الله وهو يزين لها عملها ، ويمد لها في الغي ، ويوهمها أنها ما زالت في دائرة الإيمان . . . . ولقد قاوم المسلمون الغزو العسكري والغزو الفكري بما كان قد بقي فيهم من طاقة . . . . ولكن الخواء الذي كانت تعانيه الأمة من جراء انحرافات وأمراسها جعل هذه المقاومة أضعف من أن تقف للغزو الكاسح ، فاستتب الأمر للغزاة ، وتم لهم ما أرادوه من صرف الأمة عن الإسلام .

ولقد كان لهم من وراء تنحية شريعة الله عن الحكم مآرب عدة . . . . كانوا يريدون أن تعمل حركة التنصير في العالم الإسلامي وهي آمنة مطمئنة لتفتن من تستطيع فتنته عن دينه ، ولن تجد هذه الحركة مجالاً لو بقيت الشريعة قائمة ، ونفذ حد الردة على المنتصر الذي يرتد عن الإسلام .

وكانوا يريدون أن تشيع الفاحشة في المجتمع الإسلامي لتحل أخلاقه ، ويسلس قياده للمستعمر ، ولم يكونوا يستطيعوا - والشريعة قائمة - أن يفتحوا بيوتاً رسمية للبعثاء تحميها الدولة «المسلمة!» بتشريعاتها وتنظيماتها وشرطتها! ولا أن يفتحوا الحانات لتسقي الناس الخمر علانية باسم «المشروبات الروحية» ، ولا أن يفتحوا المراقص للساقطات اللواتي أطلق عليهن فيما بعد لقب «الفنانات!» لتلهية الناس عن صلاتهم وصيامهم ، ودنياهم وآخرتهم ، باسم الفن والحضارة والتقدم»<sup>(١)</sup> .

وإذا كان أعداء الإسلام قد ركزوا على مصر لأجل تنحية الشريعة الإسلامية عنها لما لها من موقع جغرافي هام ، ولوجود الأزهر فيها ودورها

---

(١) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ص ٦٤ الأستاذ محمد قطب . مكتبة السنة . الطبعة الأولى . ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م . القاهرة .

القيادي في البلاد الإسلامية، واستخدموا الجيوش العسكرية في فرض القوانين الوضعية وعزل الشريعة الإسلامية، كما فعل الفرنسيون ، ثم الإنجليز الذين حكموا مصر قرابة السبعين عاماً بتلك الصورة، فقد ركزوا تركيزاً شديداً على تركيا بصفتها مركز القيادة في العالم الإسلامي ، ومحط أنظار المسلمين في كافة أنحاء العالم .

لقد جهد أعداء الإسلام على تنحية الشريعة الإسلامية في الدولة العثمانية ، وصوبوا حملاتهم صوب الأستانة عاصمة الدولة . وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد نحت في مصر تحت القهر والإرهاب الذي استخدمته جيوش المستعمرين الرابضة على الأرض هناك ، فإن الشريعة الإسلامية في تركيا بدئ في تنحيها بغير سيف ولا نار ، بل كان الغزو الفكري هو الدافع إلى ذلك ، و كان أمضى في التأثير ، وأبعد في النتائج .

نحن لا ننكر أنه كانت هناك ضغوط شديدة تمارسها الدول الأوروبية على الدولة والسلطين العثمانيين بشأن تنحية الشريعة الإسلامية بحجة البدء في الإصلاح وتحسين الأوضاع ومساواة غير المسلمين بالمسلمين ، ولكن تلك الضغوط لم يكن ليستجاب لها أو يرضخ لها، لولا هجوم الغزو الفكري الكاسح الذي خضع له وتأثر به عدد كبير من ذوي الرأي والسياسة في العاصمة استامبول وغيرها من مدن تركيا .

لقد كانت الأوضاع السائدة في الدولة العثمانية منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي سيئة للغاية ، وفي الفترة التي نقوم بدراستها ازدادت هذه الأوضاع سوءاً وتردياً، وغشي الضعف والتخلف كافة الميادين من سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية .

وأغرى هذا الضعف المستشري في جسم الدولة التي كانت تلقب بالرجل المريض الدول الأوربية وخاصة روسيا للانقضاض عليها وإنزال أشد الهزائم بها.

كل ذلك مع ما أصيبت به الدولة من خواء عقدي مزمن أوقع كثيراً من رجال السياسة والرأي في الأستانة تحت براثن هزيمة نفسية مريرة ، أحت رؤوسهم خجلاً ومقتاً لذلك الواقع المتردي ، وجعلتهم يتطلعون إلى هازمتهم أوربا كي تلتفت إليهم لتنقذهم مما هم فيه من تخلف وهبوط ، أو يحاولوا اللحاق بركبها والسير في طريقها واستعطافها حتى لو كان الثمن لذلك هو نبذ الدين كلية ، وإقصاء الشريعة جانباً ، وقد كان للسلاطين العثمانيين من تلك الهزيمة أوفر الحظ والنصيب .

ويحسن بنا أن ندرج عند حديثنا عن تنحية الشريعة الإسلامية الحديث عن استيراد المبادئ والنظم من الغرب ؛ لأنهما خطوتان متبادلتان ومتلازمتان في حدوثهما .

وكان البادئ الحقيقي في ذلك هو السلطان «سليم الثالث»<sup>(١)</sup> حيث سعى لإدخال ما يسمى بالنظام الجديد على الجيش على النمط الأوربي الحديث ، وإن كانت الخطوات الأولى قد بدأت قبل ذلك بزمان طويل في عهد السلطان سليمان القانوني الذي سن عدة قوانين لقب من أجلها بالقانوني<sup>(٢)</sup> .

وفي عهد السلطان «سليم الثالث» قام الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» بتكليف «سعيد أفندي ابن محمد أفندي» المشهور بـ «يكرمي سكر جلي»

(١) انظر ترجمته في تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٦٣ - ص ٣٩٣ .

(٢) حقائق الأخبار عن دول البحار ص ٥٥٥ ، إسماعيل سرهنك . المطبعة الأميرية ببولاق ،

١٣١٢ هـ .

بكتابة بحث عن أسباب تقدم الأوربيين وسبل الأخذ عنهم ، فقام هذا بالمهمة وكتب رسالة في ذلك ، وقد طبعت عدة مرات وترجمت للغة الفرنسية<sup>(١)</sup> .

وقد فتح السلطان «سليم الثالث» مراسلات مع ملك فرنسا ووزرائه حيث كان يبحث عن ثقافة سياسية من أكثر دول أوربا تقدماً وقتذاك ؛ ولأنه كان يميل إلى الثقافة الفرنسية على الأخص ، وكانت رسائله التي تبادلها مدة ثلاثة سنوات مع «لويس السادس عشر» تفيض برغبته في المعرفة والاطلاع<sup>(٢)</sup> .

وكذلك كان لـ «سانت مور Saint Maur» الذي كان يتولى الشؤون فوق العادية لدى السلطان «سليم» تأثير عليه ، ووضع نصب عينيه أن يحكم بنظام مماثل للنظام الفرنسي<sup>(٣)</sup> .

ومع كل الجهود التي بذلها السلطان «سليم» في ذلك المضممار التغريبي ، وفي محاولته الإصلاحية على الطريقة الأوربية ؛ فقد فشل في تحقيق ذلك فشلاً ذريعاً ، ودفع عرشه وحياته ثمناً لتلك المحاولات ؛ إذ ما لبث أن ثار عليه الانكشارية بعد محاولته لإدخال النظام الجديد على الجيش العثماني الذي يشكل الانكشارية محوره الرئيس ، وعزلوه عام ١٨٠٧م وأقاموا «مصطفى الرابع» سلطاناً بدلاً منه ، الذي ما إن ارتقى عرش السلطنة حتى سارع إلى قتل «سليم الثالث» ، غير أن أنصار السلطان «سليم» أرادوا أن يثأروا من خصومهم فقاموا بثورة عنيفة أدت إلى عزل السلطان الجديد ثم قتله ، ونادوا بتعيين أخيه السلطان «محمود الثاني»<sup>(٤)</sup> .

---

(١) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٤) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢٥٨/١ وما بعدها .

وبارتقاء السلطان «محمود الثاني» على سدة السلطنة عام ١٨٠٨ م تبدأ مرحلة خطيرة وحاسمة في التوجه العثماني نحو أوروبا ، ذلك التوجه الكبير والسريع في محاولة نقل الأمة إلى الدائرة التابعة للغرب ، وفي محاولة إدخال نظم أوروبا وأساليبها بحذافيرها على المسلمين دون أدنى مراعاة لدينهم وعقيدتهم .

و«محمود الثاني»<sup>(١)</sup> هو الابن الثاني لـ«عبد الحميد الأول» من امرأة فرنسية ، فلا غرو بعد ذلك أن يشغف قلبه بأوروبا وفرنسا خاصة ، ويهيم بمتابعتها وتقليدها في كل شيء .

وبرغم الأحداث العصبية والثورة العنيفة التي أشعل فتيلها الانكشارية ضد ما يسمى بالنظام الجديد ، وأدت إلى عزل السلطان سليم الثالث الذي حاول إدخال ذلك النظام إلى الجيش ثم مقتله - فقد صمم السلطان محمود الثاني على أن يستأنف سياسة سليم الثالث الإصلاحية وعلى الطريقة الأوروبية أيضاً ، فأخذ لتوه يتبنى عادات الأوربيين فارتدى الطربوش والسترة وأطلق لحية صغيرة<sup>(٢)</sup> .

وقد انتقلت إليه أفكار الثورة الفرنسية وأدرك التغيير الجذري الذي يسود أوروبا عن طريق بعض الأتراك الذين عاشوا في باريس<sup>(٣)</sup> .

وقد أدرك السلطان محمود الثاني من الأحداث أنه لن يتم له المضي في سياسته الإصلاحية ذات الطابع التغريبي ما لم يقم بالقضاء على الانكشارية

---

(١) انظر ترجمة حياته وتفاصيل ما قام به في تاريخ الدولة العلية ص ٣٩٨ - ص ٤٥٣ .

(٢) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ١٣٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٣ .



الذين يمثلون العقبة الحقيقية في طريقه ، فبدأ يخطط للقضاء عليهم حتى واته الفرصة ليلة ١٣ - ١٤ يونيو سنة ١٨٢٦ م ، حين قام الانكشارية بتمرد للاحتجاج على مشروع الإصلاح الجديد ، فما كان من السلطان محمود إلا أن أمر قائده المطيع حسين الأسود بعبور البسفور بقواته الموالية له ، التي هاجمت الانكشارية في مواقعهم ، ودكت بمدافعها ثكناتهم ، حتى تم القضاء عليهم .

عندئذ خلت الأجواء للسلطان محمود للقيام بتغريب السلطنة ، وعلمنة الدولة ، وتنحية الشريعة الإسلامية بعد أن قضى على الانكشارية أقوى معارضيهِ ، ولم يعد يوجد في الساحة من يجروء على معارضته أو يحاول انتقاد سياسته التغريبية وتطلعاته الأوربية .

ولا ينبغي أن ينسبنا الحديث عن الغزو الفكري وتشبع السلاطين به ما عنيانا به أساساً ، وهو ما كانت تنوء به الدولة العثمانية من انحرافات عقدية وعلمية خطيرة أفسحت المجال لدخول الغزو الفكري ، ومكنت له من الاستقرار في عقول كثير من الحكام والقواد ، والتأثير في سياساتهم وتوجهاتهم .

وما كان للعلماء أن يتنبهوا إلى خطر الغزو الفكري الداهم ، ولا أن يقفوا في وجه من ولى وجهه شطر الغرب من سلاطينهم وحكامهم ، وأكثرهم غارقون في خيالات التصوف ، وعائمون في خرافاته وأساطيره ، ويتنافسون في نصره مذهبهم ، ونشر طرقهم .

فمن هنا وجد السلطان محمود الطريق يكاد يكون خالياً من المعارضين ، وأمن إلى تنفيذ ما اعتزمه من إصلاحات على الطريقة الأوربية

بعد أن لم يرتفع العلماء إلى مستوى الأحداث في عصره ، وبعد أن قد تم له القضاء على الانكشارية أشد خصومه المعارضين وأقواهم .

لقد كان الواقع المليء بالانحرافات العقدية والعلمية مناخاً مناسباً وتربة خصبة ، وجد خلالها دعاة الغزو الفكري فرصة لا تقدر بثمن للإلقاء بذور دعواتهم وإحكام مخططاتهم فيما يرمون إليه من تغريب .

فالضعف الحربي والعسكري الذي أحدث للدولة عدة نكسات متوالية كان سببه الإعراض عن تعلم العلوم النافعة بحجة أنها من علوم الكفار ، وتلك لعمر الله ثغرة عظيمة وقعت في تاريخ المسلمين نفذ من خلالها أعداء الإسلام وأحسن دعاة الغزو الفكري استغلالها لصالح أفكارهم وسياساتهم .

فقد اجتمع السلطان محمود الثاني بالعلماء والقواد في دولته وبعد مداولات وافق على إدخال أسلحة الكفار وتعاليمهم ، ودعمت تلك الموافقة بفتوى شيخ الإسلام الذي قرأها بنفسه مخاطباً الانكشارية الحاضرين والغائبين ، وأشار إلى ماورد في الكتاب الكريم والسنة من وجوب تعليم العسكر وأهل الإسلام فنون الحرب<sup>(١)</sup> .

وقد عقد هذا الاجتماع في استامبول في مطلع شهر أكتوبر - تشرين الأول عام ١٨٠٨ م ، وقد دعى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار في هذا الاجتماع إلى ضرورة استخدام الأسلحة الحديثة ، والتي كان استخدامها في الجيش الروسي في مقدمة أسباب انتصارات الروس الأخيرة على جيش الدولة<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٦ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/ ٥٣٥ .

وقد كان هذا الاجتماع قبل القضاء على الانكشارية ، وبعد أن تم القضاء عليهم عقد اجتماع آخر عام ١٨٢٦م أصدر إثره السلطان محمود الثاني ما عرف باسم خطي شريف ، ويقضي بإنشاء جيش جديد وفقاً للنظم الأوروبية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان الحال من إفراط في الإعراض والجمود حتى تعدى ذلك إلى أسلحة الحرب ، إلى إفراط في الأخذ والتقبل حتى التعاليم الأوروبية والأنظمة الغربية التي لا تكاد تتفق مع الإسلام في شيء ، وإذا كان هذا الإعراض والجمود الذي أدى إلى تأخر وفساد في الأوضاع كان سببه العلماء ؛ فقد أفلت الزمام من أيديهم بعد أن استولى عليه دعاة التغريب بسبب موقفهم الجامد والرافض لهذه العلوم .

وإغلاق باب الاجتهاد ورفض إعادة فتحه من جديد ومعاقبة المجتهدين كان انحرافاً عظيماً دفعت الأمة ثمنه غالياً ، دفعت ثمنه أولاً تخلفاً علمياً مريعاً ، وجموداً مزمناً ، ودفعت ثمنه ثانياً يوم تلقفها دعاة الغزو الفكري يقودونها بعيداً عن الإسلام الذي يحظر الاجتهاد ويعاقب المجتهدين ، كما تعلل بذلك من تولى قيادتها من دعاة الغزو الفكري .

فقد أمر السلطان «محمود» الثاني عام ١٨٣٧م بالبدا في عمل موسوعة مدنية تتناول الأمور التي لم يرد عنها نص في القرآن الكريم أو السنة<sup>(٢)</sup> . لتوضع تلك الأمور التي لم ترد فيها نصوص شرعية في قوالب مستوردة من أنظمة الغرب وأساليبه .

---

(١) المصدر السابق ١/ ٥٤٧ .

(٢) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ١٩٧ .

وهل ياترى لو بقي باب الاجتهاد مفتوحاً وتشجيع المجتهدين موجوداً،  
هل كان من الممكن التعلل بمثل هذه العلة الواهية؟

لقد كان هذان الانحرافان اللذان وقع فيهما المسلمون في العصور  
المتأخرة واستفحل أمرهما في الفترة التي ندرسها - ثغرتين عظيمتين نفذ من  
خلالهما دعاة التغريب والغزو الفكري للمطالبة بإصلاح الأوضاع وعلاج  
التخلف الذي أصاب الأمة .

لقد كانت الأوضاع بحاجة ماسة إلى الإصلاح ، ولم يكن بالضرورة أن  
يقوم على الطريقة الغربية ، وإدخال العادات والنظم الأوربية ، كما فعل  
السلطان العثماني «محمود» الثاني ، ولكنها على أية حال كانت فرصة  
تمكنت أوربا وأذئابها من المنتسبين إلى الإسلام من استغلالها والحصول من  
ورائها على كل ما يرمون إليه من نشر لفكرهم وثقافتهم وعاداتهم ليفسدوا  
المسلمين بالمرة ، ويسهل عليهم استعمارهم وإخضاعهم .

ويجدر بنا أن نقف بعض الشيء مع هذا السلطان العثماني الذي قيل إنه  
نحا في نزعته الإصلاحية على الطريقة الأوربية منحى والي مصر «محمد  
علي باشا» وتأثر به<sup>(١)</sup> .

وما قام به السلطان «محمود» الثاني من إصلاحات مثال واضح على  
التخطيط والفشل الذريع اللذين مني بهما كل من رام الإصلاح على الطريقة  
الأوربية ممن جاء بعده وحذا حذوه من حكام المسلمين .

وبنظرة سريعة إلى المحاولات التي قام بها السلطان «محمود الثاني» في  
سياسته الإصلاحية التي سار عليها مدة ثلاثين عاماً تقريباً هي مدة حكمه ،

(١) الشرق الإسلامي ص ٢٠٥ .

والتطلعات التي كان يتطلع إليها ويسعى إلى تحقيقها؛ تتجلى لنا حقيقة هامة وهي تفاهة تلك التطلعات وضالة تلك الأهداف، وهذه سمة لم يكد يسلم منها أحد ممن نادوا بالإصلاح على الطريقة الأوروبية وسلكوا الوجهة التغريبية من حكام المسلمين .

والسبب في تفاهة تطلعاتهم وضالة أهدافهم وبالتالي فشل إصلاحاتهم هو ما أصيبوا به من هزيمة نفسية وروحية جعلتهم يفقدون صوابهم في كثير من الأحيان ، ويجعلون أكبر همهم هو تقليد أسيادهم ومحاكاة هازمهم ، ليس في تحصيل القوة الحقيقية ، والعمل الدؤوب لاتخاذ الأسباب المادية ، فتلك لعمر الله طموحات لا تتلاءم ونفسياتهم المنهزمة وعقولهم المضطربة ، فلم يبق لهم إلا التشاغل بالأهداف الرخيصة والتطلعات التافهة ضمن سياسات ضحلة ، وتخطيطات مضطربة ، يغترون فيها بالأمة ، ويحاكون بها أعداءها في الشكليات والمظاهر والرسوم ، فظنوا أنهم حين يلبسون جيوشهم أزياء أوروبية ويدخلون ضمنها فرقاً موسيقية كما يحدث في أوروبا يحصلون على أسباب القوة ، ويواكبون الأمم الأوروبية في مضمار الرقي والتقدم .

وقد أعجبني ما قاله الشيخ «محمد رشيد رضا» عن إصلاحات العثمانيين في تلك الفترة حيث يقول : «وأما رجال السياسة والإدارة فكانوا مفتونين بتقليد الإفرنج في معيشتهم وحریتهم وظواهر نظمهم ، وإنما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الأصاغر لمن فوقهم من الأكابر ، كالأزياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجموا أكثر القوانين فلم يقيموا منها شيئاً ، وأما

العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئاً<sup>(١)</sup>.

وهذه نبذة صغيرة لأهم التجديدات والإصلاحات التي قام بها السلطان «محمود» الثاني لتتضح لنا تفاهة تطلعاته ، وضآلة أهدافه ، وضحالة سياسته التغريبية .

يذكر عن السلطان «محمود» الثاني أنه كان يحب الشعر والموسيقى وسائر الفنون ، وقد أنشئت في عهده مقصورة في «بيرا» زودت بالصحف والكتب المستوردة من كثير من البلاد الأوربية<sup>(٢)</sup>.

وفي عهده أيضاً انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعايته لها وتشجيعه إياها ، إذ إنه اقتبس منها كثيراً ، وأفادته بما أحرزته من تقدم وخبرة<sup>(٣)</sup> ، كما يقولون .

وقد أكثر «محمود الثاني» من إرسال الشبان العثمانيين إلى كل من «لندن» و«باريس» لتحصيل كل أنواع الفنون والمعرفة . . . وتتميز سنة ١٨٢٧م بالإكثار من إرسال بعثات من الطلبة إلى أوروبا ، ويقال إنه تأثر في ذلك بـ«محمد علي» الذي كان قد أرسل بعثة كبيرة إلى باريس سنة ١٨٢٦م<sup>(٤)</sup>.

ومن أهم التجديدات على يدي ذلك السلطان رائد الإصلاح كما يحلو للتغريبين أن يسموه استخدام الموسيقى في الحرس والجيش ، وقد أنشئ لهذا

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٤١٥ .

(٢) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ٢٠١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

الغرض مزيكا همايون مكتبي في سنة ١٨٢٦ م ولكنها اتخذت مظهر المدارس الحربية ، إذ كان الغرض الأساسي منها إمداد الجيش بالموسيقين ، وفي سنة ١٨٣١ م استدعي «Donizeui» أخو «Goetaro» المؤلف الموسيقي المشهور لتأليف فرقة موسيقية والإشراف على هذه المدرسة<sup>(١)</sup> .

وهذا في الوقت الذي استشرى فيه الضعف بالجيش العثماني ، وتوالت على الدولة هزائم ساحقة من روسيا وغيرها ، سارع هذا السلطان لإنقاذ جيشه وتدارك دولته بإدخال فرق موسيقية إلى صفوفه ، وبناء مدرسة للموسيقى تخرج فرسان الحرب وصناديد القتال . ويقول «Jouanin» : إن العادات الأوربية أخذت تنتشر يوماً بعد يوم بسرعة كبيرة ، وأذن السلطان لإيطاليا ببناء مسرح وتمثيل أدوار فرنسية وغيرها<sup>(٢)</sup> .

وكان السلطان يظهر في ملابس نظام جديد في أكثر الحالات ، وتأييداً منه للأفكار الجديدة ترك العمامة والقفطان ولبس الحذاء والسروال الضيق والقميص والطربوش ، وكان السروال على النظام القوقازي ، وسرج حصانه من النوع الإنجليزي وحذاؤه مثبت به مغماز عند ركوب فرسه ، وعلى رأسه ما يشبه القبعة من حرير أزرق<sup>(٣)</sup> .

ولم يكن يشبه هذا الخليط المتنافر الذي جعله السلطان تقليداً له وعادة إلا الاضطراب الذي كان يموج في الإصلاح الحربي في وقته ؛ حيث إن الجيش الجديد كانت ترى فيه القمصان الروسية والبنادق البلجيكية وأغطية الرأس

(١) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٣ .

التركية والأحزمة المجرية والسيوف الإنجليزية، إلى جانب القوانين واللوائح الفرنسية والمعلمين من أم شتى<sup>(١)</sup> .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «...حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

وهذه سمة أخرى اتسمت بها إصلاحات دعاة الغزو الفكري والتغريب وهي الاضطراب والتناقض والحيرة فيما يقدمون عليه من خطوات، إلى جانب ما ذكرناه من تفاهة تطلعاتهم وضآلة أهدافهم، وبالتالي فساد إصلاحاتهم وفشل تخطيطاتهم.

وقد ذكرنا في مبحث الولاء والبراء كيف حاول «محمود الثاني» بسياسته التغريبية أن يقضي على هذه العقيدة، وأن يطمس معالمها حتى يسهل عليه تنفيذ سياسته، حتى قال قولته المشهورة التي تطالب بالمساواة التامة بين الطوائف الثلاث، المسلمين واليهود والنصارى، وإزالة الفوارق بينهم، وحاول أن يلزم العلماء بلبس الطربوش الأحمر، ويلزم الجنود بوضع حزامين متقاطعين على شكل صليب، وإعفاء أهل الذمة من لبس القلنسوة المميزة لهم، إلى غير ذلك من أعمال استهدف بها تقويض أركان عقيدة الولاء والبراء، وإزالة معالمها.

ويعتبر بعض المؤرخين الأوربيين ومن بينهم «أرنولد توينبي» ما وقع في عصر السلطان «محمود الثاني» أول تأثير غربي حقيقي على تركيا<sup>(٢)</sup> .

وقد كان «محمود» قليل التوقير للدين ورجاله<sup>(٣)</sup>، كثير الاستهانة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٦. والجديد بالذكر أن السلطان سليم الذي قتله الانكشارية هو أول من اتخذ الزي الأوربي للجيش. انظر: الدولة العثمانية ١/٥٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٢.

(٣) ذكرنا من قبل أنه لا يوجد في الإسلام ما يسمى برجال الدين كالنصرانية مثلاً، بل يوجد فيه العلماء. انظر ص ٥٩٦ من المجلد الأول.



بالتقاليد والأوضاع ، فأثارت تصرفاته مخاوف المسلمين وسخطهم ، وبلغ غضب الناس أن سبه درويش على قارعة الطريق ، واتهمه بمالأة النصارى على المسلمين ، وأنذره بسوء المصير<sup>(١)</sup> .

ومع فشل الإصلاحات التي حاول السلطان «محمود» الثاني القيام بها والتجديدات التي لم يكن لها أي فائدة تذكر ، فقد بالغ المؤرخون كثيراً في تقدير الدور الذي قام به والإصلاح الذي أدخله<sup>(٢)</sup> .

ولعل أهم عمل قام به السلطان «محمود» واستحق عليه إشادة كثير من المؤرخين هو إلغاء الفيالق الانكشارية<sup>(٣)</sup> ، مع أن كثيراً منهم اعتبر أن انتهاء الانكشارية كان انتهاءً للمجد الحربي للدولة العثمانية<sup>(٤)</sup> ، ورأى بعضهم أن القضاء على الانكشارية كان بداية النهاية للدولة العثمانية<sup>(٥)</sup> . كما ذكرنا من قبل .

ونمضي مع خطوات الغزو الفكري وما أعقبها من استيراد للمبادئ والنظم في عاصمة الدولة العثمانية الدولة الإسلامية الأم ، لا لنورخ لتلك الحقبة السوداء من تاريخ الأمة المسلمة ، ولكن لنلقي بعض الأضواء على تلك الخطوات الخطرة التي أدت إلى منزلق البوار في حياة الأمة .

فقد مات السلطان «محمود» الثاني سنة ١٨٣٩ م وخلفه ابنه «عبد المجيد» في السادسة عشرة من عمره ، فكان صغر سنه هذا فرصة لبعض الوزراء

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٢٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٢ .

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/ ٥٥٥ .

(٤) حركة الإصلاح العثماني ص ٢٤٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

التغريبيين لإكمال ما بدأه والده الراحل من إصلاحات على الطريقة الأوروبية، والتمادي في استحداث الوسائل التغريبية، ومن هؤلاء الوزراء الذين ظهروا في ثياب المصلحين ومسوح الصادقين «مصطفى رشيد باشا» الذي كان سفيراً للدولة في «لندن» و«باريس»، ووصل إلى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان «محمود» الثاني، وكانت باكورة إصلاحاته استصدار مرسوم من السلطان عرف «بخط شريف جلاخانة» أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر عام ١٨٣٩م، وجاء فيه: «إن النظم الأهلية تضمن لرعايانا من الآن أمناً شاملاً على أرواحهم وشرفهم وأموالهم، وهذه المنح حق للجميع من أية ملة أو مذهب... يستمتع بها الكل على السواء»<sup>(١)</sup>.

وبدأ من أجل ذلك عهداً جديداً يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون<sup>(٢)</sup>.

وفي جزيرة متلين اجتمع نفر حافل من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود، وهناك خطبهم «رضا باشا» - وهو من المنسوين إلى الإصلاح - باسم السلطان، فقال: أيها المسلمون والنصارى واليهود، إنكم رعية إمبراطور واحد وأبناء أب واحد، إن السلطان يسوي بينكم جميعاً<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٢٥٣.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٧/١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٣.

«ولم يلق الخط الشريف أو الدستور الذي ساندته «مصطفى رشيد» وقلة من المحيطين به ترحيباً أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم ؛ فأعلن العلماء استنكارهم وتكفيرهم لـ«رشيد باشا» ، واعتبروا الخط الشريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله وبخاصة في مساواته المسيحيين بالمسلمين ، ورأوا أن ذلك - وبغض النظر عن النواحي الدينية - سيؤدي إلى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان .

وكان هذا الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية ، وهو إثارة الشعور القومي لدى الشعوب المسيحية ضد الدولة»<sup>(١)</sup> .

وبهذا المرسوم طعنت عقيدة الولاء والبراء في الصميم ، ونحيت جملة هامة من أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بأهل الذمة وعلاقات المسلمين مع غيرهم .

«وبهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا . . . مس السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف ، وتناول الشريعة الإسلامية بالتحريف ، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لا بد أن يكون تمييز بين المسلمين ومن في ذمة المسلمين ، فأما هذا التصريح الخطير فله دلالة ، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزاناً صالحاً للحكم ، ولا بد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن»<sup>(٢)</sup> .

---

(١) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٠٨ .

(٢) الشرق الإسلامي ص ٢٥٤ . ووصفه لأحكام الشريعة بالتقاليد القديمة وصف باطل من مخلفات الغزو الفكري .

وقد أنشأ رشيد باشا مجلساً للنواب ، ووضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع الحديثة واستقدم رجلاً فرنسياً ليضع قانوناً مدنياً حديثاً للدولة ، واشتد في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها ، وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقاً مالية<sup>(١)</sup> ، ثم صدر مرسوم آخر عام ١٨٥٦م أكد فيه السلطان عبد المجيد الأول المبادئ التي سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا ، وزاد فيه عدة امتيازات وحصانات لرعايا الدولة غير المسلمين ، وكانت قيمته في أنه اشتمل على اعتراف صريح واضح بالمساواة الكاملة بين جميع الأديان في الإمبراطورية العثمانية في شؤون الضرائب والقضاء والحقوق والواجبات المدنية ، ومنح النصارى حقاً قانونياً مطلقاً في المساواة بالمسلمين<sup>(٢)</sup> .

ويعتبر السلطان عبد المجيد أول سلطان عثماني يضيفي على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية ، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرماني التنظيمات عامي ١٨٥٤م ، ١٨٥٦م ، وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمي بعهد التنظيمات وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي ، وبهذين فرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية ، وبدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة ، وتستلهم الفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٤ ، ومما يذكر أن أكثر هذه الأوراق المالية صدرت دون أي رصيد معدني ، وبالتالي فقدت قيمتها . حدث ذلك دون أن ينصحهم أحد من مستشاريهم الأوربيين الذين يعرفون بدهاء خطورة هذه الخطوة ، وفداحة هذا الخطأ من الناحية الاقتصادية .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٨/١ .

والحق أن السلطان عبد المجيد كان خاضعاً لتأثير وزيره «رشيد باشا» الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته ، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة ، وبمساعده أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو<sup>(١)</sup> .

وحينما رأى المسلمون أن الدولة تساوي بهم النصارى واليهود ، وتستبدل بالشريعة الحنفية قوانين النصارى ، وتخلع الأزياء القديمة (الشريفة) لتتخذ زي النصارى ، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد تأتي أمراً إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو تنالهم بضيم - نفروا من ذلك نفوراً عظيماً ، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بد في إسقاطه وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي ، وخوفهم من وثوب المسلمين وثورتهم<sup>(٢)</sup> .

غير أن عزل رشيد باشا لم يؤد إلى وقف حركة التغريب ولم يمنع من استقدام المزيد من الأنظمة والقوانين من الغرب بعد أن مهد لها الطريق ، وفتحت لها الأبواب ، ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة ١٨٤١ م ، إلا أنه عاد بعد أربع سنوات في عام ١٨٤٥ م تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا السير في طريق التحول العلماني ...<sup>(٣)</sup> ، وعاد بعد ذلك ليتولى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦ م وعزل منها سنة ١٨٥٨ م<sup>(٤)</sup> .

- 
- (١) من مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٣ . ترجمة وتقييم وتحقيق وتعليق : محمد حرب عبد الحميد . دار الوثائق . الكويت .
- (٢) الشرق الإسلامي ص ٢٥٦ .
- (٣) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٠٩ .
- (٤) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/ ١٨١ .

وازدادت الأحوال سوءاً وانحطاطاً ، مما جعل رجال الدولة يفكرون حقيقة في التغيير والإصلاح فلا يجدون أمامهم غير الطريقة الأوربية في الإصلاح ، والوجهة التغريبية في التغيير التي بدئ في اتخاذها ، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من رجال الدولة هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل في التمثيل السياسي الخارجي أو للدراسة العسكرية في الخارج ، بعد أن خلت الساحة من ظهور مصلح إسلامي يعيد الأمور إلى نصابها ، ويقطع الطريق على أنصار الغزو الفكري بتبني إصلاح جاد يعتمد على المنهج الإسلامي .

وكما قال الكاتب التركي الأستاذ «نجيب فاضل» : ولخلو الإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد ترك المجال للدوبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له . . وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل ، وذبول الإرادة ، وعموم الشلل<sup>(١)</sup> .

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم ، وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين ، حتى إن الآلوسي لما زار والي كركوك علي باشا عام ١٢٦٧ هـ أثنى عليه وامتدحه بحب العلماء وإكرامهم وبالأخلاق الفاضلة ، ثم قال بعد ذلك : «والظاهر أنه غير منحل العقيدة ، ولا منتحل شيئاً من الآراء الإفرنجية الجديدة ، حيث إنه لم يسمع منه جليس حديث لوندرة وباريس ! ويكفي أهل البلد اليوم رحمة أن

---

(١) السلطان عبد الحميد . حياته وأحداث عصره ص ٤٣ .

واليها سالم عن تلك الوصمة ، وقلما تنال هذه الرحمة في هذا الزمن  
الذميم! <sup>(١)</sup> .

وقد استمر التيار التغريبي في محاولة إحكام السيطرة على جميع  
المجالات والأجهزة في الدولة العثمانية، وتوالت الضغوط على السلطان عبد  
الحميد الثاني بعد ذلك حتى أصدر الدستور (القانون الأساسي) عام ١٨٧٦ م  
في أوائل حكمه ، غير أن عبد الحميد وهو الحذر من دسائس الغرب أوقف  
العمل بهذا الدستور عام ١٨٧٨ م ، ولم تفلح جهود أنصار الدستور في  
إعادة العمل به ، إلا بعد قيام جمعية الاتحاد والترقي بثورة عسكرية عام  
١٩٠٨ م ضد السلطان عبد الحميد ، وأعدت العمل به .

غير أن ثورة عارمة مضادة للثورة الأولى تزعمها الدراويش وأئمة  
المساجد وبعض العلماء وطلبة العلم اندلعت في العاصمة استانبول ،  
وشاركهم في ذلك ضباط الجيش «الآلالية» <sup>(٢)</sup> ، ولقيت استجابة من جماهير  
العامة ، وتنادى الجميع إلى إلغاء الدستور بحجة أن مبادئ الشريعة  
الإسلامية باتت في خطر، وطافت المظاهرات في شوارع المدينة تهتف «باشا  
سون شريعة محمدية» أي فلتعش الشريعة المحمدية . وامتدت هذه الثورة إلى  
أنحاء الأناضول ، ولكن جيش الحركة التابع لجمعية الاتحاد والترقي ما لبث  
أن أخمد هذه الثورة العارمة ، واستطاع بعد قتال مرير أن يخلع السلطان  
عبد الحميد سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م <sup>(٣)</sup> .

(١) نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام ص ١٠٣ .

(٢) هم الضباط الذين نشؤوا وتقدموا من بين صفوف الجند بناء على خدماتهم الطويلة ،  
وخبراتهم العملية ، ولم يكونوا من خريجي المدارس الحديثة والكليات العسكرية المتأثرين  
بروح التغريب في الغالب .

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٠٠٦/٢ . وانظر تفاصيل ذلك في المصدر  
نفسه ١١٦/١ .

ومع محاولة السلطان عبد الحميد التصدي لرياح التغريب التي كانت تعصف بالدولة في ذلك العهد، إلا إن قبوله بالدستور عام ١٨٧٦م يمثل خطأ فادحاً في سياساته الأولى، هذا الدستور الذي ينص على أن جميع رعايا السلطان «عثمانيون» وأنهم يتمتعون بالمساواة أمام القانون<sup>(١)</sup>.

وإن كانت الظروف فيما بعد قد أجبرت عبد الحميد بإعلان الدستور عام ١٩٠٨م فإن قبوله للدستور عام ١٨٧٦م لم يكن له أي مبرر على الإطلاق، ولم يكن لحاكم عرف ببعد النظر وعمق السياسة مثل عبد الحميد أن يستجيب للضغوط الرامية إلى تنحية الشريعة الإسلامية، وإلغاء الفوارق بين المسلمين وغيرهم، وإعلان الدستور الذي يذوب الهوية الإسلامية، وينال من أحكامها. ويعتبر هذا الدستور من أهم الخطوات التي أدت إلى علمنة الدولة العثمانية وإلى تمزيق ولاياتها<sup>(٢)</sup>.

ويقر عبد الحميد على نفسه أنه في أوائل حكمه كان مخلصاً في إعلان القانون الأساسي (الدستور)، بل إن والده السلطان «عبد المجيد» - كما يقول - قد أقنعه بهذه الفكرة، وأن خلافه مع الصدر الأعظم «مدحت باشا» لم يكن حول شرعية الدستور، وإنما كان حول مطالبة الصدر الأعظم بتحجيم دور السلطان وتقييد سلطاته عن طريق الدستور نفسه<sup>(٣)</sup>.

مع أن «عبد الحميد» كان يعتقد بعدم فائدة ذلك الدستور حين إعلانه، أما بعد عزله فيرى أنه لم يكن غير مفيد فحسب، بل هو ضار أيضاً<sup>(٤)</sup>.

---

(١) المصدر السابق ١/ ١١١.

(٢) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٣١.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٤٨.

(٤) المصدر السابق ص ٢٩.



وكان يعتقد أن الدستور يقتل العنصر الأصلي في البلاد يعني المسلمين .  
وتساءل «عبد الحميد» هل يمكن أن يكون في البرلمان الإنجليزي نائب هندي  
واحد ، أو أفريقي أو مصري؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري  
واحد؟ واستغرب كيف يطالبون بوجود نواب من الروم والأرمن والبلغار  
والصرب والعرب في البرلمان العثماني <sup>(١)</sup> .

وقد كان مجلس النواب هذا أو البرلمان يسمى مجلس المبعوثان  
(المبعوثين) باعتبار النائب مبعوثاً من أهالي دائرته الانتخابية ، وعندما أجبر  
السلطان «عبد الحميد» في أواخر حكمه على إعادة الدستور ، وأجريت  
الانتخابات العامة لأول مجلس مبعوثان يجتمع بعد إعادة الدستور  
وتدخلت جمعية الاتحاد والترقي في عمليات الانتخابات لصالح مرشحيها ،  
فكانت النتيجة كالتالي : عدد النواب الأتراك في المجلس ١٤٢ ، وعدد  
النواب العرب ٦٠ ، وعدد الألبانيين ٢٥ ، واليونانيين ٢٤ ، والأرمن ١٢ ،  
واليهود خمسة ، والصرب ٣ ، والأفلاخ واحداً <sup>(٢)</sup> .

وفي الواقع فإن ذلك المسلك التغريبي الذي سار عليه طائفة من سلاطين  
بني عثمان في القرن الثالث عشر - دفع بعض المؤرخين المحدثين كالأستاذ  
«شفيق غربال» إلى اعتبار أن ما قام به السلاطين من محاولات للإصلاح  
على الطريقة الغربية طبعاً!! يعادل أضعاف ما أتاه الكماليون بعد الحرب  
الكبرى <sup>(٣)</sup> ، وأن الكماليين لم يفعلوا أكثر من إتمام ما بدأ به السلاطين ،

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٦٥/١ .

(٣) هي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ م .

ومقارنة بسيطة بين ما أدخله السلاطين من وجوه التجديد وما أدخله الكماليون تنطق بهذا ، فقد استبدل الكماليون مثلاً القبعة بلباس الرأس التركي ، ولكن السلاطين هم الذين استبدلوا الزي الأوربي بالأزياء التركية القديمة ، وقد استبدل الكماليون القانون السويسري بالشريعة في مسائل الأحوال الشخصية ، ولكن السلاطين هم الذين أدخلوا القوانين الأوربية محل الشريعة في غير المسائل الشخصية . وهكذا لا نجد إصلاحاً للكماليين إلا وهو في حقيقته إتمام لما بدأ به السلاطين <sup>(١)</sup> .

ولا شك في أن ما قام به السلاطين في ذلك المضممار قد مهد الطريق أمام الخائن «مصطفى كمال أتاترك» ، الذي قام بإلغاء الخلافة عام ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م وبقطع كل صلة لتركيا بالإسلام ، واتخاذ دستور مدني بعد إلغاء المحاكم الشرعية <sup>(٢)</sup> .

لقد أطلنا النفس بعض الشيء في الحديث عن إدخال التغريب والعلمنة إلى تركيا ، والخطوات التي رافقتها من أجل تنحية الشريعة الإسلامية واستيراد المبادئ والنظم من الغرب عوضاً عنها للتدليل على ما حققه الغزو الفكري في ذلك المجال ، فلئن كانت الشريعة الإسلامية قد نحيت من كثير من أقطار المسلمين تحت وطأة الاستعمار وإكراهه ، وساعد الغزو الفكري

---

(١) من مذكرات غير مطبوعة للأستاذ شفيق غربال . نقلاً عن : الشرق الإسلامي ص ٢٤٣ .  
ونسبة الإصلاح إلى الكماليين أو إلى من سبقهم من السلاطين في المضممار التغريبي هي كنسبة المنافقين الإصلاح لأنفسهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١٧) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١١ ، ١٢] .

(٢) حاضرم العالم الإسلامي ص ١٢٧ للدكتور المصري . وما قام به أتاترك هو جزء من الشروط التي أملتها الدول الغربية على تركيا في معاهدة لوزان ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٣ م ، والمعروفة بشروط كرزون وهو رئيس الوفد الإنجليزي في ذلك المؤتمر .

على تقبل ذلك والرضوخ له ، فإن دعاة الغزو الفكري في تركيا هم الذين قاموا بتنحية الشريعة الإسلامية وعلمنة البلاد .

ففي الهند ألغيت أحكام الشريعة الإسلامية منذ سنة ١٨٥٦ م على أيدي الإنجليز ، وفي سنة ١٨٧٥ م ترجمت القوانين الفرنسية إلى العربية في مصر وأصبحت هي القوانين التي تحكم في المحاكم المختلطة ، وفي سنة ١٨٨٣ م جعلت هذه القوانين هي القوانين التي تحكم الديار المصرية بعد دخول الإنجليز مباشرة<sup>(١)</sup> .

أما الجزائر فقد ألغيت فيها الشريعة الإسلامية سنة ١٨٣٠ م ، وفي تونس أدخل الفرنسيون قانونهم سنة ١٩٠٦ م ليتدخل حتى في الأحوال الشخصية ، وفي سنة ١٩١٣ م وضعوا في المغرب قانوناً مدنياً ماثلاً لما في تونس .

أما بلاد العراق والشام فقد تأخرت في ذلك بسبب تبعيتها للقضاء العثماني الذي يعتمد على مجلة الأحكام العدلية<sup>(٢)</sup> ، ولم تلغ الشريعة إلا بعد دخول الاستعمار الإنجليزي والفرنسي إلى ذينك القطرين<sup>(٣)</sup> .

وسواء أكانت الشريعة الإسلامية قد نحيت بفعل الاستعمار المباشر أو بفعل عوامل الغزو الفكري أو بفعلهما معاً ؛ فقد نحيت الشريعة تماماً من كل البلاد الإسلامية إلا من رحم الله واستقدمت المبادئ والقوانين بدلاً منها ،

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٨٦ . وفي عام ١٩٥٥ م ألغيت البقية الباقية من المحاكم الشرعية في مصر ، وحول اختصاصها إلى القضاء العادي على أيدي أبطال ثورة يوليو ١٩٥٢ م .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٣) العلمانية ص ٥٣٩ .

وأصبحت حياة الناس ومعاملاتهم وكافة شئونهم تدور في فلك التشريعات الوضعية وتحتكم إلى قوانينها ولوائحها . وربما كان آخر شيء يفكر به من تولى إدخال تلك الأنظمة والقوانين هو موافقتها أو عدم موافقتها للشريعة التي سبق لها أن نحيث عن الطريق .

لقد كان الغزو الفكري الذي وجد لبذوره تربة خصبة في تلك الانحرافات العقدية والعلمية التي فصلناها عاملاً رئيساً في تقبل الناس لإلغاء الشريعة الإسلامية ، واحتكامهم إلى القوانين الوضعية ، بل إن الغزو الفكري اليوم يعد العائق الأكبر في طريق العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، حين خرجت أجيال ربيت على عينه وتحت نظره ورعايته لا يربطها بالإسلام إلا اسمه ، وتتطلع دائماً نحو الغرب لتأخذ عنه كل شيء دون بصيرة أو تمييز ، في الوقت الذي تنفر فيه من دينها وتبرم بتاريخ أمتها ، وتضيق به ذرعاً ، وتحاول قطع أي صلة لها بالإسلام .

ويحسن بنا ما دمنا نتحدث عن الدور الذي أحدثه الغزو الفكري وما يزال يحدثه في هذه الأيام في إعاقه تطبيق الشريعة الإسلامية - أن ننقل جزءاً من مقدمة الشيخ «محمد قطب» لكتابه القيم «حول تطبيق الشريعة الإسلامية» حيث يقول : «كلما ذكر تطبيق الشريعة تعالت من هنا ومن هناك صيحات منكرة ، تستنكر الأمر وتستهو له ، كأنما تطبيق الشريعة كارثة ستحل بديار المسلمين ، أو كأنما التفكير في هذا الأمر خبل لا يصدر من عاقل !

الآن؟ في القرن العشرين؟ بعد كل ما حدث في العالم من تطور؟ وبعد

أن أصبح العالم بفعل وسائل الاتصال الحديثة كالقريّة الصغيرة ، لا مجال فيه لاتخاذ زي يخالف أزياء الآخرين؟!

تريدون أن نشذ وحدنا عن الناس؟!

تريدون أن ترجعوا بنا إلى الوراء أو توقفوا عجلة التطور؟!

أم تريدون أن نعتزل العالم كله ونتوقع على أنفسنا؟

وفيم هذا العناء كله؟ وما الذي يلجئنا إلى هذا الطريق الوعر؟

ألكني نكون مسلمين؟ أو لا يكفي نطق لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ليجعلنا مسلمين؟ إنكم تبتدعون في دين الله ما ليس فيه ! فالإسلام يثبت بنطق الشهادتين ، أما قضية الشريعة فهي من الأمور المتغيرة التي يتصرف فيها ولي الأمر بحسب رؤيته لمقتضى الأحوال ! والأحوال الآن لا تسمح كما هو واضح لكل ذي عينين!!

وهل نسيتم الأقليات؟ كيف نطبق الشريعة وفي بلادنا أقليات لا تدين بالإسلام؟<sup>(١)</sup> هل نسيتم الدول «العظمى!» وموقفها من الإسلام؟ وبالذات موقفها من تطبيق الشريعة؟ هل بنا طاقة - نحن المستضعفين في الأرض - نواجه بها الدول «العظمى»؟! إن التفكير في تطبيق الشريعة في الوقت الحاضر تفكير «غير مسئول» ينادي به قوم لا يعيشون بعقولهم في الواقع

---

(١) يرى العلماني يوسف إدريس أن تطبيق الشريعة سيؤدي إلى تقسيم مصر فيقول : «وماذا نفعل بملايين إخواننا الأقباط المصريين إذا أصرروا هم الآخرون على تطبيق الشريعة المسيحية ، هل نقسم مصر حينذاك أم نتحول إلى لبنان آخر؟» . قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١١٧ . وهذه دعوة منكرة لا سابقة لها في التاريخ كما قال الشيخ محمد قطب ، حول تطبيق الشريعة الإسلامية ص ١٠٢ .

التاريخي المحيط بهم! أما «العقلاء» «المسئولون» فإنهم يستنكفون أن يفكروا على هذا النحو ، ويجابهون الواقع بحنكة وروية ، ونظرة «واقعية» إلى الأمور!

كذلك تتعالى الصيحات كلما ذكر تطبيق الشريعة!

وإنها لصيحات المنهزمين في دخيلة أنفسهم ، الذين أكل الغزو الفكري عقولهم وأرواحهم وجعلهم مسخاً مشوهاً لا يصلح لشيء»<sup>(١)</sup> .

هذه تقريباً «أهم الأفكار التي يشوشون بها على الناس ، ليوحوا إليهم أن تطبيق الشريعة أمر لا يمكن تحقيقه اليوم ، بل لا يجوز تحقيقه حتى إن كان في حيز الإمكان! فضلاً عن كونه أمراً لا ضرورة له ولا موجب ، طالما أن إسلامنا متحقق بنطق لا إله إلا الله»<sup>(٢)</sup> .

ولعل أهم شبهة أفرزها الغزو الفكري حول تطبيق الشريعة الإسلامية هي شبهة التطور وعدم ملائمة الشريعة للأحوال المستجدة في حياة الناس .

«هل تصلح الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرناً أن تحكم الواقع المعاصر ، وقد جد في حياة الناس بعد الثورة الصناعية وتقدم العلم وتشابك العلاقات البشرية وتعهدها ما لم يكن قائماً وقت نزول هذه الشريعة؟

وإذا كان تطبيق الشريعة قد ظل ممكناً طيلة القرون العشرة التي تلت نزولها بسبب بطء التغيرات التي جدت في حياة الناس ، وانحصارها في

---

(١) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٧ . وقد ناقش المؤلف حفظه الله تلك القضايا وأتى على الموضوع من جميع جوانبه كعادته دائماً فيما يطرقه من موضوعات ، ولا أعلم حسب علمي كتاباً تناول تلك القضية الخطيرة - قضية الشريعة الإسلامية - وإبطال شبه ومزاعم من يمانع في تطبيقها - مثل كتاب «تطبيق الشريعة الإسلامية» للمؤلف حفظه الله .

أمر ليست بعيدة الشبه بالأحوال التي نزلت فيها الشريعة ، فهل تظل على الدرجة ذاتها من إمكان التطبيق بعد أن كادت تندثر الأحوال الأولى ، ووجدت بعدها أحوال تكاد تكون مبتوتة الصلة بما كان من قبل ؟! كذلك يفكر بعض الناس . . ولعل هذه هي أهم القضايا التي تثور في ذهن «المثقف» الغربي تجاه تطبيق الشريعة . . .»<sup>(١)</sup> .

ويرى الشيخ «محمد قطب» أن كثيراً من الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة الإسلامية ليست إلا من إفرازات الغزو الفكري ، لتظل الأمة بعيدة عن العودة إلى الشريعة الربانية بعد أن أبعدتها عنها الغزو الصليبي ، وأن ما يتعلق من هذه الشبهات بعدم إمكان التطبيق هو مجرد عقبات مصطنعة ضخمت جداً لتصد حتى عن مجرد التفكير في تطبيق الشريعة ، وكثيراً ما تكبر الأوهام في نفوس الناس حتى تصبح في وهمهم هي الحقيقة ، ويصبح الحق هو الخاطر البعيد الذي يحتاج إلى جهد لتثبيته مكان الأوهام ، ومع ذلك فإنه ما كان لهذه الشبهات أن تثار ، وما كان للغزو الفكري أن يتوغل في حياة الناس ، لو أن الناس كانوا على فهم حقيقي للإسلام وممارسة حقيقية لمقتضيات الإيمان<sup>(٢)</sup> .

وبالرغم من مطالبة كثير من الشعوب الإسلامية بتطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من البلاد، إلا أن تلك المطالبة لا تنم عن وعي وإدراك في كثير من الأحيان بسبب المخلفات والآثار التي أفرزها الغزو الفكري .  
لقد ظل الغزو الفكري دوماً عقبة كبرى في سبيل تطبيق الشريعة

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ بشيء من التصرف .

الإسلامية والعودة بها إلى ميادين الحياة كدستور يحكمها مرة أخرى ، وقد رافق خطوات التغريب العملية وتنحية الشريعة الإسلامية ، واستيراد المبادئ والنظم التي تحدثنا عنها فيما سبق ، غزو فكري وثقافي عنيف متواصل لا يكاد يهدأ أبداً .

وجاء جيل غذي بلبان الغرب ، ونشأ يهيم بعاداته وتقاليده ، ويحاول ترسم خطواته ومحركاته في كل شيء ، قد «فتتتهم الحضارة الغربية المزدهرة ، حين عاشوا في البلاد الأوروبية ، أو نشؤوا في مدارسها المنبثة في أنحاء الشرق ، واستمدوا مثلهم العليا في حياتهم من ثقافتهم التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو بعيد ، فهم يعرفون عن تاريخ إنكلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ المسلمين أو العرب ، وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوروبية وما بين مذاهبها من خلاف أكثر ما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامي ، وهم يعرفون أعلام الفكر الأوروبي وشعراءه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربية إلا قليلاً ، وهم بعد ذلك يعيشون في بيوتهم حياة تحاول أن تقلد في مظهرها الحياة الغربية ، وربما وكلوا إلى بعض المربيات الأجنبية تنشئة أبنائهم والقيام على تربيتهم .

وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب بينما فترت الصلات الروحية والثقافية بينهم وبين الشرق والإسلام ، وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدها لا يقترب في أوهامهم إلا بحاضر الشرق البغيض ، وبتلك الأخلاط من حثالة الناس الذين يفترسهم الجهل والفوضى والانحلال .



وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتاب الغرب الذين كانوا يردون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد في القرن العشرين .

يقول «كرومر» : إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي ؛ فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ، ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني<sup>(١)</sup> .

كتب «عبد القادر حمزة» في سنة ١٩٠٤م مقالاً بعنوان «خطر علينا وعلى الدين»<sup>(٢)</sup> ينكر فيه على من يحاولون إقحام الدين في كل شيء ، غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذي يدفعون إليه الأمة ودينها ، كما اندفعت إليه أوروبا من قبل ، فكانت النتيجة وبالأعلى على المسيحيين<sup>(٣)</sup> ، وسمى ذلك هوساً دينياً على حد تعبيره .

ويقول : إن من أخطر الأشياء أن نستنجد بالدين في كل شيء ، بعد أن

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٥٩/١ .

(٢) المقتطف عدد مارس سنة ١٩٠٤م ص ٢٣١-٢٤٠ ، وقد رد عليه رفيق العظم في عدد مايو سنة ١٩٠٤م بمقال يحمل العنوان نفسه «خطر علينا وعلى الدين» ، كما رد عليه محمد كرد علي في العدد نفسه بمقال عنوانه «الدين والعامه» ، كما ذكر ذلك د. محمد محمد حسين رحمه الله .

(٣) قياس الكاتب الدين الإسلامي المحفوظ الرباني على الدين الكنسي المحرف قياس باطل شرعاً وعقلاً وتاريخاً . انظر حول ذلك : مذاهب فكرية معاصرة . التمهيد الأول (الدين والكنيسة) ، والعلمانية الباب الثاني (أسباب العلمانية) .

صار إلى ما صار إليه ، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيئ والتغالي المضمر<sup>(١)</sup> .

ثم يختم الكاتب مقاله مطالباً بأن يترك الدين بيننا في زيه الحقيقي ذلك الثوب الأبيض الطاهر ، وأن لا ننفر الناس منه بإقحامه فيما ليس من شأنه ، منادياً بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعد عامة للناس جميعاً ، ولكل أمة أن تتصرف في مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها دون تقيد أو حجر على الأفهام ، إلا فيما يخرج عن الدين<sup>(٢)</sup> .

وبمثل هذه المقالات التي تدعو صراحة إلى العلمانية وتنادي بعزل الدين كانت تمتلىء الصحف والمجلات في ذلك الزمن ، واتخذ من تحول الدين إلى رسوم وبدع وخرافات ذريعة للدعوة إلى عدم إقحامه في أمور الحياة ، وإبقائه في حدود الشعائر التعبدية .

ويصف الشيخ «محمد رشيد رضا» حزب المتفرنجين الذين انتشر الإلحاد بينهم بأنهم «يعتقدون أن الدين لا يتفق في هذا العصر مع السياسة والعلم والحضارة ، وهؤلاء كثيرون جداً في أوربة وفي المدارس التي تدرس فيها اللغات الأوربية والعلوم العصرية»<sup>(٣)</sup> .

---

(١) لقد كانت الأحوال العقدية والعلمية السيئة مدعاة لدعاة التغريب والعلمنة أن يهاجموا الدين من خلالها وأن يدخلوا ما شاءوا من أفكار وأنظمة لا دينية ، وكان الأولى بالكاتب وأمثاله الذين يأبون الرجوع إلى الدين في كل شيء بحجة ما صار إليه من عادات وتقاليد أن ينادوا بالرجوع إلى الدين الصحيح كما أنزل من عند الله ، لا أن ينادوا بتحجيم دور الدين أو عزله جانباً ، ولكن ما تعلل به الكاتب وغيره ليس إلا ستاراً يقومون تحته بمهاجمة الدين ومحاولة إقصائه عن الحياة كلياً .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٢٧٦- ٢٧٩ .

(٣) للأسف الشديد في تلك الفترة الحالكة المضطربة كانت العلوم العصرية قرينة الإلحاد ونبذ الدين ، وكان الجهل بها ومحاربتها قريناً للعلوم الدينية .

ورأى أكثرهم أنه يجب أن تكون الحكومة غير دينية . وحزبهم قوي ومنظم في الترك<sup>(١)</sup> ، وغير منظم في مصر ، وضعيف في مثل سورية والعراق والهند . ورأيه (أي رأي حزب المتفرنجين) أنه يجب إلغاء منصب الخلافة الإسلامية في الدولة<sup>(٢)</sup> ، وإضعاف الدين الإسلامي في الأمة ، واتخاذ جميع الوسائل لاستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بالرابطة الدينية الإسلامية<sup>(٣)</sup> .

لقد كان إلغاء الخلافة وتنحية الشريعة الإسلامية نتيجة طبيعية ومتوقعة لتفاقم الانحرافات العقدية والعلمية التي أتاحت المجال أمام حملات الغزو الفكري الرامي إلى إلغاء الخلافة التي كانت على علاقتها لا تزال الرابطة الوحيدة بين المسلمين<sup>(٤)</sup> ، وإلى تنحية الشريعة الإسلامية في كل بلد . وما كانت تحدث خطوة في ذلك المضممار التغريبي إلا وتسبقها حملات الغزو الفكري تمهد لها الطريق ، وتقودها دعايات التغريب والعلمنة ، فمثلاً عندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغاءها<sup>(٥)</sup> .

وعندما ألغيت الخلافة العثمانية قام شيخ أزهرى وقاض شرعي !! هو

---

(١) وذلك بسبب الماسونية ويهود الدوغمة .

(٢) وقد تم لهم ما أرادوا .

(٣) المصدر السابق ٦٣/٢ .

(٤) وقد أحسن شوقي عند رثائه للخلافة بوصفه :

حسب أتى طول الليالي دونه      قد طاح بين عشية وصباح  
وعلاقة فصمت عرى أسبابها      كانت أبر علائق الأرواح  
ديوان شوقي ١١٤/١ .

(٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٩٧/٢ .

علي عبد الرازق بإخراج كتابه المشهور : (الإسلام وأصول الحكم) .  
والكتاب كله يدور حول هدم فكرة الخلافة ، كنظام إسلامي في الحكم ،  
ليصل من ذلك إلى النتيجة التي ختم بها كتابه ، حين أنكر أن تكون الخلافة  
أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعاً من الدين في شيء ،  
ووصفها بأنها «خطط دنيوية صرفة ، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم  
ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا لندرج فيها إلى أحكام  
العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة» ، وقد حاول المؤلف أن يصل إلى هذه  
النتيجة من كل طريق<sup>(١)</sup> .

ثم يكشف المؤلف عن هويته التغريبية بقوله الذي ختم به كتابه وهو :  
«لا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع  
والسياسة كلها ، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا به واستكانوا  
إليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول  
البشرية ، وأمتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم»<sup>(٢)</sup> .

وقد «جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة  
واقطاع النصوص وتلفيق الواهيات ، وبين طريقة الباطنية في التأويل  
البعيد ، وسرد نبذاً من سير الطواغيت ونتفاً من أقوال متملقهم ، وعمد إلى  
مغالطات عجيبة ؛ كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالمسيحية المحرفة علاقة  
روحية بين العبد والرب لا صلة لها بواقع الحياة»<sup>(٣)</sup> .

وقد كان لهذا الكتاب آثار بعيدة المدى ، فقد ترجم إلى اللغات الأجنبية

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٩٥ .

(٣) العلمانية ص ٥٨٢ .

وأصبح مرجعاً معتمداً للدراسات الإسلامية هناك ، وقام بتقريبه والثناء عليه كل المهتمين بهذه الدراسات في الغرب ، وظهرت آثاره في كتاباتهم ، وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه عالماً متحرراً متنوراً ، ووضع البعوض على رأس مرحلة فكرية عصرية . . .

ووجدت الأحزاب السياسية فيه ضالتها المنشودة ، فلم تعد تتخرج من إعلان انتمائها للاتجاهات السياسية اللادينية شريقيها وغربيها ، وبراءتها من الدين والمتدينين . أما الكتب التي ألقت في الرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الاستعمارية وأهملتها وسائل الإعلام ، حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة<sup>(١)</sup> .

وكانت قمة النجاح الذي حققته حملات الغزو الفكري المتواصلة هو اقتحام الأزهر ذلك المعهد العريق ، حيث أدخل القانون الوضعي في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وتسميتها كلية الشريعة والقانون بموجب القانون المعروف بقانون تطوير الأزهر . وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بين الشريعة والقانون ، وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائماً أن تنبعث منها قيادة جادة لحركة تحكيم الشريعة وإعادتها إلى التفرد والهيمنة على شؤون الحياة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا نحيت شريعة الله من غالب البلاد الإسلامية ، وكان للغزو الفكري أثره العظيم في تلك التنحية ، وكان لا بد معها من استيراد للقوانين والمبادئ والنظم ، وتم ذلك كله «في ظل الخواء الروحي والتخلف العقدي

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨٣ .

(٢) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص ١٣٢ .

من ناحية ، وفي ظل الغزو الفكري من ناحية أخرى ، وقد تلازما في الحقيقة لارتباط الأخير بالأول ، فقد انهارت الحواجز ولم يعد المسلمون يفرقون بين ما ينبغي أخذه وما ينبغي تركه من «البضاعة الحضارية» الموجودة عند الغرب»<sup>(١)</sup> .

لقد كان موقف المسلمين من الغرب وحضارته موقفاً مضطرباً اتصف بالذهول وعدم الوعي والتمييز بين ما عنده من منافع وأضرار ، وكان الواجب اقتباس ما عنده من منافع ، وترك ما عنده من أضرار ومفاسد ، ولكن الذي حدث بالفعل كان غير ذلك . . .

«فأما الأشياء النافعة فقد اتجهوا إليها ولكن بجهد متقاعس متخاذل متعثر الخطوات . . وأما الفساد فقد سارعوا إليه فاستوعبوه كله ، وعبوا منه عباً كأنما هو «الزاد» . وأما النظم فقد سعوا إلى استيرادها وتقليدها ضارين صفحاً تماماً عما أنزل الله»<sup>(٢)</sup> .

لقد كانت الشريعة الإسلامية الهدف الأول الذي صوبت إليه حملات الغزو الفكري سهامها ، وقد نجحت تلك الحملات في تنحية الشريعة الإسلامية ، وإحلال القوانين الوضعية والنظم الغربية بديلاً عنها .

ولم تكف هذه الحملات عن السخرية بأحكام الشريعة والاستهزاء بمبادئها ، حكماً حكماً ومبدأً مبدأً ، فهاجموا الحدود واعتبروا تنفيذها همجية ووحشية ، وهاجموا الحجاب واعتبروه تخلفاً ورجعية ، وهاجموا قعود المرأة في بيتها واعتبروه كبتاً وحرماناً وتعطيلاً لنصف المجتمع ،

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٣٤٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤ .

وهاجموا تعدد الزوجات وعدوه امتهاً لكرامة المرأة وإطلاقاً لشهوانية الرجل على حسابها ، وهاجموا قوامة الرجل واعتبروها تحدياً صارخاً لما ينادون إليه من مساواة، وهاجموا أحكام الميراث وقالوا عنها إنها غير عادلة، وهاجموا تحريم الربا واعتبروه عائقاً في سبيل الاقتصاد العالمي ومخالفاً له ، ولم يكذبوا على أي حكم من ذلك الهجوم الضاري الذي يؤدي إلى تنفير الناس من تلك الأحكام ، ومعارضتها دائماً ، والوقوف في وجهه من يدعو إليها أو يحاول إظهار محاسنها .

وإذا كانت قضية «تنحية الشريعة الإسلامية» هي القضية الأولى التي أجلب عليها دعاة الغزو الفكري بخيلهم ورجلهم ، فإن قضية ما سمي بـ «تحرير المرأة» تعد المرتبة الثانية بين القضايا التي ركز عليها الغزو الفكري ، وقد تحدثنا عن تلك القضية بشيء من الإسهاب عند كلامنا عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي ، ولكننا نومي هنا إيماة سريعة حول هذه القضية التي شغلت وما زالت تشغل الفكر الإسلامي في هذا العصر<sup>(١)</sup> .

فقد عرفنا عند حديثنا عن الجوانب الأخلاقية والاجتماعية أن الضعف أصابها ، وأنها استحوالت إلى تقاليد خاوية ، وعادات رتيبة يحافظ عليها الناس لأنهم توارثوها عن أسلافهم ، وكانت في كثير من الأحيان تخالف ويخرج عنها ، كما درج بعض المؤرخين على ذكر بعض مظاهر الفساد والاختلاط التي كانت تحدث في المجتمع الإسلامي ، كتلك التي كانت تحدث في احتفالات الموالد وغيرها .

---

(١) نعني بالفكر الإسلامي هنا : الفكر الذي يدور في البلاد الإسلامية بقطع النظر عن اتجاهاته وأهدافه .

ومع خطورة تلك المخالفات فقد كانت في أضيق نطاق ، ولكن البذرة الأولى بذرت زمن الحملة الفرنسية عندما أتى «نابليون بنابرت» معه بجمع من البغايا المتبذلات يخالطن الرجال بكل خلاعة ومجون ، وقد ذكرنا ذلك من قبل ، وكيف أن بعض نساء المسلمين خصوصاً بعض بنات الأكابر قد خلعن جلاباب الحياء والعفة ، ونزلن لمشاركة الفرنسيين في احتفالاتهم ومهرجاناتهم وتبذلاتهم ، ومع غضب المسلمين من ذلك التحدي السافر الذي قام به بعض نسائهم ، وإصدارهم حكماً بقتلهن ، وتنفيذهم للحكم حال مغادرة الفرنسيين إلا أن تلك البذرة التي أُلقيت لأول مرة في الأرض الإسلامية قد ظلت دفيئة فيها ، ولم تنبت إلا بعد حين من الدهر<sup>(١)</sup> .

ثم جاء بعد ذلك أحد المبتعثين إلى الخارج هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (المتوفى سنة ١٨٧٣ م) الذي مكث في باريس من عام ١٨٢٦ م - ١٨٣١ م ، ورافق البعثة كواعظ وإمام لها<sup>(٢)</sup> .

ثم ألف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار «باريز» ودعا فيه إلى تحرير المرأة أي إلى السفور والاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس ، فقال : إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى ، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم<sup>(٣)</sup> .

وقال أيضاً : إن السفور والاختلاط ليس داعياً إلى الفساد ، ودعا المرأة

---

(١) اعتبر النصراني الحاقد لويس عوض أن ما حدث أيام الفرنسيين هو بداية تحرير المرأة المصرية . انظر عودة الحجاب ٨٧/١ .

(٢) هذه البعثة هي أول بعثة أرسلها محمد علي باشا إلى الخارج ، وإرساله إماماً وواعظاً لها ليس أكثر من ذر للرماد في العيون .

(٣) واقعنا المعاصر ص ٢٠٩ .



إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التي يتعاطاها الرجل<sup>(١)</sup>.

«وكانت دعوة جريئة من «رفاعة» لم يجد لها معارضا، خاصة وأن حاكم البلاد قد بارك دعوته ، وبارك أول كتاب وضعه «رفاعة» وهو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، يبرز فيه تقدم الغرب ، وحسن لمواطنيه الانتفاع بتقدمه ، وأكثر من هذا فقد قرأ «محمد علي» الكتاب قبل نشره - بناء على تزكية له من الشيخ «حسن العطار» شيخ الأزهر - فأمر بطبعه وأصدر أمره بقراءته في قصوره وتوزيعه على الدواوين ، والمواظبة على تلاوته ، والانتفاع به في المدارس المصرية ، بل إنه أمر بعد ذلك بترجمته إلى التركية»<sup>(٢)</sup>.

«ولم يكن يتوقع بطبيعة الحال أن تستجيب الأمة الإسلامية في مصر إلى هذه الدعوة الطهطاوية في حينها، فقد كانت بقية الإسلام في نفوس المسلمين، كما كانت سيطرة التقاليد الإسلامية على كل جوانب الحياة ،

---

(١) عودة الحجاب ٢٦/١ .

(٢) المؤامرة على المرأة المسلمة ص ٣٨ نقلًا من عودة الحجاب ٢٧/١ . ويرى بعض الباحثين أن الشيخ «حسن العطار» بعد فراره إلى الصعيد إثر دخول الحملة الفرنسية قد عاد إلى القاهرة، ونجح الفرنسيون في ضمه إلى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر عام ١٨٠٠م وتولى تعليمهم اللغة العربية ، ونقل عنهم علومهم وقد اندمج إلى حد كبير في علومهم ، وكثيراً ما تغزل في أشعاره بأصدقائه منهم ، حتى وصف العطار بأنه من دعاة التجديد ، وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد علي بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التي يعتمد عليها محمد علي في خطواته التجديدية في مصر ؛ فليس غريباً بعد ذلك أن يؤازر تلميذه رفاعة في دعوته إلى التفرنج وإلى تحرير المرأة . انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٦٩ .

تبلغان من القوة إلى الحد الذي يجعل مثل تلك الدعوة في ذلك الوقت مثاراً  
للسخرية ومثاراً للاستنكار الشديد . . .

ولكن رأس الحربة كان يشير إلى الاتجاه . . «الاتجاه إلى التغريب»<sup>(١)</sup> .

وبعد هلاك رفاة الطهطاوي بحوالي ربع قرن جاء من يسمونه بمحرر  
المرأة قاسم أمين، فألف كتابه : «تحرير المرأة» زعم فيه أن حجاب المرأة ليس  
من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة  
لقواعده<sup>(٢)</sup> .

وقد لقي هذا الكتاب معارضة شديدة ، فما لبث مؤلفه أن أسفر عن  
وجهه الحقيقي ، وخلع عنه ثوب الحياء ، وقناع التدين ، وكشف في جرأة  
وصراحة عن أهدافه المغرضة في كتاب ظهر في العام التالي وهو كتاب (المرأة  
الجديدة) ، الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً ، فالتزم فيه مناهج  
البحث الأوروبية الحديثة ، التي ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة<sup>(٣)</sup> .

والمرأة الجديدة التي قصدها «قاسم أمين» هي المرأة الأوروبية ، وهاجم  
القوامة التي شرعها الله للرجل وأسماها «حق ملكية الرجال للنساء» ، ودعا  
إلى ترك حرية النساء للنساء حتى ولو أدى الأمر إلى «إلغاء نظام الزواج ،  
حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة لا تخضع لنظام ولا يحددها  
قانون»<sup>(٤)</sup> .

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٠٩ .

(٢) عودة الحجاب ١/ ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٦٢ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٦٣ .

ثم يميّط اللثام عن وجهه التغريبي ، ويبسط آراء الغزو الفكري التي اعتنقها فيقول : «نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها في ذلك أكبر من خطئها في كثير من الأمور الأخرى».

ثم يقول : «والذي أراه أن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن ننهض جميعاً لمحاربتها ، لأنه ميل إلى التدني والتقهر . . هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها . . .»<sup>(١)</sup>.

وما دعا إليه «قاسم أمين» هو بعينه ما دعا إليه «رفاعة الطهطاوي» من قبل منذ عودته من فرنسا . . «مع فارق رئيسي . . لا في الدعوة ذاتها ولكن في المدعويين! فإن أكثر من نصف قرن من الغزو الفكري المستمر كانت قد فعلت فعلها في نفوس الناس ، فلم تقابل دعوة «قاسم أمين» بالاستنكار البات الذي قوبلت به دعوة «رفاعة الطهطاوي» ، ولم توءد في مهدها كما وئدت الدعوة الأخرى من قبل»<sup>(٢)</sup>.

وقد ساند «قاسم أمين» في دعوته المشبوهة الزعيم المصري «سعد زغلول» .

وهكذا استطاع «قاسم أمين» أن يصنع للمرأة المسلمة في مصر قضية، ولم يكن باستطاعته أن يصنع ذلك لولا ما كانت تمر به الأمة الإسلامية من

(١) المصدر السابق ٦٧/١ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ٢٥٣ . وهناك فارق شكلي هو صراحة قاسم أمين وجراته في المجاهرة بأقواله وآرائه .

انحرافات عقدية وعلمية وما كانت تعيشه من تخلف وانحطاط .

«أما في مصر - أو في العالم الإسلامي - فلم تكن للمرأة قضية خاصة ! إنما كانت القضية الحقيقية هي انحراف هذا المجتمع عن حقيقة الإسلام ، مما سميناه «التخلف العقدي» ، وما نتج عن هذا التخلف العقدي من تخلف في جميع مجالات الحياة .

وما تحقير المرأة وإهانتها وعدم إعطائها وضعها الإنساني الكريم إلا مجال من المجالات التي وقع فيها التخلف عن الصورة الحقيقية للإسلام . وعلاجها - كعلاج غيرها من الحالات جميعاً - هو العودة إلى تلك الصورة الحقيقية ، والتخلي عن ذلك التخلف المغيب ..»<sup>(١)</sup> .

«والآن وقد صار للمرأة قضية ، فلا بد للقضية من تحريك ، وتبنى القضية فريق من النسوة على رأسهن «هدى شعراوي» ، وفريق من الرجال المدافعين عن حقوق المرأة . وأصبح الحق الأول الذي تطالب به النسوة هو السفر ...»<sup>(٢)</sup> .

ثم طولب بالتعليم بدءاً بالتعليم الابتدائي حتى الجامعي ، ثم طولب بخروجها إلى ميدان العمل وقد تمت هذه الخطوات ببطء ، واستغرقت زمناً يكفي لخلخلة عادات قديمة وزعزعة تقاليد عتيقة<sup>(٣)</sup> ، ولعبت الصحافة دوراً خبيثاً في الدعوة إلى السفر والتبرج والاختلاط ، ودأبت على إشاعة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٣) انظر موضوع «تحرير المرأة» من كتاب «واقعنا المعاصر» فهو من أفضل ما كتب في هذا الأمر .

الرديلة والفاحشة ، واستماتت في محاربة الفضيلة والعفة والحياء .

«وقد بدأت صحافة المرأة في صورتها الأولى في مجلة «روز اليوسف» ، حيث حرصت هذه المجلة في سنواتها الأولى تحت اسم الفن وأهله على تجميع الخلق الإسلامي وتذويب الشخصية الإسلامية وضرب القيم الإسلامية عن طريق تقديم قصص مكشوفة من ناحية ، والبحث عن أسرار البيوتات الكبرى ، والإفاضة في الحديث عن الساهرات والراقصات وعن فنون الغواية ، حتى بدا أن هذه هي صورة المجتمع الطبيعية ، وكان لهذا كله أثره الخطير على تفكير المرأة العربية المسلمة ووجدانها»<sup>(١)</sup> .

وساعدت وسائل الإعلام الأخرى في نشر تلك الدعاوى المحمومة على اختلافها من إذاعة وتلفاز وسينما ومسرح ، وراجت سوق الأفلام الخليعة والمسلسلات الهابطة ، وصارت هي المادة الثقافية المفتوحة التي يتناولها الجميع كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً ، ومن خلالها يدس السم الزعاف والداء القاتل ، فإذا فسدت المرأة فقد فسد المجتمع كما قالت المنصرة «أنا ميلجان» : «ليس هناك طريق أقصر لهدم الإسلام من إبعاد المرأة المسلمة عن الإسلام»<sup>(٢)</sup> .

يقول الأستاذ : «إيهاب الأزهري» في لقاء أجري معه في مجلة «المسلمون» : «لقد حاول المخطط الصهيوني أن يصل إلينا ، ويطعن إيماننا

---

(١) الصحافة والأفلام المسمومة ص ٣٢ أنور الجندي . دار الاعتصام . القاهرة . وينصح بقراءة هذا الكتاب الذي رصد الصحافة العربية ودورها في تدمير الأخلاق والفضائل وتكريس الرذائل وإشاعة الفواحش في المجتمعات الإسلامية .

(٢) حقائق ووثائق . دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي ص ٩٣ د. عبد الودود شلبي . الدار السعودية للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

في العمق ، وقد نجح في المحاولة حيث عرض التليفزيون المصري فيلماً أمريكياً عندما تشاهده تجد أن العقل الواعي يدرك من اللحظة الأولى أن هناك شيئاً يدبر في الخفاء من خلال الفيلم ، فبطل الفيلم يطلب الزواج من المرأة التي أحبها وهي ترفض قائلة بعبارة واحدة : لا ، لماذا تفسد علاقة الحب السعيد بالزواج؟ وهذه الجملة تحمل من الخطورة ما لا يمكن أن يقدره المسؤولون عن تقييم برامج العرض والرقابة ، لأنها تفسد القيم والمبادئ الإسلامية<sup>(١)</sup> .

وهذا مثال واحد من مئات بل من ألوف الأمثلة التي تدل على تمرس وسائل الإعلام في عرض كل ما من شأنه أن يهدم الأخلاق والفضائل ، ويغرس في النفوس الفوضى والانحلال<sup>(٢)</sup> .

إذا أضفنا إلى ذلك الحركة الاستشراقية باعتبارها من أخطر مجالات الغزو الفكري التي ازداد نشاطها في القرن التاسع عشر ، إذ بلغ ما ألفه المستشرقون في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ) ستين ألف كتاب<sup>(٣)</sup> .

وقد دأب المستشرقون دائماً على حرب الإسلام وتشويه صورته ، ويمكننا أن نلخص أهم الأهداف التي سعوا إلى تحقيقها :

١ - الطعن في حقيقة الإسلام وحقيقة القرآن والنبوة .

---

(١) المسلمون ص ٢٣ عدد ٣٢ ، سنة ١٤٠٦ هـ . نقلاً عن : قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٧٣ .

(٢) انظر دور وسائل الإعلام في الغزو الفكري ص ٢٣٥ وما بعدها في «واقعا المعاصر» .

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٨ ، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ . ١٩٨٩ م .

- ٢- القول بأن الإسلام استنفذ أغراضه .
  - ٣- القول بأن الإسلام طقوس وشعائر روحية أو على أحسن الأحوال دين بالمفهوم الغربي الضيق فلا دخل له بأمور الحكم والحياة .
  - ٤- القول بأن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني .
  - ٥- الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تتلاءم مع الحضارة .
  - ٦- الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وهجر حروفها وأساليبها .
  - ٧- إثارة ما يسمى «قضية تحرير المرأة» .
  - ٨- تهوين شأن الحضارة الإسلامية وتشويه تاريخها .
  - ٩- بعث الحركات الهدامة والطوائف الضالة وتضخيم أدوارها .
  - ١٠- نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها .
  - ١١- وضع منهج لاديني للبحث العلمي ولو لم يكن من ثمرة جهودهم إلا ذلك لكفى ، فإن جامعات العالم الإسلامي المعاصرة تدرس التراث الإسلامي وفق ذلك المنهج الذي يتمسح بالموضوعية والحياد العلمي وهو أبعد ما يكون عنهما<sup>(١)</sup> .
- ويقول الدكتور «محمد محمد حسين» رحمه الله: ولست أبالغ ولا أدعي غير الحق حين أقول: إن هذه الروح اللادينية - مع شديد الأسف - قد أصبحت هي التي تسود دراسات التاريخ الإسلامي في أكثر جامعاتنا، وذلك شيء يلمسه كل من تخرج في كليات الآداب أو اتصل بها عن قريب<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر: العلمانية ص ٥٤٤ - ٥٥٠ .

(٢) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٥٣ .

وتكمن خطورة الاستشراق في تلقف جمهرة من المنتسبين إلى الإسلام لأفكاره وآرائه ، واعتناقهم لها ، وثقافتهم بها ، ونشرها بين المسلمين . إن ترجمة الكتب الاستشراقية ، وتعتمد نشرها في أوساط البيئة الإسلامية تعد خيانة للفكر الإسلامي ، قام بها مجموعة من المنهزمين نفسياً ، وروجوا لما يقومون به من خدمة للمستشرقين ومؤلفاتهم<sup>(١)</sup> .

وقد نعى الدكتور «محمد محمد حسين» رحمه الله على اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية التي كان يرأسها الدكتور طه حسين في حينه<sup>(٢)</sup> قيامها بترجمة عدد من الكتب الأوربية والأمريكية إلى العربية، وإنفاق العرب الأموال الطائلة على تلك الترجمات<sup>(٣)</sup> ، التي تلعن أجسادهم وتسب أسلافهم ، وتسفه دينهم ، وتفترى على نبيهم<sup>(٤)</sup> .

وضرب على ذلك مثلاً بكتابين تولت ترجمتهما اللجنة المذكورة هما (مختارات من إمرسون) ، و (قصة الحضارة) لول ديورانت ، فالكاتبان يثنيان على اليهودية واليهود تصريحاً وتلميحاً ، بينما يتعمدان الكيد للإسلام وللمسيحية ، فإمرسون يهدم الدين والتدين من جذوره تحت ستار الدعوة إلى الحرية وإلى استقلال الشخصية ، وأما ول ديورانت فهو يهدمه

---

(١) يرى الدكتور محمد البهي أن الاستشراق لون من ألوان التبشير . الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٢٥ . ولكننا رأينا إدخاله هنا لأنه ألصق بالغزو الفكري .

(٢) كان ذلك في السبعينات من القرن الرابع عشر الهجري ، التي تقابل الخمسينات من القرن العشرين الميلادي .

(٣) وقد فاقت تلك الترجمة خبثاً ما وقع في عصر المأمون العباسي من ترجمة ؛ إذ إن الكتب المترجمة في الفترة الأولى مع ما كان فيها من كفر وضلال قد ألقت قبل ظهور الإسلام في الغالب ، أما ما ترجم في الفترة التي نحن بصدها فهو كله دس وطعن ألف لهدم الإسلام والقضاء عليه .

(٤) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٤١ .



عن طريق تجريح الرسل الأطهار وإثارة الغبار حول سيرهم ، على أن الكتابين كليهما يشتركان في هدم النبوات وإنزال الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلى مرتبة الفلاسفة والكتاب المصلحين<sup>(١)</sup> .

وينفرد «ول ديورانت» بالطعن في شخصية الرسول ﷺ بعد أن مهد لذلك بكلمات تدل على إعجابه بها كقوله : « وكان محمد ، كما كان كل داع في دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم » .

ولكنه قاتله الله لا يروي عن النبي ﷺ في كتابه هذا إلا الغرائب التي يخلعها من سياقها وظروفها<sup>(٢)</sup> ، حتى تبدو لغير الخبير بالتاريخ الإسلامي في صورة تثير السخط وتدعو إلى الاشمئزاز ، كالذي يصف المجرم وهو يساق إلى القتل ويعلق في الحبل ، ويخفي ما اجترح من مفسد وما أزهق من أرواح بريئة ، تجد ذلك في مثل كلامه عن قتله ﷺ امرأة ، وعن قتله شيخاً ناهز المائة لأنهما هجواه ، وهو يسوق ذلك في أسلوب هادئ رزين كأنه يسوق خبراً من الأخبار العادية دون أن يعلق عليه أو يحتفل به ، فلا يكاد القارئ المسلم يتنبه إلى غرضه الخبيث الذي هو في حقيقة الأمر التشنيع بالنبي عليه الصلاة والسلام .

ومثل قوله أيضاً : « وضمت صفية - وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة - إلى نساء النبي » ، فمثل هذه الألغام التي يدسها الرجل في ثنايا سطروره تترك أسوأ الأثر في نفوس القراء من الغربيين ومن ضعاف الإيمان من المسلمين ، والمتحلين منهم للحضارة الغربية

(١) المصدر السابق ص ١٤٥ .

(٢) على طريقة من يقف على قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ، أو على قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ .. ﴾ .

المتخلقين بها خاصة . شيخ جاوز الخمسين يتزوج فتاة في السابعة عشرة ! وليس هذا فحسب ، بل إنها كانت مخطوبة لرجل يهودي من بني جنسها فأضافها إلى نسائه العديدات ! هل هذا تاريخ ؟ أم إنه تشنيع في أخطر صورته ، لأن صاحبه يتصنع الهدوء ويتظاهر بالاتزان والإنصاف ، ويخدع الناس بمثل كلامه عن براعة النبي في القيادة وفي شؤون الحكم وفي التنظيم الاجتماعي .

ومن أمثلة هذا الأسلوب الخبيث وصفه النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه كان : « يعنى بمظهره الشخصي ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ويصبغ شعره ويلبس خاتماً نقش عليه «محمد رسول الله» ، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل ، وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطيق الروائح الكريهة ولا صلصلة الأجراس والأصوات العالية ، وكان قلقاً عصبي المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث » .

فهذا الأسلوب المسموم في التصوير إنما يريد أن يصور النبي ﷺ في صورة المتصابي ، وفي صورة العصبي المزاج ، المريض الأعصاب ، المصاب بالصرع<sup>(١)</sup> .

والمصيبة أن يأتي مترجم هذا الجزء من الكتاب وهو «محمد بدران» فيقول إن المؤلف قد (أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها)<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٣ .

إن هؤلاء المستشرقين الذين تولى تلامذتهم من المنتسبين إلى الإسلام نشر أفكارهم ونصر آراءهم؛ لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه لولا هؤلاء التلامذة.

فعلي عبد الرازق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» كان عالمة في كتابه على مؤلفات المستشرقين، فهو يعتمد على المستشرق «سير توماس آرنولد» فيما يزعم من أنه ليس هناك سند قرآني لما ذهب إليه الفقهاء من ضرورة إقامة الخلافة، ويحيل إليه المؤلف كذلك عند تشييعه بالخلفاء في كل العصور الإسلامية، وتصويرهم في صورة أشبه بصورة القراصنة الذين يستحلون كل شيء في سبيل المال والجاه والسلطان<sup>(١)</sup>.

وقد أثبت الدكتور «ضياء الدين الريس» أن الكتاب في الحقيقة لمستشرق يهودي هو مرجليوث، ومعلوم أن علي عبد الرازق ذهب إلى بريطانيا وأقام فيها عامين، فلا بد أنه كان متصلاً بهذا المستشرق أو تتلمذ عليه<sup>(٢)</sup>.

وكذلك طه حسين فقد كانت دعوته للعامة وآراؤه في الشعر الجاهلي صدى واضحاً لكتابات المستشرقين<sup>(٣)</sup>، وقد تأثر هو و«أحمد أمين» على الأخص بالمستشرق الإنجليزي د. س. مرجليوث، ويعتبران من تلامذة مدرسته<sup>(٤)</sup>.

يقول الأستاذ أنور الجندي عن «طه حسين»: «يكاد طه حسين في كل أعماله أن يكون خاضعاً للاستشراق، متأثراً به، تابعاً له، معلماً من قدره

---

(١) الاتجاهات الوطنية ٨٥/٢.

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢٨٠.

(٣) العلمانية ص ٦٠٦.

(٤) الموسوعة الميسرة ص ٣٧.

متحدثاً عن فضله على الأدب العربي ، والفكر الإسلامي ، فكتابه في الشعر الجاهلي أخذ نظريته من مرجليوث ، ورأيه في كتابه (مع المتنبي) أخذ نظريته من «تين» ، و«برودينر» ، وبحثه عن ابن خلدون أخذه من دوركايم ، واتجاهه في حديث الأربعة أخذه من «سانت بيغ» . . . وتابع «كازانوف» عن مفهومه للقرآن الكريم وتفسيره له ، وهو يرى أنه من عند محمد ﷺ لا من عند الله . . .

وقد صور علاقته مع المستشرق «كازانوف» الذي علمه تفسير القرآن بقوله: عرفت أنه أستاذاً في الكوليج دي فرانس ، ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجاباً لم أعرف له حداً ، فلم أكد أجلس إليه حتى تغير رأيي ، أو قل حتى ذهب رأيي كله ، وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن ، وأمهر في تفسيره ، من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته ، وأصحاب الحق في تأويله»<sup>(١)</sup> .

إن خطر الاستشراق كما سبق وقلنا يرجع بالدرجة الأولى إلى تلامذة المستشرقين من أبناء المسلمين ، الذين أفنوا أعمارهم وصرفوا طاقاتهم في نشر أفكاره وآرائه ، وتبني منهجه الخبيث في معالجة القضايا والمشكلات ، وقد ساد هذا المنهج على غالبية المفكرين والمؤرخين والكتاب والشعراء في البلاد الإسلامية ، وحورب المنهج الإسلامي الأصيل من خلاله حرباً شعواء ، وضيق الخناق على أصحابه ، ولم يفسح لهم المجال إلا نادراً ؛ لأن الذين يملكون أزمة الأمور هم في الغالب خريجو المدارس الاستشراقية وتلامذة

---

(١) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢٧٨ .

المستشرقين الأوفياء، وبقيادة هؤلاء (المستشرقين العرب!!) تعثرت خطوات الأجيال المسلمة ، وانحرفت عن جادة الطريق ، وتردت في أودية الانحلال والضياع.

«ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار «دائرة المعارف الإسلامية» بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة . . ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبثوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين . واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوي في مصر ، والمجمع العلمي في دمشق والمجمع العلمي في بغداد»<sup>(١)</sup> .

وفي الحقيقة أن هؤلاء المستشرقين لم يتسللوا إلى هذه المجمع العلمية في غفلة من أهلها ، بل لقد دعوا إليها من قبل القائمين عليها ، ورغبوا في الاشتراك فيها ، ولا غرابة في اشتراك هؤلاء المستشرقين في تلك المجمع التي أسست في ظل شعارات القومية والوطنية ، وأضحت مسرحاً لكثير من اليهود والنصارى الذين نسب إليهم زوراً خدمة اللغة العربية وآدابها.

ومما يؤسف له حقاً أن يوصف بعض المستشرقين بأنهم منصفون ومحايدون، وملتزمون بالموضوعية وبأصول البحث العلمي ، ويزداد الأمر سوءاً حين تعمد «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة»<sup>(٢)</sup> التي

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٣٦ .

(٢) ذكرنا هذه الموسوعة بالذات لأنها الموسوعة الإسلامية الوحيدة في الساحة - حسب علمي - التي تتحدث عن الفرق والمذاهب المعاصرة ، ولم نتعرض لغيرها من الموسوعات ودوائر المعارف التي وضعت غالباً للئيل من الإسلام ومحاولة تشويهه .

يفترض فيها تحري الدقة والصواب عند حديثها عن الاستشراق ، فتصنف المستشرقين إلى ثلاثة أصناف : متعصبين ومعتدلين ومنصفين ، ولا أدري أي أساس بنت عليه «الموسوعة» هذا التصنيف الذي يهوي سريعاً عند أول تفتيش وبحث في مؤلفات هؤلاء المستشرقين الذين وصفوا بالاعتدال والإنصاف!

ونشير بمثالين على من وصفوا في تلك الموسوعة بأنهم منصفون لنرى بطلان تلك الدعوى التي تلبس على القارئ ، وتزيف الحقائق .

فالمثال الأول : هو المستشرق الهولندي «هادريان ريلاند» المتوفى سنة ١٧١٨م، ذكرته الموسوعة في رأس قائمة المنصفين وقالت عنه : «أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا ، له «الديانة المحمدية» في جزأين باللغة اللاتينية (١٧٠٥م)، لكن الكنيسة في أوربا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها»<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن تصرف الكنيسة مع «هادريان ريلاند» في تحريمها تداول كتابه كان من الأسباب التي أغرت الموسوعة باعتباره من المستشرقين المنصفين كما يفهم من عبارتها .

وليس ذلك مبرراً في نظرنا إلى ما ذهبت إليه الموسوعة ، خصوصاً إذا علمنا تاريخ الكنيسة الأسود الذي اتسم بالجنون والتهور في محاربة كل ما يمت إلى العلم بصلة .

يقول «ريلاند» في كتابه «الديانة المحمدية» : «صحيح أن الدين الإسلامي دين سيئ وضار بالمسيحية إلى حد بعيد ، ولكن أليس من حق

---

(١) الموسوعة الميسرة ص ٣٤ .

المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغي للمرء أن يكشف أعماق الشيطان وحيله؟ إن الأحرى أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أماناً!! وأشد قوة»<sup>(١)</sup>.

وتسميته للإسلام بالديانة المحمدية توحى بأن الدين ليس من عند الله ، وإنما من عند محمد ﷺ كما هو مذهب جمهور المستشرقين ، فكيف يوصف بعد كل هذا الخبث والمكر والحقد بالإنصاف؟!

وأما المثال الثاني : فهو المستشرق الفرنسي «جوستاف لوبون» حيث اعتبرته الموسوعة الميسرة من المستشرقين المنصفين ، وقالت عنه : «مستشرق وفيلسوف مادي ، لا يؤمن بالأديان مطلقاً!! جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية ، مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره»<sup>(٢)</sup>.

ولا نجد تعليقاً أفضل مما قاله الدكتور «أحمد غراب» في كتابه «رؤية إسلامية للاستشراق» حيث قال : «ولا أدري كيف يكون الملحد منصفاً للإسلام؟! أو منصفاً على الإطلاق؟! كيف لمن ينكر وجود الله ، ويجحد آياته في الكون ، ورسالاته إلى البشر ، أن يكون منصفاً؟! كيف لمن يتخبط في ظلمات المادية أن يرى نور الإسلام حتى ينصفه؟!»<sup>(٣)</sup>.

ومع أن كتابه «حضارة العرب» كان من أهم الكتب التي قررت «الموسوعة الميسرة» من أجله أن تجعله منصفاً ، للحضارة الإسلامية ، فإن

---

(١) رؤية إسلامية للاستشراق ص ١٠٥ د. أحمد عبد الحميد غراب. المتدى الإسلامي. لندن. الطبعة الثانية ١٤١١ هـ.

(٢) الموسوعة الميسرة ص ٣٥.

(٣) رؤية إسلامية للاستشراق ص ١٢٧.

عنوانه يحمل سمة الدس والجور ، وليس الإنصاف ، «والسؤال الذي يلح على الباحث المسلم هو : لماذا لم يجعل المستشرق «المنصف» عنوان كتابه : «حضارة الإسلام» أو «الحضارة الإسلامية»؟!

والجواب هو أن المستشرق يقصد من تأليف كتابه - كما يتضح من عنوانه وموضوعاته - إلى أهداف معينة مترابطة ، تلتقي كلها حول عدم إنصاف الإسلام ، وأهمها ثلاثة أهداف :

الهدف الأول : إنكار أن الإسلام رسالة عالمية ، أو حضارة عالمية ، فالإسلام - في زعمه - دين العرب ، وحضارته حضارة العرب ، بل وشريعته مختارة من نظم العرب في الجاهلية!

الهدف الثاني : إنكار أن العامل الأول في قيام الحضارة الإسلامية وتأثيرها في العالم هو الإسلام نفسه ، والزعم بأن العامل الأول في قيامها وتأثيرها هو عامل العرق أو الجنس : أي جنس العرب .

الهدف الثالث : تشجيع النزعة القومية عند العرب ، لتوسيع هوة الفارقة بين المسلمين ، وهدم ما تبقى من وحدة الأمة الإسلامية<sup>(١)</sup> .

«أما عن الشريعة الإسلامية فيزعم المستشرق أن الرسول ﷺ قد اختار قوانينها من نظم العرب في الجاهلية . يقول : عرف محمد (ﷺ) كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها فدعمها بنفوذه الديني العظيم»<sup>(٢)</sup> .

«وينكر المستشرق أن يكون للإسلام أو القرآن تأثير على العرب في

(١) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨ .



إنجازاتهم العلمية والفلسفية فيقول : لم يكن للإسلام - ديانة - تأثير في آثار العرب العلمية والفلسفية»<sup>(١)</sup> .

ويقول عن القرآن الكريم : «وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط! مع أنه أنزل وحياً من الله على محمد ، وأسلوب هذا الكتاب ، وإن كان جديراً بالذكر أحياناً ، خال من الترتيب فاقد السياق كثيراً!!»<sup>(٢)</sup> .

ويقول عن الرسول ﷺ : «يجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح !! وذلك كأكثر مؤسسي الديانات ، ولا كبير أهمية لذلك ، فأولو الهوس وحدهم ، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ، ويقودون الناس» .

ولا عجب - كما يقول الدكتور أحمد غراب - من مستشرق كافر أن يفترى الجنون على رسل الله أو معظمهم ، صلوات الله عليهم جميعاً ، تلك الفرية التي طالما ردها المشركون والمستشرقون قبله وبعده ، ولكن العجب أن يوصف هذا المستشرق بالإنصاف!<sup>(٣)</sup>

وإذا كان كل هذا الافتراء والدس والإفك مع من اعتبرتهم «الموسوعة الميسرة» منصفين ، فكيف بمن اعتبرتهم معتدلين؟! لا ريب أنهم أكثر خبثاً وافتراء وديساً .

وقد أسهبنا في هذه القضية الخطيرة لأن كثيراً من الباحثين والمثقفين درجوا على ما انتهجته «الموسوعة الميسرة» من تصنيف المستشرقين إلى

(١) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٨ .

متعصبين ومنصفين وأحياناً معتدلين ، ووصف كثير منهم بالإنصاف والعدل نتيجة لتلك القسمة الظالمة .

وفي اعتقادي إن وصف المستشرقين بالإنصاف مظهر من مظاهر الانخداع الساذج بهذا اللون الخطير من الغزو الفكري ، وجهل بأسلوب ماكر قديم سلكه أجداد هؤلاء المستشرقين الذين فاقوا أجدادهم ضراوة وحقداً .

وقد أفصح الله عز وجل عن هذا الأسلوب الخبيث الماكر في كتابه الكريم عند حديثه عن مقاومة الكافرين من أهل الكتاب للإسلام في المدينة فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٢) وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿ [آل عمران : ٧٢ ، ٧٣] ، وذلك حين يقوم من المستشرقين من وصفوا بالإنصاف والموضوعية والحياد بإظهار مدح الإسلام ، ثم يعمدون إلى دس السم في ثنايا مدحهم ، ويختمون مدحهم وإطراءهم بنقيصة يلصقونها به فيتحول المدح ذمّاً ، والإطراء مثلبة ، فيصاب القارئ بالإحباط والخيبة والمرارة ، ويتساءل عن السبب الذي جعلهم يرتدون عن إعجابهم ومدحهم ، فيحدث في فكره بلبلة واضطراب ، ويقع من جراء ذلك الأسلوب الحقيير في فتنة ، قد يرتد بسببها عن الدين ، وهو ما سعى إليه الماكرون (لعلهم يرجعون) .

وإن الباحث بعد كل هذا ليخرج بنتيجة هامة حول موضوع الاستشراق ، وهي أن الاستشراق يعتبر أخطر الوسائل التي نفذ من خلالها الغزو الفكري

إلى الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي التي تهيمن على المؤسسات التعليمية والثقافية ، وأن الفكر الاستشراقي هو المحور الضخم الذي تدور عليه عجلة الغزو الفكري في البلاد الإسلامية ، وما لم يتم كسر ذلك المحور والقضاء عليه ، فلن يمكن أبداً إيقاف تلك العجلة بحال من الأحوال .

وهكذا بان لنا أن الغزو الفكري كان من أخطر الآثار التي ترتبت على الانحرافات العقيدية والعلمية كما رأينا .

فما كان للغزو الفكري أن يعمل في الأمة عمله ، لو كانت عقيدة الأمة راسخة سالمة من الانحراف ، وكانت عقيدة الولاء والبراء حية في النفوس ، تحجز سهام الأعداء ورماحهم ، ولكن حين ذابت هذه العقيدة وزالت معالمها ، أصبحت الأمة مكشوفة لأعدائها يصوبون إليها حراهم من كل جانب ، حتى استطاعوا أن يخرجوا منها أجيالاً ممسوخة تنفر من الإسلام ، وتهول إلى أعدائه في كل شؤونها ، ويصبح المتمسكون به وسط هذه الأجيال غريبين منبوذين .



### المبحث الثالث

## النشاط التنصيري في العالم الإسلامي

لقد أغرى الضعف الذي كان يعيشه العالم الإسلامي الغرب النصراني الذي كان في أوج قوته وقمة حضارته ، أن يسلك إلى جانب الغزو العسكري والفتوحات الحربية طريقاً آخر لا يقل خطورة عن الأول هو طريق التنصير ، والتنصير والاستعمار توأمان متلازمان ، فكل واحد يمهّد للآخر ، ويزيل عن طريقه العوائق ، ويستفيد منه ، وبهما يتمكن الغرب من فرض سيطرته على العالم الإسلامي . كما أن التنصير يستخدم الغزو الفكري لتنفيذ أغراضه .

لقد أدرك النصارى منذ أول وهلة ظهر فيها الإسلام خطورة ذلك الدين الجديد على عقيدتهم المحرفة وديانتهم البالية ، وضائق صدورهم بالتقدم السريع الذي كانت تحققه الجيوش الإسلامية في مستعمراتهم وممتلكاتهم ، ولكن الذي أزعجهم كثيراً وأقضى مضاجعهم ليس هو فتح البلدان والأقاليم وإزالة الحكم النصراني ، بقدر ما كان هو فتح القلوب والعقول ، ودخول الناس أفواجا في الإسلام<sup>(١)</sup> .

ورعب أهل الصليب من ذلك رعباً شديداً ، وحنقوا على المسلمين حنقاً عظيماً ودقوا نواقيس الخطر ، وتصايح الرهبان والقسس بأن دين المسيح

---

(١) يقول المستشرق الألماني بيكر بأن هناك عداً من النصرانية ضد الإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سداً منيعاً في وجه انتشار النصرانية ، ثم إن الإسلام قد امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها . التبشير والاستعمار ص ٣٦ .

أضحى في خطر، وسيقت الحملات الصليبية، يدفعها حب الانتقام، ويقودها الحقد والبغضاء، وتحذوها الوحشية والإجرام، وتكسر هذه الحملات رغم شراستها وفظاعتها حملة حملة. ويرتد الصليب عن ديار الإسلام خاسئاً وهو حسير، والإسلام ينتشر في الأرض، والمسلمون يزداد عددهم وتعظم قوتهم. عند ذلك أدرك رجال الدين النصراني أن المجابهة العسكرية لم تعد تجدي شيئاً، بعد أن تكسرت حملاتهم تحت صخرة الإسلام، وفشلت في تحقيق أهدافها؛ لذلك عدلوا عنها إلى محاولة تذويبها وتفتيتها رويداً رويداً<sup>(١)</sup>.

«لقد خابت دول أوربة في الحروب الصليبية الأولى من طريق السيف، فأرادت أن تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات، وفرقت المبشرين في العالم»<sup>(٢)</sup>.

وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تظل الأمة غالبة قوية بسبب انحرافها عن دين الله عز وجل، فكانت كلما زاد انحرافها ازدادت ضعفاً وهواناً، وأصبحت في القرون المتأخرة عرضة لهجمات الأعداء وكيدهم، وما زال

---

(١) يرجع بعض الكتاب الجذور التاريخية للتنصير إلى ملك فرنسا «لويس التاسع» كما صنع الدكتور عبد الودود شلبي الذي يشكر على مؤلفاته في مقاومة التنصير وكشف خططه وألعيه، ومنها «أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية» الذي ذكر فيه ص ١٥ أن لويس التاسع في أثناء سجنه في المنصورة كان أول من حدد دور المبشر ومهمته. وقد ذكرنا أن بعض المفكرين اعتبره الداعي الأول للغزو الفكري بدلاً من الحرب، ولا منافاة بين ذلك فإن الغزو الفكري والتنصير وجهان لعملة واحدة هما الصليبية الحاكمة. انظر: العلمانية ص ٥٣٦.

(٢) التبشير والاستعمار ص ١٥.

ضعفها يستشري حتى تكالبت عليها أم الغرب تمزقها وتستعمرها وتسلب خيراتها وتنهب ثرواتها، وفوق ذلك تنحي شريعتها وتفسد عقيدتها وتضلل أبناءها.

لقد كانت فترة الامتيازات الأجنبية التي سبقت الاستعمار مرحلة ذهبية، وفرصة نادرة لا تقدر بثمن منحها الدولة العثمانية للدول الأوروبية، وقطفت ثمار تلك الامتيازات بالدرجة الأولى الإرساليات والمدارس التنصيرية، التي ما كانت تحلم أن تنفرد للعمل التنصيري في ديار الإسلام بكل حرية واطمئنان لولا تلك الامتيازات الظالمة.

فقد سمحت تلك الامتيازات للنشاط التنصيري أن ينطلق كما وكيفاً، أما كماً فبان انتشار هيئاته وإرسالياته ومدارسه في مدن الدولة وأقاليمها، وأما كيفاً فباستخدامه ما عن له من الوسائل وراق له من الأساليب بعيداً عن أعين الرقباء، أو حتى عن طائلة القانون.

يقول القسيس «تروبريدج» في مؤتمر لكنو التنصيري في الهند سنة ١٩١١م: إن المبشرين كانوا منذ ابتداء أعمالهم التبشيرية قبل ٨٠ سنة مظهرًا لتسامح الحكومة العثمانية، كما هو شأنها مع الرعايا الأجانب الذين تحميمهم الامتيازات الأجنبية<sup>(١)</sup>.

«ولما اتسع نفوذ المبشرين الأمريكيين في الإمبراطورية العثمانية، بين عام ١٨٤٠م، و١٨٥٠م، وكثر تدخلهم في شؤون البلاد تنفيذاً لسياسة استعمارية؛ عازمت تركيا على إخراجهم من الإمبراطورية كلها، ولكن وزير الخارجية الأميركية رفض أن يتخذ مثل هذه الخطوة. ثم استطاعت الولايات

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٨

المتحدة أن تحول انتباه الباب العالي إلى أمور أخرى ، أي أن الولايات المتحدة أثارت لتركية مشاكل كبيرة صرفتها عن أمر المبشرين .

وهكذا ظل المبشرون الأمريكيون يتمتعون في الإمبراطورية العثمانية بحقوق الرعايا الأمريكية كما تنص معاهدة «الامتيازات الأجنبية» ، التي تمنح الأجانب المرغوب في وجودهم في الإمبراطورية العثمانية حقوقاً واسعة . ولكن المبشرين كانوا يتسلحون بهذه المعاهدة ويأتون بأعمالهم التبشيرية والسياسية»<sup>(١)</sup> .

«ومجمل القول إن الدولة العثمانية لم تكن تملك حرية الإرادة ولا حرية التصرف حيال نشاط البعثات التنصيرية . . .»<sup>(٢)</sup> .

ومن ذلك إعفاء المنصرين من الضرائب والجمارك تمتعاً بما منح لهم من امتيازات أجنبية»<sup>(٣)</sup> .

وهكذا انطلقت الإرساليات التنصيرية تقودها جحافل المنصرين تجوب أنحاء الدولة العثمانية بكل حرية واطمئنان تبث سموها ، وتنشر عقائدها .

وقد يكون هذا النشاط التنصيري أخفق في تحقيق أهدافه المباشرة ، فلم يتنصر أحد من المسلمين إلا في النادر ، فلا يحتفل به ، ويهون من شأنه ، ولكن الحقيقة التي تغيب عن هؤلاء السذج الغافلين هي أن النشاط التنصيري لم يخفق إخفاقاً كاملاً كما يظنون ، فلئن أخفق في تحويل الناس عن دينهم بالكلية ، فقد نجح بالفعل في زعزعة إيمانهم ، وخلخله عقيدتهم ،

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٥٤ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٠٦/١ .

(٣) التبشير والاستعمار ص ٥٦ .

ونزع الثقة من نفوسهم ، حتى تمكن من هزيمة أرواحهم وأسر عقولهم .

يقول المسيو «شاتليه» : «وحسبنا أن نستشهد بإرسالية التبشير الكاثوليكية في بيروت لتكون موضوع التفكير والتأمل في فرنسا ، إذ بالرغم من كون (كلية القديس يوسف اليسوعية) التي تدير أعمال هذه الإرسالية لا تأثير لها على النشوء الفكري في المحيط الإسلامي ، فإن التعاليم التي تنشرها وتبثها كان لها الحظ الأوفر في انتشار الأفكار الفرنسية في سورية والقطر المصري» . ثم يقول : « ومن هذا يتبين لنا أن إرساليات التبشير الدينية التي لديها أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية ؛ من حيث أنها تبث الأفكار الأوربية»<sup>(١)</sup> .

أما القسيس «زويمر» فيقول : «إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم ، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب ، والأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير - الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية في البلاد العثمانية والقطر المصري وجهات أخرى - هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه .

ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات التعميد ، في معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين ، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحققون من وجود مئات من الناس ، انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم ، واعتنقوا النصرانية في طرف خفي»<sup>(٢)</sup> .

ويتعقب المسيو «شاتليه» كلام «زويمر» الذي نزع فيه إلى ضرب من

---

(١) المصدر السابق ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧ .



المغالاة والتهويل ليخفف بعض الألم عن نفوس المنصرين الذين صدموا كثيراً للإخفاق الذي لازمهم ، فيذكر أن الإرساليات التبشيرية على اختلافها تعجز عن زحزحة العقيدة الإسلامية من نفوس متحليها ، وأنه لا يتم لها ذلك إلا بث الأفكار الأوربية .

وقال : «أما ما يقوله حضرة مكاتبنا (زويمر) عن وجود مئات من المسلمين اعتنقوا النصرانية سرّاً ويتظرون فرصة للجهر بها ، فذلك أمر لا يمكننا البت فيه مع حضرة الكاتب»<sup>(١)</sup> .

ثم أليس «زويمر» نفسه هو القائل في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م الذي ضم ١٢٠٠ مندوب : «... لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها»<sup>(٢)</sup> .

ومع أن ما قاله «زويمر» يعتبر في أساسه تبريراً للفشل الذريع الذي مني به المنصرون<sup>(٣)</sup> ، إلا أنه في الوقت نفسه يعد هدفاً من أهدافهم .

ونتيجة للفشل الذريع الذي واجهه المنصرون في تحقيق هدفهم الأول وهو إدخال المسلمين في النصرانية ؛ فقد دفعهم ذلك إلى العمل الدؤوب

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ .

(٢) العلمانية ص ٥٥٢ .

(٣) قال ذلك بعد أن قضى خمسة وأربعين عاماً في البحرين يدير منها دفة التنصير في المنطقة كلها ، حيث هبط إلى البحرين لأول مرة عام ١٨٩٠ م .

على قطع صلة المسلمين بالله كما يقول «زويمر»، وإفساد عقولهم وزعزعة إيمانهم وعقيدتهم، «ويعترف المبشرون بأن التبشير الرسمي واكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية قد خاب، من أجل ذلك قنع هؤلاء المبشرون أن يكون عملهم «الإنساني» قاصراً على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل»<sup>(١)</sup>.

ومن أجل ذلك يقولون إنه «... يجب على المبشرين أن يفسدوا الطلاب المسلمين . يقول المبشر «تكلي» : يجب أن نشجع إنشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي ، إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الإنكليزية . إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً»<sup>(٢)</sup> .

فإذا تفككت أواصر القربى الروحية في الأمة الإسلامية خاصة ، فقد استطاع الغرب أن يحكم الشعوب الإسلامية ويستغل بلادها اقتصادياً وحرية<sup>(٣)</sup> .

وكما استفاد المنصرون من الامتيازات الأجنبية الممنوحة لهم من قبل السلاطين العثمانيين ، فقد استفادوا فوائد عظيمة بعد صدور الدستور (القانون الأساسي)<sup>(٤)</sup> .

ففي مؤتمر لكنو التنصيري الذي مر معنا آنفاً أشار القسيس (تروبريدج) إلى ملخص البند العاشر من القانون الأساسي ، الذي يحظر خرق حرية

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٩ .

(٤) انظر : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم من الغرب من هذا البحث ص ٢٤٦ .

الأفراد أو القبض على أي شخص ومعاقبته بلا مسوغ منصوص عليه في الأحكام الشرعية الإسلامية والنظامات القانونية!<sup>(١)</sup>

ثم شرع في التعرض لما حققه المنصرون في ظل الدستور فقال : «كان طبع كتب التبشير مباحاً في تركيا منذ مدة طويلة إلا أن مهمة بائعي الكتب المتنقلين كانت محفوفة بأنواع الصعوبات ، فأصبح الآن بيع كتب التبشير مباحاً بسبب حرية النشر التي عقت الدستور ، فبيع في السنة الماضية<sup>(٢)</sup> للمسلمين ما يزيد على ٩٠٠٠ نسخة من هذه الكتب ، وليس هناك صعوبات تقوم في سبيل بيع الكتب المختصة بانتشار التبشير»<sup>(٣)</sup> .

هذا بالنسبة للكتب والمؤلفات ، أما المدارس ونشاطاتها فيقول عنها : «إن في استطاعة المسلمين التردد على مدارس وكليات التبشير ، وبين جدران الكلية الإنجيلية في بيروت<sup>(٤)</sup> ١٠٤ من المسلمين ، وفي كلية الأستانة ٥٠ ، وفي كلية المبشرين في كدك باشا في الأستانة أيضاً ٨٠ ، ومنذ بضع سنين صدر إذن خفي !! بجواز التردد على الكلية الأولى والثانية»<sup>(٥)</sup> .

ثم قال عن الأعمال النسائية : «إن الحكومة سمحت عقب إعلان القانون الأساسي لخمس فتيات عثمانيات مسلمات أن يتعلمن في كلية البنات الأمريكية لتهيأن لإدارة الأمور في مدارس الحكومة للبنات . كما أن عدداً قليلاً من البنات المسلمات في الولايات يتردد على مدارس إرساليات التبشير»<sup>(٦)</sup> .

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٨ .

(٢) سنة ١٩١٠ م .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٤) هي الجامعة الأمريكية الآن ، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله فيما بعد .

(٥) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٦) المصدر السابق ص ١١٠ .

ثم ذكر أن التبشير الديني جار بلا صعوبة في المستشفيات التي يدير أعمالها المبشرون ، ثم تحدث عن المضايقات التي يتعرض لها المرتد عن الإسلام أحياناً ، بعد أن كان مصيره الإعدام ، ولكن ذلك نسخ بعد إعلان الدستور ، «وقد دخل التسامح في شكل جديد عقب قبول اندماج المسيحيين في الجندية ؛ لأن ارتداد المسلم عن دينه كان يعتبر خيانة ووسيلة للتخلص من الخدمة العسكرية ، أما الآن فأصبحت مسألة اعتناق الدين المسيحي دينية محضة»<sup>(١)</sup> .

يقول المنصر الأمريكي «جسب» بعد أن أشار إلى إعلان الدستور : «إن القضية التي تواجهنا بطبيعة الحال هي : ماذا يكون من أمر هذا الانقلاب العظيم على دين الإمبراطورية (العثمانية) ويجيب «جسب» نفسه على هذا التساؤل فيقول : إن هذا سيساعد على طبع الكتب البروتستانتية ، وسيصبح المرء (العثماني) حراً في أن يغير دينه»<sup>(٢)</sup> .

«ولا يجد المبشرون حرجاً في أن يعلنوا أن نشر الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر أكثر إمكاناً وسهولة ، من أجل ذلك قرروا أن يجدوا جهودهم وأن يسيروا بأعمالهم إلى الأمام»<sup>(٣)</sup> .

لقد ذكرنا من قبل أن أعداء الإسلام قد ركزوا جهودهم على ذراعي الأمة

---

(١) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٢) التبشير والاستعمار ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٣ .

ملاحظة :

أخطأ المؤلفان خطأً بيناً باعتبارهما أن إعلان الدستور للمرة الثانية كان حدثاً عظيماً في تاريخ تركيا والعرب ومناسبة فذة ص ٥٢ ، وقولهما : إن إعلان الحرية في تاريخ الإمبراطورية العثمانية عام ١٩٠٨ م يوازي الثورة الفرنسية في تاريخ فرنسا ، ومع ذلك فإن المبشرين لم يهتموا بهذا الحادث العظيم إلا بمقدار ما سيخدم غاياتهم التبشيرية ويسهل =

الإسلامية تركيا ومصر ، فإذا تمكنوا من كسر هذين الذراعين فقد سهل عليهم السيطرة على بقية الجسد ، فمن هذا المنطلق توالى الإرساليات التنصيرية وتدافع القساوسة والمنصرون صوب هذين البلدين الرئيسيين .

وأضحت الأستانة والقاهرة عاصمتا البلدين مسرحاً آمناً للنشاط التنصيري المكثف ، وقاعدة تنطلق منها البعثات والهيئات التنصيرية في أنحاء العالم الإسلامي .

ففي سنة ١٦٦٤م قام البارون «دويتز» بتحريك ضمائر النصارى إلى تأسيس مدرسة كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي ، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التبشير ، فارتأى أحد أحرار الكنيسة أن يعهد إلى الأروام بمسؤولية تبشير الأتراك . غير أن البارون فشل في مشروعه<sup>(١)</sup> .

وقد أدرك أعداء الإسلام من المنصرين أهمية الأستانة ومركز ثقلها في العالم الإسلامي ، يقول رئيس إرساليات التبشير الألمانية : «إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتنا في آسيا أو إفريقيا ، بل ستكون في المراكز التي يستمد الإسلام منها قوته وينتشر

---

= عليهم النفوذ إلى أرجاء الامبراطورية ، لقد فرحوا على الأخص لأن سورية ولبنان سيفتحان في وجه المبشرين البروتستانت . ص ١٧١ .

فهل كان ياترى هؤلاء المنصرون أدرى بحقيقة الدستور الذي يتنافى مع الشريعة الإسلامية ، ويبيح لأعداء الإسلام من منصرين وماسونيين وقوميين أن ينشروا مذاهبهم ويروجوا لأفكارهم دون حسيب أو رقيب ؟!

انظر كلامنا حول الدستور عند حديثنا عن الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم ص ٨٦٨ .

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٣ .

سواء أكان في إفريقية أم في آسيا، وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولي وجوها نحو الأستانة عاصمة الخلافة فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبانتنا فيها ، ويجب أن يكون جل ما تتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية هو بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة وهي قلب العالم الإسلامي»<sup>(١)</sup> .

ومنذ أوائل القرن الثامن عشر بدأت الحركة التنصيرية تغزو آسيا الصغرى ، وكان ذلك على يد المنصر «هنري مارتين» المتوفى سنة ١٨١٢م الذي كانت له يد طولى في إرسال المنصرين إلى تركيا ، ومن بعده أخذت إرساليات التبشير تشد الرحال إلى الأناضول وفلسطين واتخذت لها مراكز في أزمير والقسطنطينية وبيت المقدس<sup>(٢)</sup> .

ولما حدثت حوادث سنة ١٨٦٠م في سوريا<sup>(٣)</sup> توجهت الأنظار إلى جبل لبنان ، وبعد عشر سنوات انتشرت لجنة التبشير الأمريكية في البلاد العثمانية عدا سوريا .

وعلى أثر تأسيس الكنيسة البروتستانتية في الأستانة سنة ١٨٤٦م ، صارت الأستانة مركزاً عاماً آمناً لأعمال المبشرين ، ومع الصعوبات التي كانت تواجههم في بعض الأحيان إلا أنها سرعان ما تتلاشى . بل كانت معاملة الحكومة العثمانية للمبشرين تتحسن بواسطة سفراء الولايات المتحدة<sup>(٤)</sup> ، وخصوصاً بعد إعلان الدستور وخلع السلطان «عبد الحميد»

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨ .

(٣) انظر : الضعف السياسي من هذا البحث ص ١١٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٩ .

- رحمه الله - حيث أصبح التجول في البلاد العثمانية غير ممنوع<sup>(١)</sup> .

ومما لا شك فيه أن الآثار التي تربت على هذا النشاط التنصيري في الأستانة كانت خطيرة للغاية بعيدة المدى ، سواء أكان ذلك في المجال السياسي أو الديني أو الثقافي أو الاجتماعي .

وقد نشرت مجلة الشرق المسيحي والتبشير الإسلامي الألمانية التي هي لسان حال جمعية إرساليات التبشير الألمانية مقالة حول تأسيس المدرسة التبشيرية لدراسة الإسلام وأصوله ومبادئه في (بوتسدام) عام ١٩٠٩م جاء فيها :

«وقد نفح الله الجمعية التبشيرية بأستاذين علامتين اعتنقا الدين المسيحي يقومان بالتدريس في المدرسة ، وهما بمثابة سيل طام صب على الدين المسيحي الحي القوتين الإسلاميتين اللتين هما الشريعة والصوفية . واسم الأستاذ الأول المدرس نسيمي أفندي الذي ينتمي إلى عائلة إسلامية عريقة سبق لأحد أعضائها أن تقلد منصب المشيخة الإسلامية ، واسم الثاني الشيخ أحمد الكشف شيخ طريقة صوفية ، وانضم إليهما القسيس (افاتارنيان)<sup>(٢)</sup> . . الذي كان اسمه «ملا محمد شكري أفندي» . وهؤلاء الثلاثة يدرسون التفسير والتعاليم الصوفية واللغة العربية والفارسية والتركية ودروساً تاريخية دينية إسلامية لتلاميذ مدرسة (بوتسدام) »<sup>(٣)</sup> .

وفي مؤتمر أدنبرج الذي عقد سنة ١٩١٠م قالت اللجنة الثالثة من لجان

---

(١) المصدر السابق ص ٩٢ .

(٢) اعتنق النصرانية ثم قام بالتنصير في البلاد البلغارية . ويحتمل أنه بلغاري .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٥ .

المؤتمر المختصة بالأعمال المدرسية : «اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوروبيون ، كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها»<sup>(١)</sup> .

وفي هذا دليل على مبلغ النتائج التي أحرزها النشاط التنصيري في الأستانة عاصمة الدولة العثمانية . وليس يعني هذا أن الدولة العثمانية لم تكن تلم بأهداف المنصرين ، أو تقاوم نشاطهم ، بل كانت تراقب المنصرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم ، وحالت بينهم وبين جزيرة العرب حين تهيوؤوا لاقتحامها بل إنها قاومتهم في تركيا نفسها ، ووقفت منهم موقفاً حازماً فألقت في سبيلهم العراقيل وعزمت ألا يصيبوا نجاحاً<sup>(٢)</sup> .

«على أن الحكومة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المبشرين ؛ ذلك لأن هؤلاء كانوا يأتون في الظاهر كرعايا إنكليز أو أميركيين أو دانمركيين أو فرنسيين ، فاذا استقروا في البلاد أخذوا يقومون بالتبشير سرّاً ما أمكنهم . ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة وسهرّاً من الدولة العثمانية لجؤوا إلى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجنب في الظاهر أيضاً»<sup>(٣)</sup> .

فالدولة العثمانية لم تقف مكتوفة اليدين أمام نشاطات المنصرين

---

(١) المصدر السابق ص ٧٢ . والمسألة الشرقية كانت تعني في أول الأمر تخليص الممالك المسيحية من حكم العثمانيين ، وفي المرحلة الثانية أصبحت تعني تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة لها بين دول أوروبا الصليبية .

(٢) التبشير والاستعمار ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٦ .



وجهودهم ، ولكن ما حيلتها وقد دب الوهن في قواها ، وتطرق الخراب إليها ، وأمست على حافة الفناء والزوال .

وفي عام ١٨٨٨ م أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الأميركيين ، لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة من الحكومة ، ولكن المستر بسنغر قنصل أميركة في بيروت والمستر أسكار ستراوس<sup>(١)</sup> تداخلا في الأمر حتى سمح الوالي «علي رضا باشا» بأن تعود تلك المدارس إلى فتح أبوابها ، على ألا تقبل إلا التلاميذ المسيحيين . ولكن الوزير والقنصل مازالا يسعيان حتى حملا الوالي على إلغاء هذا الشرط<sup>(٢)</sup> .

«لقد كانت الدول الغربية تناجز الإمبراطورية العثمانية من وراء الستار ، من وراء مبشريها المنتشرين في البلاد»<sup>(٣)</sup> ، و«تستغل ضعف تركية السياسي لتحمي المبشرين في أعمال التنصير»<sup>(٤)</sup> .

على أننا في هذا المقام لابد أن نشير إلى ضعف الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية في مقاومة النشاط التنصيري الذي غزا غالب أراضيها في ذلك الزمن ، وإلى عدم وعي القائمين بتلك الجهود بالتآمر الصليبي والتخطيط النصراني المحكم ، بالإضافة إلى عشوائية تلك الجهود وعدم تنظيمها ، وانطلاقها في أكثر الأحيان من عواطف مندفعة أكثر من اعتمادها على عقيدة راسخة ومقاومة مدروسة ومنظمة .

فهل كان يمكن لمثل هذه الجهود التي تفتقر إلى التخطيط والتنظيم .

(١) هو وزير الولايات المتحدة المفوض في تركيا وكان يهودياً .

(٢) المصدر السابق ص ١١٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٠ .

والوعي وفوق ذلك إلى العقيدة الراسخة - أن تقف في وجه ذلك الطوفان التنصيري الذي أطبق على العالم الإسلامي ، وأغرق بلدانه بإرسالياته وهيئاته ومدارسه ومنصريه؟!

أما تركيز النشاط التنصيري على مصر الذراع الثاني للعالم الإسلامي فسنوجز الحديث عنه ، فقد بدأ مكثفًا منذ أيام «محمد علي باشا» الذي كانت سياسته التغريبية<sup>(١)</sup> تفسح الطريق أمام هؤلاء المنصرين .

وقد «طمع المبشرون بمصر لأن محمد علي أراد أن يدخل المدينة الأوروبية إلى مصر ، فطمع هؤلاء إلى أن يتسللوا مع المدينة الغربية إلى عقائد المسلمين . ويبدو أن المبشرين تمتعوا ببعض الحرية حتى جاء «عباس» الأول عام ١٨٤٨م ، وهو الذي نعته المبشرون بالقاسي لأنه قاوم التبشير .

أما «سعيد باشا» (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) فقد نعته المبشرون بالعبقري لأنه سمح للنفوذ الأوربي أن يعود سائدًا في وادي النيل ، مع أنه عهد «سعيد» باشا كان عهد نقمة على مصر وعلى المصريين»<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكرنا في مبحث سابق<sup>(٣)</sup> كيف دأب «سعيد باشا» طوال سني حكمه على رعاية الإرساليات التنصيرية والتبرع لها بالأموال والأراضي والكتب ، بل إن ما وهبه ذلك الخديوي الضال لبعض مدارس المنصرين يفوق ما أنفقه على ميزانية التعليم في بلاده طول حكمه .

---

(١) انظر الحديث عن تلك السياسة في : كلامنا عن الولاء والبراء من هذه الرسالة ص ١٦٣ - ١٩١ من المجلد الأول .

(٢) التبشير والاستعمار ص ١٤٧ .

(٣) الولاء والبراء .

وقد لقي المنصرون حفاوة بالغة من غالب الأسرة العلوية حتى جاء الاحتلال الإنجليزي وعلى رأسه اللورد «كرومر» فانتعش التنصير وانتصر ، ومع أن بعض المنصرين اتهم «كرومر» بمحاباة المسلمين فإنه كان نصرانياً إلى العظم يشجع التنصير بين المسلمين ، ويحمي القسس الأجانب والمنصرين . وقد ذكرنا عند حديثنا عن الاستعمار موقفه من المبشرين ، ومن ذلك تنصر طالب من القدس كان يدرس في الأزهر ، فطلبه أبوه ثم حضر بنفسه إلى القاهرة ، فالتجأ الابن إلى اللورد «كرومر» فاستكتبه اللورد «كرومر» وثيقة فيها أنه لا يريد أن يرجع مع أبيه ففعل<sup>(١)</sup> .

إن وجوه الضعف السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي أصيبت بها الأمة ، أتاح المجال أمام هؤلاء المنصرين أن يطوفوا البلاد في أثواب المحسنين ليكفلوا اليتامى ، ويساعدوا الأرامل والأيامى ، ويحنوا على الفقراء ، ويعالجوا المرضى ، ويعلموا الأميين والجاهلين .

لقد كان واقعاً مرّاً أليماً للغاية استغله هؤلاء المنصرون أسوأ استغلال ، بإقامة الملاجئ ودور الأيتام ، وإنشاء المدارس والمستشفيات ، ليهرع إليها الآلاف من المعوزين واليتامى والأرامل والجهال والمرضى ، كل ينشد فيها سد فاقته ، وإشباع جوعته ، ومداواة علته ، وكشف كربته .

في مؤتمر « القاهرة » للمنصرين عام ١٩٠٦م قام المنصر ( هاربر ) وأبان وجوب الإكثار من الإرساليات الطبية ؛ لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين .

وذكر « هاربر » حكاية طفلة مسلمة عني المنصرون بتمريرها في

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٤٨ .

مستشفى مصر القديمة ، ثم ألحقت بمدرسة البنات البروتستانتية في باب اللوق .

وذكر أيضاً عن رجل مسلم كان يحضر محاضرات المبشرين لإثارة الجلبة والضوضاء ، واتفق أنه مرض فدخل مستشفى المبشرين وبعد أن لبث فيه مدة شفي وخرج منه ؛ فصار يحضر المحاضرات في هذه المرة ولكن بخشوع زائد ، وبعد ذلك بقليل تعمد وأصبح نصرانياً على مذهب البروتستانت<sup>(١)</sup> .

ثم قام الدكتور «اراهارس» طبيب إرسالية التبشير في «طرابلس» الشام فقال : إنه قد مر عليه اثنان وثلاثون عاماً وهو في مهنته فلم يفشل إلا مرتين فقط ، وذلك عقب منع الحكومة العثمانية أو أحد الشيوخ لاثنين من زبائنه من الحضور إليه .

وأورد إحصاء لزبائنه فقال : إن ٦٨ في المائة منهم مسلمون ونصف هؤلاء من النساء ، وفي أول سنة مجيئه إلى حيث يبشر بلغ عدد زبائنه ١٧٥ ، وفي آخر سنة كان عددهم ٢٥٠٠ . وختم كلامه قائلاً : يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد ذلك<sup>(٢)</sup> .

أما الدكتور (تمباني) فبرغم ما واجهه من صعوبات كما يقول في التوفيق بين مهنتي التبشير والطب ، فقد نجح في تأسيس مستشفى للتبشير عن طريق الاكتتابات ، وكان أول مكتب لهذا المستشفى التبشيري رجلاً مسلماً<sup>(٣)</sup> .

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

ويحرص المنصر (سمبسون) على أهمية وجود الطبيب المبشر إلى جانب المريض عندما يكون في حالة الاحتضار<sup>(١)</sup> .

وتحدثت المنصرة (أنا وستون) عن إرسالية التبشير الطبية في مدينة طنطا قائلة : إن ثلاثين في المائة من الذين يعالجون في مستشفى هذه الإرسالية من الفلاحين المسلمين وأكثرهم من النساء . وطريقة التبشير فيه أن يذكر الإنجيل للمرضى بأسلوب بسيط لا يدعو إلى التطرف في المناقشة<sup>(٢)</sup> .

وفي ممباسة عني المبشرون بمعالجة امرأة مسلمة فاعتنقت النصرانية<sup>(٣)</sup> . وفي بوغنده كذلك اعتنق اثنان من المسلمين النصرانية بعد أن عني المبشرون بمعالجتهما<sup>(٤)</sup> .

وفي مستشفى أم درمان يطلب القائمون عليه من المرضى المسلمين أن يصلوا معهم صلاة الصبح<sup>(٥)</sup> .

ويقول الطبيب الأمريكي (بول هاريسون) في كتابه «الطبيب في بلاد العرب» : «إن المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة (عمان) بأسرها ، لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى»<sup>(٦)</sup> .

ثم إنهم فرضوا أن يكون الطبيب المبشر نسخة حية من «الإنجيل» ، إن

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٠ .

(٥) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٦) المصدر السابق ص ٥٩ .

بإمكانه أن يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين ، أو أن يترك في نفوسهم أثراً عميقاً على الأقل<sup>(١)</sup> .

وفي بلاد سوريا وفلسطين كان بالإضافة إلى وجود مراكز طبية أنشأها المنصرون يوجد أطباء جوالون يزورون القرى ، ويلاحقون النافهين الراجعين إلى قراهم فيكرزون فيهم<sup>(٢)</sup> .

وفي بلدة الناصر في السودان أنشأ المنصرون مستوصفاً ، وكانوا لا يعالجون المريض أبداً إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح<sup>(٣)</sup> .

أما في الحبشة فكانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم .

ومن الحيل التي استعملها المنصرون في وادي النيل أنهم استخدموا ثلاثة مراكب وجعلوها مستوصفات نقالة على النيل ، وكانوا يعلنون عن مجيء الطبيب قبل أن يصل بوقت طويل ، فيأتي الناس من كل صوب يحملون مرضاهم ، ويتنظر الجميع قدوم الطبيب . في هذه الأثناء يقوم فيهم من يبشر فرحاً بالجموع ، من غير أن يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضوح الشمس ومضض الانتظار عمداً وخداعاً .

ومثل هذا كانوا يفعلون في بلدة الشيخ عثمان في اليمن ؛ كان الناس

---

(١) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ . ويكرزون بمعنى يدعون إلى الإنجيل والنصرانية . وهي كلمة يونانية الأصل كما قال الشيخ علي الطنطاوي في بعض أحاديثه .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

يأتون من مكان بعيد يحملون مرضاهم ، وكان أولئك الأطباء ، الذين لم يضع الله في قلوبهم شيئاً من معاني الإنسانية ، لا يبدءون بعلاج المرضى إلا بعد أن يكرزوا عليهم .

وحملت أم مرة طفلها المريض وجاءت به إلى مستوصف الناصر بالسودان ، ولكن الطفل مات في أثناء الطريق الطويلة ، فلم يعز الطبيب هذه الأم الثكلى بل جلس يكرز عليها<sup>(١)</sup> .

لقد أدرك المنصرون أهمية الطب والعلاج في حياة الناس ، ولذا قالت واحدة منهم تدعى «إيرا هاريس» تنصح الطبيب الذهاب بمهمة تنصيرية : «يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرز لهم بالإنجيل . إياك أن تضعي التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فإنه أئتمن تلك الفرص على الإطلاق ، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك : إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير ؛ فلا تسمع منه»<sup>(٢)</sup> .

وفي «طرابلس» كان هناك مستشفى أوربي تديره راهبات القديس يوسف ، وبه قسمان للرجال والنساء ، وقد لاقى تقدير واستحسان الأهالي هناك<sup>(٣)</sup> .

وذكر الدكتور «عبد الحليم عويس» إحصائية لبعض ما يملكه المبشرون في الجانب الطبي والاجتماعي في أواخر القرن الرابع عشر ، فذكر أن المبشرين يملكون ٦٠٠ مستشفى للرجال والنساء ، ١٠٥٠ صيدلية توزع الدواء

(١) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٣) ليبيا أثناء العهد العثماني ص ١٢١ فرانثسكو كورو . ترجمة خليفة محمد التليسي . دار الفرجاني - طرابلس - ليبيا .

بالمجان، ١١١ مجلساً طبياً ، ٩٣ جمعية للممرضات ، و ٢٦٥ ملجأ  
للأيتام، و ١٢٠ ملجأ للبرص، ومثلها للصم والبكم، و ١١٥ مدرسة  
للمكفوفين، و ١١٣ مستوصفاً لمدمني الأفيون، و ٨٥ ملجأ للأرامل<sup>(١)</sup> .

وكانت الظروف الصحية السيئة خاصة مناخاً مناسباً للإرساليات  
التنصيرية عملت على استغلاله لصالحها ، عبر مستوصفاتهما ومستشفياتهما  
وأطبائهما . هذا المستوى الطبي المتقدم في تلك الفترة كان له ولا شك أعظم  
الأثر في نفوس المرضى الذين أضناهم المرض ، وأعياهم السهر ، وفي نفوس  
ذويهم الذين تعبوا لأجلهم ، في زعزعة عقيدتهم وتشويش أفكارهم ،  
وذبذبة ولائهم وبرائهم .

أما الحالة الاجتماعية فكانت لا تقل سوءاً عن الحالة الصحية ، حيث كان  
الفقر والجهل والحرمان سمة بارزة للحياة الاجتماعية ، ولم يفت المنصرين  
الاستفادة منها .

يقول القسيس « زويمر » في كتابه الذي يوجهه إلى الطلبة ، ويذكر لهم  
الأقاليم الخالية من المبشرين : « إن أكبر حجة كان المبشرون يدعمون بها  
أعمالهم التبشيرية منذ مائة سنة كانت لاهوتية دينية محضة ، أما الآن فقد  
أصبحت أعمالهم مشفوعة بأسباب اجتماعية . وكان ينظر في سابق الأيام  
إلى المبشرين نظر قوم يشنون حرباً صليبية ترمي إلى التنصير فقط ، فتحولت  
الأفكار وصارت الأعمال التبشيرية تشف عن فكرة الإصلاح الاجتماعي  
وعن رفع شأن الشعوب غير المسيحية ؛ لأن احتلال الأقاليم الخالية من

---

(١) المسلمون في معركة البقاء ص ٤٠ د . عبد الحليم عويس . دار الاعتصام . القاهرة . الطبعة  
الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .



المبشرين ناشيء عن أحوال هذه البلاد الاجتماعية المحرومة من يسوع المسيح ، والتي هي بالتالي خالية من كل بارقة أمل»<sup>(١)</sup> .

وحين كان الجهل مخيمًا على البلاد الإسلامية حفز ذلك النصارى إلى نزول الأقاليم والمدن والقرى يقيمون المدارس وينشئون المعاهد ؛ لنشر التنصير وإفساد عقائد المسلمين دون وجل تحت ظلام الجهل الدامس .

وعلى سبيل المثال كتب «بنيامين ماراي» مقالاً في مجلة العالم الإسلامي موضوعه : «شمالي نيجيرية ميدان للتبشير» استعرض فيه حالة تلك البلاد وما هي عليه من التأخر العلمي على الأخص ، إذ إن الذي يحسنون القراءة والكتابة أو شيئاً من الكتابة فقط ، لا يتجاوز اثنين ونصف بالمائة ، ثم قال : «وهذا يتيح فرصة عظيمة للتعليم التبشيري المسيحي»<sup>(٢)</sup> .

وربما اتخذ بعضها العلمانية وجهاً ظاهراً والتبشير وجهاً باطناً . يقول نفر من المبشرين : «إن أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الإرساليات في جميع البلاد كانت دائمة متشابهة . إن المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى واسطة لتمرين قسس للكنيسة . . . . . حتى إن الموضوعات العلمانية التي تعلم ، من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين ، تحمل معها الآراء النصرانية»<sup>(٣)</sup> .

ويقول المنصر الأمريكي «جسب» : «إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير ، وهي بعد هذا واسطة لا غاية في نفسها ، لقد كانت المدارس تسمى

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٥٠ .

(٢) التبشير والاستعمار ص ٧٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٦ .

بالإضافة إلى التبشير «دق الإسفين» ، وكانت على الحقيقة كذلك في إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة ، ولم يكن بالإمكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر»<sup>(١)</sup>

ويرى بعضهم أن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة في أوطانهم<sup>(٢)</sup> .

وللصغار في سياسة المنصرين التعليمية الجهد الأكبر . يقول المنصر «جون موط» : «يجب أن نؤكد في جميع ميادين (التبشير) جانب العمل بين الصغار وللصغار ، وبينما يبدو هذا العمل وكأنه غيرية ، ترانا مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الإسلامية .

إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً ، من أجل ذلك يجب أن يحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد ، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية .

إن اختبار الإرساليات في الجزائر ، فيما يتعلق بهذا الأمر ، وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمالي إفريقية ، اختبار جديد ومقنع . . . وهكذا نجد أن وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين<sup>(٣)</sup> .

فإذا انضم إلى الجهل والامية أشكال من الفقر واليتم والتشرد كان ذلك فرصة عظيمة تفسح المجال أمام المنصرين .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ .

كتب «ألمر دوغلاس» مقالاً عنوانه «كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر» ذكر فيه أن ملاجئ قد أنشئت في عدد من أقطار الجزائر في شمال إفريقيا لإطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وإيوائهم أحياناً ، ثم قال : « إن هذه السبيل لا تجعل الأطفال نصارى ، لكنها لا تبقّهم مسلمين كأبائهم» .  
ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمالي افريقية ومصر<sup>(١)</sup> .

وبقدر ما يعنى المنصرون بالصغار والمرحلة الابتدائية فإنهم يعنون كثيراً كما ظهر من كلامهم بالكلّيات والجامعات أو التعليم العالي ، إذ منها يتخرج القادة والمفكرون ، «والتعليم العالي عند المبشرين لا يقل أهمية عن سائر درجات التعليم ، ذلك لأنه يساعدهم على الوصول إلى الطبقات المثقفة ، بل لعله أهم منها كلها» .

ولقد أدرك المبشرون منذ زمن أن التبشير قد خاب لأن الأفراد الذين لفتهم المبشرون عن الإسلام إلى النصرانية كانوا قليلين ، ولم يكن لهم الأثر المنتظر . فلما اعتقدوا أن لا قدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً أحبوا أن يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب إلى المسلمين وإلى المثقفين منهم خاصة ، ثم إنهم اعتقدوا أن هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامي ، هذه الفكرة التي اقنعت المبشرين بضرورة إنشاء المعاهد العالية في البلاد الإسلامية<sup>(٢)</sup> .

ومن أشهر الجامعات التي أسسها المنصرون في الشرق الإسلامي الجامعة الأمريكية في «بيروت» التي خرجت الكثيرين ممن غسلت أدمغتهم إلى المناصب القيادية في أكثر البلاد العربية<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٩ .

(٣) حقائق ووثائق ص ٩١ .

فجميع رؤسائها من المنصرين والقسس منذ أيام «دانيال بلس» إلى أيام «ستيفن بنروز»<sup>(١)</sup> ، وهذه نبذة عنها : أسس المنصرون البروتستانت كلية في «بيروت» عام ١٨٦٢م وجعلوا على رأسها «المستر دانيال بلس» ، هذه الكلية أصبحت فيما بعد : الكلية السورية الإنجيلية عام ١٨٦٥م<sup>(٢)</sup> ، ثم أطلق عليها اسم الجامعة الأمريكية عام ١٩١٩م<sup>(٣)</sup> .

وقد اعتمدت الكلية السورية الإنجيلية في تأسيسها على الرجال الذين يمولون التبشير وخصوصاً من الإنكليز والأميركيين ، أما عمل الكلية فيجب أن يكون وضع كتب مسيحية تساعد على الاتصال بملايين الناس في آسية وفي إفريقية وعلى إسباغ النعمة (المسيحية) عليهم<sup>(٤)</sup> .

وفي الاجتماع المنعقد في الثلاثين من كانون الأول ١٨٦٣م بحضور قنصل الولايات المتحدة في بيروت «جونسون» قال المجتمعون : «نحن نصرُّ على الطابع التبشيري للكلية ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً»<sup>(٥)</sup> .

هذه الجامعة يقول عنها المنصر الأمريكي «جسب» : أوضح سياسة دينية وتبشيرية من سائر المدارس الأمريكية في الشرق ، ككلية روبرت في استانبول مثلاً . أما «رشت» فقال عنها : إنها أرقى مدرسة في الإمبراطورية العثمانية .

---

(١) تولى الأول رئاستها سنة ١٨٦٢م واستمر فيها إلى عام ١٩٠٢م ، أي حوالي أربعين عاماً . أما الثاني فقد رأس الجامعة من عام ١٩٤٨م إلى عام ١٩٥٤م .

(٢) يقظة العرب ص ١٠٨ جورج انطونيوس . نقلاً عن الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٠٠/١ .

(٣) التبشير والاستعمار ص ٩٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٧ .

إن عمل الكلية التبشيري يتناول المسلمين في الدرجة الأولى ، وهذا ما يجعلها بارزة في ذلك بين جميع المدارس الأمريكية في الإمبراطورية العثمانية وإيران ، إذ هي التي تهئ المدرسين المبشرين للمدارس الأمريكية المنشورة في الشرق كله <sup>(١)</sup> .

وقد تخرج منها عشرات من المفكرين والقادة والأدباء ، وقل منهم من سلم من غائلتها . وقد كانت تجبر جميع الطلاب على حضور الصلوات في الكنيسة كل يوم ، وتجبر الطلاب الداخلين خاصة على أن يحضروا صلاة يوم الأحد أيضاً <sup>(٢)</sup> .

ولما قام الطلاب المسلمون عام ١٩٠٩م باحتجاج على إجبارهم على الدخول إلى الكنيسة اجتمعت عمدة الجامعة وأصدرت منشوراً طويلاً جداً ، جاء في مادته الرابعة : إن هذه كلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحي : هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية وهم أنشؤوا المستشفى وجهازه ، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده ، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ . . وإن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه <sup>(٣)</sup> .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٥ .

ملاحظة : والغريب المؤلم حقاً هو قول المؤلفين بعد كل هذا الذي ذكر : وإن أحدنا ليعجب أن تكون الجامعة الأمريكية إلى اليوم أيضاً مسرّحاً للتبشير ص ٧١ . وقولهما : على أن الغريب أن الجامعة الأمريكية لا تزال إلى الآن تبشيرية ص ٩٩ . وقولهما : على أن استغرابنا قد زاد عام ١٩٤٨م ولم ينقص . إن الجامعة الأمريكية نعتزف بأنها بدأت =

ومن الجامعات التنصيرية أيضاً الجامعة الأمريكية في القاهرة التي كانت

= تبشيرية ثم تخلت عن التبشير في عصر القومية الواسعة والتسامح العظيم والتعاون الشامل . ولكن الدكتور ستيفن بنروز الرئيس الجديد للجامعة قد خيب ظنهما وأضاع آمالهما بإصراره على الصبغة التبشيرية للجامعة ص ١٠٦ .

وهذه الكبوة في اعتقادي جاءت من الظروف المحيطة بالكاتبين حيث إنهما من خريجي الجامعة المذكورة ، وإلا فكيف لثلهما أن ينخدعا بأساليب المنصرين أو تنظلي عليهما دسائسهم . ولعل الكبوة الأخرى التي وقعا فيها ، وفاقا تلك ، هي تأثرهما بشعارات الوطنية والقومية ص ٢٥ ، ٢٧ ، وتحككهما الدائم بها ، ظناً منهما أن ذلك يدفع عنهما تهمة التعصب التي يطلقها النصارى ضد كل مسلم موحد ملتزم بالإسلام .

ومع أن ذلك التأثر لم يكن يتعارض مع ولائهما للإسلام وتصديهما لخدمته إلا أنه لم يسلم من الآثار السيئة ؛ من ذلك قولهما حينما ذكرا إصرار القوميين العرب على إخراج العنصر الديني من جهاد الشعب الجزائري المسلم « لا نرى بعد هذا أن نمضي في الاستشهاد أو الاستنتاج للدلالة على أن الإفرنسيين يحاربون الجزائريين كمسلمين في الدرجة الأولى ، ولكن هذا لا يمنع أحداً من قبول الجهود التي يبذلها القوميون في نصرة الجزائر ومن شكرهم عليها » . ص ١٧٨ .

فأي جهود يا ترى بذلها القوميون حتى يشكروا عليها ؟! وهم الذين كفروا برابطة الإسلام ، وهم أعوان المستعمرين وعملاؤهم إلا في النادر ، وهم سراق الثورة فيما بعد ، المحادون لله ورسوله وللمؤمنين . ومن آثار اعتناء المؤلفين بالقومية والوطنية إصرارهما المتواصل والعجيب على جعل العداوة بين الغرب والإسلام سياسية واقتصادية لا دينية ص ٣٦ ، ص ٣٨ ، من ذلك قولهما : إن المعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين ، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية ص ٤٥ .

وهذه فكرة خاطئة أوحث بها إلى المؤلفين الظروف التي كانا يعيشان خلالها من هيمنة شعارات الوطنية والقومية والتسامح والحب التي دعا إليها نصارى لبنان خاصة ؛ فلتكن العداوة بين المسلمين والنصارى إذن سياسية وليست دينية هروباً من الواقع ، إذ سيصبح الموقف حرجاً حين يجعلان العداوة دينية لأنهم يعيشون والنصارى في بلد واحد ، وذلك يتنافى مع شعارات القومية السائدة هناك . ولتكن عداوة بين الغرب المستعمر والشرق المكافح ضد الاستعمار على اختلاف الطوائف والملل دون نظر إلى الدين .

ولسنا بحاجة لبيان تهافت هذا الرأي وفساد هذه الفكرة ؛ إذ إن العداوة لا ريب دينية عقائدية في الصميم ، وما الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا صور لذلك الصراع الديني العنيف ، والقرآن والسنة والتاريخ والواقع يدل على هذا ، بل وكتاب =

تسمى بالكلية الأمريكية أرادوا بها منافسة الجامع الأزهر<sup>(١)</sup> ، وهناك كلية روبرت في استانبول ، وهي كلية مسيحية غير متسترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها ، ويقول «دانيال بلس» : إن كلية بيروت<sup>(٢)</sup> وكلية استانبول ليستا أختين فقط بل توأمتان . إن هذه الكلية قد أنشأها مبشر ولا تزال إلى اليوم لا يتولى رئاستها إلا مبشر<sup>(٣)</sup> .

وكلية غوردن<sup>(٤)</sup> الإنكليزية في الخرطوم ، تأسست عام ١٩٠٣ م . وكلية جيرارد أو كلية الأمير يكان في صيداء<sup>(٥)</sup> .

هذه بعض مؤسسات التعليم العالي التي أنشأها المنصرون الأمريكيون

---

= المؤلفين نفسيهما المليء بأقوال قادة الغرب ومنصريه يدل على ذلك . ومع ذلك فإن فكرة نزع الدين من الصراع بين المسلمين والغرب لم تنشأ إلا في أذهان العلمانيين والقوميين ، ولم يستفد من ورائها سوى الغرب النصراني عامة ونصارى العرب خاصة ، وتكاد تكون هذه سمة غالبية على كثير من الكتاب والمفكرين المسلمين الذين يجاورهم النصارى في بلدانهم الذين رضخوا لضغط الشعارات القومية والوطنية . ولعل عنوان الكتاب فيه إشارة إلى ما قصده المؤلفان من نفي الصراع الديني بين الغرب والمسلمين ، وذلك من ربط التبشير بالاستعمار ، حيث يعتبران التبشير وسيلة فقط من وسائل الاستعمار التي استغلها في صراعاته السياسية والاقتصادية .

وبعد فإن هذه الملاحظات على أهميتها لا تغض من قدر هذا الكتاب إذ تبقى له مكانته وقيمته ؛ إذ إنه يأتي مع كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» في مقدمة الكتب التي سبقت في ذلك الميدان العظيم ، ومع مرور الزمن عليهما فإن الباحث في شئون التنصير لا يستطيع الاستغناء عنهما .

(١) المصدر السابق ص ٨٠ .

(٢) يعني الجامعة الأمريكية .

(٣) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٤) هو الحاكم الإنجليزي العسكري للسودان . قتله أنصار المهدي الثائر عام ١٨٨٥ م بعدما سقطت الخرطوم في أيديهم .

(٥) المصدر السابق ص ١١٠ .

والإنجليز ، وليس الفرنسيون أقل توجهاً منهم . فقد أسسوا لهم كلية في لاهور<sup>(١)</sup> إبان الاحتلال الإنجليزي للهند ، هذا عدا مؤسساتهم التي نشروها في الشرق .

لقد رعى الاستعمار هذه الجامعات والمؤسسات التنصيرية رعاية كاملة ، ومنحها حق الوجود والاستمرار ، ولكن المؤسف هو أن تظل هذه الجامعات والمؤسسات باقية بعد رحيل الاستعمار ترعى مصالحه ، وتفتح الأبواب أمام النفوذ الأجنبي على مصاريعها ، وفوق ذلك تقوم بإفساد أبناء المسلمين وتسميم أفكارهم وزعزعة عقيدتهم .

وقد كفل الدستور العلماني في كثير من الدول الإسلامية البقاء والحرية لتلك الجامعات والمدارس ، وحين أرادت بعض تلك الدول ضمها وإحاقها بالتعليم الرسمي في بلادها ، لم يكن ذلك الضم إلا صورياً في الغالب ، وهنا تكمن الخطورة في اتخاذ ذلك غطاءً ، تنفذ من خلاله جميع مخططاتها ، وهي بعد ذلك آمنة من أية مؤاخذة ، بل إن الكثير من هذه المؤسسات التنصيرية لتتحدى أنظمة هذه الدول ، ولا تتقيد بلوائحها ومناهجها ، وتصر على بقائها كما كانت تنصيرية خالصة تجاهر بذلك .

وقد أولت هذه المؤسسات التنصيرية عناية فائقة للتعليم النسوي لما للمرأة من دور خطير في تربية المجتمع واستقامته ، يقول «جسب» : «إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني ، لقد شعرت دائماً أن مستقبل سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها .

---

(١) هي عاصمة مقاطعة البنجاب في باكستان اليوم .



لقد بدأت مدرستنا (للبنات) ، ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها ، وهاهي قد أثارت اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية»<sup>(١)</sup> .

إن المبشرين لم يتأخروا في فتح مدارس البنات ، إن أول مدرسة للبنات في الإمبراطورية العثمانية فتحها المبشرون عام ١٨٣٠ م ، ولقد فتح المبشرون مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسورية كلها وفي الهند والأفغان<sup>(٢)</sup> .

ويفرح المبشرون إذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة ، لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيئتهن أعظم . وتكلم المبشرة «أنا ميليجان» فتقول : في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آبائهن باشوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمت طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة<sup>(٣)</sup> .

وليس غريباً أن يهتم المبشرون بالمرأة ، فالمرأة مدار الحياة الاجتماعية ، والوصول إليها بالتبشير وصول إلى الأسرة كلها بل إلى المجتمع كله ، من أجل ذلك كانت جمعية الشابات المسيحيات بفروعها ، ومن أجل ذلك كانت المنازل والمعاهد التي يعدها المبشرون للفتيات خاصة .

ويصفق المبشرون باليدين لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها ، لقد خرجت إلى الهواء الطلق ، لقد نزعَتْ عنها حجابها ، ولكنهم لا يصفقون

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٧ .

لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك ، بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية . ولهذا السبب أخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون : لقد سنحت لنا فرصة عظيمة<sup>(١)</sup> .

إن الحالة الاجتماعية السيئة المترعة بصنوف الفقر والعوز والحرمان قد أتاحت المجال لهؤلاء المنصرين أن يستغلوا ذلك في سبيل تنصير المرأة المسلمة وإفساد دينها وخلقها .

جاء في مؤتمر قسطنطينية في الجزائر ما يلي : «إن الحاجة الملحة المستعجلة إنما هي إنشاء بيت أو بيوت للفتيات المطلقات وللأرامل الصغيرات<sup>(٢)</sup> ، ويجب أن تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة ، بل أماكن يخيم عليها الجو العائلي ، ثم تفرق النساء فيها حسب أحوالهن وحاجاتهن ، وكذلك مكث هؤلاء النسوة في تلك البيوت يجب أن يطول أو يقصر حسب المقتضيات الشخصية لكل واحدة منهن ، ثم إن كل فتاة يجب أن تعلم من الصناعات المحلية ما يمكنها العيش به بعد أن تغادر تلك البيوت» .

«وأخيراً نرى أن أمثال هؤلاء النسوة يكن في أثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الإنجيل ، ثم إننا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يمرن أكثر من سواهن ليكن بدورهن مبشرات بين قومهن»<sup>(٣)</sup> .

وقد نجح هؤلاء المنصرون في إفساد المرأة المسلمة وإن لم ينجحوا في

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٢) في الأصل : الصغار ، وهو خطأ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

تنصيرها ، وتواكب ذلك مع حملات الغزو الفكري الشعواء التي وجهت إلى المرأة .

وكما كان للمنصرين اهتمام خاص بالصغار والمرأة فإن للشباب أيضاً أهمية عندهم لا تقل عن ذلك ، فهم إن أفسدوا المرأة ، وأفسدوا الأطفال ، ثم أدخلوهم المدارس ليشكلوهم على النحو الذي يريدون ، ثم ضمنوا لهم من التعليم العالي ما يمسح شخصياتهم وعقولهم ، فلا بد لهم من إشباع الجانب الترفيهي عند هؤلاء الشباب ، وتطوير ميولهم الشخصية كما يقولون ، لذا سارعوا إلى إنشاء النوادي الرياضية وبيوت الشباب «وتضم هذه الأندية نشاطاً اجتماعياً مختلف الأنواع والألوان، هناك حفلات تقام، ومحاضرات تلقى ، وليالي أنس وسمر ، ومطاعم ، ومنامات يأوي إليها محبو الاقتصاد ، وأسباب تسلية يغشاها الشباب .

على أن الذي تظمه هذه الأندية ليس أمراً مقصوداً لذاته ، أي أن عمدة هذا النادي لا يهمها أن يأتي الناس ليتمتعوا بما في النادي من أسباب التثقيف والترويح ، بل يهمها أن تجتذب بهذه الأسباب أناساً يستمعون إلى صوت المبشر الإنكليزي أو الأمريكي أو الإفريقي والهولندي ، أو ليجد حب الغرب طريقه إلى قلوب الشرقيين على الأقل»<sup>(١)</sup> .

أما بيوت الشباب التي تتبع لتلك الأندية فيأوي إليها في الغالب من تضيق في وجوههم سبل العيش من الشباب أو ممن لا بيوت لهم أبداً ، ويعتبرها النصارى حرباً صليبية مسيحية لما لها من تأثير كبير في عقول الشباب<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

وبعد كل هذا فلعل المعادلة الغربية التي تلتبس على الكثيرين هي : أنهم كيف يفسرون تهالك العالم الغربي على نشر النصرانية في العالم عامة والإسلامي منه خاصة ، وهو عالم علماني متحرر من كل دين .

«إننا اذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالمًا ملحدًا لا يؤمن بدين ، وعالمًا ماديًا لا يعرف للروح معنى : إن أمريكة التي تعبد الحديد والذهب والبترول - كما يقول أمين الريحاني - قد غطت نصف الأرض بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني . وبينما نرى فرنسا دولة علمانية في بلادها نجدها الدولة التي تحمي رجال الدين في الخارج ، إن اليسوعيين المطرودين من فرنسا هم خصوم فرنسا في الداخل وأصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها . وكذلك إيطاليا ، التي ناصبت الكنيسة العداء وحجرت البابا في الفاتيكان ، كانت تبني جميع سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين»<sup>(١)</sup> .

ولكي نعرف الحل الصحيح لتلك المعادلة ، لابد لنا أن نعرف حقيقة الدين النصراني كما يعيشه الغرب ويفهمه مفكروه وفلاسفته ويتعاملون معه ، إن الغرب يؤمن بالدين ولكن بالمفهوم العلماني أي بفصله عن الحياة ، وعزله في زاوية صغيرة جداً لا تكاد تذكر في زحمة الحياة ومشاغلتها كما قال أحدهم : «إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فإن أوروبا لم تعرف الدين الصحيح أبداً ، ولم توفق إلى

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤ .

(٢) ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين ص ٢٠٣ .

اعتناق ما جاء به المسيح - عليه السلام - من عقيدة وتعاليم ، وإنما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوربية ، لا صلة لها بالأصل المنزل ، الذي أرسل المسيح ليلغنه لبني إسرائيل ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩] <sup>(١)</sup> .

يقول «درابر» : «دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان «قسطنطين» فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (٣٣٧م)» <sup>(٢)</sup> .

ويأتي على رأس هؤلاء المنافقين «بولس» اليهودي أو «شاول الطرسوسي» الذي وضع البذرة الأولى للتثليث <sup>(٣)</sup> ، أو صاحب المسيحية الرسمية التي اعتنقها قسطنطين وأطبق الغرب على اعتناقها .

بالإضافة إلى هذا التحريف الذي منيت به النصرانية واستمرت الكنيسة ترعاه وتزيده اتساعاً ، كان للفلسفتين اليونانية والرومانية تأثير عميق على هذه الديانة المحرفة <sup>(٤)</sup> .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٩ . انظر تحريف الدين في الكتاب نفسه .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٥ ، وقد اعتنق قسطنطين النصرانية الوثنية عام ٣٠٦م

(٣) العلمانية ص ٣٦ .

(٤) التثليث ، والحلول أو تجسد الإله في شكل بشري والرهبانية ، وتقديس الصور ، واعتقاد الفداء والخلاص ، والواسطة بين الخالق والمخلوق ؛ كل هذه الانحرافات أخذت من وثنيتي اليونان والرومان . العلمانية ص ٣٠ ، ص ٣١ .

فلما جاء العصر الحديث وقامت الثورتان الصناعية والفرنسية ارتدت أوروبا إلى الجاهلية الاغريقية الرومانية .

فمن الإغريق (اليونان) أخذت عبادة العقل وعبادة الجسد في صورة جمال حسي ، ومن الرومان أخذت عبادة الجسد في صورة متاع حسي ، وتزيين الحياة الدنيا بكل وسائل العمارة المادية إلى أن يستغرق الإنسان في المتاع وينسى القيم التي تكون الإنسان <sup>(١)</sup> .

فهذه الديانة المحرفة التي ابتليت بعدوى الوثنية ترضى من الأفراد بمجرد الانتساب لها ، والقيام ببعض الطقوس التي لا تكلفهم عناءً من الوقت أو من الجهد ، بل إن رجال الدين النصراني لما آلمهم عزوف رعاياهم عن تعاليم الكنيسة وطقوسها لجؤوا إلى وسائل ترفيهية ولكن على حساب الأخلاق كالرقص المختلط ، عليهم يجدون لكنيستهم رواداً في ذلك الماخور العظيم ، حتى ولو كان ذلك متعارضاً مع الدين <sup>(٢)</sup> . وهكذا فلا يجد الكثير من الغربيين حرجاً في بقائهم متدينين نصارى بهذا الوضع الممسوخ .

وقد وصف الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالفسق في أكثر من موضع ؛ فقال تعالى : ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٥٩] <sup>(٣)</sup> .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٥٤ .

(٢) انظر قصة «الأب» النصراني الذي يقيم الرقص لقاصديه من الفتيان والفتيات بعد أداء الطقوس الدينية في الكنيسة في : العلمانية ص ٥٠٠ .

(٣) اقرأ تفسير الأستاذ سيد قطب رحمه الله لهذه الآية حيث ذكر أن عدم إيمان أهل الكتاب بما آمن به المسلمون وبما اتصفوا به من فسق ، كل ذلك يدفعهم إلى محاربة المسلمين بالحروب =

فإن انحراف هؤلاء النصارى وفسقهم يشيع النقمة في نفوسهم على المسلمين ودينهم ، ويدفعهم إلى معاداتهم والكيد لهم ، ومن ذلك محاولة تنصيرهم أو حتى زعزعة عقيدتهم وإفساد دينهم .

إن الغرب العلماني في صراعه مع الإسلام لا مناص له من اتخاذ موروث ثقافي وروحي في مقارعة الإسلام ، وذلك مع نضوب حضارته وجفاف علمانيته . هذا الموروث الذي يتكئ عليه الغرب في صراعه مع الإسلام هو الموروث الصليبي والحروب الصليبية التي كان يشعل فتيلها في القرون الوسطى القساوسة والرهبان .

ويتساءل الدكتور «عبد الحليم عويس» عن ذلك التناقض الذي يظهر في علمانية الغرب وإصراره على تنصير المسلمين ، وحشده الإمكانيات الهائلة في سبيل ذلك ، ويجب على ذلك فيقول : «فما معنى هذا كله . . ؟ هل النصرانية مجرد بضاعة للتصدير؟ نعم، إنها كذلك فعلاً . . . إنها مجن واق من أخطار الزحف الإسلامي . . ، إنها ستار يراد منه أن يمنع شمس الإسلام من الظهور، إنها تراث حضاري يرشح للوقوف في وجه تراث الإسلام وحضارته . .

إنها - في أقل حياتها - صورة (دين) يمكن أن يحارب بها (دين) آخر . . حيث ثبت - تاريخياً - أنه لا يقف أمام الدين إلا الدين ، ولا يفل الحديد إلا الحديد . . والبقاء للأصلح في نهاية المطاف . . »<sup>(١)</sup> .

---

= الصليبية تارة ، وبالتنصير تارة أخرى ، وبالغزو الفكري تارات وتارات . وقد رد - رحمه الله - على من قال إن الحروب الدينية قد انتهت وإن الصراع اليوم لم يعد دينياً وإنما مادياً . كما رد - رحمه الله - على الدعوة إلى تقارب الأديان في وجه الإلحاد كما يقال . في ظلال القرآن ٩٢٣/٢ وما بعدها .

(١) المسلمون في معركة البقاء ص ٤٤ .

فلا يزال الغرب إلى يومنا هذا مع علمانيته الصارخة<sup>(١)</sup> يتعامل مع الإسلام بالروح الصليبية الحاقدة، ولا يزال يصر على تنصير العالم الإسلامي بكل ما أوتي من وسائل وقوة ؛ فأمریکا العلمانية في بلادها، النصرانية بل التنصيرية في تعاملها مع المسلمين، بلغت عدد مدارسها التنصيرية في سوريا وحدها مائة وأربعاً وسبعين مدرسة ، وذلك في عام ١٩٠٩م<sup>(٢)</sup> ، ولو لم يكن للأمريكيين غير الجامعة الأمريكية في بيروت التي أسلفنا الحديث عنها لكفى به دليلاً على صليبيتهم وعدائهم للمسلمين .

فكم خدع السذج والمغفلون وتخادع العلمانيون عن نصرانية الغرب وصليبيته بعلمانيته وتحرره ، وليس أشبه بهذا الانخداع - وإن كان داخلياً ضمنه - إلا الانخداع بالرحالة المنصرين ، واعتبار رحلاتهم كشوقاً جغرافية كانت خالصة للبحث والمعرفة ونفع بني الإنسان دون النظر إلى دين أو جنس ، كما هو الحال مع «فاسكو داجاما» ، و«ماجلان» ، و«ليفنغستون» ، وغيرهم من عشرات بل مئات الرحالة الغربيين الذين جاسوا خلال ديار الإسلام ، منصرين ، وجواسيس ، وطلّاع للاستعمار .

فماذا قال «فاسكو داجاما» حين قام برحلته من أوروبا إلى أقصى الشرق عبر رأس الرجاء الصالح ذلك الطريق الذي كان معروفاً عند المسلمين ؛ لقد قال قولته المشهورة التي تكشف الهدف الحقيقي لهذه الرحلة : الآن طوقنا رقة الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت .

---

(١) اقرأ حول ذلك : ماذا بقي للدين ، في كتاب العلمانية ص ٤٩٣ وما بعدها .

(٢) التبشير والاستعمار ص ٧٨ .



ومع ذلك فإننا ندرسها لأبنائنا بتأثير الغزو الفكري أنها رحلة علمية ، وكشف جغرافي عظيم<sup>(١)</sup> .

أما «ماجلان» قاهر البحار كما ندرس لطلابنا بتأثير من الغزو الفكري أيضاً<sup>(٢)</sup> ، فقد دفع حياته ثمناً لإحدى رحلاته التنصيرية والتي قام بها إلى الفلبين ، بعد أن أخذ إذن البابا ومباركته وحاول رفع الصليب على أرض المسلمين . ونحن ندرس لأبنائنا أن «المتبررين» الذين لم يقدروا قيمة الرحلة الاستكشافية العظيمة قتلوه<sup>(٣)</sup> .

وأما «دافيد ليفنغستون» (١٨٨٣ - ١٨٧٣ م) الرحالة أو على الحقيقة المنصر البريطاني الذي اخترق أواسط إفريقيا، من مرفأ سان بول دي لاوندا في أنغولا البرتغالية شرقاً إلى كيليمان عند مصب نهر زامبيسي في مضيق الموزمبيق تجاه مدغشقر شمال خط العرض العشرين غرباً؛ لم تكن رحلته المشهورة في تاريخ الاستكشافات الجغرافية إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية . لقد أراد ليفنغستون أن يستكشف طرقاً في إفريقيا للمبشرين لا للمدنية<sup>(٤)</sup> .

فهل يقال بعد هذا إن الغرب علماني لا يهتم بأمر الأديان، وأن تلك الرحلات التي قام بها المنصرون والصليبيون كانت في سبيل العلم والمعرفة وإسداء النفع للبشرية؟!

إن الجهود التي يبذلها المنصرون برعاية دول الغرب ودعمها أكبر من أن

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٨٩ . ومما يؤسف له أن الذي قام بمساعدة ذلك الرحالة البرتغالي الصليبي هو البحار المسلم «ابن ماجد» الذي أمدّه بالمعلومات والخرائط ، بل قاد بنفسه سفينته نحو جزر الهند الشرقية .

(٢) العلمانية ص ٦١١ .

(٣) واقعنا المعاصر ص ١٨٩ .

(٤) التبشير والاستعمار ص ٥١ .

يحددها الحصر ، أو يأتي عليها قلم ، «ولا سبيل إلى إحصاء ما كتبه المبشرون وأنصار المبشرين عن الشرق ولا عن العرب والإسلام ، فإن «شترائت و دندنغر» قد أصدرتا بين عام ١٩١٦م وعام ١٩٣١م سبعة مجلدات ذكرا فيها أسماء المصادر والمراجع التي تدور حول المبشرين وجهودهم وتسهيل أعمالهم . ثم إن أكثر هذه الكتب مفصلة تفصيلاً كبيراً ، فإن الرسائل التي كتبها المبشرون من سورية والشرق الأدنى فقط إلى زملائهم بين عام ١٨٣٠م وعام ١٨٤٢م طبعت في ثلاثة عشر مجلداً من أصل ثمانية وثلاثين مجلداً .

ولما اجتمع مؤتمر التبشير العالمي في أدنبره (في أسكوتلندة) عام ١٩١٠م أصدر تقريراً عن النواحي المختلفة التي يجب أن يهتم لها المبشرون ، تم طبعه في عشرة مجلدات .

أما مؤتمر التبشير الدولي الذي اجتمع في القدس عام ١٩٢٨م مدة اسبوعين فقط ، فقد وضع تقريراً في ثمان مجلدات ، وهناك عشرات من أمثال هذه الكتب والتقارير قد ظهرت كلها في مجلدات عديدة ضخمة»<sup>(١)</sup> .

«أما المجلات التبشيرية التي صدرت في بلدان مختلفة فهي أكثر من أن يحصيها العد ، أضف إلى ذلك أن ثمة في العالم كله جرائد ومجلات سياسية أو أدبية أو علمية لا تظهر عليها صبغة التبشير ، ولكنها في الحقيقة وسائل قوية من وسائل المبشرين»<sup>(٢)</sup> .

وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار الغربي يرحل عن بلاد المسلمين ظاهرياً ، ويعود أدراجه من حيث جاء . أخذ يمكن بعده للمؤسسات

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .

التنصيرية ، ويعمل على تثبيتها ، بل إن النشاط التنصيري في العالم الإسلامي قد تعاضم وتفاقم بعد رحيل الاستعمار ، وكأنما الغرب قد أزعجه انسحاب جيوشه العسكرية ، فسارع إلى إبدالها بجيوش هائلة من المنصرين . ولنضرب على ذلك بمثال هو أندونيسيا<sup>(١)</sup> ، تلك البلاد المسلمة التي استشرى فيها التنصير بشكل لم يعرف مثله في بلاد أخرى . يقول الدكتور رؤوف شلبي<sup>(٢)</sup> :

«إن الخطر الذي يتهدد الإسلام ومستقبله في أندونيسيا بحق وحقيقة آت من سيطرة النصارى على مراكز العصب الحساس في أجهزة الدولة ، وأزمة الاقتصاد ، مما يذكرنا بسيطرة نصارى المستعمرين أيام أوج الاستعمار الهولندي<sup>(٣)</sup> ، وإذا كان ذلك طبيعياً أيام الاستعمار فإنه من المفارقات جداً أن يستمر بعد ثلاثين سنة من الاستقلال<sup>(٤)</sup> .

وهذه السيطرة قد خططوا لها منذ أمد طويل ، إذ أعدوا كوادرههم وأتاحوا لهم فرص التحصيل العلمي إلى أعلى المستويات في جامعات

---

(١) تقع أندونيسيا أو جزر الهند الشرقية أو بلاد الجاوى كما كان يسميها المسلمون - في جنوب شرق آسيا وتبلغ مساحتها أكثر من ٢ مليون كم<sup>٢</sup> ، وتضم ١٣٦٧٧ جزيرة صغيرة منها ٦٠٤٤ جزيرة مأهولة ، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ١٥٠ مليون نسمة تمثل نسبة المسلمين حوالي ٩٦٪ ، و ٣٪ نصارى ، والبقية وثنيون ، وهذه النسبة قد انخفضت بنسبة تصل إلى ١٠٪ بسبب الهجمة التنصيرية الوحشية على ذلك القطر المسلم .  
انظر : حاضر العالم الإسلامي ص ٤٥٥ د . جميل المصري .

(٢) من دراسة له نشرت في مجلة الأزهر عام ١٣٩٩ هـ .

(٣) استمر الاستعمار الهولندي في أندونيسيا أكثر من ثلاثة قرون ونصف ، وارتحل عام ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٥ م .

(٤) هذا الاستقلال ليس إلا ظاهرياً فقط ، شأنه في ذلك شأن بقية البلدان التي رحل منها الاستعمار ، كما ذكرنا ذلك عند حديثنا عن الاستعمار .

أندونيسيا وجامعات الخارج بما يؤمن لشبابهم من منح دراسية سخية ، بينما أبناء المسلمين محرومون من تلك الفرص»<sup>(١)</sup> .

ثم شرع يذكر بالتفصيل الوزارات والمراكز الحساسة التي يسيطر عليها النصارى ، ومن هذه الوزارات : وزارة الدفاع والأمن الداخلي والصحة والتجارة ، عدا عشرات المناصب الهامة الأخرى كإدارة الجوازات والهجرة التي تسهل دخول الإرساليين ورجال الأعمال الفاتيكان ، وتعفي القسس ورجال الكنائس من رسوم تأشيرات الخروج الباهظة<sup>(٢)</sup> .

بل إن النصارى قد استولوا على مقاليد الحكم المحلي (اللامركزي) في أربع ولايات مع أن بعضها ذات أغلبية من المسلمين<sup>(٣)</sup> ، ويسيطر النصارى على أغلب الأحزاب والتشكيلات السياسية كطائفة الجولكار<sup>(٤)</sup> والهيئة المركزية للحزب الديمقراطي الأندونيسي<sup>(٥)</sup> ، كما يسيطرون على القطاع الاقتصادي سيطرة تكاد تكون تامة ؛ إذ يمتلكون عشرات البنوك والشركات المنتجة<sup>(٦)</sup> .

وتشير إحدى الإحصائيات السرية لمجلس الكنائس العالمي إلى أن عدد المبشرين المتفرغين لذلك يبلغ ١٤ ألفاً في عام ١٩٨١ م ، وأن عدد الكنائس

---

(١) حقائق ووثائق ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٤) كلمة الجولكار منحوتة من كلمتين باللغة الأندونيسية وهي جولونفان كاريأ أي طائفة أصحاب الحرف ، وينضوي تحت مفهوم أصحاب الحرف كل من يحترف حرفة يعيش منها ، ولها ضريبة تتقاضاها من أتباعها .

(٥) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٦) المصدر السابق ص ٦٠ .

يصل إلى ١٦ ألف كنيسة، وأن ما أنفق على التبشير البروتستنتي في أندونيسيا وحدها يعادل ١٣٥ مليون دولار<sup>(١)</sup>.

كما يمتلكون أحدث وسائل النقل والمواصلات مثل طائرات الهليكوبتر وطائرات التشيستا والأجهزة اللاسلكية<sup>(٢)</sup>. وحسبك أنهم يمتلكون خمسين مطاراً خاصاً بهم<sup>(٣)</sup>.

لقد قرر المنصرون في مؤتمرهم الذي عقده في مالانغ في جاوة الشرقية أنه يجب أن ينتهوا من تنصير سكان جزيرة جاوة خلال العشرين سنة المقبلة، وأن ينتهوا من تنصير أندونيسيا كلها خلال الخمسين عاماً القادمة. وقد نشرت مجلة (تايم) الأمريكية في عددها ٣/٥/١٩٨٢ م أن ٦, ٥ مليون مسلم في أندونيسيا قد تحولوا إلى النصرانية<sup>(٤)</sup>، ومع ضخامة هذا الرقم وفضاعته إلا أنه جاء نتيجة طبيعية لتلك الجهود الجبارة التي بذلها النصارى.

وبلغ من جرأة المنصرين ومجاهرتهم بالتنصير هناك إلى محاولاتهم تنصير الدكتور «محمد رشيدى» أول وزير للشئون الدينية في أندونيسيا المستقلة كما ذكر ذلك نفسه<sup>(٥)</sup>.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٤٩٠ د. جميل المصري.

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٥.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ١٩٤ د. علي جريشة.

(٤) حاضر العالم الإسلامي ص ٤٨٧ د. جميل المصري. وتشير بعض الإحصائيات إلى تناقص نسبة المسلمين من ٩٦٪ قبل الاستقلال إلى ٨٦٪، في حين ارتفعت نسبة النصارى البروتستنت والكاثوليك من ٢٪ إلى ٨, ٨٪ في عهد الاستقلال.

(٥) الدكتور الحاج محمد رشيدى، هو أحد مثقفي الرعيل الأول من الأندونيسيين الذين تخرجوا في الجامعات العربية، تخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة ونال إجازة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون، وأسند إليه كرسي الدراسات الإسلامية بجامعة (ماك جيل) بكندا، وقد رشح لمنصب مدير المركز الإسلامي بواشنطن، ويتولى =

ولما أعلنت نيجيريا عزمها على الانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامي عام ١٩٨٦م احتجت الهيئات التنصيرية لدى الحكومة النيجيرية<sup>(١)</sup> ، مع أن ذلك الانضمام لم يؤثر أبداً في النشاط التنصيري هناك ، ولكنه الحقد النصراني الذي لا يعرف له حدود .

أما أفريقيا التي يطمح المنصرون إلى تنصيرها بالكامل فيبلغ عدد المنصرين فيها ١٠٤ آلاف ويعمل ٩٣ ألف رجل وامرأة ضمن لجان تطوعية لتوزيع الإنجيل ، وفيها ١٦٦٧١ معهداً كنيسياً لمختلف مراحل التعليم ، كما تخضع ٥٠٠ جامعة أفريقية للكنيسة ، وما يزيد عن ٤٨٩ مدرسة لاهوتية لتخريج المنصرين ، وتنفق الولايات المتحدة وحدها على الإرساليات في أفريقيا أكثر من ٦٠٠ مليون دولار سنوياً<sup>(٢)</sup> .

وفي بعض الإحصائيات يوجد في افريقيا وحدها ١١٩٠٠٠ مبشر ومبشرة ينفقون بليون دولار في السنة<sup>(٣)</sup> .

أما من حيث عدد العاملين في حقل التنصير بصورة عامة فقد ذكرت مجلة الدعوة المصرية هذه الإحصائية : «يقدر عدد المنصرين في العالم الآن بحوالي ٢٢٠ ألف منصر ، منهم ١٣٨٠٠ من الكاثوليك و ٨٢٠٠٠ من

---

= الآن كرسي الدراسات الإسلامية بجامعة أندونيسيا بجاكرتا ، كان أول وزير للشئون الدينية وعمل سفيراً لأندونيسيا في عدد من الدول العربية والإسلامية . حقائق ووثائق ص ٤١ .

(١) حقائق ووثائق ص ٨٤ .

(٢) من إحصائية للدكتور عبد الحليم عويس ، نشرت في مجلة المجتمع ص ٣٥ ، عدد ١٠ شعبان ١٤٠٥هـ تحت عنوان (إحصائية أفريقية) . نقلاً عن : قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٣٣ .

(٣) حقائق ووثائق ص ١٥٥ .

البروتستانت ، ومن بين هؤلاء وأولئك أكثر من ستة آلاف كاثوليكي و ٣٢٠٠ بروتستانت من الولايات المتحدة الأمريكية وحدها»<sup>(١)</sup> .

أما عدد العاملين من الأطباء والباحثين والاجتماعيين المعاونين للمنظمات التنصيرية فقد تجاوز ١٧ مليوناً ، وهناك ٣٠٠ جامعة ومعهد تعمل في مجال تدريب وتخريج المنصرين وإرسالهم إلى مناطق مختلفة من العالم<sup>(٢)</sup> .

ولم يكتف المنصرون بغزو العالم الإسلامي بعقائدهم الباطلة الفاسدة إنما سعوا جاهدين إلى تنصير المسلمين المغترين الموجودين في الدول الغربية ، فقد أعلنت المنظمة العالمية للتنصير عن بدء خطة للعمل في تنصير المهاجرين المسلمين من العرب والأفارقة .

وقد قال رئيس هذه المنظمة إنه ينبغي عدم الاكتفاء بالدعوة ضد الإسلام في ديار المسلمين ، وإنما يجب محاربة الإسلام في نفوس المسلمين الذين هاجروا إلى أوروبا للعمل فيها ، حيث يوجد في أوروبا الغربية وحدها ١٠ ملايين مسلم ، ويعيش معظمهم في بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية ، واستطرد يقول : «إن الفرصة كبيرة لتنفيذ خطة تنصير هؤلاء المسلمين عن طريق فتح الصدور والبيوت أمامهم واستقبالهم بالمودة والكرم ، وعلينا أن نبدأ نشاطنا بدعوتهم للخروج من الإسلام ، وعلينا أن ندرك أن هؤلاء

---

(١) الدعوة المصرية ، ص ٤٠ عدد ذي الحجة ١٤٠٣هـ . نقلاً عن المصدر السابق ص ١٢٨ . وفي إحصائية أخرى قدر عدد المنصرين بـ ٢٥٠,٠٠٠ ألف منصر ، ص ٣٨ من كتاب أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية للدكتور عبد الودود شلبي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة . الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨ .

المسلمين المقيمين في ديارنا هم هبة الله لنا ، وما علينا إلا أن نتقبلها من الله ونعمل في صفوفهم لتحقيق هذه الرسالة»<sup>(١)</sup> .

نشرت مجلة «لافيد» الإيطالية تقريراً منسوباً إلى «دائرة تنصير الشعوب» في روما ، يقول هذا التقرير : إن عدد المدارس والمعاهد التي تشرف عليها هذه الدائرة قد بلغ ٥٨,٠٠٠ ثمانية وخمسين ألف مدرسة ، و ٢٦,٠٠٠ ستة وعشرين ألف معهد وجامعة ، وقد بلغ عدد المدرسين العاملين في المدارس التابعة لهذه المؤسسة ٤١٧,٠٠٠ أربعمائة وسبعة عشر ألف مدرس ومدرسة . ويقول هذا التقرير : إن ميزانية الكنيسة الكاثوليكية في أسبانيا قد بلغ في عام واحد : ١١٧,٠٠٠,٠٠٠ مائة وسبعة عشر مليون دولاراً أمريكياً ، وأن مؤسسة واحدة تدعى «روماسيا» قدمت إلى الكنيسة ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ ثمانين مليوناً لها»<sup>(٢)</sup> .

إن الظروف السيئة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم خصوصاً منها ما سببته الحروب والمجاعات من تزايد عدد اللاجئين والجائعين ساعدت النشاط التنصيري على توسيع دائرة نشاطه . يقول «ريموند جويس» : «إن أوضاع العالم الإسلامي مؤاتية لنا بأكثر من أي وقت مضى ، بسبب التمزقات والاضطرابات التي تسوده»<sup>(٣)</sup> .

وإن الغرب النصراني ليشن في هذه الأيام حرباً سافرة على الإسلام

---

(١) من تقرير د. عبد الحليم عويس وإحصائيته السابقة . نقلاً عن قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٣٣ .

(٢) حقائق ووثائق ص ٨٣ . وللعلم فإن كل هذه الإحصائيات قد أخذت قبل سنوات تقدر على الأقل بعشر سنوات ، وهي في ازدياد مستمر .

(٣) أفيقوا أيها المسلمون ص ٢٨ .



والمسلمين يقودها المنصرون والقسس ، ويخطط لها البابا والفاتيكان الذي يمتلك ثروة خيالية، «لقد قدرت بعض الصحف الأوروبية هذه الثروة بأكثر من مائة وثلاثين بليوناً . . . أي ثروة أكثر من مائة وثلاثين ألف مليون من الدولارات نقدًا وعقارًا وشركات وبنوكًا»<sup>(١)</sup> .

أما دعم الحكومات الأوروبية للمشاريع التنصيرية فهو جزء من مخططاتها الاستعماري القديم الذي يمهّد لنفوذها ، ويحقق مصالحها .

وأما الولايات المتحدة الأمريكية فتعدّ حاملة لواء التنصير ورافعة الصليب في العالم أجمع وفي العالم الإسلامي خاصة ، وما تنفقه في مجال التنصير أمر لا تحده الأعداد أو تقف عنده الأرقام .

إن الحملات التنصيرية التي تجتاح العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه لتلاحق اللاجئين والجائعين والنساء والأطفال والشيوخ ، وتساوم الملايين من المسلمين على ترك دينهم من أجل لقمة العيش التي لا تتجاوز في كثير من الأحيان رغيفًا من الخبز ، أو حفنة من الأرز . إن تلك الحملات لهي جيوش الاستعمار الصليبي الجديد الذي يتخفى وراء هيئات الإغاثة ومنظمات اللاجئين .

وما إن تحل كارثة ببلد إسلامي - وما أكثر الكوارث - حتى تسارع هذه المنظمات التنصيرية أو تلك الجيوش الصليبية المقنعة للاستحواذ على هذا البلد المنكوب لتنصيره وإفساده .

وما يحدث الآن في الصومال من تكالب الهيئات التنصيرية لهو أكبر دليل على هذا ، وكذلك ما يحدث في البوسنة والهرسك حيث يباع أطفال

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٢ .

المسلمين إلى الهيئات الأوروبية التنصيرية بأبخس الأثمان لتنفث فيهم حقدتها المسموم ، وتقوم برعايتهم لينشؤوا نصارى حاقدين .

إن هذه الحرب التنصيرية الشرسة التي تشعل أوارها دول الغرب والتي لم تلق مقاومة من جانب الدول الإسلامية للأسف الشديد إلا في القليل النادر ، بل إن بعض الحكومات الإسلامية توافق على النشاط التنصيري في بلادها بل تدعو إليه صراحة كما قال «ريموند جويس»<sup>(١)</sup> - إن هذه الحرب جزء من صراع النصرانية الحاكمة مع الإسلام ، ولا يمكن الظفر فيها أو حتى إيقافها إلا بعودة الأمة إلى دينها وتطبيقه في حياتها تطبيقاً كاملاً ، حتى يعود الإسلام كما كان ممكناً في الأرض ، ويصبح الواقع الإسلامي الصحيح هو الداعي الأول لهذا الدين ، عندئذ تتقهقر النصرانية ويندحر الصليب ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا .

وفي خاتمة المطاف لا بد لنا من أن نشير إلى أمر ذي بال ، وهو سوء الأحوال العقدية والعلمية الذي لولاه ما فكرت الإرساليات التنصيرية في غزو العالم الإسلامي فضلاً عن أن تحقق لها نجاحاً .

وحسبنا أن نعرف أنه في حين كانت هذه الإرساليات تغزو البلاد الإسلامية ويتنقل المئات من المنصرين بين هذه البلدان ، كان هناك آلاف من الصوفية يطوفون الأقاليم ويرتحلون من بلد إلى آخر لنشر طرقهم ، وفي غمرة معتقدات الصوفية المنحرفة يفسح المجال لكل طارق خبيث ، وعدو متربص . وهل كان يمكن بعد كل هذا الانحرافات التي فصلنا القول عنها في البابين الأول والثاني أن تعي الأمة بتلك الهجمة التنصيرية الشرسة أو أن تعد العدة لمقاومتها؟! .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ .

# الباب في الردِّ بعم

## الصحوة الإسلامية وآفاق المستقبل

ويتكون من فصلين :

الفصل الأول : أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله في العالم الإسلامي .

الفصل الثاني : الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر .



## الفصل الأول

### أثر حركة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب رحمه الله» في العالم الإسلامي<sup>(١)</sup>

لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام المجدد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في منتصف القرن الثاني عشر الهجري<sup>(٢)</sup> ، بعد ما أطبقت

(١) كان عنوان هذا الفصل في خطة الرسالة هو : الحركات الإسلامية وتأثيرها بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ولكنني أثرت العنوان الحالي ، وبقراءة الفصل تعرف أسباب العدول عن العنوان القديم إلى العنوان الجديد .

(٢) ولد رحمه الله في بلدة العيينة سنة ١١١٥ هـ ، وأعلن الدعوة بعد وفاة أبيه عام ١١٥٣ هـ وكان قبل ذلك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكان ذلك في بلدة حريملا . ثم انتقل إلى العيينة التي أزره أميرها عثمان بن معمر أول أمره ، وهناك باشر الشيخ الدعوة الفعلية ، حيث قام بقطع الأشجار التي كان الناس يتبركون بها هناك ، وهدم قبة زيد بن الخطاب رضي الله عنه رغم شدة المعارضة التي قضت عليها مؤازرة الأمير .

وكان رجم المرأة المحصنة التي أقرت بالزنا بعد ذلك إشهاراً لأمر الشيخ في البلدان مما ألب عليه أمير الأحساء سليمان بن محمد الحميدي الذي أرسل إلى ابن معمر يتهدد ويتوعد بقطع الخراج عنه إن لم يقتل الشيخ ، فانتقل الشيخ إلى الدرعية عام ١١٥٨ هـ ، وهناك حدث اللقاء التاريخي مع أمير الدرعية محمد بن سعود وتم التعاقد بينهما على نصره الدعوة مهما كلفهما الأمر ، وبذلك دخلت الدعوة ميدان الصراع الحقيقي ، وصار لها دولة ومنعة وكيان ، وطار ذكرها في أرجاء العالم . واستمر الشيخ رحمه الله يدعو ويغزو ويجاهد في سبيل الله ، ويدرس ويفتي ويقضي ، إلى أن أقر الله عينه بانتشار دعوته ، وظهور أتباعها ، فقبضه الله إليه سنة ١٢٠٥ هـ ؛ فرحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل الله له المثوبة والأجر ، ولمن جاهد معه ، ودعا بدعوة الحق ، إلى يوم الدين .

الجهالة على الأرض ، وخيمت الظلمات على البلاد ، وانتشر الشرك والضلال والابتداع في الدين ، وانطمس نور الإسلام ، وخفي منار الحق والهدى وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبق سوى قلة قليلة لا يكون من الأمر شيئاً ، واختفت السنة وظهرت البدعة ، وترأس أهل الضلال والأهواء ، وأضحى الدين غريباً والباطل قريباً . حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل في الإصلاح ويصاب بياس قاتل في أية محاولة تهدف إلى ذلك .

ولكن الله عز وجل قضى بحفظ دينه وكتابه وسنة نبيه ﷺ ، وكان من رحمته تبارك وتعالى بهذه الأمة أن يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه<sup>(١)</sup> .

فكان الشيخ الإمام «محمد بن عبد الوهاب» بتوفيق الله عز وجل هو مجدد القرن الثاني عشر الهجري وهو أمر في حكم المتفق عليه<sup>(٢)</sup> .

ويمكننا القول إن دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله تعد البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل ، وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين .

إن الدعوة السلفية التي دعا إليها الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب»

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود برقم ٤٢٩١ ، في كتاب الملاحم . وهو في صحيح سنن أبي داود برقم ٣٦٠٦ .

(٢) انظر من قال من العلماء بهذا في كتاب : عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص ١٠-١١ للدكتور صالح بن عبد الله العبود . الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . إحياء التراث الإسلامي . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ .

في القرن الثاني عشر الهجري لم تكن سوى الدعوة التي نادى بها المصلح العظيم والإمام المجدد شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله في القرن الثامن الهجري ، وهي نفس الدعوة التي أودى من أجلها إمام أهل السنة والجماعة «أحمد بن حنبل» رحمه الله في القرن الثالث الهجري ، وهي تعني باختصار الرجوع إلى الإسلام كما أنزل على الرسول الكريم ﷺ ، وفهمه الصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل القرون المفضلة ، عقيدة وشريعة وسلوكًا .

وهي الدعوة التي تكفل الله بحفظها ووعد من حملها بالظهور والنصر إلى قيام الساعة مهما خذلها المتخاذلون وخالفها الخصوم والمناوئون ، وأخبر بذلك سيد المرسلين محمد ﷺ في الحديث الصحيح : «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»<sup>(١)</sup> .

ولا زال أتباعها في كل عصر ومصر يقومون بحملها وتبليغها للناس كل بحسب طاقته<sup>(٢)</sup> ، غير أن الله عز وجل بارك في جهود شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلامذته الأعلام كـ «الحافظ ابن القيم» و«الحافظ الذهبي» و«الحافظ ابن كثير» و«الحافظ ابن رجب» وغيرهم رحمهم الله أجمعين ، وكانت دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» من كبار الثمار لتلك الجهود الطيبة المباركة التي بذلها شيخ الإسلام وتلامذته الكرام وأتت أكلها بعد حين .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، برقم ٣٦٤١ (الفتح ٦/ ٦٣٢) . ومسلم برقم ١٠٣٧ كتاب الإمارة ٣/ ١٥٢٤ . وهو حديث ثابت مستفيض عن الصحابة ، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٤٧٩ .

(٢) انظر مبحث غربة العقيدة الصحيحة في هذه الرسالة لترى بعض من حملها في الفترة التي نقوم بدراستها وأودى من أجلها .

وليس من شأن بحثنا أن نخوض في تفصيل دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» أو نحاول أن نستقصي جهوده وأعماله ، فقد كتب عنه الكثير من المؤلفات<sup>(١)</sup> ، ولكن الذي يعنينا في هذا المقام هو ذلك الأثر العظيم الذي أثمرته تلك الدعوة المباركة في العالم الإسلامي .

وسنحاول بيان ذلك بإيجاز شديد لما له من ارتباط وثيق بموضوع الصحوة الإسلامية الذي نحن بصدده فنقول : إن من الخطأ بادئ ذي بدء أن نقف بالأثر العظيم الذي أثمرته دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عند زمن معين أو بلد معين أو جماعة إسلامية معينة ، فإن ذلك لا يمكن أن يفني بحقها ، أو يوضح بجلاء أثرها ، مع ما في مخالفة بعض ذلك للواقع ، كما سيتبين عند حديثنا حول ما قيل عن تأثر كثير من الدعوات الإصلاحية بها .

فالدعوة السلفية كان أثرها العظيم يظهر تدريجياً مع توالي السنين

---

(١) منها على سبيل المثال : محمد بن عبد الوهاب لأحمد بن عبد الغفور عطار . داعية التوحيد محمد بن عبد الوهاب لعبد العزيز سيد الأهل . سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأمين سعيد . الشيخ محمد بن عبد الوهاب للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي . الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حياته وفكره للدكتور عبد الله الصالح العثيمين . الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التاريخ عبد الله بن سعد الرويشد . الشيخ الإمام محمد ابن عبد الوهاب ، حياته ودعوته للدكتور عبد الله بن يوسف الشبل . محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه مسعود عالم الندوي . هذا عدا المصادر الأصلية مثل تاريخ ابن غنام وتاريخ ابن بشر وتاريخ ابن عيسى . أما الرسائل الجامعية فقد كتب فيه على سبيل المثال : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ، رسالة دكتوراه للدكتور أحمد بن عطية الزهراني من قسم العقيدة في جامعة أم القرى . وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ، رسالة دكتوراه للدكتور صالح بن عبد الله العبود من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . وغيرها .



والأيام ، فإن أثرها لا زال في تعاضم وازدياد بالرغم من زوال دولتها الأولى عام ١٢٣٤هـ ومناوأة الكثيرين لها على طول تاريخها .

ولسنا نعني بالأثر أكثر من عودة الكثيرين إلى المنهج السلفي ، وانتشار عقيدة السلف بين شباب الصحوة وانحسار الشرك والبدع والخرافات إلى حد كبير ، فهذا هو الأثر الحقيقي للدعوة الذي يجدر التحدث عنه ، والإشادة به .

ولو لم يكن للدعوة من أثر إلا انتشار مؤلفات الشيخ وأتباعه بين الشباب خاصة ، لكفى بذلك نجاحاً وأثراً . فكيف إذا ضم لها الفضل بعد الله - عز وجل - في نشر مؤلفات شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلامذته في العصر الحاضر .

لقد أغفل كثير ممن تصدى لدراسة أثر دعوة الشيخ في العالم الإسلامي أمراً هاماً وحقيقة ساطعة عند حديثهم عن هذا الأثر ، تمثل ذلك في إغفال الانحرافات العقدية والعلمية التي أطبقت على العالم الإسلامي ، وكادت لولا عناية الله أن تخنق هذه الدعوة في مهدها .

إن من يطالع بعض هذه الدراسات القيمة فيقرأ عن أثر الدعوة في العالم الإسلامي ليخرج بنظرة ناقصة ونتيجة غير صحيحة حين لا ينطبع في فكره إلا الحديث عن أثر الدعوة في العلماء والحركات والدول<sup>(١)</sup> ، وكأن الانحرافات العقدية قد زالت ، والعلمية قد تلاشت .

ولا أريد أن أقول إنه قد بولغ في الحديث عن أثر الدعوة واستجابة الناس

---

(١) انظر على سبيل المثال : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي للدكتور أحمد بن عطية الزهراني . وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي للدكتور صالح بن عبد الله العبود .

لها ، ولكن إغفال الجوانب المظلمة رغم كثرتها ، والتركيز على الجوانب المضيئة رغم قلتها ، لا يعطي نظرة كاملة ولا تصوراً صحيحاً .

لقد رأينا من خلال دراستنا الطويلة في هذه الرسالة التي كشفت لنا حقيقة الأوضاع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين أن الأمة الإسلامية كانت في أسوأ مراحلها التاريخية ، وأن أمر الدين قد وهى جداً . وأن الانحرافات قد عظمت والأحوال قد تردت .

وعند ظهور دعوة الشيخ في منتصف القرن الثاني عشر الهجري ، كان أمر الجهل والشرك والبدع والتصوف قد استفحل في البلدان . ورأينا كيف غدت عقيدة السلف محاربة من قبل السواد الأعظم ، وغريبة بين الناس ، قد تألب ضدها الحكام والعامة والعلماء والجهال ، وأن تهمة الوهابية كانت تعني عندهم إهدار الدم والمال أو السجن أو النفي وحرق الكتب . لقد كان أمر الدعوة ضعيفاً وأثرها محدوداً في بداية أمرها ، وما زال أمرها في تقو وأثرها في اتساع إلى هذه اللحظة .

ولكن تلك الانحرافات العقدية والعلمية السيئة التي تفاقمت مع توالي القرون كانت من الضخامة والانتشار ما يجعل من إزالتها في فترة وجيزة أمراً غير ممكن على الإطلاق ، بل إنه لولا رحمة الله ولطفه عز وجل لاستطاع أعداء الدعوة المتكالبون عليها من كل مكان أن يقضوا عليها قضاء مبرماً .

فكيف يتسنى بعد ذلك إغفال هذه الانحرافات التي لم تكن الدعوة بالنسبة لها سوى شعلة مضيئة في وسط بيداء مظلمة؟! فتركيز الحديث عن الشعلة المضيئة لا ينفي أنها واقعة في ظلمات بيداء قاحلة .

نعم لقد كان أثر الدعوة كبيراً في نجد وما حولها ، أما في الحجاز أو مصر

أو المغرب أو العراق أو الشام أو الهند فلم يكن بالطبع قوياً كما رأينا في الباب الأول من هذه الرسالة. فليس كل بلد يذكر فيه عالم أو عالمان من العلماء يؤمنان بالدعوة وينافحان عنها يصح أن يقال عنه إن الدعوة أثرت فيه تأثيراً جيداً<sup>(١)</sup>.

كيف يقال هذا وعشرات من العلماء والفقهاء والمتصوفة بل مئات منهم كانوا يناصرون الدعوة العدا ، وتنساق خلفهم جماهير الدهماء ، وغالب الحكام والسلاطين. ومن ذكر من المتأثرين بالدعوة لا يعدو أن يكون طريداً غريباً إلا في القليل النادر، وكثير من هؤلاء الذين قيل إنهم تأثروا بالدعوة كانوا يتوخون منهج السلف ويحاولون ترسم خطاهم ، قبل أن تبلغهم الدعوة، كما هو الحال مع الإمامين «الصنعاني والشوكاني»<sup>(٢)</sup>.

إن الأثر العظيم في نظري ليس في وجود عالم أو أكثر في بلد قليل إنه قد تأثر بدعوة الشيخ، فذلك أمر مهما حاول أحد أن يستقصيه يظل محدوداً إلى جانب المخالفين الذين يربونهم أضعافاً مضاعفة. ولكن الأثر جاء بعد ذلك يتسع مع الأيام ، ويقوى مع الأعوام، ليأخذ المنهج السلفي مكانه المرموق في فكر الصحوة الإسلامية.

---

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٤٧.

(٢) يقول الإمام الصنعاني رحمه الله من قصيدته التي بعث بها إلى الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب :

سلام على أهل الحديث فإنني	نشأت على حب الأحاديث من مهدي
هم بذلوا في حفظ سنة أحمد	وتنقيحها من جهدهم غاية الجهد
وقوله منها :	

لقد سرني ما جاءني من طريقة	وكنت أرى هذي الطريقة لي وحدي
عنوان المجدد ٥٥/١.	

وما زلنا ننتظر أن يتسع هذا الأثر ليشمل فكر الصحوة بالكامل إن شاء الله تعالى ، وإن غداً لناظره قريب .

لا بد من بيان الصعوبات التي واجهت وما تزال تواجه الدعوة السلفية ، والتركيز على ضخامة الانحرافات . أما أن نسلك الطريقة المعهودة التي درج عليها الكثيرون ممن كتب عن دعوة الشيخ فنذكر الحالة الدينية قبل الدعوة فنغرق في وصفها بالانحراف والجهل ثم نعطف بدعوة الشيخ والجهود العظيمة التي بذلها ، ثم نختم بأثرها في العالم الإسلامي . دون أن نشير إلى أن الانحرافات مازالت موجودة ومن الضخامة بمكان ؛ فتلك طريقة لا تؤدي إلى نتيجة صحيحة على أقل تقدير . ويتصور القارئ لأول وهلة أن هذه الدعوة قد قضت على جميع الانحرافات ، وهذا بالطبع غير صحيح .

وهذه هي القضية الأولى حول أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» ، لا ينبغي أن نقف به عند زمن معين أو بلد معين ، وليس لنا بعد ذلك أن نغفل الانحرافات العقدية والعلمية التي ما زالت عقبة كؤوداً في طريق نهوض الأمة وعودتها إلى منزلة القيادة الربانية للعالم . ونعود ونقول : إن الأثر العظيم الذي أحرزته الدعوة هو تبوء المنهج السلفي مكانة مرموقة في فكر الصحوة الإسلامية وانتشاره يوماً بعد يوم .

أما القضية الثانية فهي ما قيل عن تأثر الدعوات الإصلاحية بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» ، وهي قضية تستحق منا وقفة لنخرج من ذلك بنتيجة صائبة .

فقد دأب كثير من المؤرخين المحدثين على نسبة كثير من حركات الإصلاح ودعواته في تأثرها إلى دعوة الشيخ ، ومن هؤلاء « خير الدين

الزركلي» ، حيث يقول عند ترجمته للإمام «محمد بن عبد الوهاب» :  
«وكانت دعوته وقد جهر بها سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) الشعلة الأولى لليقظة  
الحديثة في العالم الإسلامي كله : تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر  
والعراق والشام وغيرها . فظهر «الألوسي الكبير» في بغداد ، و«جمال  
الدين الأفغاني» بأفغانستان ، و«محمد عبده» بمصر ، و«جمال الدين  
القاسمي» بالشام ، و«خير الدين التونسي» بتونس ، و«صديق حسن خان»  
في بهوبال ، و«أمير علي» في كلكتة ، ولعل أسماء آخرين . . .»<sup>(١)</sup> .

ويقول غيره عن حركة الشيخ : «وفي نظرنا لو تم لهذه الحركة مسيرها  
لتغير وجه التاريخ في الشرق الأدنى ، ومع أن قوتها السياسية قد زالت زمنًا  
ما فقد فتحت أفقًا جديدًا للمسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، فنكاد  
لا نجد حركة من حركات الإصلاح إلا كان مرجعها ما نادى به «محمد بن  
عبد الوهاب» في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر»<sup>(٢)</sup> .

وتقول «الموسوعة الميسرة» : «لقد تركت هذه الدعوة بصماتها وآثارها  
على حركات الإصلاح التي قامت في العالم الإسلامي بعد ذلك كالمهدية  
والسنوسية ، ومدرسة الأفغاني و«محمد عبده» في مصر ، وحركات أخرى  
في القارة الهندية»<sup>(٣)</sup> .

ولا أعرف مستندًا حقيقيًا يمكن لهذا الكلام أن يستند عليه . فهل حدث  
فعلاً أن تأثر بدعوة الشيخ من ذكرهم «الزركلي» وعدهم من رجال

---

(١) الأعلام ٦/ ٢٥٧ .

(٢) دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ص ٢١ . د . محمد بدیع شریف وزملاؤه .

نقلًا عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٤١٧ .

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٢٧٨ .

الإصلاح؟ وهل رجعت جميع حركات الإصلاح التي ذكرت إلى دعوة الشيخ؟ وهل صحيح أن حركات البعث الإسلامي التي تلتها ما هي إلا صدى لهذه الحركة وامتداد طبيعي لها؟ وأن امتدادها الفكري قد أمد جميع الحركات الإسلامية بمدد لا ينفد؟<sup>(١)</sup>

ويا ليت بعض هؤلاء قد قدم دليلاً واحداً على تأثر هؤلاء المنسوبين إلى الإصلاح وهذه الحركات المنسوبة إلى الإصلاح بدعوة الشيخ، من كلامهم أو من كلام أتباعهم أو من كلام مؤسسي هذه الجماعات والحركات، بل إننا نجد ما يخالف ذلك تماماً في كثير من الأحيان، ويدحض هذه المقولة، لأن كثيراً من هؤلاء الرجال وكثيراً من هذه الحركات تختلف مع دعوة الشيخ في العقيدة والمنهج. فكيف يصح أن يقال بعد هذا إن هذه الدعوات قد تأثرت بدعوة الشيخ أو أنها امتداد طبيعي لها؟!!

ف«جمال الدين الأسد أبادي» المشهور بالأفغاني<sup>(٢)</sup>، الذي لا زال الغموض يكتنف شخصيته والسرية تحوط معظم تصرفاته، كان ذا علاقة مريبة باليهود والنصارى والمرتدين، وصلة وثيقة بالمحافل الماسونية، بل رئيساً لأحدها وهو محفل كوكب الشرق في القاهرة. وهو ما ذكره الشيخ «محمد رشيد رضا».

---

(١) الثقافة الإسلامية. المستوى الرابع. ص ١٦٩ الأستاذ مصطفى كامل. جامعة أم القرى. مكة المكرمة.

(٢) من أسد آباد قرب همذان في إيران ولم يكن أفغانياً من أسعد آباد (من أعمال كابل بأفغانستان)، كان شيعياً وليس حنفياً سنياً، وإيرانياً وليس أفغانياً على ما كان يزعمه وعلى ما هو مشهور حتى الآن بين الناس.

انظر: دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ص ١٩٩-٢٢٥ مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال. دار طيبة. الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

وقال عنه «سليم العنجوري» في شرح ديوان (سحر هاروت) عند ترجمته له : « إنه سافر إلى الهند وهناك أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ ، وتبحر في لغة السانسكريت أم لغات الشرق . وبرز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم ، زاعماً أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتحوير طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفضاء ويتجاذبها الجو ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهم نشأ من ترقى الإنسان في تنظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات»<sup>(١)</sup> .

ووصف الشيخ «رشيد رضا» الأفغاني بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود ، التي يشتبها فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية ، وقال إن كلامه في النشوء والترقي يشتبها بكلام «داروين»<sup>(٢)</sup> .

وسيرته وتنقلاته وتصرفاته تذكر بأهداف الباطنية وأساليبهم ، كما قال الدكتور « محمد محمد حسين »<sup>(٣)</sup> ، فكيف يقال بعد ذلك أنه من دعاة الإصلاح ، أو أنه قد تأثر بدعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » .

أما تلميذه الشيخ « محمد عبده » ومفتي مصر والصدّيق الأول للمندوب السامي<sup>(٤)</sup> على مصر اللورد «كرومر» الذي نعاه يوم موته ، وقال عنه :

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٤٣ . وقد رمي بالإلحاد في الأستاذة على أيدي علمائها من أجل قوله إن النبوة صناعة مكتسبة ، واتهمه بعض علماء الأزهر بالإلحاد ومنهم الشيخ عlish . انظر : دعوة جمال الدين الأفغاني ص ٣٣٥ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٧٩ . دعوة جمال الدين الأفغاني ص ٣٤٢ ، ص ٣٤٥ .

(٣) الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٠ .

(٤) هكذا كانوا يطلقون عليه ، ولكنه كان هو الحاكم الأول لمصر ، ولم تكن سلطة الخديوي بجانبه إلا اسمية فقط .

«والأيام وحدها هي التي ستكشف عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ «محمد عبده» سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي، وأنا شديد الرجاء في أن تنجح في اكتساب الأنصار تدريجياً، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي في صورته الصحيحة المبشرة بالآمال يكمن في هذا الطريق الذي رسمه الشيخ «محمد عبده»، وإن أتباعه ليستحقون أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوروبي وتشجيعه»<sup>(١)</sup>.

ويقول عنه الشيخ «مصطفى صبري»: «أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ «محمد عبده» فخلاصتها أنه زرع الأزهر عن جموده على الدين، فقرب كثيراً من الأزهرين إلى اللادينيين خطوات، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه «جمال الدين الأفغاني»، كما أنه هو الذي شجع «قاسم أمين» على ترويج السفور في مصر»<sup>(٢)</sup>.

ويقول عنه وعن شيخه الأفغاني: «فلعل الشيخ «محمد عبده» وصديقه أو شيخه «جمال الدين» أرادا أن يلعبا في الإسلام دور «لوثر وكلفن» زعيمَي البروتستانت في المسيحية»<sup>(٣)</sup>، فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين، وإنما اقتصر سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنع بالنهوض والتجديد»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) من تقرير كرومر السنوي الذي كتبه بمناسبة وفاة محمد عبده. الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٩.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ١/ ١٣٣.

(٣) كان الأول ألمانياً والثاني فرنسياً ظهرا في القرن السادس عشر الميلادي، ودعيا إلى إصلاح الكنيسة، وتكون من آرائهما الإصلاحية ما عرف بالمذهب البروتستانتي. انظر محاضرات في النصرانية ص ١٧٧، ص ١٨٢.

(٤) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ١/ ١٤٤.



وأفضل ما يقال عن الشيخ «محمد عبده» من خلال منهجه العقلاني الذي أراد به أن يوفق أو يقرب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية : «أنه كان يريد أن يقيم سداً في وجه الاتجاه العلماني ، يحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه . ولكن الذي حدث - كما يقول «حوراني» في كتابه «الفكر العربي في عصر الحرية» (ARABIC THOUGHT IN THE LIBERAL AGE) - هو أن هذا السد أصبح قنطرة للعلمانية ، عبرت عليه إلى العالم الإسلامي ، لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر ، ثم جاء فريق من تلاميذ «محمد عبده» وأتباعه ، فدفنوا نظرياته واتجاهاته إلى أقصى طريق العلمانية»<sup>(١)</sup>.

فكيف يعد بعد ذلك مصلحاً دينياً أو يكون متأثراً بالدعوة السلفية التي دعا إليها الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب» ، وهو مع تمهيد الطريق أمام الأفكار التغريبية التي حاول أن يلبسها ثياب الإصلاح وبالتالي استحق عليها لقب «المصلح» - إن وضعناه في مصاف علماء الدين كان معتزلياً متطرفاً ، تظهر اعتزاليته أو عقلانيته في تأويلاته المشهورة للملائكة والجن والطير الأبائيل وخلق آدم<sup>(٢)</sup> . فأي تأثير بعد كل هذا يمكن أن يقال .

أما «خير الدين التونسي» فيقول في مقدمة كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» : إنه قد تدبر أحوال الأمم وأسباب تقدمها وتأخرها ، فانتهى إلى أن رسم طريق الإصلاح والرقى بالمسلمين لا يتأتى إلا بالنظر في أحوال الأمم الأخرى ، وما جرى عليها من أسباب التقدم<sup>(٣)</sup> .

« وتفكير خير الدين واضح وصريح فيما يذهب إليه من أن الحصول

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٧ . وانظر العلمانية ص ٥٧٩ .

(٢) العلمانية ص ٥٧٥ .

(٣) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص ٩ .

على أسباب القوة السياسية والحربية والاقتصادية لا يتيسر إلا بتغيير نظم المجتمع الإسلامي والاقتباس من النظم الأوروبية . . . . وهو يرى وجوب الأخذ بالنظام الديمقراطي الغربي ، الذي يقوم على مسؤولية الوزارة أمام مجلس نيابي منتخب ، ويبرر ذلك بما ورد من نصوص شرعية في وجوب المشاورة ويجري في كل كلامه وفي أثناء حجاجه على أن أعضاء المجالس النيابية يقابلون أهل الحل والعقد عند المسلمين . . »<sup>(١)</sup> . فأين أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في مثل تلك الآراء!!

نعم قد يكون كل من «جمال الدين القاسمي» و«صديق حسن» قد تأثر بدعوة الشيخ كما ظهر ذلك واضحاً في مؤلفاتهما كتبيينهما للعقيدة السلفية ودعوتهما إليها ، وإن كان ذلك التأثير أشد وضوحاً عند «القاسمي» من «صديق حسن» . ظهر ذلك من اتباع الأول لعقيدة السلف في تفسيره المشهور «محاسن التأويل» فلم يكذب يخالفها<sup>(٢)</sup> ، ومخالفة الثاني لها بوقوعه في بعض التأويلات الكلامية ، غير أن ذلك لا يمنع من انتسابه إلى علماء المذهب السلفي<sup>(٣)</sup> ، وأن يكون قد تأثر بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» ، خصوصاً إذا علمنا أنه قد جرت بينه وبين بعض مشايخ الدعوة عدة مكاتبات ، ورحل بعضهم إلى بهوبال لأخذ الحديث عن علمائها ، ومنهم «صديق حسن خان» رحمه الله<sup>(٤)</sup> .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ٣٦ .

(٢) انظر : المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ١/ ٢٢٧ محمد عبد الرحمن المغراوي . دار طيبة للنشر والتوزيع . الرياض . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٠٤ .

(٤) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٧٦ . ومن الغريب في الأمر أن المؤلف لم يذكر عند حديثه عن أثر الدعوة في الشام علامة دمشق الشيخ جمال الدين القاسمي .

وأما «الألوسي» فقد كان اتجاهه صوفياً، ومال في تفسيره المشهور «روح المعاني» إلى التفسير الإشاري الذي يتبعه كثير من الصوفية حتى عد تفسيره من ضمن كتب التفسير الإشاري<sup>(١)</sup>، ومال في تفسيره لآيات الصفات إلى مذهب الأشعرية، ونقل كثيراً من بحوث «الرازي» حولها، ولم يوافق عقيدة السلف إلا في مسألة أو مسألتين<sup>(٢)</sup>. فكيف يقال إنه تأثر بدعوة الشيخ وهو دائم الانتصار للمذهب الأشعري، ولو أدى ذلك به إلى لمز أئمة السلفية؟!<sup>(٣)</sup>.

ولو كان «الزركلي» ذكر ابن أخيه الشيخ العلامة «نعمان خير الدين الألوسي» الشهير بابن الألوسي (المتوفى سنة ١٣١٧هـ) صاحب الكتاب الرائع «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»<sup>(٤)</sup>، أو حفيده العلامة «محمود شكري الألوسي» (المتوفى سنة ١٣٤٢هـ) صاحب كتاب «غاية الأمان في الرد على النبهاني» لكان ذلك جديراً بالقبول. وهما كتابان كما ترى يدافعان من خلالهما عن عقيدة السلف، ويذودان عن أئمتها وعلمائها. ويقارعان المبتدعين لأجلها، ومن قرأ سيرتهما وتمعن في ترجمتهما رأى أثر الدعوة السلفية واضحاً في مصنفاتهما بادياً في آثارهما. رحمهما الله رحمة واسعة.

ولا ندري على أي شيء اختار «الزركلي» أبعد الأسرة الألوسية عن عقيدة

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٣٦١. د. محمد حسين الذهبي. دار إحياء التراث العربي.

(٢) المفسرون بين التأويل والإثبات ٢/ ٢٤١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٤٢.

(٤) يعني أحمد بن عبد الحليم بن تيمية شيخ الإسلام الذي تهجم عليه بالغواية والباطل أحمد ابن حجر المكي، ففند المؤلف اتهاماته، وكشف أباطيله.

السلف ، ليذكره مثلاً على أثر الدعوة في العراق ، وترك من هو أقربهم إليها فعلاً ، ومتأثر بها ، وعرف منافحاً عنها ، وأوذي من أجلها؟! (١)

وكون بعض هؤلاء الذين ذكرهم صاحب «الأعلام» قد أنكروا بعض ما أنكره الشيخ من بدع ومحدثات فإن إنكار كثير منهم لم يكن صدقاً لتأثرهم بدعوة الشيخ بقدر ما كان صدقاً لتوجههم الغربي ، ولهزيمتهم النفسية أمام الحضارة الغربية التي تكفر بعالم الغيب جملة وتفصيلاً ، كما وقع لخير الدين التونسي ومحمد عبده على سبيل المثال .

ونأتي الآن إلى الجماعات الإصلاحية التي ذكر أنها متأثرة بدعوة الشيخ إن لم تكن امتداداً لها كما مر معنا من قبل .

إن بعض من يرى تأثير الحركات الإسلامية بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» يقيم رأيه هذا على أن هناك هدفاً واحداً وغاية مشتركة بين دعوة الشيخ وتلك الحركات ألا وهي الإصلاح . وأن هذه الحركات كان تأثيرها بهدف الإصلاح والسعي إلى تحقيقه .

ونقف قليلاً مع هذا الرأي الذي يرى أن الأثر كان بالهدف والغاية ، فنقول : إن كلمة الإصلاح كلمة مطاطة استخدمت بكثرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين من قبل فئات كثيرة ؛ لذا كان لا بد من تحديد معالم هذا الإصلاح ، ولا يكفي أن تكون الغاية هي الإصلاح ، بمعنى أن كل من نادى بإصلاح الأوضاع يكون مصلحاً ، فكل فئة وكل أصحاب فكر وعقيدة يدعون الإصلاح حتى المنافقين : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي

---

(١) انظر : ما وقع للعلامة محمود شكري الألوسي لأجل إنكاره على أهل البدع . في مبحث : غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها في الباب الأول من هذا الكتاب ص : ٢٢٧ .

الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿البقرة: ١١، ١٢﴾.

والتغريبيون من أمثال السلطان «محمود الثاني» و«محمد علي باشا» اللذين سبق أن تحدثنا عنهما، هدفوا من إجراء سياساتهم وتنظيماتهم إلى الإصلاح ، ولكن أي إصلاح؟ إصلاح على الطريقة الغربية!! يرمي في غايته إلى استبدال القوانين الغربية بالشرعة الإسلامية.

و«جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده» هدفا إلى الإصلاح واعتبرا مصلحين عظيمين، ولكنه إصلاح على حساب المعتقدات الدينية ، ولصالح الاستعمار والغرب.

والقوميون العرب من نصارى وغيرهم كانوا يسعون إلى الإصلاح حسب منهجهم ، وقاوموا الترك وحاربوهم لأجل ذلك .

فلا بد من تحديد مفهوم الإصلاح الذي هدفت إليه جميع الحركات الإصلاحية واعتبرته غاية لها.

فالإصلاح مصطلح قرآني؛ قال تعالى على لسان نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ومعناه: «الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي ، ويضيع بعض الفرص ، فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرصة القذرة ، ويعوض عنها كسباً طيباً ورزقاً حلالاً ، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام»<sup>(١)</sup>.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢١.

وهو إصلاح على منهج الأنبياء يعرف أن نجاحه متوقف على توفيق الله عز وجل والتوكل عليه، وفوق ذلك الرجوع إلى الله عند السير في خطواته والعمل من أجل تحقيقه.

فلا بد إذن أن يكون الإصلاح على منهج الأنبياء وبالتحديد على منهج الرسول ﷺ الذي قام بأعظم إصلاح عرفته البشرية في تاريخها الطويل، وجنى ثماره المسلمون ردحاً من الزمن تقدماً وقوة وحضارة، وما واجب أي حركة إصلاحية أو مصلح ديني إلا الرجوع إلى ذلك الإصلاح العظيم ومحاولة إحيائه من جديد.

ومن هنا كان المنهج السلفي الذي تبناه الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب» في قيامه بحركته الإصلاحية، لم يكن إلا عودة صادقة إلى المنهج النبوي الذي ابتعد المسلمون عنه كثيراً بسبب الانحرافات التي فصلنا القول فيها.

ومن هنا نقول إن الإصلاح ما استهدف الرجوع بالأمة إلى ما كان عليه الرسول ﷺ والقرون المفضلة في العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة بالوسائل المشروعة، وباختصار شديد ما كان على المنهج السلفي. وأي عدول عن ذلك المنهج فلا يؤدي إلى إصلاح حقيقي يرضي الله عز وجل، وتتحقق من خلاله مصالح البلاد والعباد.

ونأتي الآن إلى ما ذكر من تأثير الحركات الإصلاحية فنقول: إنه لا بد أن تكون الحركة متأثرة بدعوة الشيخ في الغاية والهدف وفي المنهج الذي سلكته هذه الحركة في الإصلاح، أما أن يكون التأثير بالغاية والهدف دون المنهج وهو ما سار عليه الكثيرون فذلك أمر لا يصح.

وقد سبق أن ذكرنا أن الإصلاح كلمة مشتركة استعملها أناس كثيرون وجماعات متعددة، ولا يكفي أن تكون الغاية هي الإصلاح ما لم يكن ذلك على منهج السلف الصالح. وبسبب هذه القاعدة الخاطئة التي سلكها الكثيرون وقعت نتائج خاطئة، كاعتبار الحركة المهدية مثلاً دعوة إصلاحية فضلاً عن أن تكون متأثرة فعلاً بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله. وهي الحركة التي أسست بادئ ذي بدء على الانحراف، وأقيمت على شفا جرف هار من الكذب والابتداع والخرافة.

وقد ذهبت «الموسوعة الميسرة» إلى اعتبارها من أبرز حركات الإصلاح الإسلامي<sup>(١)</sup>، وإلى أنها متأثرة بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في ضرورة الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، وفتح باب الاجتهاد، ومحاربته لبناء القبور<sup>(٢)</sup>.

واعتبار المهدية من أبرز حركات الإصلاح الإسلامي خطأ فادح لا ريب نتج عن الخلط والجهل بمفهوم الإصلاح، وأغرب منه اعتبارها متأثرة بالدعوة السلفية، فليس كل من دعا إلى الكتاب والسنة بشكل عام يعتبر مصلحاً.

ودعوى الكتاب والسنة قديمة حرصت كثير من الفرق الضالة على التستر بها، بل لا بد من شرط جوهري لقبول هذه الدعوى وهو أن الأخذ من الكتاب والسنة يكون وفق منهج السلف. فهل فعل المهدي ذلك حتى نقول إنه متأثر في ذلك بدعوة الشيخ؟ وما فعله المهدي من دعوة إلى الأخذ

---

(١) الموسوعة الميسرة ص ٤٦٥، ومع انتقادها للحركة المهدية فقد اعتبرتها حركة إصلاحية.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٠.

مباشرة من الكتاب والسنة لا تختلف كثيراً عن دعاوى المتصوفة والمتكلمة والتمذهبة في كل عصر ومصر ، من أنهم يتلقون علومهم مباشرة من الكتاب والسنة وأنهم يصدرون عنهما في كل أقوالهم وعقائدهم . ولكن المعيار الصحيح في ذلك أن يكون ذلك التلقي حسب المنهج السلفي لا منهج آخر . ولا ندري بعد هذا ما هو الاجتهاد الذي دعا المهدي إلى فتح بابه ، وتأثر في ذلك بدعوة الشيخ؟ <sup>(١)</sup> هل هو الاجتهاد الشرعي في ضوء الكتاب

---

(١) في الحقيقة لم أجد نصاً واحداً دعا فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو أحد من أبنائه أو تلامذته إلى فتح باب الاجتهاد صراحة ، ولم يدع أحد منهم الاجتهاد المطلق ، ولكن المتمعن يرى أنهم كانوا يرون الاجتهاد باقياً وإن لم يناقشوا هذه القضية ، كما فعل العلامة محمود شكري الألوسي في «غاية الأمانى في الرد على النبهاني» الذي شنع على من يقول بسد باب الاجتهاد . وقد ذكر الألوسي في معرض رده على الزائغ النبهاني الذي رمى الشيخ وأتباعه بأنهم ادعوا الاجتهاد جهلاً منه وضلالاً فقال :

إن نسبة دعوى الاجتهاد إلى الوهابية . . افتراء وكذب وبهتان عليهم ، فإن أهل نجد كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، مقلدون له في فروع الأحكام ، وموافقون له في أصول الدين وعقائده ، وقد صرح الشيخ محمد بذلك في كثير من رسائله ، وهو لم يدع الاجتهاد ، ولا دعا أحداً من الناس إلى تقليده . غاية الأمانى ٦٠ / ١ .

ويقول الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد في رسالته التي كتبها لما دخلوا مكة سنة ١٢١٨ هـ فاتحين : ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق ولا أحد لدينا يدعيها ، إلا أننا في بعض المسائل إذا صح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد من الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب ، كإرث الجد والأخوة فإننا نقدم الجد بالإرث وإن خالف مذهب الحنابلة . ويقول أيضاً رحمه الله : ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض ، فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد ، وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفين للمذهب الملتزمين تقليد صاحبه . عقيدة الشيخ ص ٢٢١ .

وفي ظني أن الهجمة الشرسة التي شنها المبتدعة والمقلدة المتعصبون على أهل الدعوة جعلتهم يحجمون عن مناقشة هذه القضية الخطيرة صراحة ، وينفون نسبة الاجتهاد إليهم مكتفين بتلميحات تدل على بقاء الاجتهاد كذلك التي أوردناها . وقد ذكرت الموسوعة =



والسنة؟ أم هو اجتهاد من نوع آخر كما وقع فعلاً؛ حيث كان اجتهاد المهدي يخدم ثورته ويدعم دولته قبل أي شيء آخر.

ومن تلك الاجتهادات أو شئت أن نقول الضلالات: تكفيره لمن خالفه أو شك في مهديته ولم يؤمن به، وتسميته للزمان الذي قبله زمان الجاهلية أو الفترة، ومنعه للملكية الأرض لأنها لبست المال، ومنعه النساء من لبس حلي الذهب والفضة<sup>(١)</sup>. إلى غير تلك الضلالات التي أطلق عليها اجتهادات، وكانت تهدف لتقويته وجعل الأمور كلها في يده حتى لو خالف إجماع المسلمين.

وأما محاربته لبناء القبور فينظر في ثبوت ذلك أولاً، ولعله أراد من ذلك تثبيت دعواه للمهدية وخشي من نفوذ من يسمونهم بالأولياء من الأموات، وإذا كان قد حارب البناء على القبور كما قيل فلماذا لم يلتزم أتباعه من بعده بأمره؟! حيث بنوا عليه بعد موته قبة نسفها اللورد «كتشنر» القائد الإنجليزي الذي أطاح بالدولة المهدية.

فهل يصح بعد هذا أن تكون حركته متأثرة بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب»؟! أو أن تعتبر حركة إصلاحية؟!

وكون المهدي حارب الإنجليز رافعاً شعار الجهاد ضد الكافرين لا يخول لأحد أن يعتبر حركته إصلاحية نظراً للانحرافات العظيمة التي وقع فيها،

---

= الميسرة ضمن ما جاءت به الدعوة السلفية أنها دعت إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ص ٢٧٦، ولا أدري ما هو مستندها في ذلك، خصوصاً وأنها لا توثق المعلومات مفصلة، وإذا أراد قارئ التثبت حول معلومة معينة ضاع بين خضم المراجع، وكان الأولى بها أن توثق كل معلومة حسب مصدرها. وعلى العموم فالمسألة ما زالت تحتاج إلى بحث وتحقيق.

(١) الموسوعة الميسرة ص ٤٧٠.

وأقرب شيء عندي يمكن أن يوصف به المهدي هو ما قاله «الزركلي» لدى ترجمته له في «الأعلام» حيث قال : «ثائر، كان لحركته أثر كبير في حياة السودان السياسية»<sup>(١)</sup> ، ومثله في ذلك مثل عشرات الثائرين الذين اتخذوا الدين ستاراً لثوراتهم ، وادعى بعضهم المهديّة ، ومنوا جميعهم بالفشل .

وقد نسبت جميع الحركات الإصلاحية الأخرى إلى دعوة الشيخ «محمد ابن عبد الوهاب» كالسنوسية في ليبيا ، ودعوة الشيخ «عثمان بن فودي» في غرب أفريقيا ، ودعوة الشيخ «أحمد بن عرفان» في الهند ، والشيخ «عبد الحميد بن باديس» وجمعية العلماء في الجزائر ، وغيرها من الحركات والجماعات والدعوات فقليل إنها قد تأثرت بدعوة الشيخ ؛ كل ذلك يحتاج إلى تحقق وثبت وإعادة نظر . نعم ، قد يكون بعضها قد تأثر فعلاً ببعض الشيء ، ولكن لا بد من الإتيان بالدليل لإثبات صحة هذه الدعوى .

وللعلم فإن غالب هذه الحركات والدعوات مخالفة لدعوة الشيخ وعقيدته السلفية كما ناقشنا بعضها ، فلم تكد دعوة منها تسلم من غائلة الصوفية المنحرفة ولا العقائد الكلامية ولا البدع المحدثّة في الدعوة ، بل إن كثيراً من أرباب هذه الدعوات لا يعرفون عن الشيخ إلا من طريق أعدائه ودعاياتهم الكاذبة وبصورة مشوهة غير حقيقية ، أو يعرفه بعضهم ولكن لا يعترف بطريقته السلفية<sup>(٢)</sup> .

ولا يخفى ما في نسبة هذه الحركات المنحرفة إلى دعوة الشيخ وتأثرها بها من خطورة بالغة ، وإصرار كثير من أتباع هذه الحركات والجماعات على التمسح بالدعوة السلفية ليس إلا محاولة منهم لإخفاء انحرافاتهم

---

(١) الأعلام ٢٠/٦ .

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٩١ .

وضلالاتهم، سواء كان ذلك في الوسائل أو في المنهج، ومحاولة منهم لجذب شباب الصحوة الذين يتشوقون إلى العودة إلى منهج السلف الصالح.

إن إطلاق القول بتأثر كثير من الدعوات والجماعات بدعوة الشيخ دون دليل حقيقي ليعطي هذه الدعوات المنحرفة شرعية وسمعة ليست جديرة بها، ومبرراً لاستمرارها على ما هي عليه من التواء وانحراف، بالإضافة إلى ما في ذلك من تلبس على الناس، وخداع لهم، وتغريب بهم، وليس في ذلك أي فائدة للدعوة السلفية، بل على العكس من ذلك حيث تفقد أصالتها ويضعف تميزها. «وأغلب ما تعتمد عليه هذه الأقاويل على مصادر غريبة بعيدة معادية لا دقة لديها ولا تحقيق، ولكن تعتمد على الظنون وما تريده من تشويه للصورة الصحيحة حتى لا يفهم الناس الحقيقة»<sup>(١)</sup>.

وبعد، فنقول: لقد كان أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عظيماً في العالم الإسلامي، ويكفي في ذلك أن تكون العقيدة السلفية آخذة في الظهور والزيادة والقوة، بعد أن كانت غريبة ومحاربة في أكثر البلاد، وأن يكون المنهج السلفي قد حاز مكاناً مرموقاً في فكر الصحوة الإسلامية وعملها. ومن المنتظر إن شاء الله تعالى أن تزول كل المناهج الخاطئة التي تراحمه، ويبقى هو وحده في الميدان ليقود الأمة في حاضرها كما قادها في ماضيها، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].



---

(١) المصدر السابق ص ٦٩١.



## الفصل الثاني

### الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر

أولاً : العقبات في طريق الصحوة

لقد رأينا في البابين الأول والثاني الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وعظم هذه الانحرافات ، وذلك حين وأصبح الناس في غالبهم بعيدين عن دين الله المنزل ، قد تعلقوا بأمور حسبوها من الدين ، وما هي من الدين .

ورأينا في الباب الثالث ما ترتب على ذلك من آثار عظيمة وعواقب وخيمة سواء أكانت تلك الآثار داخلية أو خارجية . المهم أن الأمة قد أصبحت ضعيفة ذليلة متخلفة ، وأصيبت بخواء عقدي هائل بسبب ما وقعت فيه من انحرافات .

وفوق ذلك كله أضحت مغزوة في عقر دارها بجحافل الاستعمار الصليبي ، وحملات الغزو الفكري الموجهة ، وجيوش المنصرين الحاقدة . وهكذا سقطت في الميدان لا لشراسة تلك الهجمات المكثفة ، بل لما أصابها من ضعف وما طرأ عليها من مرض وانحراف .

وفي هذه الأجواء المظلمة والخطوب المدلهمة ، وفي أثناء هذا الانحطاط السحيق والتدهور المريع ، وبعد أن أحكم الأعداء قبضتهم ، يأذن الله عز وجل بانبعاث هذه الصحوة المباركة في كل مكان ، تلك التي جاءت بعد

عدة قرون متوالية من الجهل والضعف والتخلف والانحطاط . «جاءت الصحوة الإسلامية في موعدها المقدور عند الله . . وكانت مفاجأة ضخمة لكثير من الناس ! ولكن هل كانت مفاجأة في الحقيقة؟!

إن الذين فوجئوا بها من الداخل كانوا هم الذين نقلوا نقطة ارتكازهم نهائياً من الإسلام إلى الحضارة الغربية ، وأداروا ظهرهم للإسلام على أنه قد ذهب إلى غير رجعة ، وأنهم هم «المثقفين» - هم الطليعة للأجيال القادمة ، التي ستتححر نهائياً من كل عقايل الماضي ، وتمضي على طريق التحرر إلى نهاية الشوط .

وأما الذين فوجئوا بها من الخارج فكانوا هم الذين بذلوا جهد الشياطين طوال ما يزيد على قرن من الزمان لإبعاد الأمة عن الإسلام بكل الوسائل ، ورأوا بالفعل أجيالاً تبتعد تدريجياً عن الإسلام ، وكل جيل يبتعد أكثر من سابقه عن نقطة ارتكازه الأصلية ، فظنوا - بحساباتهم الأرضية - أن الأمة قد أزمعت أن تخرج نهائياً من الإسلام . . ولن تعود!

ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا قد أغفلوا حقيقة ضخمة تدرج تحتها حقائق كثيرة لا تسير بحسب حساباتهم ، ولا تستطيع حساباتهم أن تصل إليها ، لأن الله قد جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا وجعل في آذانهم وقراً!!

أغفلوا بادئ ذي بدء أن الذي يدبر الأمر في هذا الكون العريض كله ليسوا هم ، وليس غيرهم من البشر ، إنما هو الله ، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] ، ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] ، والله سبحانه هو الذي قرر أن يبقى هذا

الدين في الأرض إلى قيام الساعة على الرغم من كيد الأعداء كله :  
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)  
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ  
الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٨ ، ٩] .

وأغفلوا ثانياً أن الناس في المنطقة الإسلامية قد صحبوا هذا الدين اثني عشر قرناً كاملة قبل أن يجيئوا هم بسمومهم ليفتنوا الناس عن دينهم ، وامتزجت به مشاعرهم ، وأصبح هو حياتهم وفكرهم ، ومبدأهم ومعادهم ، ونبضهم الطبيعي الذي تنبض به قلوبهم ، فلا عجب أن يرجعوا إليه ولو غفلوا عنه فترة ، إنما العجب - كان - أن يشردوا عنه ويتجهوا إلى غيره ! والعجب الأكبر - كان - أن يثبتوا على هذا الشرود ، ولا يرجعوا إلى نبض قلوبهم الطبيعي !

وأغفلوا - فيما أغفلوا - أن هذا «دين الحق» . . لا تنطبق عليه كل تخرصاتهم عن الدين الذي انتهى إلى غير رجعة ، والذي كان يمثل مرحلة وسيطة بين السحر والعلم ، والذي أخلى مكانه بصفة نهائية للتقدم العلمي والحضاري والتكنولوجي . . إلخ .

فكل هذه التخرصات إن انطبقت على دين أوروبا الجاهلي - الذي حرفت فيه الكنيسة ما حرفت ، وشوهت ما شوهت - فلا تنطبق على الدين الحق ، الذي حفظ الله أصوله فلم يطرأ عليها تبديل ولا تحريف ، والذي يملك الناس في كل لحظة أن يرجعوا إلى أصوله الصحيحة المحفوظة ، فيصححوا مسيرتهم إن أصابها انحراف في أثناء الطريق . . دين الفطرة ، الذي أنزله الله ليلتقي تماماً مع الفطرة السوية كما أنشأها الله ، لأنه مفصل على قدها

بالضبط ، والذي يصحح انحرافات الفطرة كلما وقع فيها اختلال»<sup>(١)</sup> .

حقاً إنها لمعجزة عظيمة تلك العودة الصادقة والصحة المباركة من أمة الإسلام التي غفت قروناً متوالية ، واليوم هي تستيقظ من جديد تنفض الغبار الذي تراكم عليها عبر السنين . وفي كل قطر إسلامي ، ومع إشراقة كل يوم تنبعث صحة إسلامية على غير ميعاد ، ويقبل الناس والشباب خاصة إلى الدين بعد فراق دام طويلاً ، وتنساب قوافل التائبين والمنيبين في كل حين على طريق الحق غير آبهة بتعالي صيحات المستنكرين في دنيا الجاهلية .

إنها ظاهرة محيرة . ظاهرة تستحق الوقوف عندها طويلاً ، تلك الأعداد الغفيرة التي تعود يوماً بعد يوم إلى رحاب الإيمان الطاهرة ، رغم كثرة العقبات وتنوع الصعوبات . إنها معجزة عظيمة وآية ربانية ، فرح بها المؤمنون ، وفرق منها المنافقون ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ [التوبة: ١٢٤ ، ١٢٥] .

«واليوم يدور الزمن دورته ، ويبدأ الوجه الكالح للقرون الأخيرة في حياة المسلمين ينحسر ، يبرز فجر جديد للإسلام في ربوع الإسلام . بدأ الناس - والشباب المثقف خاصة - يعودون إلى الإسلام ، يريدونه رائقاً صافياً كما نزل أول مرة بلا غبش ولا ركام .

وفي كل مكان في الأرض التي حكمها الإسلام ذات يوم حركات بعث إسلامي ، ودعاة يدعون إلى الإسلام ، وشباب يتطلعون إلى اليوم الذي

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٣٦٤ .



يجدون فيه الإسلام مطبقاً بالفعل ، واليوم الذي يعود فيه المسلمون إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض - في صورتهم الإسلامية الحقيقية المتميزة - تحقيقاً لوعد الله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥] . وفي الطريق عقبات كثيرة تعوق المسيرة ولكنها لا تمنع المسير<sup>(١)</sup> .

وها هي الصحوة الإسلامية تنبعث اليوم لتخوض صراعاً عنيفاً وجولات حامية مع الواقع السيئ المظلم في مرحلة حرجة من حياة الأمة الإسلامية تمثل صورة من أشد صور الصراع بين الحق والباطل ، وتحاول أن ترد الأمة إلى دينها الذي بعدت عنه كثيراً ، ولكن الطريق مليء بالعقبات ، محفوف بالعوائق والمخاطر .

إن مهمة الصحوة الإسلامية تبلور أساساً في إرجاع الأمة إلى إسلامها الذي حجبت عنها عوامل كثيرة ، أو هو إصلاح الواقع الناتج عن الانحرافات العقدية والعلمية وآثارها السيئة .

فمجال عمل الصحوة إذن هو معالجة هذه الانحرافات ومقاومة آثارها الداخلية والخارجية على السواء . . وهو مجال عمل ضخم جداً ويحتاج إلى زمن كي يتسنى إصلاحه .

ولا يمكن أن يتم ذلك أصلاً إلا بالرجوع إلى الأصول الصافية لهذا الدين : الكتاب والسنة ، وكما قلنا سابقاً على ضوء عقيدة السلف الصالح ومنهجهم القويم .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ .

وبالنسبة لموقف الصحوة بين الانحرافات العقدية والعلمية وآثارها السيئة أمام الحضارة الغربية يجب أن يكون موقف الوسط بين الراضين لها تماماً دون تمييز وبين الداعين إلى أخذها برمتها دون وعي ، موقف يركز على سياسة الانتقاء الواعي من هذه الحضارة فيؤخذ ما يوافق الإسلام وكان نافعا مفيداً ، ويلقى ما سوى ذلك فلا يلتفت إليه بتاتاً إلا للتحذير منه . وكل ذلك يشكل تبعة عظيمة ومهمة صعبة تضطلع بها الصحوة ولا شك .

وفي السطور التالية نشير إلى العقبات التي تعترض طريق الصحوة على سبيل الإيجاز : «تواجه الصحوة الإسلامية مهمة شاقة لم تتعرض لها حركة إصلاحية من قبل . . فإنه لم يتجمع مثل هذا الركام الذي تجمع اليوم في أية فترة سابقة من التاريخ ، على هذا المستوى الشامل ، وعلى نطاق العالم الإسلامي كله»<sup>(١)</sup> .

إن استمرار تلك الانحرافات المتراكمة عبر القرون ليشكل الصعوبات الأساسية التي تقف حجرة عثرة في طريق الصحوة الإسلامية وتعرقل مسيرتها ، ومع أن دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» استطاعت بقدر الله عز وجل أن تخترق تلك الحواجز والركامات من بقايا هذه الانحرافات ، وأن تنبعث الصحوة الإسلامية على أثرها في كل مكان ، إلا أن هذه الانحرافات ما تزال متغلغلة في أرض الواقع .

لذا كان لا بد لنا من وقفة حول تلك القضية . فنقول : إن من عوامل نجاح الصحوة الإسلامية في نشر التوحيد وإقامة حكم الله في الأرض معرفة

---

(١) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة . ص ١٦٧ الشيخ محمد قطب . دار الوطن . الرياض . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

هذه الانحرافات التي ما زالت ترزح في طريقها ، ودراسة الأحوال العقدية والعلمية التي سبقت ظهور الصحة وواكبتها فيما بعد .

وما هذه الرسالة إلا نقطة على الطريق الصحيح الذي يجب على الصحة أن تجعله نصب عينيه لتسير عليه ، فغايتها أن تكشف بوضوح عن مدى الانحرافات الهائلة التي سقطت فيها الأمة وكانت السبب فيما حل بها من ضعف وتخلف وتأخر .

إن معرفة ذلك ضروري جداً للصحة حتى تقدر العمل المطلوب والجهد اللازم لإعادة البناء من جديد ، إن على الصحة أن تدرك جيداً أن تلك الانحرافات التي وقعت منذ دهر واستمرت قروناً لا يمكن أن تزال بين عشية وضحاها ، أو حتى في سنوات قلائل .

كما يجب عليها أن تدرك أيضاً عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها وضخامة الجهد الذي تحتاج أن تبذله في علاج تلك الانحرافات التي تشعبت بفروعها داخل جسم الأمة الإسلامية ، ولم يبق جزء منه إلا دخله الانحراف ، وأصابه الداء .

إنها صعوبات عسيرة ومهمة شاقة تضطلع بها الصحة وتحتاج منها إلى عمل دؤوب وجهد مستمر وصبر متواصل . فإن الأمة التي انحرفت عن دين الله عز وجل ، وظلت تنحرف وتنحرف وتظن أن انحرافها كان للدين وإلى الدين وليس عن الدين - ليس من السهل أن ترجع عن ما ألفته أثناء انحرافها عن الطريق القويم . ويجب على الصحة أن تعي هذا جيداً .

«إن الصحة ليست بصدد «حركة إصلاحية» في جانب واحد من جوانب الحياة ، أو بضعة جوانب بعينها ، إنما هي بصدد إعادة البناء . وقد

كانت إقامة البناء أول مرة جهداً شاقاً بذله رسول الله ﷺ وبذله صحابته الكرام رضوان الله عليهم ، أما إعادة البناء . . فما أدري - فقد تكون مهمة أشق ، فقد قال رسول الله ﷺ لصحابته الكرام رضوان الله عليهم : « إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم » قالوا : يا نبي الله ! أو منهم ؟ قال : « بل منكم »<sup>(١)</sup> .

وأيّاً كان الجهد ، وأيّاً كانت المشقة ، فقد قامت الصحوة بفضل الله ورحمته ، وهي ماضية في سبيلها حتى تحقق بإذن الله أهدافها ، وتحقق موعود الله بالنصر والتمكين للمؤمنين .

ولكن عليها أن تدرك مهمتها على وجه الدقة ، لتقوم بها بإذن الله على الوجه الأكمل . . وعليها ألا تستعجل الخطى ، ولا تستطيل الطريق ، ولا تستبطن النصر ، ولا تنخدع ببعض البشائر فتظن أن الثمرة قد حانت ، ولم يبق إلا القطف .

بل بقي الجهد . . كل الجهد . . وبقي العرق والدماء والدموع . . وكل عقبات الطريق . . ثم يأتي النصر بمشيئة الله<sup>(٢)</sup> .

ولو نظرنا إلى الواقع الذي تهدف الصحوة إلى إصلاحه لوجدنا أن الانحرافات العقدية التي تحدثنا عنها في الباب الأول ما زالت تقف عقبات في طريق الصحوة !!

فانحصار مفهوم العبادة الواسع في صورة الشعائر التعبدية فقط ما زال

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، برقم (٤٣٤١) ، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٤٩٤ .

(٢) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٦٩ .

يعشعش في عقول الكثير من الناس ، وزاد من حدته تعاظم المد العلماني وطغيانه على الساحة الإسلامية .

«فقد فهموا معنى العبادة- التي جعلها الله غاية الخلق- فهمًا جزئيًا قاصرًا ، فهي لا تعدو أداء الشعائر المعروفة من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وما يلحق بها من الذكر والتلاوة والدعاء .

وبهذا الفهم المتبور لا يبالون ما قصرُوا فيه بعد ذلك من أوامر الإسلام ونواهيه وأحكامه ووصاياه ، التي تستوعب كل مجالات الحياة ، مع أن العبادة- كما جاء بها القرآن والسنة ، وكما فهمها خير قرون هذه الأمة- تشمل الدين كله ، وتشمل الحياة كلها»<sup>(١)</sup> .

والفكر الإرجائي ما زال طاغياً على المجتمعات الإسلامية ، ولم تنج الصحوة نفسها من غائلته فما يزال كثير من المتصدرين للدعوة يسرون في التيار الإرجائي ، وينكرون أشد الإنكار على من يكفر من يحكم بغير ما أنزل الله . ويقولون عمن حكم البلاد والعباد بالقوانين الكفرية الوضعية إنه ليس بكافر لأنه لم يستحل الحكم بغير ما أنزل الله ، وينادون بالكف عمن قال لا إله إلا الله ولو فعل ما فعل .

ويستدلون في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، بقول ابن عباس رضي الله عنهما : «ليس بكفر ينقل عن الملة» وبقول عطاء : «كفر دون كفر»<sup>(٢)</sup> . وهو استدلال خاطئ .

---

(١) العبادة في الإسلام ص ٩ ، د. يوسف القرضاوي . مؤسسة بيروت الرسالة . الطبعة

التاسعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٢) تفسير ابن كثير ٦٢/٢ .

ومعنى أن الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفراً مخرجاً من الملة ، مثل حكم القاضي أو الحاكم المسلم في قضية ما بالهوى مع حكمه في بقية الأمور بحكم الله ، أما هؤلاء الذين جاؤونا بالقوانين الكافرة ، وطبقوها على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنار ، وحاربوا وعذبوا كل من نادى بتطبيق الإسلام فهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء ، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] <sup>(١)</sup> .

وعلوم الكلام والفلسفة والمنطق ما زالت مسيطرة على أغلب الجامعات والمعاهد في العالم الإسلامي ، وعقائد المتكلمين ما زالت متبناة عند قطاع عريض من المتتبعين إلى الصحة الإسلامية . بل إن كثيراً من زعماء الجماعات الإسلامية يرون أن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الأشاعرة ، ويرون أن أئمة الاعتقاد هم أئمة المتكلمين من أمثال «الأشعري» <sup>(٢)</sup> و«الماتريدي» وأتباعهما .

---

(١) العقيدة في الله ص ٢٨ .

(٢) من الثابت أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله قد رجع عن مذهبه إلى مذهب السلف كما اتضح ذلك من كتابه «الإبانة» حيث يقول فيه : «وقولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا محمد ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون» الإبانة عن أصول الديانة ص ٥٢ . طبعة الجامعة الإسلامية ١٤٠٥ هـ . يقول الدكتور مصطفى حلمي : «ومن الثابت عن الذين ترجموا للأشعري - وأبرزهم ابن عساكر في كتاب (تبيين كذب المفتري) - أن كتابه (الإبانة) من أواخر كتبه ، وهو دليل على استقراره على طريقة الإمام أحمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف» . قواعد المنهج السلفي ص ٢٢٠ . دار الدعوة للطباعة والنشر . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

وما زال الشرك الأكبر ضارباً بأطنابه في أرجاء العالم الإسلامي ، فعبادة الأضرحة والقبور والتعلق بالموتى والاستغاثة بهم والتوسل بهم ودعاؤهم من دون الله عز وجل ؛ كل ذلك يقف في طريق الصحوة .

وإن مما يحز في نفس المؤمن أننا لا نكاد نعثر لكثير ممن تولوا قيادة الصحوة في غالب البلاد الإسلامية - على كلام أو دعوة بين ظهرائي المشركين من عباد القبور في بلدانهم التي غرقت في أحوال الشرك والبدعة والخرافة ، وكأن الأمر لا يعينهم .

وتأتي البلية الكبرى حين ينبري بعضهم للدفاع عن هؤلاء القبوريين ، ويهون من شركهم ، ويشنع على من أنكر عليهم ، ويجعل أمر التوحيد - وهذا أقل ما يقال - في مهب الريح . وتلك لعمر الله فادحة حلت بالصحوة ، وعثرة لا تقال ، جديرة بتعطيل مسيرتها ، بل والقضاء عليها .

والصوفية ما زالت تحاول العودة للسيطرة على المجتمعات من جديد وتلقى رعاية وتأييداً من قبل أغلب الحكومات العلمانية ، نكاية في الصحوة الإسلامية التي رضي بعض زعمائها - وللأسف الشديد - بالانتساب إلى طرقها ، ولهجوا بالثناء عليها ، بل اعتبروها التربية الأصيلة التي تسمو بها الروح ، وتزكو بها النفس ، وانجرف كثير منهم في منزلق الخرافات الصوفية ، وآمنوا بولاية بعض الدجالين والمشعوذين وبما ينفثونه من سحر ودجل وشعوذة على أنه من كرامات الصالحين . وأما بدع الذكر عند الصوفية التي أوردنا طرفاً منها في الباب الأول ، فما تزال تحظى بالقبول والاحترام والتطبيق عند كثير من الجماعات الإسلامية .

أما الفرق فقد عظم بلاؤها في هذا العصر ، وصار لغالبها شوكة ودولة ،

وليست المصيبة في ذلك ، ولكن المصيبة في انطلاء أمر هذه الفرق المحاربة للإسلام والمسلمين على كثير ممن يتصدون لقيادة بعض جماعات الصحوة ، وانخداعهم بها .

وليس أدل على ذلك حين اندلعت الثورة الرافضية في إيران من تسارع كثير من الجماعات الإسلامية إلى تأييدها والإشادة بزعيمها الهالك ، وربط مستقبل الأمة ومصيرها بها .

«جاءت ثورة «الخميني» التي شارك «كارتر» في تصميمها ، وساهم جنراله «هويزر» في تنفيذها عندما نجح في تحييد الجيش . . . . جاءت هذه الثورة فافتتن بها معظم الإسلاميين ، وظنوا أنها ستعيد لهم عهد الخلفاء الراشدين ، وبطولات خالد وصلاح الدين .

وبالغت المجلات الإسلامية في تضخيم شخصية «الخميني» وثورته ، وفي إحدى هذه المجلات لم يعد القارئ قادراً على التمييز ما بين السني والرافضي في كتاب هذه المجلة ، وفتحت هذه المجلة بابها على مصراعيه فنشرت كل ما يريده الرافضة ، وأقل ما نشر قصائد تدعو إلى تقبيل تراب «قم ونجف وكربلاء» ، وشد الرحال إلى تلك المزارات والطواف حولها والركوع والسجود لها .

وتنافست معظم الجماعات الإسلامية في تأييد الثورة الإيرانية ، وهذه الجماعات التي تنتسب إلى مذهب أهل السنة متناحرة فيما بينها متخاصمة ، ومن الصعوبة جداً أن توحد صفها ، لكنهم جميعاً متفقون على ضرورة تأييد الثورة الإيرانية والتعاون والتنسيق مع البطل الإسلامي الخميني - كما يقولون - . . . .



ويحار المرء عندما يلمس سطحية الدعاة وغفلتهم ، ثم يلمس مخططات الرافضة ، وتصريحاتهم عن تصدير الثورة ، ووقوفهم على أهبة الاستعداد للانقضاض على الخليج والعراق وسورية ليعيدوا ذكريات العبيدين والقرامطة .

الرافضة يحيكون المؤامرات ضد المسلمين ، وجمهور أبناء السنة يصفقون لهم ، هؤلاء الذين وصفهم أحمد شوقي فقال :

أثر البهتان فيه      وانطلى الزور عليه  
ملأ الجو صراخاً      بحياتي قاتليه  
ياله من ببغاء      عقله في أذنيه<sup>(١)</sup>

وكتيجة للجهل المطبق أو التغاضي الخاطئ عند بعض الجماعات الإسلامية ، برز ما يسمى بفكرة التقريب بين أهل السنة والشيعة وهي فكرة شيعية نادى بها «محمد التقي القمي» من فقهاء الرافضة ، وقد صرح القمي «وهو إيراني الجنسية» أنه بدأ بدعوته منذ عام ١٩٣٧ م وأن دعوته قد أثمرت ، وساق المعلومات التالية كأدلة على نجاح دعوته :

- ١ - وزارة الأوقاف المصرية تطبع وتنشر كتب أئمة الشيعة .
- ٢ - جامعة الأزهر قررت تدريس الفقه الشيعي دراسة مقارنة<sup>(٢)</sup> .
- ٣ - وزارة العدل المصرية تأخذ بأراء فقهاء الشيعة في قوانين الأسرة

---

(١) وجاء دور المجوس . الجزء الأول ص ٦ .

(٢) وقد أصدر شيخ الأزهر محمود شلتوت فتوى بجواز التعبد بالمذهب الجعفري الرافضي ، وأنه من المذاهب الفقهية المعتبرة شرعاً ، إلى آخر ذلك من الضلال .

والأحوال الشخصية<sup>(١)</sup> .

ويرى كثير ممن يتصدون لتنظير فكرة الصحوة الإسلامية أن الخلاف بين السنة والشيعة ، كالخلاف بين المذاهب الفقهية .

وبعد ، فهذه صورة مجملة عن بعض الانحرافات العقيدية التي تعرضنا لها في الباب الأول وما زالت مستمرة ليست في الأمة فقط ، بل في الصحوة نفسها وعند كثير من قياداتها كما رأينا .

ومثل هؤلاء في قيادتهم للأمة كمن يحاول أن يقود جسداً مثقناً بالجراح ، مليئاً بالأمراض دون أية محاولة لمداواة جراحه . والسبب في ذلك أن عقيدة السلف لم تلق بعد أي عناية من هؤلاء الذين يقودون الصحوة ، وحملت بذور الانحراف معهم إلى جسمها . بل إنهم كثيراً ما يهاجمون أتباعها ويتهمون من يدعو إلى عقيدة السلف ومحاربة البدع والخرافات بالقصور وعدم المنهج والسطحية والاهتمام بالفرعيات وإغفال القضايا الحساسة .

وكثير منهم يلمزون من يتصدى للرد على الفرق المبتدعة من علماء العقيدة السلفية ، ويعتبرون أن ذلك أمر لا طائل من ورائه ، ولا فائدة منه ، مع ما في ذلك من تفريق للأمة .

ولا ندري لماذا يصير كثير من هؤلاء القائمين على العمل الإسلامي على دفن رؤوسهم في الرمال ويحاولون التغاضي عن انحرافات هذه الفرق التي هي موجودة بالفعل ، وتحاول نشر عقائدها وترويج مذاهبها ، وتعتبر عقبة

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤٣ .

كبيرة في طريق الصحوة الإسلامية التي وللأسف الشديد يحاول كثير من قياداتها نسيانها وعدم الاكتراث بها ، بل وانتقاد من يحاول التنبيه إلى خطرهما؟!!

وكثير منهم لا يميزون بين الخلافات الفرعية ، وبين الخلافات العقديّة الكبيرة التي تدين بها الفرق المبتدعة على اختلافها ، فيجعلون لرؤوسها الضالين نصيب المجتهدين ، ويدعون إلى عدم الإنكار عليهم بحجة أوهى من بيت العنكبوت ، وهي أن هذه الأمور مما يسوغ فيها الاجتهاد ، ويرى بعضهم أن التمسك بمذهب السلف وعقيدتهم ، ونبذ آراء الفرق المحدثّة وردها وبيان بطلانها ، وتحذير الأمة منها ، لا يتماشى مع أدب الخلاف .

وبهذا الخلط العجيب تميّع أمور العقيدة وقضايا الإيمان ، ويجعل للمبتدعة أجر المجتهدين ، وتختفي معالم عقيدة السلف وتقوض دعائمها ، ويصبح الباطل إلى جانب الحق ، والبدعة إلى جوار السنة ، ويضحى المسلمون في أمر مريب ، ويأبى الله عز وجل أن يقع هذا ، وأن يخالط الضلال الهدى ؛ بإصرار أهل الباطل على باطلهم قبل كل شيء ، ومنافحة أهل السنة عن عقيدتهم مما يدحض مثل هذه الآراء الشاذة التي لا تنال من عقيدة كنيها من عقيدة السلف الصالح - رضوان الله عليهم - .

يقول الدكتور «ناصر العقل» : « إن المتأمل لواقع الدعوة والحركات الإسلامية القائمة اليوم يجد أن غالبها يدعي الانتماء إلى أهل السنة والجماعة... ولا شك أن منها ما هو جدير بالانتماء لأهل السنة ، ومنها ما هو بعيد - كل البعد - عن أهل السنة ، ومنها من يعني بأهل السنة الأشاعرة والماتريدية ونحوهم من الفرق التي هي أقرب إلى أهل السنة في الجملة... » .

«كيف ينتمي لأهل السنة من يؤول صفات الله ، ويقول على الله بغير علم ، ويقع فيما حذر منه السلف من تقديم العقل على كلام الله وكلام رسوله ﷺ في صفات الله والقدر وسائر أمور الغيب؟ . . . إن بعض الدعوات القائمة تقوم على هذا الأساس ، وتدعي أنها هي أهل السنة ، ثم كيف ينتسب لأهل السنة من يرى أن الطرق الصوفية المبتدعة منهجاً سليماً للدعوة؟!»

والعجب كل العجب . . أن يدعي الانتساب لأهل السنة من الدعاة من يدافع عن البدع أو يروج لها أو يرضى بها ، أو يرى أن أمرها يسير ، وأنها ليست من مسائل الدين المهمة ، مثل بدع الموالد ، والاحتفالات الدينية البدعية ، وأين هذا من عقيدة السلف ، إن من الدعاة من يعمل هذه البدع ، ومنهم من يستهين بأمرها ويهون من خطرها .

والأدهى من ذلك أن يوجد من الدعاة الكبار الذين ينتمون إلى حركات إسلامية مشهورة - من يتمسح بالقبور والأولياء من الأموات والأحياء ، ويطلب منهم كشف الضر ، وجلب النفع ، ويلجأ إليهم في السراء والضراء . وكيف يدعي رفع شعار أهل السنة من يتصدر للدعوة وهو لا يعرف عقيدة السلف؟! وربما سئل أحدهم عن بدهيات العقيدة فلا يجيب ، وإن أجاب خلط .

وهل يكون من أهل السنة من لم يكف لسانه ولا قلمه عن التعرض بالنقيصة واللمز أو السباب لبعض الصحابة أو التابعين وأئمة الهدى المعبرين وسلف الأمة الماضين؛ خاصة علماء السنة والحديث .

وهناك - مع كل أسف - من كبار الدعاة أو ممن يزعمون أنهم دعاة من

يؤخر الصلاة الفريضة عن وقتها دون ضرورة، أو لا يهتم بصلاة الجماعة، ومن يستحل أكل الربا، ومن يستحل سماع الأغاني والموسيقى، أو يقتني الصور المجسمة، أو يدخن، ومنهم من يحلق لحيته دون ضرورة، أو يتشبه بالكفار في لباسه ومظهره، وسائر تصرفاته المعاشية، ومنهم من لا يهتم بالحجاب الشرعي للنساء، أو يقر الاختلاط المحرم ويرضى به... إلخ من الأمور التي تخل بالدين، أو تجرح العدالة، أو تنافي الفضيلة، ولا تقبل ممن يتصدر الدعوة ويكون قدوة.

وهل يجدر أن ينتسب لأهل السنة من لا يجعل من أهدافه وأهداف دعوته، تعلم وتعليم عقيدة أهل السنة ورفع لوائها، والدعوة إليها، والدفاع عنها؛ لأنها هي النهج السليم والصحيح للإسلام؟!

بل كيف يكون من أهل السنة من يجعل من أهدافه تحاشي التظاهر باعتقاد أصول أهل السنة، وتحاشي الرد على الفرق المخالفة، وبدع المبتدعين بدعوى تفادي إثارة الخلافات بين المسلمين؟! <sup>(١)</sup>.

وبعد، فهذا استعراض سريع لكثير من العقبات التي تتمثل في امتداد الانحرافات العقدية والعلمية ووقوفها في طريق الصحة، وقد رأينا وللأسف الشديد أن بذور هذه الانحرافات وعدوى هذه الأمراض قد انتقلت إلى جسم الصحة الإسلامية، وقد حمل هذه البذور وهذه العدوى أناس كثيرون وجماعات متعددة مما يزيد في صعوبة ما تواجهه الصحة الإسلامية من عقبات.

---

(١) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها ص ٥١، ٥٢ د. ناصر عبد الكريم العقل. دار الوطن. الرياض. الطبعة الأولى.

إن مثل هؤلاء الذين يتغافلون أو يهونون من هذه الانحرافات ويرون أنه يمكن إصلاح الأمة دون علاجها كمثل من يحاول أن يرم منزلًا متداعيًا على وشك السقوط من الخارج فيطليه بالألوان الزاهية، ولم يصنع في الحقيقة شيئًا لئيفادى الكارثة. هؤلاء هم الذين لا يدركون خطورة هذه الانحرافات ولا يكثرثون بها، ولا يحاولون علاجها أو التصدي لها، ويتقنون من يحاول أن يفعل ذلك من غيرهم، ويتهمونه بشق عصا المسلمين وتفريق كلمتهم.

إن على الصحوة الإسلامية قبل كل شيء أن تحاول تنقية نفسها وتصفية فكرها من هذه الانحرافات الخطيرة برجوع جماعاتها وقياداتها إلى عقيدة السلف الصالح ومنهجهم الواضح، إن كثيرًا من هذه الجماعات والقيادات تهدف فعلاً إلى الإصلاح، ولكن فاة هؤلاء أن ذلك لا يتم بغير الرجوع إلى مذهب السلف الصالح وإعادة الأمة إليه.

فإذا تم للصحوة تطهير نفسها وفكرها وأصبحت في مأمن من عادية هذه الانحرافات - وتلك مهمة في اعتقادنا طويلة وشاقة -؛ أمكن بعد ذلك إصلاح الأمة وتدارك أحوالها.

والغريب أن يأتي بعد ذلك من يستبطن النصر، ويميل الطريق، ويقول بعضهم: «مضى على الدعوة أكثر من نصف قرن.. ولم تنجح بعد.. أي لم تصل إلى الحكم لتحقيق ما تدعو إليه من تحكيم شريعة الله، وحل مشاكل المجتمع على أساس المنهج الرباني»<sup>(١)</sup>.

ونسي هؤلاء أن الإسلام بفعل هذه الانحرافات أضحي غريباً في

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٥٥.

أوطانه، ولا بد للصحة الإسلامية أن تكشف هذه الغربة وتجلوها عنه حتى يمكن في الأرض من جديد، ولا يتم ذلك أبداً بدون التخلص من هذه الانحرافات المزمته، وهي مهمة عسيرة كما ذكرنا غير مرة، وهي تحتاج من الجهد والعمل والصبر قريباً من الذي أقيم به الإسلام أول مرة.

يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» في شرح حديث الغربة عن الإسلام :  
«وكذلك إذا تغرب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلى نظير ما احتاج إليه في أول الأمر، وقد قال له: ﴿ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١١٥) وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٤ - ١١٦] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

وقد تكون الغربة في بعض شرائعه ، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة ، ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريباً بينهم لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد . . . وإذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به رسوله وأتباعه ؛ فهذا من ذنوبه ونقص إسلامه ، كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد» .

إلى أن قال رحمه الله : «وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥] ، فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف . فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح فمن كان أكمل إيماناً وعمل صالحاً كان استخلافه المذكور أتم ، فإن

كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص ؛ وذلك أن هذا جزاء هذا العمل ، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء»<sup>(١)</sup> .

وليت جماعات الصحوة تفهم هذا الكلام وتفقه هذه الحقيقة وتدرك أن الوصول إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض لا يكون إلا بإزالة هذه الانحرافات من الطريق ، وتربية الناس على الإسلام كما أنزل ، وإن أبطأ النصر ، وتأخر التمكين ، فلنعلم أن المسافة ما زالت طويلة والعقبات كثيرة ، قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ، فإذا أضفنا إلى ذلك تفاقم الخلافات بين الجماعات الإسلامية حتى إن الأمر ليصل إلى الصراع والتقاتل في بعض الأحيان - أدركنا وعورة الإصلاح وصعوبته .

«ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا بأن الظاهرة الفكرية والحركية الأكثر دلالة على مجمل واقع العمل الإسلامي ، إنما هي الاختلاف والفرقة ، وإنك لترى في واقع الإسلام اليوم من التحزبات والفرقة والشقاكات أكثر بكثير مما يمكن أن تعثر عليه في عصر الفتن الكبرى في تاريخ الإسلام ، وفي تراث الفرقة فيه»<sup>(٢)</sup> .

«وأصبحت ترى الحركة الواحدة ، والجماعة المنظمة ، يصيبها - فجأة - الانشطار ، لتبدأ سلسلة غريبة من الانشطارات والتفرقات ، على طريقة المتواليات الهندسية»<sup>(٣)</sup> .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨/٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ .

(٢) فقه الخلاف ، مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي ص ٤٠ جمال سلطان . مركز الدراسات الإسلامية . برمنجهام . بريطانيا . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

(٣) المصدر السابق ص ٤٢ .



«وقد تصل الفرقة إلى حد المأساة المفزعة ، عندما يتحول الخلاف الفكري إلى عراك حقيقي بين العاملين تسيل فيه دماء مسلمة ، شهادة على سفاهة السفهاء ، وناعية على جهالة الجهلاء»<sup>(١)</sup> .

إن التفرق علة مذمومة أصيبت بها الأمة الإسلامية ، واعتل بها العالم الإسلامي ، وكان الواجب على الجماعات الإسلامية العاملة في حقل الصحوة أن تحذر منها ، وأن تتجنبها بقدر المستطاع ، ولكن شاء الله عز وجل لحكمة يريد بها سبحانه ألا يقع هذا ، بل ولدت الصحوة من أول يوم ، وكأنا لفت في رداء من الخصام والفرقة ، وتعاهد العاملون فيها على عدم الاتفاق أبداً .

أما وقد وقع التفرق وحدث الخصام فلا مندوحة إذن من العمل الدائب المخلص على إزالته ، وقد حذر الله عز وجل من التنازع والتفرق ، وأمر بالاجتماع والتعاون فقال سبحانه : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وقال أيضاً : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقال أيضاً : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ [الصف : ٤] ، وقال أيضاً : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة : ٢] .

ونحن لا نلقي باللائمة على تعدد الجماعات الإسلامية ، فذلك أمر لا مناص منه في أغلب الأحيان لاختلاف الأحوال وتنوع الظروف من بلد إلى آخر ، ولكن اللوم يقع على ما يحدث من تناذب وتخاصم وتفرق وتشاحن بين تلك الجماعات التي تناصب بعضها العداء ، وتنسى في غمرة هذا

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .

الصراع الأحمق العدو الأصلي المشترك ، الذي يتربص بها الدوائر ويكيد لها المؤامرات .

والمؤلم كثيراً أن نرى بعض قادة الجماعات الإسلامية يفتحون صدورهم وعقلوهم للنقاش مع العلمانيين ، ويحاولون - بزعمهم - تقريب وجهات النظر فيما بينهم ، في الوقت الذي تضيق صدورهم وتأبى عقولهم أن يفعلوا بعض ذلك مع الجماعات المخالفة لهم .

وفي حين نراهم يرددون دائماً وجوب الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة في مناقشة العلمانيين وأثناء حوارهم ، نراهم على الطرف الآخر يكيلون ألفاظ التهكم والسخرية بمن يخالفهم من الجماعات الأخرى ، وربما وصموها بالتزمت والتطرف ، إلى غير ذلك من الأمور المؤسفة التي تدور في ميدان الصحوة .

ولعل أهم خلاف نشب بين مختلف الجماعات الإسلامية هو «اختلاف الرأي بين العاملين للإسلام في مناهج الإصلاح والتغيير المنشود : أنبدأ بالقمة أم بالقاعدة؟ أنرجح طريق الثورة والعنف أم طريق التدرج والرفق؟

أيفضل الانقلاب العسكري ، أم الكفاح السياسي ، أم التكوين التربوي؟  
أنعطي الأولوية للعمل الجماهيري ، أم لتكوين الطلائع؟

أيجوز تعدد الحركات العاملة للإسلام ، فيعمل كل منها في ميدان ، أم لا بد من حركة جامعة شاملة؟ إلى آخر ما يمكن أن يقال في هذا المجال ، وهو رجب»<sup>(١)</sup> .

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ١٧ د . يوسف القرضاوي .  
دار الوفاء . المنصورة . نشر دار الصحوة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

وليس هناك من طريق موصل إلى التغيير الكامل والإصلاح المنشود غير طريق التربية الطويل . إن المرحلة التي تمر بها الصحوة الإسلامية مرحلة استضعاف وتشردم ، مرحلة تحتاج إلى جهاد الدعوة بالقلم والبيان ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] ، والضمير يعود هنا على القرآن كما فسر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما <sup>(١)</sup> . « وإن في هذا القرآن من القوة والسلطان ، والتأثير العميق ، والجاذبية التي لا تقاوم ، ما كان يهز قلوبهم هزاً ، ويزلزل أرواحهم زلزالاً شديداً ، فيغالبون أثره بكل وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً . . . »

وإن في القرآن من الحق الفطري البسيط ، لما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل ، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار ، وأن يصد عنه تدفق التيار ، وإن فيه من مشاهد القيامة ومن القصص ، ومن مشاهد الكون الناطقة ، ومن مصارع الغابرين ، ومن قوة التشخيص والتمثيل ، لما يهز القلوب هزاً لا تملك معه قراراً .

وإن السورة الواحدة لتهز الكيان الإنساني في بعض الأحيان ، وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد !

فلا عجب مع ذلك أن يأمر الله نبيه أن لا يطيع الكافرين ، وألا يتزحزح عن دعوته وأن يجاهدهم بهذا القرآن ، فإنما يجاهدونهم بقوة لا يقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو محال <sup>(٢)</sup> .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٢٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧١ . ومن هنا فإن الجماعات الإسلامية التي تعلن الجهاد المسلح ترتكب خطأ كبيراً ليس لأنها خارجة عن الأنظمة العلمانية التي لا تحكم بما أنزل الله كما يردد كثير من قادة العمل السياسي في الحقل الإسلامي ، ولكن لأن الوقت لم يحن بعد لذلك الجهاد .

فأين الجماعات الإسلامية من هذه الآية العظيمة؟ وهل يكون الجهاد بالقرآن إلا بالتزام عقيدة السلف ومنهجهم فكراً وسلوكاً وواقعاً؟!

«إن حجم الانحراف الذي وقعت فيه الأمة خلال القرون - وفي القرن الأخير خاصة - أضخم بكثير مما يتصوره الكثيرون، إنه - كما بينا جيداً من قبل - ليس فساداً في السلوك فحسب، ولكنه فساد في التصور وفساد في السلوك. فساد في تصور كل المفاهيم الرئيسية للإسلام بدءاً بمفهوم لا إله إلا الله، الركن الأول والأعظم في هذا الدين.

وتغيير حال هذه الأمة، وإرجاعها إلى حقيقة الإسلام، أمر لا يتم بالسهولة التي يتصورها كثير من الناس، إنما يحتاج - بحسب السنة الجارية - إلى وقت أطول بكثير مما تم حتى هذه اللحظة في جميع الميادين!

يحتاج أولاً إلى تبين الحقائق المجهولة من هذا الدين، بدءاً بحقيقة لا إله إلا الله، ويحتاج ثانياً إلى تربية الناس على ما تقتضيه هذه الحقائق من سلوك واقعي في واقع الحياة، وهو جهد طويل طويل لا يمكن - بحسب السنة الجارية - أن يتم في سنوات قصار. والسنوات التي مرت في الدعوة - بالقياس إلى عمر الأمم - قصار جد قصار»<sup>(١)</sup>.

وللأسف الشديد «فإن المتفحص للساحة الإسلامية يرى أن معظم الجماعات الإسلامية بنت مخططاتها في التغيير على المبدأ الديمقراطي، فهي إما ضالعة فيه، وإما مناضلة لأجله. وكم من وعود معلنة كانت قد قدمتها بعض الجماعات الإسلامية بأنها في حال هيمنتها على الحكم ستجعله ديمقراطياً، وأن مجلسها النيابي ستمثل فيه كافة الطوائف، وأنها ستطلق

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٥٧.

حرية الأحزاب والتعبير عن كافة الآراء والاتجاهات، مع عدم التعرض لها حال إعلانها ولا حال الدعوة إليها.

وقد انبرى عدد من الكتاب الإسلاميين للدفاع عن هذا المنهج الديمقراطي، وسارع عدد من الدعاة المعروفين إلى ترشيح أنفسهم عند أول بادرة سنحت لهم في ذلك. وقامت المجلات الإسلامية، وما تزال، بتغطية إعلامية مكثفة لهذا المنهج، فدبجت المقالات وعقدت المقابلات وأجرت الحوارات. ورغم السقوط العلمي لهذا المنهج وثبوت إفلاسه في تقديم أي خدمة معتبرة لهذا الدين ودعائه، فإن هذا السقوط ما زاد أصحاب الديمقراطية إلا شدة في الدفاع عنها وحماساً متأججاً للدعوة إليها<sup>(١)</sup>.

وفي هذا المجال هناك كثير من الملاحظات السيئة على العمل السياسي الإسلامي لبعض الجماعات الإسلامية، من ذلك :

١ - عدم وضوح الرؤية بشأن إسقاط المعنى العقدي للحاكمية على واقع الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي.

٢ - انتهاج الطريق الديمقراطي كمنهج للوصول لتحكيم الشريعة الإسلامية.

٣ - الدخول في تحالفات مرفوضة شرعاً مع قوى غير إسلامية وتشكيل جبهات وطنية معها.

٤ - تأييد الدساتير التي تكرر الحكم بالقوانين الوضعية.

---

(١) الإسلاميون وسراب الديمقراطية ص ٢٥ عبد الغني محمد الرجال. الجزء الأول. مؤسسة المؤمن. دراسة أصولية لمشاركة الإسلاميين في المجالس النيابية. الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

٥- تغلغل أجهزة الأنظمة في بعض المشاريع المهمة للعمل الإسلامي أفقد قيادات ذلك العمل الإسلامي استقلالية القرار السياسي<sup>(١)</sup>.

«إن استخدام هذا الطريق عبث لا يؤدي إلى نتيجة قبل تكون «القاعدة المسلمة» ذات الحجم المعقول! ولنفرض جدلاً أننا توصلنا إلى تشكيل برلمان مسلم مائة في المائة... كل أعضائه يطالبون بتحكيم شريعة الله! فماذا يستطيع هذا البرلمان أن يصنع بدون «القاعدة المسلمة» التي تسند قيام الحكم الإسلامي، ثم تسند استمراره في الوجود بعد قيامه؟ انقلاب عسكري يحل البرلمان، ويقبض على أعضائه فيودعهم السجون والمعتقلات، وينتهي كل شيء في لحظات!!<sup>(٢)</sup>

إنه تفكير ساذج رغم كل ما يقدم له من المبررات... وفوق ذلك فهو يحتوي على مزالق خطيرة تصيب الدعوة في الصميم وتعوقها كثيراً، على الرغم مما يبدو - لأول وهلة - من أنها تمكن لها في التريية وتعجل لها الخطوات:

المزلق الأول: هو المزلق العقدي... فكيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها، والذي يقول له دينه إن كل حكم غير حكم الله هو حكم جاهلي، لا يجوز قبوله، ولا الرضا عنه، ولا المشاركة فيه... كيف يجوز له أن يشارك في المجلس الذي يشرع بغير ما

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

(٢) وما حدث في الجزائر فيه أصدق شاهد على ذلك، حين فازت جبهة الإنقاذ الإسلامية في الانتخابات بأغلبية ساحقة، وكانت النتيجة أن تدخل الجيش وألغى الانتخابات، وأدخل كثيراً من قيادات الجبهة البارزة السجون، وفتحت المعتقلات لألوف من الشباب. فهل تعي قيادات العمل الإسلامي ذلك، وتفيق من غفلتها وسذاجتها؟!

أنزل الله ، ويعلن بسلوكه العملي - في كل مناسبة - أنه يرفض التحاكم إلى  
شريعة الله؟!!

كيف يجوز له أن يشارك فيه ، فضلاً عن أن يقسم يمين الولاء له ،  
ويتعهد بالمحافظة عليه ، وعلى الدستور الذي ينبثق عنه ، والله يقول سبحانه :  
﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا  
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠] ،  
وهؤلاء حديثهم الدائم هو مخالفة شريعة الله ، والإعراض عنها ، ولا  
حديث لهم غيره ينتظره المنتظر حتى يخوضوا فيه! .. فكيف إذن يقعد  
معههم؟

كل ما يقال من مبررات : أننا نسمعهم صوت الإسلام .. أننا نعلن  
رفضنا المستمر للتشريع بغير ما أنزل الله .. أننا نتكلم من المنبر الرسمي  
فندعو إلى تحكيم شريعة الله .. كل ذلك لا يبرر تلك المخالفة العقدية  
الواضحة ...

والمزلق الثاني : هو تجميع القضية بالنسبة «للجماهير» ، إننا نقول  
للجماهير في كل مناسبة إن الحكم بغير ما أنزل الله باطل ، وإنه لا شرعية إلا  
للحكم الذي يحكم بشريعة الله .. ثم تنظر الجماهير فترانا قد شاركنا فيما  
ندعوها هي لعدم المشاركة فيه فكيف تكون النتيجة؟! ...

والمزلق الثالث : أن لعبة «الدبلوماسية» كما أثبتت تجارب القرون كلها ،  
لعبة يأكل القوي فيها الضعيف ، ولا يتاح للضعيف من خلالها أن «يغافل»  
القوي فينتزع من يده شيئاً من السلطان! ...

ومن ثم فإن الجماعات الإسلامية - الداخلة في التنظيمات السياسية

لأعداء الإسلام- هي الخسارة في لعبة الدبلوماسية، والأعداء هم الكاسبون! سواء بتنظيف سمعتهم أمام الجماهير بتعاون الجماعات الإسلامية معهم ، أو تحالفها معهم ، أو اشتراكها معهم في أي أمر من الأمور ، أو بتميع قضية الإسلاميين في نظر الجماهير»<sup>(١)</sup> .

«إنه لا بد من ارتياد الطريق الطويل . . المجهود الشاق . . البطيء الثمرة . . المستنفد للطاقة ، طريق التربية ، لإنشاء «القاعدة المسلمة» الواعية المجاهدة ، التي تسند الحكم الإسلامي حين يقوم ، وتظل تسنده لكي يستمر في الوجود بعد أن يقوم . .»<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فإن منهج التربية والإصلاح على ضوء عقيدة السلف الصالح لم يأخذ طريقه كما يجب أن يكون في ساحة العمل الإسلامي ، ومن ثم فلم يعد مستغرباً بعد ذلك أن تبطئ الثمرة ، وأن يتأخر النصر .

ولا ريب أن هذه الاختلافات «من حصيلة الماضي أكثر مما هي مؤشر للمستقبل ، من حصيلة الصحو بعد الغفوة الطويلة . . فحين يهب الناس من الغفوة الطويلة ويدركون ما أصابهم ، ويحاولون الخلاص ، وفي غيبة المرشد الذي تطمئن القلوب إليه وتنقاد له ، يمكن أن يحدث اختلاف وجهات النظر ، فهذا يرى طريق الخلاص من هنا ، وذاك يراه من هناك ، وثالث يرى غير هذين ، ولكن من خلال التجربة . . من خلال المعاناة . . يتضح رويداً رويداً أي الطرق أصح ، وأيها قمن بالوصول»<sup>(٣)</sup> .

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٦٢-٤٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٧ .



هذه أهم العقبات التي تواجه الصحوة من داخلها: استمرار للانحرافات العقدية والعلمية في حياة الأمة الإسلامية، وانتقال عدوى هذه الانحرافات إلى الصحوة نفسها مما يزيد الأمر صعوبة، ووقوع الخلاف وتفاقمه بين الجماعات الإسلامية، وعدول كثير منها عن المنهج الصحيح وهو التربية إلى الطرق السياسية المسدودة التي ما يزال كثير من زعمائها يصرون على الخوض فيها، رغم الفشل الذريع الذي جنوه على مدار نصف قرن تقريباً. هذا كله بالإضافة إلى ما تواجهه الصحوة من خارجها من كيد وحرب ومكر من قبل اعدائها المتربصين بها في كل مكان، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

فما اجتمع أعداء الإسلام على حربه كاجتماعهم في هذا العصر: اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون، كل هؤلاء الأعداء المتربصين يرمون الصحوة عن قوس واحدة، ويحاولون بكل ما أوتوا من إمكانيات مادية أن يقضوا عليها إلى الأبد، ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

«وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الاسلام جزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار»<sup>(١)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٩٥.

وما يقوم به أعداء الإسلام من تذبيح وتعذيب وتنكيل بدعاة الصحوة وشبابها - ليس إلا محاولة يائسة منهم لإطفاء نور الله في الأرض ، وإجهاض هذه الصحوة المباركة : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ ، ٣٣] .

وواجب على دعاة الصحوة أن يتجنبوا الصدام ما أمكنهم ذلك ، وأن لا يستخفنهم الذين لا يوقنون ، فيدخلوا في معارك هم الخاسرون فيها . وواجب عليهم أيضاً توحيد المنهج وإزالة أسباب الخلاف ، ولا يتم ذلك كما قلنا إلا بالرجوع إلى عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم ، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

ولا شك أن جمع كلمة المسلمين هدف عظيم ، بل هو من أعظم أصول الدين ، ولا ينكره إلا ضال أو جاهل ، لكن جمع المسلمين يجب أن يكون على الحق وعلى الكتاب والسنة ، والاعتصام بحبل الله ، لا على مجرد الشعارات الإسلامية الفارغة من الاعتقاد الحق <sup>(١)</sup> .

هذا هو الطريق ، طويل وشاق ، مليء بالعقبات ، محفوف بالمخاطر والصعوبات ، طريق يتطلب تضحيات جسيمة ، وأثماً باهظة من الدماء والأنفس والأموال ؛ إنه طريق الجنة : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] .



(١) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٥٣ .

ثانياً : المبشرات في طريق الصحوه ، وآفاق المستقبل :

على الرغم من عظم الانحرافات العقيدية والعلمية السيئة وآثارها العظيمة ، وعلى الرغم من كثرة العقبات وضخامة الصعوبات في طريق الصحوه ، وعلى الرغم من تواطؤ قوى الكفر والشر في الأرض لضرب الصحوه والقضاء عليها ، إلا أننا نقول وثقتنا بالله وحده دون سواه أن المستقبل لهذا الدين وأن العاقبة للمتقين ، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] .

ومع استضعاف الفئة المؤمنة في الأرض ، وعلو القوى الشريرة وإفسادها ، تأتي المنة الإلهية والمنحة الربانية فتجعلهم أئمة يرثون القوى الكبرى التي بادت ، وتمكن لهم دينهم في الأرض ، ويقوم حكم الله في العالم ، ويأتي أمره الذي لا غالب له ، وهو ما كانت تحذر منه هذه القوى وتعمل بكل ما أوتيت من قوة وبطش لطمسه والحيلولة دون وقوعه ، ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمكن لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥ ، ٦] ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ، ١٠٦] .

فهذا الاستضعاف للمؤمنين ، وذاك العلو والتكبر والإفساد للكافرين في حد ذاته بشارة للصحوه الإسلامية التي استضعف دعايتها وشبابها أيما استضعاف ، فما بعد هذا الاستضعاف بإذن الله عز وجل إلا النصر والتمكين ونيل الإمامة والقيادة في الأرض ، ولا يتم ذلك بغير الصبر واليقين ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] ،

فلتوقن الصحوه بنصر الله ، ولتصبر على ما تلقاه في ذات الله ، ولتكن بعد ذلك هادية بأمر الله . عندئذ يتحقق النصر ، ويتم لها التمكين في الأرض .

من المبشرات أيضاً : «اتساع القاعدة ، واتجاه مزيد من الشباب إلى الإسلام ، بحيث يصح أن يقال إن الإقبال على الإسلام أصبح تياراً ذاتياً عند الشباب ، لا يرتبط بالضرورة بنشاط جماعة معينة ، أو بوجود جماعة معينة ، إنما ينبعث تلقائياً في نفوس الشباب»<sup>(١)</sup> .

«و حين كان العمل منحصراً في جماعة معينة كان من السهل على الجهات المختصة أن تضرب تلك الجماعة ، فتعطل العمل الإسلامي . أما الآن فلم يعد ضرب جماعة معينة - ولا حتى الجماعات كلها - يقتل العمل الإسلامي ، الذي «ينبثق» دائماً في تشكيلات جديدة ، بعد ضرب التشكيلات القائمة في الساحة!»<sup>(٢)</sup> .

وتلك البشارة لعمر الله هي التي أرقّت العلمانيين وأقضت مضاجع الظالمين ، ومع كل تنكيل وضرب للصحوه الإسلامية وقتل المئات وسجن الآلاف وتعذيبهم تتسع دائرة الصحوه يوماً بعد يوم ، وتنبعث طلائعها المباركة في كل مكان ، ويعود إلى الإسلام أناس من مختلف المستويات قد أضناهم الشرود عن رحابه الطاهرة . وليست توبة كثير من الفنانين والفنانات هذه الأيام<sup>(٣)</sup> ، إلا من هذا النهر الجاري الذي تعجز قوى الكفر والشر عن إيقافه .

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٣٤ .

(٢) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٢ .

(٣) ذكرنا هؤلاء الطائفة مثلاً للرجوع إلى الإسلام لأنهم من أبعد الطوائف في المجتمع عن الدين ، فرجوع غيرهم من باب أولى .

«لقد صمد الإسلام في حياته المديدة لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية ، التي توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامي في كل مكان ، وكافح - وهو مجرد من كل قوة غير قوته الذاتية - وانتصر ، وبقي ، وأبقى على شخصية الجماعات والأوطان التي كان يحميها ، وهو مجرد من السلاح»<sup>(١)</sup> .

وهناك أيضاً دخول الكثيرين في الإسلام في كل أنحاء العالم قاطبة ، فما تكاد تغرب شمس يوم إلا وعشرات من الحائرين يدخلون في هذا الدين .

«إن العالم اليوم في حاجة إلى الإسلام . . . ومئات الألوف الذين دخلوا في الإسلام من أوروبا وأمريكا - وفيهم الأطباء والمهندسون والمفكرون وغيرهم من ذوي الحيشات في بلادهم - هم إشارة على الطريق . . إشارة إلى المستقبل»<sup>(٢)</sup> .

ففي مصر مثلاً بلغ عدد الذين جاءوا إلى لجنة الفتوى بالأزهر ليعلموا إسلامهم خلال عام واحد ستمائة أجنبي ما بين رجل وامرأة ، يمثلون مختلف جنسيات الدنيا ، أجمع الكل على أن الباعث الأول وراء اعتدائهم هو التيقن بأن الإسلام هو الدين الصحيح ، يحمل بين طيات تعاليمه وأحكامه كل ما يكفل بسعادة البشرية<sup>(٣)</sup> .

---

(١) المستقبل لهذا الدين ص ٩٠ سيد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة التاسعة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٢) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٣٦ .

(٣) المد الإسلامي الباهر ص ١٥ مصطفى فوزي غزال . شركة دار القبلة . جدة . الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

هذا عدا دخول الأقباط في الإسلام الذي تحاول الكنيسة الأرثوذكسية عرقلته دائماً<sup>(١)</sup> .

أما دار تبليغ الإسلام التي يقوم عليها الداعية المصري المهندس «محمد توفيق أحمد»، فقد كانت آخر بطاقة دخل صاحبها في الإسلام لرجل هولندي تحمل الرقم ٣٣٣٤<sup>(٢)</sup> .

من المبشرات ايضاً ما : «يتمثل في فشل النظم المستوردة في حل مشاكل الناس ، وفشل الزعماء العلمانيين في تحقيق ما كانت الأمة تعلقه عليهم من الآمال . فهذا هو الواقع المشهود بعد قرن كامل من استيراد النظم من غرب أوروبا أو شرقها على السواء ؛ ضعف متزايد من جانب المسلمين وقوة متزايدة وعدوان مستمر من جانب الأعداء»<sup>(٣)</sup> .

لقد أدرك الكثيرون حقيقة هذه الشعارات الزائفة التي طالما خدعت بها الشعوب ، وضللت بها الجماهير . «وحين ييأس الناس من هذه النظم ومن هذه الزعامات . . فإلى أين يتجهون؟ إنه رافد للصحة الإسلامية لا يمكن وقفه!»<sup>(٤)</sup> .

انهيار الشيوعية ، وسقوط المعسكر الشرقي أو الاشتراكي من المبشرات . «فقد كانت الشيوعية فتنة لكثير من الشباب في العالم الإسلامي ، بل كانت أمريكا ذاتها تستخدم الشيوعية - في مناطق نفوذها - لتحارب لها الإسلام ! وكانت تضع وسائل الإعلام في أيدي الشيوعيين ليشوهوا صورة الإسلام في

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠ . نقلاً عن منار الإسلام ، شوال ١٤٠٧هـ / ١٠٨ .

(٣) واقعنا المعاصر ص ٥٣٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٣٩ .

نفوس الشباب ويفتنوهم عنه . ومهما يكن في جعبة اليهود - مبتدعي الشيوعية - من بدائل لفتنة الناس عن الدين ، فإن انهيار النظام الذي كان قائماً على الإلحاد ، هو دفعة للاتجاه الديني في الأرض كلها ، ودفعة للتيار الإسلامي في أرض الإسلام»<sup>(١)</sup> .

وبعد أن انهار المعسكر الشرقي ، نحن في انتظار انهيار المعسكر الغربي ، حيث الحضارة الغربية قد هرمت وشاخت وهي على وشك السقوط وحافة الانهيار بعد أن ظهرت أماراته ودلائله . وقد تصايح كثير من زعماء تلك الحضارة وأنذروا قومهم بسوء المصير . فهذا الرئيس الأمريكي «ويلسون» يكتب قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالاً جاء فيه : «إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية ، إلا إذا استردت روحانيتها»<sup>(٢)</sup> ، ولم يعد عند النصرانية المحرفة من الروحانية ما تسعف به هذه الحضارة المتداعية .

«وحقيقة إن الحضارة الغربية المسيطرة اليوم على البشرية لن تنهار بالسرعة التي يتخيلها بعض الناس حين نتكلم عن الانهيار ؛ لأنها تحمل من أسباب القوة والإيجابية ما يؤخر الانهيار المحتوم . . تحمل قوة العلم وقوة الصبر والجلد على العمل ، وعبقورية التنظيم ، والروح العملية في دراسة المشاكل والبحث لها عن حلول ، وتحمل تيسيرات نافعة في كثير من جوانب الحياة ، تحاول أن ترفع الجهد عن كاهل الإنسان وتحمله للآلة . وكل هذه قوى تمسك بالكيان المتساقط وتمنعه من السقوط السريع ، رغم كل «الأوزار» التي تدفع به إلى الانهيار .

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٤ . ولا يخفى ما كان للجهاد الأفغاني من دور في تهاوي الشيوعية كما اعترف نيكسون نفسه في كتابه الأخير «اغتنموا الفرصة» . انظر : لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٧٧ .

(٢) المستقبل لهذا الدين ص ٧٣ . انظر : صيحات الخطر . والمخلص في نفس الكتاب .

نعم . . ولكنها - كلها - لا تستطيع أن تحول دون النهاية المحتومة . . لأنها من سنة الله»<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن ما يعج به ذلك الماخور العظيم من خواء روحي ، وقلق نفسي ، وأمراض نفسية وازدياد نسبة الجنون والانتحار والطلاق والإجهاض ، وارتفاع معدلات الجريمة والاغتصاب والقتل والسرقة والاختطاف وجنوح الأحداث ، وفشو المخدرات والشذوذ الجنسي وانتشار الأمراض الفتاكة . كل تلك الظواهر الخطيرة جدرة بإيقاف ذلك الماخور وتحطيم عجلته وانحداره إلى هاوية الهلاك<sup>(٢)</sup> . وكل هذا إن شاء الله يصب في رصيد الحركة الإسلامية في المستقبل التي ينتظر منها أن ترث الأرض بعد أن تزول تلك الحضارة الجاهلية ، وتقود البشرية من جديد .

من المبشرات أيضاً وإن كان يرى لأول وهلة أنه ضد الصحة وهكذا أريد له فعلاً : «الوجود الإسرائيلي ذاته ، الذي قصد به أن يكون بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد أن ينهض ، وهي اليوم قائمة بعملية الوخز على أشبع صورة . . ولكن ما الأثر المتوقع حين يشتد الوخز؟ إن الذي يتوقع هو أن يهب العملاق - من شدة الألم الذي يحدثه الوخز - ليكيل الضربة لمن يخزه ، وذلك حين يصبح الألم أشد من الاحتمال ، ويصبح خطر التعرض للموت أهون عند صاحبه من استمرار الآلام .

إن اليهود يتصرفون اليوم بحماقة ضد صالحهم وهذا أمر مشهور عنهم

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٥٣٨ .

(٢) انظر : «الإنسان ذلك المجهول» للدكتور ألكسيس كاريل . و«حرب أم سلام» للمستتر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة . وانظر : نموذج واحد للمأساة في كتاب «العلمانية» ص ٤١٦ .



في التاريخ : أنهم يظلون يتمادون في صلفهم وعجرفتهم حتى يضيعوا ما بأيديهم وهم اليوم يلعبون بالنار في المنطقة ، ويعملون على إثارة الروح الإسلامية التي جيء بهم لإخمادها»<sup>(١)</sup> .

وليس أدل على ذلك من انبعاث الانتفاضة الإسلامية في الأرض المحتلة لا ترى بغير الجهاد تحريراً للمسجد الأقصى وفلسطين المغتصبة ، وعجز اليهود عن القضاء عليها .

كل هذه المبشرات توحى بأن المستقبل للإسلام وأن العاقبة للصحة الإسلامية ، هذه المبشرات ما كانت لتحمل في ثناياها البشرى لولا الوعد الصادق والبشارة الحقيقية من الله عز وجل في كتابه العظيم وسنة النبي الكريم ﷺ بنصر هذه الأمة وتمكين دينها في الأرض .

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] .

وقال عز وجل : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] .

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة في هذا المعنى والتي قدمنا طرفاً منها .  
أما البشارات الصادقة التي بشر بها الصادق المصدوق ﷺ فنذكر منها :  
قوله ﷺ : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٣ .

ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر»<sup>(١)</sup> .

حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «إن الله زوى - أي جمع وضم - لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً ، قال : قال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ : «مدينة هرقل تفتح أولاً» . يعني القسطنطينية<sup>(٣)</sup> .

قال الشيخ «الألباني» : «وقد تحقق الفتح الأول على يد «محمد الفاتح» العثماني كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانئة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ، ولتعلمن نبأه بعد حين»<sup>(٤)</sup> .

عندما تسقط روما عاصمة الفاتيكان تحت الفتح الإسلامي المرتقب ،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٢٤٧/٨ . وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/١ .

(٢) رواه مسلم برقم ٢٨٨٩ كتاب الفتن وأشرط الساعة . باب هلاك الأمة بعضهم ببعض ٢٢١٥/٤ .

(٣) رواه الإمام أحمد ١٧٦/٢ ، والحاكم ٥٠٨/٤ ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٤) .

(٤) السلسلة الصحيحة ٨/١ .

تتهاوى معاقل النصرانية معقلاً بعد معقل ، وتذك دول الصليب دولة بعد دولة ، وما ذلك على الله بعزيز .

أما المعركة الفاصلة مع اليهود فيخبر عنها الرسول ﷺ بقوله : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم، يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»<sup>(١)</sup> ..

هذا الوعد الصادق من النبي ﷺ تكاد نراه في قول الله عز وجل في سورة الإسراء : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤]

ومع أن جمهور المفسرين فسروا ذلك بالمجيء في الدار الآخرة، فإن ذلك لا يمنع أن نقول استناداً إلى الحديث السابق أن هذه الآية الكريمة تكاد تحكي الواقع الآن، فإن اليهود الذين شردوا في الأرض هكذا في الأرض مطلقاً، في كل أنحائها ودولها، لتشتد هجرتهم وتتلاحق عودتهم إلى أرض المعركة الفاصلة بإذن الله عز وجل .

( جئنا بكم لفيفاً ) هذه الهجرات الجماعية المتواصلة من قبل اليهود والتي يستमितون في عملها واستمرارها هي أمارات المعركة القادمة، وهي طلائع الوعد الصادق ، وعد الآخرة . عند ذلك يتحقق ما أخبر به النبي ﷺ من عودة الخلافة التي تكون على منهاج النبوة : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن

---

(١) رواه البخاري بنحوه في كتاب الجهاد باب قتال اليهود برقم ٢٩٢٦ (الفتح ١٠٣/٦) .

ورواه مسلم بهذا اللفظ برقم ٢٩٢٢ كتاب الفتن ٤/٢٢٣٩ ، وزاد مسلم في هذه الرواية قوله : « إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» .

تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها ، إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة . ثم سكت»<sup>(١)</sup> .

وكما عرفنا كثرة العقبات وضخامتها لابد أن «نعرف من جانب آخر أن المبشرات أكبر من العقبات . الصحوة ذاتها آية من آيات الله ، بعد كل ما أصاب الأمة من انحراف ، وكل ما كاده الأعداء من كيد ، إن الناظر إلى جسامه الانحرافات التي وقعت فيها الأمة ، حتى أفرغت لا إله إلا الله من محتواها الحي كله ، فأصبحت مجرد الكلمة التي تنطق باللسان ، والناظر إلى جسامه الكيد الذي كاده الأعداء للأمة الإسلامية في القرون الأخيرة ، والقرن الأخير خاصة ؛ كان يجزم أن هذه الأمة لن تعود أبداً ، وأن هذا الدين قد انتهى من الأرض ! ولكن قدر الله الغالب كان عكس ذلك . . كان هو الصحوة الإسلامية !

والمسافة التي قطعتها الأمة - أو قطعتها الصحوة الإسلامية - من الخواء الميئ إلى الحركة الحية مسافة هائلة في حقيقة الأمر . فإذا قلنا اليوم إن الشوط مازال بعيداً ، فليس هو أبعد في حقيقته من الشوط الذي قطعه بالفعل . وفرق بين الجهد المبذول لإيقاظ النائم من غفوته ، ووضع قدميه على الطريق ، وبين الجهد المطلوب لترشيد حركته ، وبث مزيد من النشاط فيها»<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه الإمام أحمد ٤/ ٢٧٣ . انظر السلسلة الصحيحة ٨/ ١ .

(٢) لا إله إلا الله . عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٧٧ .

إن الحديث عن المبشرات في خضم هذا الواقع المليء بالعقبات، وفي الوقت الذي يستضعف فيه المسلمون شرقاً وغرباً، وتتألب قوى الكفر والنفاق على وأد هذه الصحوة الإسلامية وطمس معالمها؛ قد يكون منساقاً مع العواطف التي تجيش في النفوس المؤمنة التي ضاقت عليها الأرض بما رحبت، ولكنه الحق على أي حال.

وما أجمل تمثيل الأستاذ «سيد قطب» رحمه الله تعالى في هذا المقام الذي تكاد هذه المبشرات أن تفقد شعاعها الساطع على صخور العقبات العنيفة بقصة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي رضي الله عنه؛ حيث يقول بعد أن بين أن المستقبل لهذا الدين: «ولا حاجة بنا إلى المضي في تأكيد هذه الحقيقة على هذا النحو. فنكتفي في هذا الموضع بعرض عبرة من الواقع التاريخي للإسلام، لعلها أنسب العبر في هذا المقام:

بينما كان «سراقه بن مالك» يطارد رسول الله ﷺ وصاحبه أبا بكر رضي الله عنه - وهما مهاجران خفية عن أعين قريش . . . . وبينما كان سراقه يعثر به فرسه كلما هم أن يتابع الرسول وصاحبه، طمعاً في جائزة قريش المغرية التي رصدتها لمن يأتيها بمحمد وصاحبه أو بخبر عنهما، وبينما هو يهم بالرجوع - وقد عاهد النبي ﷺ - أن يكفيهما من وراءه، في هذه اللحظة قال النبي ﷺ: «ياسراقه، كيف بك وسواري كسرى؟»<sup>(١)</sup> . . . يعده سواري كسرى شاهنشاه الفرس! (ملك الملوك) والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي

---

(١) قصة سراقه أصلها في الصحيح. رواها البخاري برقم ٣٩٠٦. وليس فيها خبر سواري كسرى. وروى الحافظ البيهقي قصة السوارين وإلباس عمر إياهما لسراقه في دلائل النبوة ٣٢٥/٦. وذكرها الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب ١٢٠/٢، والحافظ ابن حجر في الإصابة ١٩/٢، والحافظ ابن كثير في البداية ٦٩/٧.

دارت في رأس سراقه ، حول هذا العرض العجيب من ذلك المطارد الوحيد، إلا من صاحبه الذي لا يغني شيئاً عنه والمهاجر سراً معه !

ولكن الرسول ﷺ كان عارفاً بالحق الذي معه ، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك . . وكان واثقاً من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل وأنه لا يمكن أن يوجد «الحق» في صورته هذه ، وأن يوجد «الباطل» في صورته هذه ، ثم يكون ما يكون ! كانت الشجرة القديمة قد تأكلت جذورها كلها ، بحيث لا يصلها ري ولا سماء . . . كانت قد خبثت بحيث يتحتم أن تجث . . وكانت البذرة الطيبة في يده هي المعبأة للغرس والنماء . . وكان واثقاً من هذا كله ثقة اليقين .

نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته ، وكل سماته ، مع الجاهلية كلها من حولنا . . فلا يجوز - من ثم - أن نقصنا اليقين في العاقبة المحتملة ، العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا ، على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا . إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج ، ليست بأقل من حاجتها يومذاك ، وإن هذا المنهج اليوم - بالقياس إلى كل ما لدى البشرية من مناهج - لا يقل عنه يومذاك .

ومن ثم ينبغي ألا يغالبنا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لا بد أن يقع ، ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك ، بسبب ما نراه من حولنا من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان»<sup>(١)</sup> .

حقاً إنه تمثيل جميل ، وما أشبه الليلة بالبارحة ! حين يعطي النبي ﷺ

---

(١) المستقبل لهذا الدين ص ٩٣ .

وهو الطريد الشريد ذلك الوعد العظيم لأعرابي في الصحراء ! إننا نذكر  
المبشرات في تلك الحقبة السوداء من التاريخ التي تعصف فيها الأحداث  
الهائلة بالأمّة الإسلامية ، وتتكالب قوى الكفر والنفاق والشر لخنق الصحوّة  
ويدب اليأس إلى نفوس الكثيرين في خلال تلك الفتن العصبية ، وتزلزل  
الفئة المؤمنة زلزالاً شديداً - اقتداءً ببشارة المصطفى ﷺ لسراقة بن مالك في  
أشدّ مراحل الاستضعاف في تاريخ الدعوة النبوية .

إن الصحوّة يجب أن تنطلق في تعاملها مع الأحداث وهي تنظر إلى  
العقبات والمبشرات في آن واحد - تنظر إلى العقبات دون تفريط في الحساب  
لها ، وتنظر إلى المبشرات دون إفراط في الاعتماد عليها ، لا تطغى نظرة على  
نظرة . وإن كانت المبشرات هي الأوفى ميزاناً والأصدق عاقبة ، وكذا ينبغي  
أن تكون هي اليقين الذي لا يخالطه ريب عند دعاة الصحوّة وشبابها .  
ولكن الطريق طويل ، والمرحلة عسيرة ، والعقبات كثيرة ، ولكن الله قضى  
بنصر الدين وتمكين عباده المؤمنين : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .







## الخانمة

أحمدك يا رب على ما أنعمت به من إتمام هذه الرسالة ، ويسرت إخراجها على هذه الصورة ، فلك الحمد حتى ترضى . وقد توصلت فيها إلى نتائج كثيرة من أهمها :

١ - أن الانحرافات العقدية والعلمية قد ظهرت مبكراً وإن كان في وقت ظهورها تفاوت وكانت دائرتها تتسع مع مرور الزمن ، حتى أناخت بكلكلها الثقل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين .

٢ - أن الأمة كانت قوية ومتقدمة ومتصدرة للعالم حين كانت متمسكة بدينها محافظة على عقيدتها ، وأنها لم تضعف وتقهقر إلا حين فرطت في دينها ، وانحرفت في عقيدتها، وأن ما وقع من انحرافات في تلك الفترة يفوق كل تصور .

٣ - أن انحصار الإسلام في العبادة بمفهومها الضيق كان انحرافاً خطيراً حدث في الأمة وكان ذا آثار سيئة في حياتها ، وكذلك ما وقع من انشعاب وتصدع في فهم حقيقة الإسلام .

٤ - أن الفكر الإرجائي من أخطر الانحرافات التي وقعت في الأمة - إن لم يكن أخطرهما على الإطلاق - ، وحسبنا أن زمر المرتدين الذين يحكمون بغير ما أنزل الله قد أمنوا على أنفسهم في ظلال ذلك الفكر الباطل ، ولهذا عظم ذم السلف للإرجاء .

- ٥ - أهمية عقيدة الولاء والبراء في حياة الأمة ، وإن الأمة لم تسقط فريسة للغزو الفكري ، وتصبح تابعة لقوى الشر والكفر ، إلا بعد أن حطمت تلك العقيدة في نفوس المسلمين على أيدي العملاء من المنتسبين إليها .
- ٦ - أن عقيدة أهل السنة والجماعة قد أصبحت في تلك الفترة غريبة ومحاربة من جماهير الأمة ، وكان لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من تلك الحرب والعداوة أوفر الحظ والنصيب .
- ٧ - أن الدين قد تحول عند كثير من الناس إلى عبادة الأضرحة والأولياء وإلى التصوف بطرقه وأذكاره وبدعه ، وكان التفاخر بهما هو ما تتنافس فيه البلدان ، ويتجارى فيه الناس .
- ٨ - أن الحالة العلمية في تلك الفترة كانت ضعيفة للغاية ، وكانت أبرز علامات الضعف تنحصر في جمود مناهج التعليم ، وفي التعصب المذهبي ، وفي رفض إعادة فتح باب الاجتهاد .
- ٩ - أن الفرق المعادية لأهل السنة كالشيعة على اختلاف فرقها قد ازداد نشاطها في تلك الفترة ، وكان تعاونها مع الاستعمار وعملها لحسابه سبباً في سيطرتها على كثير من المراكز الحساسة في بعض الدول الإسلامية ، وعلى عجلة الاقتصاد فيها .
- ١٠ - أن موقف العلماء في تلك الفترة لم يكن على المستوى المطلوب ، بالإضافة إلى عزوف كثير من العلماء عن المشاركة في الأحداث التي كانت تعصف بالأمة ، ومع مشاركة بعضهم فيها إلا أنها لم تكن مشاركة فعالة .

١١ - أن وجوه الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والأخلاقي والاجتماعي والعلمي لم تكن هي الأسباب الجذرية لتخلف المسلمين كما يتصور الكثيرون ، إنما هي آثار ترتبت على سوء الأحوال العقدية والعلمية عندهم ، وانحرافهم عن هدى ربهم . وكذلك الاستعمار والتنصير والغزو الفكري ، كل تلك كانت من الآثار التي ترتبت على سوء تلك الأحوال عند المسلمين ، ولا يمكن القضاء على هذه الآثار ما لم يتم القضاء على الأسباب التي أفرزتها .

١٢ - أن الجوانب الأخلاقية والاجتماعية لم تسقط تحت وطأة غارات الغزو الفكري إلا بعد أن تحولت إلى عادات رتيبة وتقاليد خاوية ، وفقدت روحها وصلتها بالعقيدة .

١٣ - أن رحيل الاستعمار عن الوطن الإسلامي لم يكن إلا ظاهرياً في أغلب الأحيان .

١٤ - أن الأثر العظيم الذي أحدثته دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تمثل في تبوء المنهج السلفي مكانة مرموقة في فكر شباب الصحوة الإسلامية .

١٥ - أن ما جرى عليه كثير من الباحثين من نسبة كل الحركات والجماعات إلى التأثير بدعوة الشيخ لا صحة له على الإطلاق ، وأن هذه النسبة الخاطئة تستخدم أحياناً لتبرير انحرافات هذه الحركات وتغطية مساوئها .

١٦ - أن أهم العقبات في طريق الصحوة تتمثل في استمرار الانحرافات العقدية والعلمية ، التي لم تنج من غائلتها كثير من الجماعات الإسلامية التي كان يفترض فيها أن تصحح هذه الانحرافات وتقومها .

١٧ - أنه بالرغم من ضخامة العقبات وكثرتها ، إلا أن هناك من المبشرات الشرعية والمحسوسة ما يبشر بأن المستقبل للإسلام ، وأن النصر سيكون للصحة الإسلامية .

وهناك نتائج أخرى عرضنا لها في ثنايا البحث ولم نذكرها في هذه الخاتمة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين .



# الفهارس

فهرس المراجع والمصادر

فهرس الموضوعات



## حرف الالف

- أئمة اليمن في القرن الرابع عشر للهجرة : محمد بن محمد بن زبارة .  
المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٧٦ هـ .
- الإبانة عن أصول الديانة : أبو الحسن الأشعري . طبعة الجامعة الإسلامية  
١٤٠٥ هـ .
- الإبداع في مضار الابتداع : علي محفوظ . دار الاعتصام . القاهرة الطبعة  
السابقة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
- ابن باديس، حياته وآثاره : د. عمار الطالبي . الجزء الأول . دار الغرب  
الإسلامي . بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ابن تيمية السلفي : د. محمد خليل هراس . مكتبة الصحابة بطنطا .  
الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : د. محمد محمد حسين . دار  
الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان : أحمد بن أبي الضياف .  
تحقيق أحمد عبد السلام . الطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٩٧١ هـ .
- أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية : خادم حسين  
إلهي بخش . دار حراء . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر : د. سيد محمد موسى . مطابع  
المدني بمصر ١٣٩١ هـ .

أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية : د عبد الحميد ميهوب . دار  
الكتاب العربي . القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

أحكام القرآن : ابن العربي . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة  
الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

أحمد بن عرفان الإمام المجاهد الشهيد : سعيد الأعظمي الندوي . دار  
القلم . دمشق . بيروت ط ٢ ١٣٩٨ م - ١٩٧٨ م .

إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي . دار الكتب العلمية . بيروت  
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام : دراسة مقارنة على ضوء الإسلام .  
محمد الناصر . دار الرسالة . مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ : محمود عبد الحليم . دار  
الدعوة . الإسكندرية .

أدب الطلب : الإمام محمد بن علي الشوكاني . مركز الدراسات  
والأبحاث اليمنية . صنعاء ١٩٧٩ م .

الأدب المصري في ظل الحكم العثماني: محمد سيد كيلاني . دار  
الفرجاني . القاهرة . ط ١٩٦٥ م .

الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف: الأمير شكيب  
أرسلان . تعليق الشيخ محمد رشيد رضا .

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: الإمام محمد بن علي  
الشوكاني . دار الفكر .



- إرواء الغليل في تخرّيج أحاديث منار السبيل : الشيخ ناصر الدين الألباني .  
المكتب الإسلامي . بيروت . دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- الأزهر تاريخه وتطوره : وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر . مطابع  
الشعب . ط ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .
- استامبول وحضارة الخلافة الإسلامية : برنارد لويس . تعريب وتعليق  
د. سيد رضوان علي . الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة . الرياض .  
الدمام . الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- الاستعمار الفرنسي في مراكش ( المغرب الأقصى ) : محمد عبد العالي  
جلال . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .
- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام : د. علي عبد الواحد وافي .  
دار نهضة مصر . القاهرة .
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : أحمد بن ناصر السلاوي . المطبعة  
المصرية ١٣١٢هـ .
- الإسلام في القرن العشرين : عباس محمود العقاد .
- الإسلام والحضارة الغربية : د. محمد محمد حسين . دار الرسالة . مكة  
المكرمة . الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- الإسلام والمذاهب الفلسفية : د. مصطفى حلمي . دار الدعوة .  
الإسكندرية . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- الإسلاميون وسراب الديمقراطية ، دراسة أصولية لمشاركة الإسلاميين في  
المجالس النيابية - الجزء الأول : عبد الغني بن محمد الرحال . المؤمن للنشر  
والتوزيع . الرياض الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

الإصابة في تمييز أسماء الصحابة : الحافظ ابن حجر العسقلاني . دار  
الفكر . بيروت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .

إصلاح المساجد من البدع والعوائد : العلامة جمال الدين القاسمي . خرج  
أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي . بيروت .  
الاعتصام : أبو إسحاق الشاطبي . تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا . دار  
المعرفة . بيروت .

الأعلام : خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة  
الثامنة ١٩٨٩م .

الإعلام بمن حل مراكز وأغمات من الأعلام : العباس بن إبراهيم  
السملالي . الطبعة الملكية . الرباط ١٩٧٤م .

أعلام العراق : محمد بهجت الأثري . المطبعة السلفية ومكتبتها .  
القاهرة ١٣٤٥هـ .

أعلام المغرب العربي : عبد الوهاب منصور . المطبعة الملكية . الرباط  
١٣٩٨م-١٩٧٨م .

أعلام من طرابلس: علي مصطفى المصراتي . دار الفكر . طرابلس ليبيا .  
الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م .

أعيان القرن الثالث عشر : خليل مردم بك . لجنة التراث العربي . لبنان  
١٩٧١م .

إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: الحافظ ابن قيم الجوزية . تحقيق الشيخ  
محمد حامد الفقي . دار المعرفة . بيروت .

أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية : د. عبد الودود شلبي . الدار  
السعودية للنشر والتوزيع . جدة . الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .  
اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم : شيخ الإسلام ابن تيمية .  
تحقيق الشيخ محمد الفقي . دار المعرفة . لبنان .  
أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك : خير الدين التونسي .  
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون : إسماعيل محمد  
الباباني . دار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .  
أعيد التاريخ نفسه : محمد العبد . المتدى الإسلامي . لندن .  
١٤١١هـ .

## حرف الباء

البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر : محمود فهمي  
المهندس . مطبعة بولاق ١٣١٢هـ .  
بحوث ووثائق في التاريخ المغربي : تونس ، الجزائر ، ليبيا ، من ١٨١٦م -  
١٨٧١م : عبد الجليل التميمي . الدار التونسية للنشر الطبعة الأولى  
١٩٧٢م .  
البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير . تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم  
وآخرين . دار الكتب العلمية بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .  
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع : الإمام الشوكاني . مطبعة  
السعادة . ط ١ ١٣٨٤هـ .

بصمات الاستعمار في المجتمعات الإسلامية ، المشكلة والحل : يوسف  
البدرى . دار العدالة . القاهرة .

بلاد الشام في القرن التاسع عشر ، دراسة وتحقيق : د . سهيل ذكار . دار  
حسان للطباعة والنشر . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .

البلاد العربية والدولة العثمانية : ساطع الحصري . دار العلم للملايين .  
ط ١٩٦٥٣ م .

بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام :  
القاضي حسين بن أحمد العرشي . مطبعة البرتيري . القاهرة ١٩٣٩ م .

البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية : محمد بك فريد . المطبعة  
الأميرية ببولاق . ١٣٠٨ هـ .

## حرف التاء

تاريخ الأمم والملوك : الحافظ ابن جرير الطبري . دار الكتب العلمية .  
بيروت .

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق  
الأول : حسن السندوبي . مطبعة الاستقامة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨ م .

تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان . مطبعة الهلال . ط ١٩٣١ م .

تاريخ الأستاذ الإمام : الشيخ محمد رشيد رضا . مطبعة المنار . القاهرة .

تاريخ الإسلام في الهند : د . عبد المنعم النمر . دار العهد الجديد للطباعة .  
القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩ م .

تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح : الشيخ  
عبدالمعتز الصعيدي مطبعة الاعتماد بمصر . الطبعة الثالثة .

تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي . دار الكتب العلمية . بيروت .

تاريخ التعليم في عصر محمد علي : د. أحمد عزت عبد الكريم . مكتبة  
النهضة المصرية ١٩٣٨ م .

التاريخ الثقافي : د. حسن فقي . دار المعارف . مصر . الطبعة الثانية  
١٩٧١ م .

تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري : د. أبو القاسم  
سعد الله . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى ١٩٨١ م .  
تاريخ الحركة القومية : عبد الرحمن الرافعي . مكتبة النهضة المصرية .  
الطبعة الرابعة ١٩٥٥ م - ١٣٧٤ م .

تاريخ حضرموت السياسي : صلاح البكري . مطبعة البابي الحلبي وأولاده  
بمصر . الطبعة الثالثة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .

تاريخ الدولة العلية العثمانية : محمد فريد بك المحامي . تحقيق الدكتور  
إحسان حقي - دار النفائس . بيروت . الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

تاريخ السلطنة السنارية : أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة . دار إحياء  
الكتب . ١٩٦١ م .

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين : د. فيليب حتى . ترجمة د. كمال  
اليازجي . دار الثقافة . بيروت ١٩٥٩ م .

تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان . ترجمة نبيه فارس ومير  
البلعبيكي . الطبعة السادسة بيروت ١٩٧٤ م .

تاريخ العرب الحديث : العراق : د. عبد العزيز سليمان نوار. الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٦ م .

تاريخ الفقه الإسلامي : د. عمر الأشقر. مكتبة الفلاح . الكويت .  
الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢ م .

تاريخ المذاهب الإسلامية - الجزء الأول في السياسة والعقائد: الشيخ محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي .

تاريخ معرفة النعمان: محمد سليم الجندي . تحقيق عمر رضا كحالة .  
وزارة الثقافة والإرشاد القومي . مطبعة الترقى بدمشق ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣ م .  
تاريخ مكة : أحمد السباعي . دار الفريس ١٣٨٢هـ .

تاريخ نجد : العلامة محمود شكري الألوسي . المكتبة العربية . بغداد .  
المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٣هـ .

تاريخ ونظام التعليم في مصر : منير عطا الله وآخرون . القاهرة ١٩٧٢ م .  
تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن:  
عبد الواسع بن يحيى الواسعي . مطبعة حجازي القاهرة ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧ م .  
التبشير والاستعمار : د. عمر فروخ وصلاح الخالدي . المكتبة المصرية .  
التجانية : علي بن محمد الدخيل الله . دار طيبة . الرياض .

تحفة الزائر في تاريخ الجزائر: الأمير عبد القادر محمد عبد القادر  
الجزائري . دار اليقظة العربية . تعليق ممدوح حقي . الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ-  
١٩٦٤ م .

التحفة النبهاية في تاريخ الجزيرة العربية : محمد بن خليفة النبھاني .

منشورات مركز دراسات الخليج العربي جامعة البصرة ١٩٨٠ م ، مستل من  
الطبعة الثانية ١٣٤٢ هـ .

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة : أبو الريحان البيروني .  
التدمرية: شيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق محمد عودة السعوي . طبع  
شركة العبيكان . الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .  
تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوادث الزمان : الشيخ  
إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن . مطابع مؤسسة النور . الرياض . الطبعة  
الأولى .

ترجمة الأولياء في الموصل الحذباء : أحمد بن الخياط الموصللي . تحقيق  
سعيد الديوه جي . مطبعة الجمهورية الموصل ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .  
التصوف في مصر إبان العصر العثماني : د توفيق الطويل . مطبعة الاعتماد  
بمصر ط ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية : د ماجد عرسان الكيلاني دار ابن  
كثير . دمشق . بيروت . مكتبة دار التراث . المدينة المنورة . الطبعة الثالثة  
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

تفسير القرآن العظيم : الحافظ ابن كثير . دار الفكر . بيروت ١٤٠١ هـ -  
١٩٨١ م .

التفسير والمفسرون : د . محمد حسين الذهبي . دار إحياء التراث  
العربي . بيروت .

تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك السار : م . م .

الرمزي . الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ . المطبعة الكريمة والحسينية ببلدة أورنبورغ .

التوحيد : الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب .

التوحيد : الحافظ محمد بن خزيمة . دار الرشد . الرياض .

تونس العربية : د . إحسان حقي . دار الشمالي للطباعة . بيروت .

تيسير العلام شرح عمدة الأحكام : الشيخ عبد الله البسام . مكتبة ومطبعة

النهضة الحديثة بمكة المكرمة . مطبعة الحلبي بمصر ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

## حرف التاء

الثقافة الإسلامية - المستوى الرابع : الشيخ محمد قطب والشيخ محمد

المبارك والشيخ مصطفى كامل .

## حرف الجيم

جامع العلوم والحكم : ابن رجب الحنبلي . دار المعرفة . بيروت .

الجامع الفريد - مجموعة رسائل : تقديم الشيخ عبد الرزاق عفيفي . الطبعة

الثالثة ١٤٠٨ هـ . طبع على نفقة عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح . طبع

شركة العبيكان . الرياض .

جمال الدين القاسمي وعصره : ظافر بن محمد جمال الدين القاسمي .

المطبعة الهاشمية دمشق . الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

جوامع الموصل في مختلف العصور : سعيد الديوه جي . مطبعة شفيق .



بغداد ١٣٨٢هـ- ١٩٦٣ م .

## حرف الحاء

حاشية ابن عابدين : ابن عابدين . دار الفكر . الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ-

١٩٦٦ م .

حاضر العالم الإسلامي : د . جميل المصري . دار أم القرى . عمان .

الأردن الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩ م .

حاضر العالم الإسلامي : د . علي جريشة . دار المجتمع . جدة . ط ٣ .

١٤٠٨هـ- ١٩٨٨ م .

حاضر العالم الإسلامي : لوثرروب استودار الأمريكي . تعليق الأمير

شكيب أرسلان . ترجمة حجاج نويهض . ١٩٧٤ م .

الحجاب : أبو الأعلى المودودي . دار الفكر . بيروت .

الحراب في صدور البهاء والباب : محمد فاضل . دار المدني . جدة .

الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦ م .

حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ( ١٨٠٨م -

١٨٣٩م ) : د . محمد عبد اللطيف البحراوي . دار التراث . القاهرة الطبعة

الأولى ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨ م .

الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث : جمال

الدين الشيال .

الحركات الباطنية في العالم الإسلامي : د. محمد أحمد الخطيب . مكتبة  
الأقصى . عمان . الأردن الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

حصوننا مهددة من داخلها : د. محمد محمد حسين . دار الرسالة . مكة  
المكرمة . الطبعة الثانية عشرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

حقائق الأخبار عن دول البحار : إسماعيل سرهنك .

حقائق ووثائق - دراسة ميدانية عن الحركات التصيرية في العالم الإسلامي :  
د. عبد الودود شلبي . الدار السعودية للنشر . جدة ط ١ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٢م .

الحكومة الباطنية : د. حسن الشرقاوي . دار المعارف . القاهرة . الطبعة  
الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر : عبد الرزاق البيطار . تحقيق  
محمد بهجت البيطار . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٠هـ -  
١٩٦١م .

حول تطبيق الشريعة الإسلامية : الشيخ محمد قطب . مكتبة السنة .  
القاهرة الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

حياتي : أحمد أمين . دار الكتاب العربي . بيروت الطبعة الأولى  
١٩٦٩م .

الحياة السياسية عند العرب ، دراسة مقارنة على ضوء الإسلام : محمد  
الناصر . مكتبة السنة . القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

حياة الصحابة : محمد يوسف الكاندهلوي . دار الكتاب العربي .  
بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

## حرف الخاء

- خصائص التصور الإسلامي : الأستاذ سيد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة العاشرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة : علي باشا مبارك . دار الكتب . الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .
- خطط الشام : محمد كرد علي . دار العلم للملايين . بيروت ١٣٩٠ هـ .

## حرف الدال

- دراسات في الفرق الصوفية ، نشأتها وتطورها : محمد العبدية وطارق عبدالحليم . مكتبة الكوثر . الرياض الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .
- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية : د . عرفان عبد الحميد . مؤسسة الرسالة . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين « الخوارج والشيعة » : د . أحمد محمد جلي . الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م . مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية .
- الدرر السنية في الرد على الوهابية : أحمد بن زيني دحلان . ط ٤ ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م . مطبعة البابي الحلبي . القاهرة .
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور : زينب بنت فواز العاملي . دار المعرفة . الطبعة الثانية .
- دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام : مصطفى فوزي غزال . دار طيبة الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

- الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية:  
رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ  
- ١٤٠٧هـ - عبد الوهاب خليل الرحمان . مكتبة البحث العلمي .
- دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي : رسالة  
مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ  
للدكتور أحمد عطية الزهراني . مكتبة البحث العلمي .
- دلائل النبوة: للحافظ البيهقي . تحقيق عبد المعطي قلعجي . دار الكتب  
العلمية . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- دليل الأستانة : محمد شكري الناعمة . مطبعة جرجي غرزوزي .  
الإسكندرية ١٩٠٩م .
- الدولة السعودية الأولى : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . جامعة  
الدول العربية . معهد البحوث والدراسات الإسلامية ١٩٦٩م .
- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها : د. عبد العزيز الشناوي . مكتبة  
الأنجلو مصرية القاهرة . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م .
- الدولة العثمانية والمسألة الشرقية : د. محمد كمال دسوقي . دار الثقافة  
القاهرة ١٩٧٦م .
- الدين والمجتمع: دراسات ومحاضرات قدمت في ملتقى الندوة الإسلامية  
بالقيروان ١٩٧٧م . وزارة الشؤون الثقافية . تونس .

## حرف الذال

ذكرى أبي الشناء الألوسي : عباس العزاوي . شركة التجارة والطباعة .

الصالحية بغداد ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م .

ذكریات: أحمد علي . منشورات نادي الطائف الأدبي . الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ .

ذكریات (١، ٣، ٧) : علي الطنطاوي . دار المنارة . جدة .

## حرف الراء

رجال الفكر والدعوة في الإسلام : شيخ الإسلام ابن تيمية - الجزء الثاني: أبو الحسن الندوي . دار القبلة . الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

رحلات الإمام محمد رشيد رضا: جمع الدكتور يوسف أييش . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧١م .

رحلات عبد الوهاب عزام : الرسالة . الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م .

الرحلة الحجازية : محمد بن علي السنوسي . تحقيق علي الشنوفي . نشر الشركة التونسية للتوزيع ١٤٠١هـ .

الرحلة الحجازية : محمد ليبب البتونني . مطبعة المعارف . الناشر محمد سعيد كمال . الطائف . الطبعة الثالثة .

رحلة كنغليك إلى الشرق: ترجمة محمود العابدي . جمعية أعمال المطابع التعاونية عمان ١٩٧١م .

الرحلة اليمانية : شرف بن عبد المحسن البركاتي . بيروت . الطبعة الثانية .

الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض : الحافظ السيوطي . مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .

- رسالة تحكيم القوانين : الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .
- الروضة الغناء في دمشق الفيحاء: نعمان قسطلالي . دار الرائد العربي . بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م .
- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين : محمد بن عثمان القاضي . مطبعة الحلبي . القاهرة الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ- ١٩٨٩م .
- رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي - الجزء الأول مؤامرات الدويلات الطائفية : محمد عبد الغني النواوي . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م .
- رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر : الشيخ محمد قطب . دار الوطن . الرياض الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م .
- رؤية إسلامية للاستشراق : د. أحمد عبد الحميد غراب . المنتدى الإسلامي . لندن الطبعة الثانية ١٤١١هـ .
- رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع: الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي . مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٣م .

## حرف الزاي

- زاد المعاد في هدي خير العباد: الحافظ ابن قيم الجوزية . تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة بيروت . الطبعة السابعة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .
- زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية : ألفه في الأصل ياسين بن خير الله العمري وانتخب زبدته داود الحلبي . تحقيق وتعليق عماد عبد السلام رؤوف . مطبعة الآداب . النجف .

## حرف السين

سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه : عبد الكريم الخطيب . دار الأصاله .  
الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

سلسلة الأحاديث الصحيحة: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . المكتب  
الإسلامي . الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م . بيروت . دمشق .

السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده : أورخان محمد علي . دار  
الوثائق . الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية : موفق المرجة . مؤسسة صقر  
الخليج للطباعة . الكويت ١٩٨١م . الناشر أحمد عبد الله الفليج .

سنن ابن ماجه : الحافظ محمد بن يزيد بن ماجه القرويني . دار الفكر .

سنن الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي . تحقيق الشيخ أحمد  
شاكر . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ -  
١٩٧٨م .

سنن النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي . المكتبة العلمية .  
بيروت .

السنة : عبد الله بن أحمد بن حنبل . تحقيق الدكتور محمد بن سعيد  
القحطاني . دار ابن القيم . الدمام . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد: د. صلاح الخالدي . دار القلم .  
بيروت . ط الأولى ١٤١١هـ

سير أعلام النبلاء : الحافظ الذهبي . أشرف على التحقيق شعيب  
الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

## حرف الشين

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : محمد بن محمد مخلوف . دار  
الكتاب العربي . بيروت .

شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الدمشقي . تحقيق الدكتور عبد الله  
التركي وشعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ  
- ١٩٩٢ م .

الشرق الإسلامي في العصر الحديث : حسين مؤنس . مطبعة حجازي .  
القاهرة الطبعة الثانية ١٩٣٨ م .

شهر في دمشق : عبد الله بن خميس . مطابع الرياض ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

الشيخ محمد الحامد : عبد الحميد طهماز . دار القلم . بيروت الطبعة  
الأولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

## حرف الصاد

الصحافة والأقلام المسمومة : أنور الجندي . دار الاعتصام . القاهرة .

الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم : د . يوسف  
القرضاوي . دار الصحوة . القاهرة الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .



صحيح سنن ابن ماجه : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج . الرياض الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .  
صحيح سنن أبي داود : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج . الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .  
صحيح مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي . بيروت الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .

صحيح سنن النسائي : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج . الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .  
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية : أبو الحسن الندوي . دار القلم . الكويت الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .  
صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان : الشيخ محمد بشير السهسواني . تقديم الشيخ محمد رشيد رضا .

## حرف الضاد

ضعيف سنن ابن ماجه : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج . الرياض .  
ضعيف سنن الترمذي : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج . الرياض .

## حرف الطاء

طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب بن علي السبكي . تحقيق عبدالفتاح  
الخلو ومحمود الطناحي . عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الأولى .

## حرف الظاء

ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي: رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من  
قسم العقيدة بجامعة أم القرى للدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي . مكتبة  
البحث العلمي .

## حرف العين

العالم الإسلامي: محمود شاكر . المكتب الإسلامي . بيروت . دمشق  
الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ .

العبادة في الإسلام : د. يوسف القرضاوي . مؤسسة الرسالة . بيروت .  
الطبعة التاسعة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

عبد الله بن سبأ وأثره في الفتن الكبرى : د. سليمان العودة .

العبودية : شيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق خالد عبدالطيف العلمي . دار  
الكتاب العربي . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

العثمانيون في التاريخ والحضارة : د. محمد حرب . دار القلم . دمشق ط ١  
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

عجائب الآثار في التراجم والأخبار: الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . دار  
الفارس . بيروت .

عقد الدرر في أخبار المنتظر : يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي . دار  
الكتب العلمية . بيروت ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية : د. عثمان عبد المنعم عيش . مكتبة  
الأزهر ١٩٧٨م .

عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية : د. أحمد سعد حمدان . دار طيبة .  
الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي :  
د. صالح العبود . الجامعة الإسلامية . المدينة المنورة . المجلس العلمي لإحياء  
التراث الإسلامي الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

العقيدة في الله : د. عمر الأشقر . مكتبة الفلاح . الكويت . الطبعة  
الرابعة ١٩٨٣م .

عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين : عشرون رسالة لجمع من  
أئمة الدعوة . جمع وترتيب الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي . تقديم  
سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز . مكتبة الطرفين الطائف . الطبعة الأولى  
١٤١١هـ - ١٩٩١م .

العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤرخ الهند : د. قدرة الله الحسني . دار  
الشروق . جدة . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

العلمانيون والإسلام : الشيخ محمد قطب . دار الوطن . الرياض .  
الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ .

العلمانية : د . سفر بن عبد الرحمن الحوالي . الدار السلفية . الكويت  
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

عنوان المجد في تاريخ نجد : عثمان بن بشر . مكتبة الرياض الحديثة .  
عودة الحجاب - الجزء الأول معركة الحجاب والسفور : محمد بن  
إسماعيل . دار طيبة . الرياض الطبعة الرابعة .

## حرف الغين

الغارة على العالم الإسلامي : أ . ل شاتليه . ترجمة مجد الدين الخطيب  
ومساعد اليافي . الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة الطبعة الرابعة  
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

غاية الأماني في الرد على النبهاني : العلامة محمود شكري الألوسي .  
المطبعة العربية . لاهور ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام : د . فتح الله عبد الستار السعيد .  
دار الأنصار . القاهرة .

غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام : د . فتحي محمد الزغبى .  
مطابع غباشي . طنطا . مصر الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

## حرف الفاء

فتح الباري شرح صحيح البخاري : الحافظ ابن حجر العسقلاني . أشرف

- على طبعه مجد الدين الخطيب . دار المعرفة . بيروت .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الإمام محمد بن علي الشوكاني . دار الفكر . بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- الفتح (مجلة) العدد ٢٥١ تاريخ ٣ محرم ١٣٥٠هـ . القاهرة .
- فجر الإسلام : أحمد أمين . دار الكتاب العربي . بيروت . ط ١١ ١٩٧٥م .
- فقه الخلاف مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي : جمال سلطان . مركز الدراسات الإسلامية برمنجهام . بريطانيا الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : د . محمد البهي . دار المعارف . مصر . الطبعة العاشرة ١٩٨٩م .
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : الشيخ محمد بن يوسف الحجوي تحقيق د . عبدالعزيز القاري . المكتبة العلمية . المدينة المنورة . الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ .
- الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا : أنور الجندي . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
- فلسفة التاريخ العثماني : محمد جميل بيهم . شركة فرج الله للمطبوعات . بيروت ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م .
- فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني : بسام العسلي . دار الفكر .
- في ظلال القرآن : الأستاذ سيد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

## حرف القاف

قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين - التحالف الصليبي الماسوني وضرب الاتجاه الإسلامي : د. سليمان بيومي . عالم المعرفة . جدة . الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية : د. سليمان محمد الغنام . دار تهامة ١٩٨٠ م .

قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها : د. محمد عبد القادر هنادي . مكتبة الطالب الجامعي . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٧٨ م .

القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى : الشيخ محمد الصالح العثيمين . دار الكتب السلفية ط ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

قواعد المنهج السلفي : د. مصطفى حلمي . دار الدعوة . الإسكندرية . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .

القول الحق في بيروت ودمشق : عبد الرحمن بك سامي . دار الرائد العربي . بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

## حرف الكاف

الكامل في التاريخ: عز الدين ابن الأثير . دار صادر . بيروت . ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

كتاب إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين : علي حسن عبد الحميد . مكتبة ابن الجوزي . الأحساء الهفوف . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية: أحمد عرابي الحسيني .  
مطبعة مصر . طبعة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ - ١٨٨٢ م .

كشف الشبهات: الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب . تعليق الشيخ  
محمد حامد الفقي . دار الثقافة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ -  
١٩٩٢ م .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة . دار الفكر  
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

الكشف عن حقيقة الصوفية : محمود عبد الرؤوف القاسم . دار  
الصحابة . لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

## حرف اللام

لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة: الشيخ محمد قطب . دار  
الوطن . الرياض الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

اللطائف المصورة: (مجلة) العدد (١٠٩٨) . القاهرة .

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم : الأمير شكيب أرسلان . تقديم  
الشيخ محمد رشيد رضا . مراجعة خالد فاروق . دار البشير . القاهرة  
مطابع المختار الإسلامي .

## حرف الهيم

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي . دار القلم .

الكويت . الطبعة الحادية عشرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

ماضي الحجاز وحاضره : حسين محمد نصيف . الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ .

مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية منها :  
د. ناصر عبدالكريم العقل . دار الوطن . الرياض . الطبعة الأولى .  
المجتمع الإسلامي : د. أحمد شلبي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٦٧م .

المجتمع الإسلامي المعاصر : الشيخ محمد المبارك . دار الفكر . بيروت ط ١  
١٣٩٠هـ - ١٩٧١م .

مجتمعنا المعاصر أسباب ضعفه ووسائل علاجه : د. عبد الله سليمان  
المشوخي . مكتبة المنار . الزرقاء . الأردن . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

مجموع الفتاوى : شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع وترتيب الشيخ  
عبدالرحمن بن قاسم العاصمي النجدي وابنه . طبع بأمر خادم الحرمين  
الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود . إشراف الرئاسة العامة لشؤون  
الحرمين الشريفين .

مجموعة التوحيد : تحتوي على ١٦ رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية  
والإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ونخبة من علماء المسلمين الأفاضل  
رحمهم الله . المكتبة السلفية . المدينة المنورة .

محاضرات في النصرانية : الشيخ محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي .  
بيروت .



مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر الرازي . دائرة المعاجم في مكتبة لبنان . بيروت ١٩٨٦ م .

مختصر الصواعق المرسلة : للشيخ الموصلي . من كتاب الصواعق المرسلة للحافظ ابن قيم الجوزية . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر : الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير . اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي . مطبوعات نادي الطائف الأدبي الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

المخلاف السليمانى تحت حكم الأدارسة : رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه إلى قسم التاريخ الإسلامى جامعة أم القرى للدكتورة أميرة علي مداح ١٤٠٦ هـ . مكتبة البحث العلمى .

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : الحافظ ابن قيم الجوزية . دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

المد الإسلامى الباهر : مصطفى فوزى غزال . دار القبله . جدة الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

مذاهب فكرية معاصرة : الشيخ محمد قطب . دار الشروق . القاهرة . ط ١ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

مذكرات الإمام محمد عبده : طاهر الطناحي . دار الهلال .

مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى : ترجمة محمد حرب الحميد . دار الوثائق . الكويت .

مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها : محمد رؤوف السيد طه  
الشيخلي . مطبعة البصرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

المرأة بين الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة على ضوء الإسلام : محمد الناصر  
وخولة درويش . دار الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

مرآة الحرمين : إبراهيم رفعت باشا . بدون تاريخ طبع واسم مطبعة .  
مساجد مصر وأولياؤها الصالحون : سعاد ماهر . مطبعة الأهرام التجارية .  
نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط ١٩٧١م .

المستدرك على الصحيحين : الحاكم النيسابوري . دار الكتب العلمية .  
المستقبل لهذا الدين : الأستاذ سيد قطب . دار الشروق . القاهرة الطبعة  
التاسعة . ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر : الشيخ محمود  
شكري الألوسي . تحقيق د . عبد الله الجبوري . دار العلوم للطباعة والنشر  
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

المسلمون في الاتحاد السوفيتي : شانتال كلججي والكسندر بينفس . تعريب  
الدكتور إحسان حقي . مؤسسة الرسالة . بيروت ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .  
المسلمون في معركة البقاء : د . عبد الحليم عويس . دار الاعتصام .  
القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية : عبد الله حمد الشبانة . دار طيبة .  
الرياض ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

المسند : الإمام أحمد بن حنبل . تحقيق أحمد شاكر .

- مشكلات الجيل في ضوء الإسلام : الشيخ محمد المجذوب ط ١٣٩٠ هـ .
- المعجم الأدبي : جبور عبد النور . دار العلم للملايين . بيروت ط ٢٠١٩٨٤ م .
- المعسول : محمد المختار السوسي .
- المغني : الإمام موفق الدين ابن قدامة . دار الفكر . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- مفاهيم ينبغي أن تصحح : الشيخ محمد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة السابعة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات : محمد عبد الرحمن المغراوي . دار طيبة . الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- مقالات الإسلاميين : أبو الحسن الأشعري . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .
- مقدمة ابن خلدون : دار إحياء التراث العربي . بيروت . الطبعة الرابعة .
- المقفى الكبير : العلامة المقرئ . تحقيق محمد البعلوي . دار الغرب الإسلامي . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- الملل والنحل : أبو الفتح الشهرستاني . دار الفكر . بيروت .
- مناداة الأطلال ومسامرة الخيال : العلامة عبد القادر بن بدران . المكتب الإسلامي . دمشق ١٣٧٩ هـ .
- من أخلاق العلماء : الشيخ محمد سليمان . بدون تاريخ طبع واسم مطبعة

من أعلام الفكر المعاصر: عبد الله الجراري .

منتخبات تواريخ دمشق : محمد أديب الحصني . دار الآفاق الجديدة .  
بيروت . الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ .

منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية : شيخ الإسلام ابن  
تيمية . تحقيق د. محمد رشاد سالم . جامعة الإمام محمود بن سعود  
الإسلامية الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

موسوعة مقدمات العلوم والمناهج - عالم الإسلام المعاصر: أنور الجندي .  
توزيع دار الأنصار . مطبعة التقدم القاهرة ١٩٧٧ م .

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : الندوة العالمية للشباب  
الإسلامي . الرياض الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية : حسان علي حلاق . جامعة  
بيروت العربية ١٩٧٨ م .

موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين : مصطفى صبري . دار إحياء  
التراث العربي .

## حرف النون

النבות: شيخ الإسلام ابن تيمية . دار الكتاب العربي . بيروت . ط ١  
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر : الشيخ عبد الحي الحسني . مطبعة  
مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن . الهند ١٣٧٨ هـ -  
١٩٥٩ م .

نشأة الفكر الفلسفي : د. علي سامي النشار . دار المعارف بمصر . الطبعة السابعة ١٩٧٧ م .

نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول: أبو الثناء الألوسي . مطبعة ولاية بغداد ١٢٩١ هـ .

نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام: أبو الثناء الألوسي . مطبعة ولاية بغداد ١٢٩٣ هـ .

النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل: محمد كمال الدين الغزي العامري وعليه زيادات واستدراكات حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري . تحقيق وجمع محمد مطيع الحافظ . نزار أباطة . دار الفكر . بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

نفحة البشام في رحلة الشام : محمد بن عبد الجواد القاياتي . دار الرائد العربي . بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

نفحة الرحمن في بعض مناقب سيدنا ومولانا وأستاذنا وشيخنا المرحوم السيد أحمد بن المرحوم السيد زيني دحلان : أبو بكر بن محمد شطا . القاهرة دار فينوس ١٣٠٥ هـ

نفحة العنبر في حياة إمام العصر أنور محمد يوسف البنوري: إدارة المجلس العلمي . كراتشي .

النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد : دار الخلفاء . الكويت . ط ١ . ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

نهر الذهب في تاريخ حلب : كامل بن حسين البالي الحلبي الغزي . المطبعة المارونية ١٣٤٢ هـ .

نيل الوطر من تراجم اليمن في القرن الثالث عشر : محمد بن محمد بن  
زبارة . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

## حرف الواو

واقعنا المعاصر : الشيخ محمد قطب . مؤسسة المدينة للصحافة . جدة .  
الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

وجاء دور المجوس - أحوال أهل السنة في إيران - الجزء الثالث : عبد الله  
محمد الغريب . الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

وجاء دور المجوس - الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية :  
عبدالله محمد الغريب . الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان . دار صادر . بيروت .  
الولاء والبراء : د . محمد بن سعيد القحطاني . دار طيبة . الرياض  
١٤٠٤ هـ .

الوهم والحقيقة في الفكر المصري الحديث : د . أحمد علي المجدوب .  
الزهراء للإعلام العربي . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

## حرف الهاء

هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن : الأمير أحمد فضل بن علي محسن  
العبدلي . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٥١ هـ .

## حرف الباء

يوم ١١ يوليه ١٨٨٢م : الأمير عمر طوسون . ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م .

يوميات الخليل : خليل مردم بك . مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

اليوميات الليبية : حسن الفقيه حسن . تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر . منشورات جامعة الفاتح مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي . الجماهيرية العربية الليبية ١٩٨٤م .

اليهود والماسون في مصر : د. علي شلش . الزهراء للإعلام العربي الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

انتهى والحمد لله.







## فهرس الموضوعات

### الباب الثاني

#### الانحرافات العلمية في القرنين الثالث عشر

#### والرابع عشر الهجريين

٧	..... الفصل الأول : المستوى التعليمي ومناهج التعليم
٩	..... حال العلوم الدنيوية ( التجريبية )
٢٧	..... حال العلوم الدينية (الشرعية) :
٢٩	..... * الاهتمام بالمختصرات
٣٤	..... * الشروح والحواشي والتقاريرات
٣٨	..... مناهج التعليم في العلوم الدينية وانحرافها وجفافها
٤٨	..... مناهج الأزهر
٥٤	..... عدم اهتمام العلماء بعلم الحديث
٥٨	..... * الإجازات
٦٤	..... * وراثة المنصب العلمي
٧١	..... الفصل الثاني : التعصب المذهبي
٧٣	..... التعصب في الجامع الأزهر
٧٩	..... أمثلة على التعصب المقيت بين أرباب المذاهب
٨٢	..... آثار التعصب
٨٩	..... الفصل الثالث : رفض إعادة فتح باب الاجتهاد
٩١	..... الأسباب التي دعت إلى القول بسد باب الاجتهاد
٩٤	..... دور الإمام الشوكاني في مقاومة تلك المشكلة
٩٦	..... حادثة المجتهدين في دمشق

٩٨	إيذاء المجتهدين .....
١٠٤	الآثار المترتبة على رفض إعادة فتح باب الاجتهاد .....

## الباب الثالث

### الآثار المترتبة على الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

١١١	تمهيد .....
	الفصل الأول : الآثار الداخلية ( تفشي الضعف في الأمة )
	ويحتوي على :
١١٥	أولاً : الضعف السياسي والحربي .....
١٤٠	ثانياً : الضعف الاقتصادي .....
١٦٠	ثالثاً : الضعف العلمي .....
١٧٦	رابعاً : الضعف الاجتماعي والأخلاقي .....
	الفصل الثاني : الآثار الخارجية
	ويحتوي على :
٢٠٩	أولاً : الاستعمار .....
٢٤٦	ثانياً : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم .....
٣٠٨	ثالثاً : النشاط التنصيري في العالم الإسلامي .....

## الباب الرابع

### الصحوة الإسلامية و آفاق المستقبل

الفصل الأول : أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العالم الإسلامي .....	٣٥٧
الفصل الثاني : الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر ويحتوي على :	
أولاً : العقبات في طريق الصحوة .....	٣٨١
ثانياً : المبشرات في طريق الصحوة وآفاق المستقبل	
الخاتمة .....	٤٢٥
فهرس المراجع والمصادر .....	٤٣١
فهرس الموضوعات .....	٤٦٥

